ثورة مصر سنة ١٩١٩

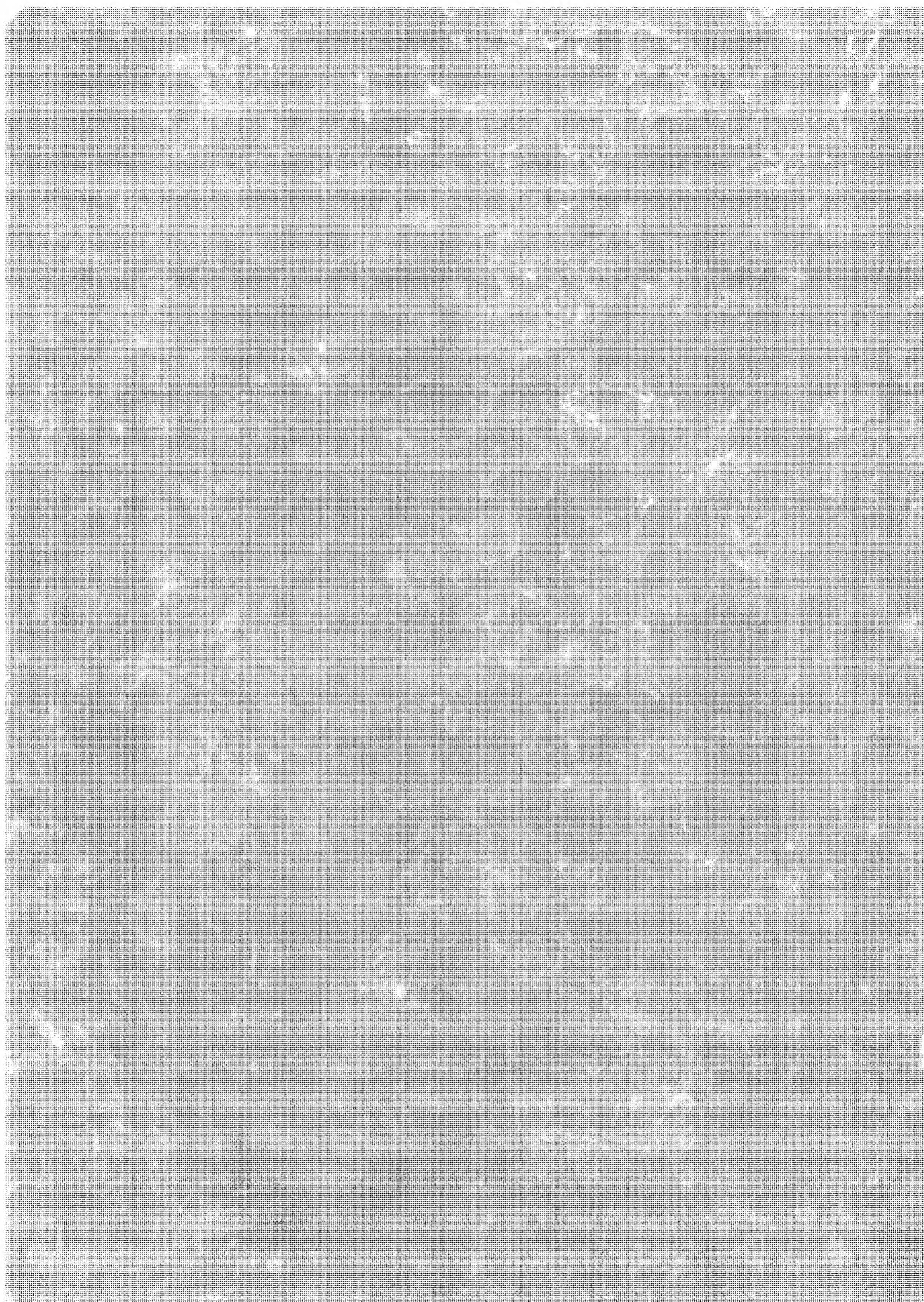
دراسة تاريخية تحليلية

١٩١٤ - ١٩٢٣

تأليف
الدكتور عبد العزيز رفاعى
رئيس قسم العلوم الاجتماعية بالكلية الفنية العسكرية

الطبعة الأولى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة



مقــدمة

من أصول كانت تغرس وتنهيا مع الأيام فى تربة ومناخ صالح للغرس ،وتعبر عن ذاتها فى سلسلة من الانبثاقات القومية لمعالجة المسألة المصرية التى نتجت من احتلال بريطانيا لمصر ـ انطلقت ثورة مصر فى مواجهة الاحتلال عــام ١٩١٩ ، ثورة قومية سياسية هادفة ،بطريق العنف ،من أجل التغيير السياسى ولتحقيق الاستقلال والحرية •

وكانت الثورة متعددة الجوانب ، بدات حركة اعيــان بخطة متطرفة ، تطالب بالاستقلال التام ، ومعتدلة ، تطلب لمصر مايمكن من الحرية السياسية فى ظل الحمــاية ، ولكن مالبث الشعب أن ثار فاصبح سيد الموقف كله ، ومن ثم ، توحدت الخطة فكانت وفق ارادة الشعب ، خطة متطرفة لا تحيد عن الاستقلال التام ، تخلع على بعض الأعيـــان من حرارتها مادفعهم دفعا مع الثورة ، فى غير ماكانوا يؤمنون •

وكانت عناصر هذه الثورة السياسية هى : تنظيم قومى هو الوفد والحكومة فى بداية الانطلاق الثورى ، أما عناصرها الاجتماعية فكانت : كبــار الملاك الاعيــان والرأســماليين والمثقفين والبرجوازية الصــغيرة ، وأصحاب المهن الحــرة والفلاحين والعمال •

وكانت الوسائل سياسية ، فى شكل محاولات دولية ، وشعبية ، فى شكل نضال شعبى ثائر ، وان اختلفت مراحله ،

فقد ظل العامل الشعبى مسيطرا قويا حتى كان التآمر عليه من عناصر الرجعية مستندة الى الاحتلال •

ولقد مرت الثورة فى دورين رئيسيين وتميزت بالايجابية ، وأن اختلفت فى وسائلها بين الشدة والمسالمة انتقلت بعدهما فى تهيؤ الى التحول من النضال الثورى ، وبالتحور فى شكل النضال السياسى الدستورى القائم على طرق القضية على أساس التجزئة •

استغرق الدور الاول شهر مارس ، وقد تميز بالتنظيم المحكم فى اطار الوحدة القومية وقيام الحكومات المحلية ، كما تميز بالشدة والضراوة فى مواجهة قوى الاحتلال والتضحيات الكبرى من جانب الشعب •

ولقد تميز الدور الثانى الذى بدأ فى شهر ابريل عن كل ذلك بايجابية تاخذ بالاساليب السلمية الهادئة الهادفة ، دون ان يستخدم فيها العنف الا قليلا •

فى هذا الدور الرئيسى الأخير ، سارت الثورة فى أدوار ثانوية : بدأت بالتماسك فى مواجهة أساليب الاستعمار السياسية فى لجنة ملنر ، ولكنها بعد ذلك أخذت فى الانقسام وبداية الانتكاس على يد تحالف الملاك الاعيان والسراى والانجليز ، وانتهت بتآمر ذلك الثالوث بما انتهى بها الى التحور فى شكل النضال السياسى •

ولقد بدأ ذلك الانقسام فى القمة ، بين هؤلاء الملاك الأعيان من الوفد ، اثر الاخفاق فى عرض القضية على مؤتمر الصلح ، وتجلى بصورة أوضح فى ظل مفاوضات (سعد ـ ملنر)، أخذت تنسحب من الميدان على أثره من جنود الثورة• كثرة من الفلاحين والعمال ، حتى انتهى الموقف باتجاه الملاك الأعيان للعمل مستقلين ابان مفاوضات (عدلى ـ كرزون) • محاولين بمبادئهم الرجعية السيطرة على الثورة كاتجاه جماهيرى ، وردها ـ كحركة قومية ـ كما بدأت وكما شاءوها ، حركة أعيان • فلما صمد الاتجاه الشعبى أمام ذلك التحدى لم يكن ثمة بد من التآمر عليها بنفى سعد وتصريح ٢٨ فبراير ، ذلك الذى ، ان منح مصر استقلالا ودستورا ، فقد مكن ثم

مبادىء الرجعية من السيطرة ودفع الوفد مضطرا نحو التراجع ، وبهذا كله صفيت الثورة وبدأ على اثرها عهد النضال السياسى الدستورى .

فى هذا الكتاب محــاولة لدراسة ثورة شعب مصر عام ١٩١٩ ، دراســة علمية ، قائمة على النقد والتحقيــق مستندة على اصدق الوثائق والمراجع التاريخية ، مصدرة بمقدمة وتمهيد ، ومبلورة فى اربعة عشر فصلا ، تناولت ثورة الشعب فى حقيقتها ، ومراحل تطورها واهميتها التاريخية .

آملين بهذا الاسهام فى الدراسات العلمية التاريخية ، بما يفيد تاريخنا القومى ، ويذكى شعلة الوعى القومى العربى .

والله ولى التوفيق

المؤلف

دكتور : عبد العزيز رفاعى

ديسمبر سنة ١٩٦٦ .

تمهيد :

الاحتلال وتطور الحركة القومية

١٨٨٢ - ١٩١٤

بدأ احتلال انجلترا لمصر عام ١٨٨٢ اثر تدخل دولى ، ثم انفرد بذاته ، واستخدم القوة للقضاء على كل مقاومة مصرية ، ولما كان الاحتلال يمثل اذ ذاك احتلالا غير مشروع فقد جعل جل اهتمـــامه البقاء فى مصر بخطة قوامها الانقسام الذى يمنع به أعداءه من التجمع ضده فى الداخل والخارج ، من أجل تحقيق ما كان ينشـــده من المركز الممتاز فى وادى النيل .

ويرجع السبب فى تنفيذ الخطة البريطانية الى أحد بناة الامبراطورية هى سر الاحتلال الذى وطد أركانه فى الفترة بين سنتى ١٨٨٢ و ١٩٠٧ حتى مضى بعد ذلك راسخا ، وقد استطاعت بريطانيا بهذا الانقســـام مواجهة الخصـــوم متفرقين فى الداخل وفى الخارج ، حتى كاد فى ظلهـا الروح القومى يتجمد ، لولا ما كان يتهيأ فى ظل تجدد المجتمع المصرى ، بطريق غير مباشر ، من أسباب كانت تغذيه وتدفعه الى مرحلة أعلى من النضال القومى .

ويرجع السبب فى تنفيذ الخطة البريطانية الى أحد بناة الامبراطورية البريطانية ، « كرومر » الذى كان يستمد قوته من قوة شخصيته ، وثقة

دولته فيه وتأييدها له ، وكانت له مبادىء استعمارية وخطة سلكها فى خدمة بلاده ٠

تولى كرومر منصبه وبريطانيا تتردد بين الجلاء والبقاء ، وكان عليه أولا أن يتجه الى ساستها فيسترضيهم ويقنعهم بالبقاء ، وان يستوحى ذلك من مبادئه ، فراح يقنع أحرار انجلترا بالبقاء بحجة اصلاح حال الفلاح ، ومنح المصريين نوعا من الحكم الذاتى !

وبجانب ذلك كان عليه أن يجتهد فى الداخل أيضا بجانب اتجاهه السابق ، فيحل المشكلة المالية التى كانت تشغل بال بريطانيا آن ذاك ، وتهددها بالجلاء عن مصر اذا ما أخفقت فيها ٠

وبفضل الاقناع وحل هذه المشكلة العاتية أكسب بلاده ثقة أوروبا ومكنها ماليا من القدرة على ادارة مصر ، واستطاع أن يمحو من ذهن ساسة بلاده فكرة الجلاء ، وكانت قد بدأت تعتزم تنفيذها منذ عام ١٨٨٧ ، ومن ثم تفرغ لتوطيد أركان الاحتلال فى الداخل بخطته العامة فى الوقت الذى كانت بلاده قد تفرغت لمواجهة العواصف الدولية التى كانت تقض مضجع الاحتلال فى مصر ٠

وكان لكرومر خطته التى كانت سر الاحتلال عموما كما قلنا فى تحقيق المركز الممتاز فى وادى النيل بعد رحيله عن مصر ، خطة قامت على الغموض ، تتمسك بالأساسيات وتتخلى عن الشكليات ، أما الأساسيات فكانت تنحصر فى ضرورة الابقاء على انجلترا مهيمنة على شئون مصر الداخلية والخارجية ، وأن تنقل اليها كل ما يدعيه الغير من حقوق مصر ٠

وكانت خطته من أجل ذلك ألا يستعجل ،بل يقبل كل ماتمليه عليه الظروف ، كان يهمه أن يعطى بمقدار ، ليرضى المصريين ، لا ليطمعهم ٠ وبشرط ألا يذهب هؤلاء الى حد الاضرار بالمصالح البريطانية ، وكان يهمه أن يرضى الدول الطامعة فى مصر فى اطار اقناعهم بتحقيق مصالحهم الأساسية ، فكان مسلكه ازاء السلطنة العثمانية والدول والجاليات الأجنبية مسلكا قام على أساس يرضيهم ، ولكى يمنع أذاهم ولا يطمعهم فى مصالحه هو ، على أساس الاكتفاء بتحقيق مصالح الاحتلال الأساسية ، دون مشاركة انجلترا فيما استأثرت به فى مصر ، وكان ارضاؤه الدائنين يقوم على هذه الخطة نفسها ٠

وكانت سياسته مع المصريين خصوصا ، هى المضى بهـذه الخطة فى جوهرها ، فهو لم يرض أن يغلق باب الأمل فى وجوههم بل ظل معهم فى شد وجذب ، يمنح ويمنع بأمل أن يقبلوا مع هذا ، الأمر الواقع ، فان رفضوا فليس غير استعمال القوة والظهور بمظهر الاحتلال السافر الشديد ، وبهذا لم يرض كرومر الناقمين عليه وعلى الاحتـــلال ، ولم يغضبهم كلهم ، لأنه استهدف تفريق وحدة البلاد من اجل العمـل السياسى ، حتى يرضى المصريون بالأمر الواقع وعدم التعلل بالمساعدات الاجنبية ، ومن ثم حال دون تبلور الوعى القومى ضد الاحتلال .

ونجح كرومر فى تطبيق خطته ، ولكنها لم تكن سريعة التأثير ، فما كاد يمضى فى خطته كثيرا حتى شاهد مع ذلك طليعة عودة الروح القومى فى صدارة عهد عباس .

كان الروح القومى قد همد فى السنوات العشر الأولى التى أعقبت الاحتلال فى ظل تحالف السلطة الشرعية ، كما مثلها توفيق ، والفعلية كما مثلها الاحتلال .

فقد كان المصريون طوال عهد توفيق يخلدون الى السكينة ، ومصر تتلقى ضربات متتالية أفقدتها أملاكها فى الخارج ، وعاونت على تحقيق جزء من خطة الاحتلال الداخلية ، ولكن لم يكن اخلادهم الا تهيؤا لوثبة أخرى ، فما كان لمصر أن تنسى سابق حقوقها المسلوبة .

ولقد أخذ المصريون بعد عشر سنين من الاحتلال ، ينظرون حولهم فاذا بالوعود التى قطعها الاحتلال قد طويت، والشئون المالية قد سويت، ولكن كان اسم الاحتلال ينفذ كل يوم الى صميم المجتمع .

فى هذه المدة ، امحت فكرة الجلاء فى ذهن ساسة بريطانيا ،ولكنها لم تمح تماما من ذهن المصريين ، ولا من ذهن الدول المناهضة للاحتلال ، فما كاد عهد توفيق ينقضى ، حتى استطاع الطرفان اللقاء فى جبهـــة واحدة ،داخل مصر فى عهد عباس لمواجهة الاحتلال ،ومن ثم وجد الروح القومى فرصة للتعبير .

لم يكن ينقص المصريين فى ذلك الوقت الا قوة تساندهم فتوقفهم من جديد على أقدامهم .

وبدأت تلك تتوافر بعد انقضـاء عهد توفيق ، ومجىء عهد عباس خلفا له ، ليتولى خديوية مصر .

ولقد كان عباس عندما تولى ملكه شابا طموحا فى استرداد حقوقه، وكان لا يقبل أن يشاركه أحد فيها ، وقد وجد من حاشيته ومن الدول الطامعة فى مصر ما حفزه على ذلك ، ومنذ أن وثق عباس من ذلك فى بداية حكمه ، ولمس استعداد الشعب لمؤازرته ، نمت فيه الرغبة وصحت عزيمته لمقاومة الاحتلال .

واعتزم عباس مقاومة الاحتلال ، ولكنه وجد أمامه الرجل الذى وضع خطة الاحتلال وسهر على صيانتها « كرومر » ينقض أهـــدافه ، وكانت شخصية الرجلين كفيلة باثارة الخلاف وإذكائه بينهما ، بما يهيىء الفرص للمقاومة المصرية لأن ترفع رأسها ، وبقدر اســـتناد الأول على الشعب ، واستعداد ذلك الشعب للمضى فيه ، كان مستوى المقاومة بينهما صعودا وهبوطا .

ودعا عباس المصريين للوقوف معه فى وجه الاحتلال ، فوجد بينهم تجاوبا نم عن روح قومى ، وكانت دعوة عباس سهلة الفهم من اليسير أن تجد من الشعب استجابة منذ أن كانت دعوة ينفتح بها الأمل فى الجلاء، وكانت دعوة لمواجهة الخطة البريطانية بالهدم والمقاومة ، لأنها كانت تدعو المصريين ألا يذعنوا للواقع كما شاء « كرومر » .

وبدأ عباس عهده بمقاومة الاحتلال فاطاح بحكومة « مصطفى فهمى » الضالعة مع الانجليز وشكل الوزارة كما ارادها ، ونظرا لأنه نفذ ذلك بغير ما سارت عليه التقاليد السياسية المتبعة ، سرعان ما وجد نفسه فى مواجهة بريطانيا فى شخص كرومر العنيد ، وبغير سند قوى من الدول التى أبدت استعدادها من قبل للوقوف بجانبه فى مواجهة الاحتلال ، بما انتهى بفشل الانقلاب المنشود كما كان يريده ، بل بوضع وزارى يغلب مشيئة بريطانيا ، ولكنه كان بهذا قد بدأ فى تعبئة الشعور القومى ضد الاحتلال ، كما تجلى من تأييد الشعب له ، لذلك لم ييأس عباس فمضى فى سبيله من أجل غاياته فى الحكم يعتمد عليه فيزيده تمكنا من فرص التعبير، يعول عليه وعلى العون الخارجى حتى نقل الحركة الى أقوى العناصر المصرية من المـــلاك الأعيان فى المجلســين الشبيهين بالنيابيين : مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، فوجد بينهما تجاوبا اذ أخــذت حياتهما تتجدد فى لون جديد ، فبعد أن كانت الحيـاة النيابية تسير على وتيرة واحده من قبل ، انطبعت بلون جديد من المقاومة الموجهة ضـــد السلطات البريطانية فى مصر ، تجلت فى عدم اقرار نفقات الاحتلال ، وفى مراقبة الحكومة القائمة ومحاولة احراجها فى طلب عرض الميزانية بغير ما اعتاده المجلس من قبل .

وفى خارج المجلسين أخذت تتجمع حول عباس بعض عناصر المثقفين من عبد الله النديم وغيره تشد أزره وتقف بجواره .

وفى الجيش أخذ عباس يوثق علاقاته بضباطه ، وكان الجيش تحت سيطرة الانجليز وكانت لعباس جواسيسه فى الجيش ، وكان من النتائج الأولى حدوث أزمة الحدود التى ابتدأت بزيارة عباس لجيش مصر فى حدود مصر الجنوبية وتوجيهه بعض انتقادات لبعض الوحدات ، وقد عدها قائد الجيش اهانة وجهت للضباط الانجليز ، وانتهت بالصدام بين عباس وكرومر ، وبتسوية أرغم عباس على قبولها مع الاعتذار يوم لم يجد من العون الخارجى ما يسنده فى وجه الاحتلال !

كان طبيعيا أن يأخذ اليأس يتسلل بعد ذلك الى قلب عباس كانعكاس لهذا ،فيميل للواقعية فتفقده المقاومة ومن ثم السند القوى ولكن المقاومة المصرية ولا سيما بعد ذلك الحادث ،كانت أسرع منه فى الانحدار أمام شدة الاحتلال وميلا لقبول الأمر الواقع ، حتى بدأ هذا يتجلى واضحا من عام ١٨٩٧ بما زاد عباسا فتورا فى السير لمقاومة من هذا السبيل .

كان محور انبعاث المقاومة المصرية للاحتلال بين عناصر الملاك الأعيان أساسا فى استعدادهم للاستجابة لدعوة عباس ، وقد بدأ هؤلاء معه بأخذهم الفكرة فى ولاء للخديوية ولكنهم كانوا — اذ ذاك — فى تردد بين الولاء للخديو أو الاحتلال .

ولم تكن مؤازرة الملاك الأعيان عن ايمان بالفكرة القومية بقدر ما كانت تجاوبا من أجل المصالح الذاتية ، وكانت تلك فى هذه الفترة تتقاسم مصيرها الخديوية والاحتلال على نحو لا ينفرد أحدهما بها .

ولم يكن انشغال هذه الطبقة بمصالحها الذاتية حدثا جديدا ، فمنذ أن نشأت هذه الطبقة ، اثر صدور اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ ، طبقة جديدة من الملاك المصريين على حساب طبقة الأتراك المعروفين بالذوات ، والمصالح الذاتية تشغلهم كطبقة ناشئة فى صراع طبقى اتخذ صورة النضال السياسى فى النهاية .

أخذت هذه الطبقة تنمو وتدعم مركزها ماديا وادبيا فى عهد اسماعيل ،بنمو ممتلكاتهم واتجاهها نحو الاستقرار ، ثم أدبيا بانتخابهم نوابا ، وصعودهم الى بعض المناصب الادارية لاستكمال وجودهم كطبقة تناظر فى النشأة « البرجوازية » فى تاريخ المجتمع الاوروبى الحديث ،

وذلك على حساب طبقة الأتراك السابقة ، حتى أخذ ذلك الصراع الطبقى - كما تقدم - يتخذ صورة النضال السياسى فى النزاع حول الحكم فى نهاية عهد اسماعيل ثم فى بداية عهد توفيق ، فى محاوله لفيف من هؤلاء الملاك الأعيان القضاء على عهد رياض لانتقاصه من حقوقهم الأدبية ومن أقدارهم والحد من سلطانهم ، كطبقة تتطلع لاستكمال وجودها فى الوقت الذى يزيد فيه النفوذ الاجنبى والتحكم التركى على حسابهم ، وكـان تأييدهم للثورة العرابية محاولة للقضاء على هذا التحـكم التركى واعتلاء السلطة عن طريق النشاط السياسى للمساواة بينهم وبين الطبقة التركية المعروفة بالذوات ، واذ ونقوا فى ذلك ، فانه لم يدم طويلا باحتلال انجلترا مصر .

ومنذ أن احتلت مصر ، والاحتلال يحاول فى سياسته الداخلية كسبهم بجانبه ، كطبقة على حساب الاتراك ، فأبقى الاحتلال على نفوذهم التقليدى، وجعل منهم نوابا فى الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين، وقد أخذت تلك تنمو وتزاحم الطبقة التركية فى الثراء وتولى المنـاصب الادارية ، وأخذت فى نموها تنشد اسباب الوجاهة بما يحاكى الاتراك جاها ومظهرا .

فلما تولى عباس الملك ودعاهم للوقوف بجانبه، مضوا معه ولكن فى تردد ، لقد كانوا - اذ ذاك - فى منتصف الطريق من استكمال وجودهم وتحقيق أغراضهم ، وكانوا يترددون بين الولاء للخديوية أو الاحتلال ولكنهم كانوا أقرب ميلا لتأييد الاحتلال عن الخديوية ، ولاغرو فقد أخذ هؤلاء يلمسون اصلاحات كرومر عام ١٨٩٥ الزراعية كما كانوا بطبيعتهم الطبقية غير ميالين الى الخديو ، لانهم كانوا يرون فيه صورة من التحكم التركى ، فلا بدع أن ينهضوا مع عباس لمقاومة الاحتلال ولكن فى تردد، لانهم لم ينسوا مصالحهم ، فما كاد الاحتلال يشتد ويغلظ على الحركة فى ظل وزارة « مصطفى فهمى » حتى توقفت فى مجلس شـورى القوانين عام ١٨٩٧ ، ولكن بعد أن خلقت المتاعب الجمة أمام سير الادارة البريطانية فى مصر .

وهمدت الحركة القومية على يد الملاك الاعيان ، ولكنها لم تنقض فقد كان متوقعا بعد هذا ، مع حرص عباس على حقوقه ، أن تنبعث بين عناصر أخرى من المصريين ، وقد أخذ ذلك يتجلى ، مع بداية انحـدار المقاومة بين الملاك الاعيان ، فى سعيه للاستناد على المثقفين فى نضـاله ضد الاحتلال .

« فقد اتفق مع « مصطفى كامل » على تشكيل لجنة سرية من بعض الشبان الممتازين بالوطنية ، ممن بلغوا التعليم العالى فى مصر والخارج ، فكان ذلك .. » (١) .

وكان أعضاء هذه اللجنة يمثلون من المصريين : « أحمد شفيق ثم اسماعيل الشيمى ويوسف صديق ومحمود سالم » وبعض الاجانب من الجالية الفرنسية .

ولقد قررت هذه اللجنة القيام بالدفاع عن مصالح مصر بالكتابة فى الصحف الفرنسية فى مصر وباريس بأسماء مستعارة وبالخطب التى أخذ مصطفى كامل يلقيها فى أوروبا وكان عباس لايزال يثق فى فرنسا كقوة قادرة على أن تؤلب الدول على انجلترا لتجلو عن مصر .

فى ذلك الوقت كان الوعى القومى السياسى قد أخذ يتجلى بين الطليعة المثقفة الناشئة فى أعقاب الاحتلال أمثال « لطفى السيد وعبد العزيز فهمى » وغيرهما وقد أخذ ذلك يتفتح عام ١٨٩٦ بما عزز حركة المثقفين، عن تنظيم للعمـل السياسى الوطنى يقول « لطفى السيد » : « .. كنـا نفكر فى حالة مصر وما تعانيه من الاحتلال البريطانى وفى ذلك العـــام أنشأنا جمعية سرية غرضها ، تحرير مصر » (٢) .

وقد تألفت هذه الجمعية من لفيف المثقفين ، وكان معظمهم من رجال النيابة، وكان عباس يعلم كل شىء عن هذه الجمعية وأغراضها وقد حدث أن كان « لطفى السيد » بالقاهرة بعد تأليف هذه الجمعية فالتقى « بمصطفى كامل » فقال له : « ان الخديو يعلم كل شىء عن هذه الجمعية ... وأظن أنه لاتنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو .. » (٣) .

فأجاب « لطفى السيد » : « لا مانع عندى من ذلك » وأبلغ «مصطفى كامل » الخديو هذا القبول واستأذن «لطفى السيد» فى مقابلته ، فتحدث معه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه ، وطلب منه أن يسافر الى سويسرا كى يكسب الجنسية السويسرية ثم يعود لتحرير جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، وكان التجنس بالجنسية السويسرية — اذ ذاك — قريب المنال بحيث لا يستلزم غير الاقامة فيها عاما فقط .

---

(١) احمد شفيق : حياتى بعد مذكراتى ، ص ٣٤١ .
(٢) احمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٣٥ .
(٣) المرجع السابق والصفحة السابقة .

ويقول لطفى السيد :

« وبعد ما خرجت من مقابلة الخديو عباس اجتمعت آنا و « مصطفى كامل » وبعض زملائنا فى منزل « محمد فريد » وألفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو وأعضاؤها : « مصطفى كامل ومحمد فريد وسعيد الشيمى ومحمد عثمان ولبيب محرم وأنا » .

ولقد سافر« لطفى السيد » بالفعل الى سويسرا، وهو ان لم يحصل على جنسيتها لعدم موافقة الباب العالى فقد عاد أكثر ايمانا بأن مصر لايمكن أن تستقل الا بجهود ابنائها .

ومضت الحركة القومية ، ولم تتوقف فى مجراها وأخذت تتبلور مع الايام حول زعامة « مصطفى كامل » ، ففى الوقت الذى أخذت فيه فى الانحدار الذى تجلى فى فتور الملاك الأعيان عن متابعتهم مقاومة الاحتلال فى ظل وزارة مصطفى فهمى ، كانت الحركة القومية قد اشتعلت سرا بين المثقفين بزعامة « مصطفى كامل » وما كادت حركة الاعيان تنقضى الى الهمود ، حتى كانت حركة «مصطفى كامل » قد بدأت تظهر بعد أن غدا ذلك منذ عام ١٨٩٦ متطورا من مجاهد شاب ينادى بحق بلاده ، الى زعيم وطنى يلتف حوله مواطنوه .

وقد مضت بعد ذلك تجد من الاحداث ومن عباس عونا ومن تطور علاقة عباس بالاحتلال استثارة ، ومن التحدى البريطانى زادا جديدا يشد أزرها .

أما بريطانيا فقد مضت بخطتها لانها كانت تدرك حقيقة الموقف تماما ادراكها لمصالحها الخاصة . فاذا كانت بصدد خطة سياسية تقتضيها مصالحها ازاء المصريين أن تمضى بها ، فقد كان انبعاث الحركة القومية من شأنه ، برغم همودها ، أن يستحثها على استكمالها .

كان على بريطانيا اذن أن تمضى بخطتها ازاء المصريين وعلى رأسهم الملاك الاعيان حتى يذعنوا للأمر الواقع ، ويرضوا بعدم التعلق بالعون الخارجى بعد أن قطعت فى ذلك شوطا كبيرا . ولكنها منذ أن تجلى الوعى القومى الصاعد كانت على ميعاد مع انبعاث الحركة القومية على يد المثقفين بعد أن خمدت على يد الأعيان ، وكان بداية التحول فى مجرى الحركة القومية بين المثقفين كما رأينا فى عهد عباس . فقد وجد ذلك الانبعاث ما غذاه وزاده استثارة فى ظل هذه السياسة والخطة البريطانية .

ولقد كان عام ١٨٩٨ بداية التهيؤ لاستقلال الحركة واشتدادها بعد ذلك مع بداية التحول فى علاقة الخديو عباس بالانجليز متجهين الى سياسة الوفاق .

كان همود المقاومة ونهايتها على يد الأعيان عام ١٨٩٧ ، وان أخذت تنبعث بين طليعة المثقفين ، فى نظر عباس أمرا يثير بعض اليأس فى قلبه ولكنه لم يكن يقعده عن متابعتها ، ومؤازرته لعناصر أخرى كما تجلى ،ولكن ذلك اليأس الذى انتابه من متابعة المقاومة ما لبث أن تزايد بتراجع فرنسا أمام انجلترا فى حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ، عندما شـــاءت تلك اثارة المسألة المصرية باحتلال فاشودة فى أعالى النيل فأرغمتها بريطانيا على الانسحاب ، فتراجعت .

على أن ذلك كله لم يكن ليدعوه للاستسلام والسـلبية من حقوقه بقدر ما كان يدعوه لإعادة التفكير فى الموقف كله بما يحقق جوهر نضاله. وقد بدأ من عام ١٨٩٨ يشق لنفسه طريقا جديدا وبخطة جديدة .

ولعل « عباس » قد أدرك ــ اذ ذاك ــ أن نيل الحقوق لا يتأتى بهذه البساطة وانه لابد من تغيير فى نظرته نحو الاحتلال ، فاذا كان لابد من بلوغ أهدافه فلم لا يظل باقيا على صلته بحركة « مصطفى كامل » لكسب ثقة أوروبا ومقاومة الاحتلال فى الخارج والداخل ؟ ولا بأس من أن يجارى ذلك بالتمهيد لسياسة الوفاق مع بريطانيا حتى ينجلى آكد السبل سيرا نحو السـعى لتحقيق أهدافه ! ألم يكن سـاعيا لاسترداد سلطانه فما يضيره اذن للسير فى هذه الخطة المزدوجة ، فلعل فيها له النفع الوافر ؟!

ومضى كل فى سبيله : الانجليز فى اتجاههم لاستكمال خطتهم فى استدراج المصريين لقبول الأمر الواقع والتعلل بالعون الخارجى ، والخديو يمضى بخطته المزدوجة عله يجد آكد السبل لانتزاع حقوقه من الانجليز ، والحركة القومية ، بين هذا وذاك ، تتخذ من الأحداث مايستثيرها ومايشد أزرها بما مهد السبيل لانفصالها عنه ، واستقلالها قوية فيما بعد .

فما استهل القرن العشرون حتى كانت هـذه القوى السـياسية المتصارعة حول السلطان قد اشتدت وبرزت على مسرح النضال تتشكل فى أوضاع وتتخذ مواقع جديدة ، ثم تبلورت فى قوتين مثلتـا ثنائية ، طرفاها الاتجاه القومى ،والآخر الاحتلال ومَن دار حوله ، فلم تكد بريطانيا تستكمل خططها فى اســـتدراج المصريين للأمر الواقع ، حتى واجهت خصما عنيدا يساجلها الحرب ويدعو للجلاء ! .

مضت بريطانيا منذ عام ١٨٩٨ فى مسيرها لاستكمال خطتها للقضاء على كل أعمال المقاومة فى الداخل ، وجدت تساير ذلك لتقطع كل تعلل بالعون الخارجى دون تقدير للقوة الوطنية الصاعدة ، فقد أخذ كرومر يوثق علاقاته بأئمة رجال الدين ، ويسترضيهم على حساب الخديوية ، أما طبقة الملاك الاعيان فقد مضى الاحتلال فى كسبها لتكون له سندا فشاء أن يجعل من ذاته مركز ولائها فمضى فى نشاطه الاقتصادى والزراعى باشعارها باندماج مصالحها مع مصالح الاحتلال ووجوده بفضل عنايته بتوسيع رقعة الاراضى الزراعية وبالسياسة المائية ، ونشر نظام الرى الدائم وغير هذا مما اهتم به فى سعيه لتحويل مصر مزرعة للقطن من أجل مصانع الغزل والنسيج فى بريطانيا ، فارتد ذلك كله من ثم على هذه الطبقة بزيادة قدرتها الشرائية بزيادة أملاكها على حساب الملكيات الزراعية الصغيرة .

وأخذ هؤلاء يلمسون اصلاحات كرومر عام ١٨٩٥ عندما ارتفعت أسعار القطن بعد انخفاضها من قبل كما أخذت المساحات الزراعية فى الاتساع وكذلك عنيت الحكومة بهذه الطبقة بعدة خدمات منها تخفيض ضرائب الاطيان عام ١٩٠١ بمقدار ٥٧٫٠٠٠ جنيه ، والغاء رسم الأيلولة سنة ١٩٠٦ الذى خسرت الحكومة فيه مبلغ ١٨٫٠٠٠ جنيه وغير ذلك ، مما جعل منهم أصحاب المصالح الفعلية فى البلاد ، وقد بدا نوابهم فى الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين طوال هذه المدة أقرب الى التسليم منهم الى المعارضة .

واذ نجح الاحتلال طوال هذه المدة فى آن يشعر المصريين فى أقوى عناصرهم — آذ ذاك — باشراكهم معه فى المصلحة ، فقد نجح أيضا الى حد كبير فى اشعارهم بعدم جدوى التعلل بالعون الخارجى بما عزز غاية بريطانيا من اتجاهاتها السابقة فى عقدها الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ الذى أطلق يد فرنسا فى مراكش نظير اطلاق يد انجلترا فى مصر ، فكان رد الفعل على الساعين وراء العون الخارجى لمساندة الحركة القومية ذا تأثير بالغ ، وكان تأثيره لدى الخديو يأسا من ذلك العون على يد فرنسا . مما دفعه خطوات نحو المزيد من العمل من أجل سياسة الوفاق ودفع الحركة القومية نحو الاستقلال .

غير أن هذا النجاح فيما استهدفه لم يكن نجاحا كاملا .

فبينما كان الاحتلال يدأب فى خطته لتنفيذها ، كانت قوى المسرح السياسى الأخرى تعيد تشكيلها استعدادا لصراع جديد يأخذ شكل الثنائية من الاحتلال والبعث القومى الصاعد .

فالخديو كان قد قطع حتى الاتفاق الودى ، مرحلة فى التمهيد مع الانجليز من أجل سياسة الوفاق، وقد نشط ـ اذ ذاك ـ نشاطا واضحا فى ذلك بما انتهى الى ادراك الخاصة من الملاك أنه بتصرفاته فى ذلك وفى جمع المال والتضامن مع الاحتلال قد يطلق يده بعض الاطلاق فى الحكم بما يعيد عهد الحكم التركى ، فازداد ولاؤهم للاحتلال وميلهم عزوفا عن العمل السياسى من أجل مناهضة الاحتلال •

والحركة القومية بعد أن قطعت مرحلة بزعامة « مصطفى كامل » بالحملة ضد الانجليز فى الخارج والداخل فى بعث الروح القومى ، قد أدركت حقيقة الخديو بهذا الوضع عقب الاتفاق الودى فآثرت العزلة والانفصال عنه حتى لاتضار بتصرفاته وتتحمل مسئولياته ، ومن ثم بدأت عهدا جديدا مستقلا فى تجاوبه مع المثقفين وبهذا أخذ الموقف السياسى ينقسم بين ثنائية ، طرفاها الحركة القومية الشابة على يد المثقفين بزعامة « مصطفى كامل » ثم الانجليز ومن أصبحوا فى ولاء للاحتلال ، فما كاد الاحتلال يشعر بانه قد أصبح سيد الموقف فى أعقاب الاتفاق الودى حتى شاهد الحركة القومية وقد تبلورت على يد المثقفين بزعامة « مصطفى كامل » بل تتفتح بالأمل الباسم وتنبض بالنشاط القومى ، وتتهيأ لأن يكون على يديها فصل الامور فى مصر كلها فيما بعد •

فبقدر ما وجد الملاك تجاوبا مع الاحتلال ، وجد المثقفون تجاوبا مع حركة « مصطفى كامل » منذ أن انبعثت وبقدر ما عنى الاحتلال بالملاك الاعيان لكسبهم بجانبه أمعن فى اهمال التعليم والثقافة والمثقفين فأثار بالتالى بينهم النقمة عليه والقلق على المصير !

فلم يكن مجهوده فى محو الامية بين الذين تزيد أعمارهم على العاشرة حتى سنة ١٩١٧ عن ٤ر٪ •

ومن ذلك أن ميزانية التعليم مثلا منذ رخاء الميزانية عام ١٨٨٨ لم تزد عن ٧٠ الف جنيه ، ولم تبلغ تلك الميزانية عام ١٩٠٦ الا مقدار ٣٦٢ر٠٠٠ جنيه وهى لاتقارن بما كان ينفقه الخديو اسماعيل على التعليم فى عهده ، اذ كان يقدر بنحو ٨٧ر٠٠٠ جنيه ، وكانت ميزانية الاحتلال ثابتة وكان للحكومة عام ١٩٠٦ احتياطى يقرب من ١٦ مليون جنيه، ومع

ذلك لم تبلغ ميزانية التعليم فى هذا العام الا ٣٪ من مصروفات عام ١٩٠٦ ولم يكن كرومر يستهدف من انشاء المدارس الا أن تكون فى مصر معامل لتخريج الموظفين ، وقد انصب اهتمامه الكبير على انشاء الكتاتيب !

وبالرغم من اهمال الاحتلال للتعليم ليحد من مجـــال المثقفين ، استطاعت هذه الطبقة الناشئة فى حدودها الضيقة التجدد بطريق غير مباشر بعناصر جديدة ، فقد استطاع القادرون ماليا التزود من التعليم فى الداخل والخارج حتى نمـــا عددهم فى مطلع القرن العشرين وزاد تطلعهم شعورا بذاتهم نحو الحياة الكريمة ، فقامت على اثر ذلك طوائف أصحاب المهن الحرة من المهندسين والاطباء ثم المحامين والمدرسين وغيرهم، ومما ساعد على تجدد هذه الطبقة ما تعمده الاحتلال من اطلاق الصحافة دون أن يخشى منها على سلطانه الذى تدعمه قواته ، فظهر على اثر ذلك لفيف واع من الكتاب والصحفيين ٠

وبقدر ما كان الاحتلال يهمل هذه الطبقة باهمال شـــأن التعليم كان يعدها ــ وهو يهتم بطبقة الملاك ليكسبها بجانبه ــ يعدها لأن تكون على يديها المبادأة فى بعث الحركة القومية بزعامة « مصطفى كامل » ٠

واذ يبدأ تجاوبهم مع الحركة القومية منذ أن بدأها مصطفى كامل مستندا على الخديوية تنادى بالجلاء وتعمل على مقاومة الاحتلال بالدعاية فى الخارج وتعبئة الشعور القومى فى الداخل ، فقد زاد ذلك التجاوب نموا بعد أن استقلت عن الخديو لانحرافه كما ذكرنا ، بجانب الاحتلال ، عندما أخذت تنادى بالدستور مع الجلاء ٠

كان هؤلاء يؤمنون بالقومية كمبدأ ووسيلة ، فبينما كانوا يرون الاحتلال أمرا جارحا للكرامة القومية كانوا يدركون حرمانهم فى ظله ، من خيرات بلادهم ووظائفها فى الوقت الذى كان غيرهم من الملاك الاعيان وأبنائهم والأجانب يتمتعون بها ويحتلون أسمى وظائفها ٠

وكما كانت للاحتــلال خطته فى دفع المصريين لقبول الأمر الواقع توجهت الحركة القومية منذ البداية فى مواجهة ذلك الاحتلال تحاول اذكاء الوعى القومى السياسى بالكشف عن حقيقة نيات الاحتلال وخططه وتنقض أهدافه ٠

كانت سلطة الاحتلال قد استخدمت فى دعوتها ثلاث وسائل :

الاولى : أن يذعن المصريون للأمر الواقع وألا يتعللوا بالاستعانة بالعون الخارجي ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ضد الاحتلال ·

والثانية : أن تشعر فريقا منهم على الأقل بابقــائه على الاحتلال للمصلحة ·

والثالثة : اقامة التفرقة بين مختلف الطبقات !

ولقد قامت دعوة « مصطفى كامل » تنقض هذا ، دعوة واضحة بسيطة تعمل على الكشف عن حقيقة ذلك كله ، حتى وجدت سبيلها بين العقول والنفوس ·

فبينما كان الاحتلال يمضي بوسائله ، كانت تلك الدعوة تسهم فى بناء الوعى السياسى فى اتجاهها الهادف للكشــف عن دعاويه بأبسط الامور وفى قوة ، لان محورها كان بسيطا خاليا من التعقيد ، فقـد كان لمصر عدو واحد هو الاحتلال ولمصر مقصد واحد هو الجلاء والدستور ، وما عدا ذلك فتفصيل له وقته وليس من الواجب أن يطغى على هـذا المطلب الاساسى أو يضعف من مقاومة هذا العدو الدخيل أمر ما ، وأقام «مصطفى كامل» ذلك على عقيدة بسيطة هى حب الوطن حبا خالصا لايشوبه التفكير فى انتفاع أو مصلحة ·

ولقد استخدمت حملته فى مواجهة الاحتلال ثلاث وسائل :

الاولى : ألا تيئسوا مطلقا وألا تصدقوا أيها المصريون كلام الانجليز وكلام مأجوريهم وعملائهم من أن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ·

والثانية : ألا تثقوا فى عدوكم مطلقا وألا تركنوا الى محاولات الاعداء التشكيك فى العون الدولى للبــلاد بل تذرعوا بتلك العنـاصر الدولية والعثمانية التى تناهض الانجليز ·

أما الثالثة : فهى ألا تصدقوا أن الاحتلال لا يمكن أن يضمر لكم أو لبعضكم خيرا ·

وقد أخذت تشتد فى حملتها على الاحتلال اثر حادث « طابة » فى صدارة عام ١٩٠٦ ، وطابة هذه قرية صغيرة على خليج العقبة وعلى مقربة من قرية العقبة نفسها · قالت تركيا : انها فى أرضها ، وقال الانجليز : انها فى أرض مصر ، وان مركزهم فى مصر يجعلهم يدافعون عن حقوقهـا حتى قبل الدولة العثمانية ، وأدى الموقف الى أزمة سياسية دولية بين

تركيا وانجلترا وقيل يومئذ : ان الحرب واقعة بينهما اذ أرسلت تركيا بالفعل قوات تركية الى منطقة طابة ، فأرسلت انجلترا قوة الى خليج العقبة . وفى ذلك الوقت وقفت الجرائد المصرية كاللواء والمؤيد تعضد تركيا وتنصر الاتراك وتحمل على الانجليز .

وأخذ الناس فى مصر يتطلعون الى ما يسفر عنه الخلاف بين الدولتين على قرية تابعة لمصر فى تجاوب كبير نحو تركيا لاحبا فى الاتراك ولكن بغضا للاحتلال ، وكل ما يأتى به ، حتى انجلى الموقف بتراجع تركيا أمام انجلترا .

وفى هذا العام أيضا وقع الحادث الكبير الذى اشتهر بقصة دنشواى ، الذى استثار الشعور القومى فغذى الحركة القومية بزاد جديد ، وأخذت به تمتد الى أعماق الريف . وخلاصة هذا الحادث (١) :

ان بعض الضباط الانجليز خرجوا فى رحلة لهم الى الاسكندرية لصيد الحمام على مقربة من قرية دنشواى ، فخرجوا مرة فأحرقوا جرنا فاحتدم بينهم وبين الفلاحين شجار اصيب فيه جماعة من الفلاحين وثلاثة من الضباط ، فلما أراد أحد هؤلاء الجرحى التماس النجدة فرارا سقط مصابا بالرعن (ضربة الشمس) ولم يمض يومان على وقوع الحادث حتى كانت المحكمة قد انعقدت ، والحكم قد صدر لينفذ بين الجنود المسلحين على مرأى من الآباء والابناء والازواج ، بشنق أربعة من الفلاحين وسجن اثنين مدى الحياة وثلاثة بسجن سنة وجلدهم خمسين جلدة ، اذ ذاك آمن من لم يكن قد صدق دعوة « مصطفى كامل » عندما قال : « لا يغرنكم من المحتلين نعومة الملمس فقد يغلب عليهم زبانية الجحيم » .

ولم يكن ثمة حادث يذكر ، جمع قلوب المصريين كما جمعتها قصة دنشواى ، ولا غرو فقد ظهر فيها الاحتلال يفصح عن طبيعته الجارحة بغير السنة التى قام عليها ، ومن ثم كان وقعه سيئا فى النفوس عميقا فى احياء شعور التضامن القومى ، وقد خفق له قلب مصر يوم تنفيذ الحكم .

وكما انتهى ذلك الحادث باقالة كرومر من منصبه كانت له آثاره فى تعبئة الشعور القومى فى مواجهة الاحتلال ، وقد اخذت حركة « مصطفى كامل » بعد هذا الحادث تجد تجاوبا أوسع بين الشعب ولكن ما لبث أن تجلى ذلك التجاوب فى أعقاب الحادث فى عهد «محمد فريد» فى تشعب حين واجه تحديات تتجلى فى مستويات مختلفة كل بحسب الوضع

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٩٤ .

الاجتماعي والاهداف ، وقد أخذت تلك كلها تحور شطرا من مجرى النضال القومي الموحد في أشكال جديدة من العمل القومي السياسي ٠

وكان سهلا على الناس فهم دعوة « مصطفى كامل » ، كما قلنا ، منذ أن بدأت ولكنه مع هذا لم يستمل اليها كل المثقفين ولا كل الملاك الاعيان ٠

واذا كان من الطبيعي أن تجد دعوة«مصطفى كامل»ـ منذ أن شبت ـ تجاوبا بين معظم المثقفين فلم تكن هكذا بين الملاك «الاعيان والمثقفين من ابنائهم اذ كانت الفكرة القومية تثير شعورا يجمل ميول هذه الطبقة ونظرة أفرادها نحو دعوته ويستوحى مقوماته من تطورهم الاجتماعي وحرصهم على صيانة أهدافهم الطبقية بما انتهى الى ظهورهم في تكتل جديد وهو حزب الأمة ٠

كان يغضب الملاك الاعيان ، مع ظهور حركة « مصطفى كامل » ، اتجاه الطبقة المتوسطة نحو زعامة الحركة الدستورية ، كما كان لايرضيهم تأييد الخديو لهم في البداية واتجاه « مصطفى كامل » في دعوته متمسكا بالخلافة ، وكذلك كان يغضبهم ايضا الحملة الشديدة التي وجهها « مصطفى كامل » على الاحتلال ، كل أولئك كان يثير غضبهم لشعورهم بالخطر على ما اكتسبوه من حقوق وما كانوا يتطلعون اليه !

فكانت الحركة الدستورية تعني في نظرهم اتجاها هادفا لمزاحمتهم فيما صار لهم من نفوذ وجاه وما يتطلعون اليه من آمال سياسية ، وكان الاستناد الى الخديو في البداية لتعزيز الحركة الى تركيا ، لتعزيز القضية المصرية ، معناه لديهم عودة التحكم التركي القديم خشية أن يفقدوا على يديه مكانتهم في البلاد ، وكانوا مع سير هذه الحركة في مستهل القرن العشرين ، قد احتلوا مكانة مرموقة بفضل رعاية الاحتلال ٠

وكان معنى الحملة على الاحتلال حملة على مصالحهم التي اندمجت مع وجود الاحتلال ٠

كان طبيعيا اذن أن يختمر بينهم لون خاص من التفكير لمعالجة هذا الموقف بما يصون مصالحهم ، وقد ظهر ذلك مستلهما من نشاطهم الطبيعي الماضي ، في ذلك ، من اتخاذهم السياسة سبيلا لذلك ٠

لقد تركوا السياسة فترة كانوا يستكملون وجودهم فيها كطبقة على حساب الطبقة العليا التي اوجدهم التطور معها في صراع طبيعي منذ بداية القرن الماضي ، فلما حقق لهم الاحتلال ذلك كان قد حقق مآربهم

منها ، فلما وقع حادث « طابة » وأدى الى أزمة سياسية دولية بين تركيا وانجلترا حول تبعية هذه القرية ، واشتدت الحركة فى الحملة على الاحتلال وزادت شدة بعد حادث دنشواى كان التفكير فى ظهورهم فى تكتل جديد قد اختمر .

أخذتهم نزعة تاريخهم السابق ، فأخذوا يستلهمون آراءهم لحماية انفسهم من الماضى ويرسمون خطوات ذلك وفقا لمنطق العصر لمواجهة الموقف ازاء الاحتلال والحركة القومية ، وكان لا بد من التفكير فى الوقوف بجانب ذلك الاحتلال لحمايته مع خصمه ، الحركة القومية ، وصيانة اهدافه ، ففى الوقوف بجانبه واسترضائه حماية لمصالحهم وقد كان السبيل الى ذلك : استعادة نشاطهم الدستورى ومواجهة الدعوة بالدعوة، يتناولون منها فكرة الدستور بمنطق العصر ، فيكون تعبيرا لمصالح البلاد في حدود مصالحهم ، فتصاغ الدعوة بوحي من مصالحهم فتعلن انهم وحدهم يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية وان لهم وحدهم حق التكلم باسم المصريين ، ثم تدعو لمبادىء الاحتلال التدريجية ، لاضعاف دعوة « مصطفى كامل » ، باستدراج المعتدلين واسترضاء الاحتلال ، وتستطيع التجاوب مع عمل هو أبعد ما يكون عن الثورة .!!

ولقد كانت هذه الطبقة تتكون من الملاك الاعيان ثم المثقفين من أبنائهم ، واذ يشترك الأبناء فى المطالبة بالدستور فقد كانا يختلفان فى فهمه ، فكان ذلك لدى المثقفين غاية ووسيلة على حين كان للملاك وسيلة، وقد تميز المثقفون بلون جديد من الدعوة الحديثة بالمطالبة بالتنكر للجامعة الاسلامية على حين اكتفى الملاك بالمبادأة بالانفصال عن الرابطة العثمانية .

حزب الأمة :

اختمرت فكرة ايجاد تكتل جديد لمحاربة الحزب الوطنى (١) وتحرك « مصطفى فهمى » يشجع ذلك ، كما برز « سعد زغلول » حتى غدا الرأس المفكر وراء هذا الاتجاه .

ويعد « سعد زغلول » من أشد من تأثر بتعاليم الامام ومن أقطاب شيعته فلم يكن كغيره تلميذا بل كان كما يقول تشارلز آدمز ، مريدا وكان أيام طلبه للعلم فى كنف الامام يستفيد من علمه ومن أخلاقه وبلاغته ولذا اختاره ليعاونه فى تحرير الوقائع .

---

(١) مذكرات الخديو عباس : جريدة المصرى ١١ من مايو ١٩٥١ .

وكان سعد فى البداية يؤمن بالتعاون مع البريطانيين فى اصلاح الادارة سالكا السبيل الهادىء الذى سار عليه «محمد عبده» والذى أصبح مبدأ من مبادىء شيعته وهو بعكس ما سنه « مصطفى كامل » ..

ولقد كان الملاك الاعيان ، وذلك الاختمار الاجتماعى والسياسى يمتد بينهم ، يحسون بحاجتهم الى صحيفة تعبر عن اتجاههم ، لذلك فكر هؤلاء فى أصدارها سنة ١٩٠٣ لكنها لم تتحقق الا بعد أن الحت الظروف فى اصدارها ، وفى ظل اشتداد الحركة القومية ولا سيما بعد حادث طابة الذى تحطم على صخرته كل أمل يعقده المصريون على دولة الخلافة .

فكر لطفى السيد فى انشاء الجريدة لتنطق بلسان مصر وحدها دون ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى مصر .

شعر المثقفون اذن - من أبناء الاعيان - وعلى رأسهم « لطفى السيد » بضرورة الاعلان عن آرائهم بايجاد صحيفة تنطق بلسانهم ورأيهم ، فدعا « لطفى السيد » لاجتماع وضعت فيه خطة العمل والمبادىء التى تقوم عليها جريدة مستقلة عن الخديو والوكالة البريطانية وبعد اقناع اعيان البلاد تألفت شركة الجريدة وانتخب لطفى السيد مديرا لها ورئيسا لتحريرها مدة عشر سنوات ، ومالبثت حتى تحولت الشركة الى حزب سياسى وقد اطلق عليه حزب الامة وكانت شركة الجريدة تتكون ممن يمثلون أعيان مصر ومثقفيها من أبنائهم .

ولقد استهدفت حركة حزب الامة أهدافا مستمدة من طبيعة نشأته وتكوينه .

كان من أهمها المطالبة بالدستور ، لأنه يتيح لها فرصة الاشتراك فى الحكم والحد من سلطة الخديوية ، فلم يكن حزب الأمة فى البداية يعتقد أن الانجليز يمثلون الاعداء الوحيدين الذين يجب أن توجه الجهود لمحاربتهم ، وقد كان ذلك طبيعيا لهذه الفئة التى كانت تخشى عودة أحوال ما قبل الاحتلال اذا ماتمتعت الخديوية بسلطات ، وكانوا يؤمنون بالمصالحة مع الاحتلال ، وقد نشأ ذلك ثمرة ضياع أمل « مصطفى كامل » فى الدول بعد اتفاق عام ١٩٠٤ وخيبة أمل البلاد فى الدولة العثمانية بعد تخاذلها فى حادث « طابة » كما كانوا لا يؤمنون الا بالتدرج فى الاصلاح كأمر متفق مع طبيعتهم ومبدئهم فى المصالحة مع الانجليز .

ولقد رفع حـزب الأمة لواء القومية المصرية واخذ يدعـو الى الاستقلال ، لكن كان بأسلوبه ، على أساس التدرج ، فالاحتلال فى نظره قوة أتت بها ظروف سياسية وتذهب بها ظروف سياسية ، فان صدق وعده وترك مصر لأهلها فذلك ما يجب على انجلترا الاتيان به ، والا فلن يستطيع أن يغير من صبغته شيئا وأن ينتقل من كونه احتلالا فعليا الى أن يكون احتلالا بالقانون (١) .

والاحتلال بهذا يزول بتقوية الأمة ، لذا رحب بدعوة بناء الأمة بعكس الحزب الوطنى الذى كان يعد أن الاحتلال هو علة العلل .

على ان هذا الحزب وذلك النهج مالبث ان تطور بعد انتهاء عهد كرومر فى ظل سياسة الوفاق فى عهد جورست عندما شاءت بريطانيـا فى عهـد الأخـير ، وكان من رجال الاحتـلال ، معـالجة الحركة القوميـة بطرقها من زاوية جديدة وهى كسب الخديو بجانب الاحتلال باسترضائه برد بعض السـلطات اليه ، وكانت الخطـة تقتضى الا يمعن المعتمـد البريطانى فى هذا الارضاء أو فى الاغضاب ، ولكن جورست انحرف نحو السلطة الشرعيـة كما كان يمثلهـا عباس انحرافا شـديدا فأطلق يد « عباس الثانى » فيما يجب أن تطلق فيه يده ، فاغتر هذا وأسرف مما استثار الحركة القومية فى جانبها المتطرف ، والمتمثـل فى الحزب الوطنى ،والمعتدل الممثل فى حزب الأمة حتى تطور على نحو يتناول منهجه فىالحملة على الاحتلال ثم الخديو ، ولا غرو فقد لمس الملاك الاعيان والمثقفون فى ظل سياسة الوفاق مبلغ اشتداد الخديو بما هدد طموحهم فى المشاركة فى الحكم أو التفاهم مع الاحتلال على مصلحة مصر .

واشتدت حملة الجريدة على الاحتلال فى ظل هذه السياسة فحمل « لطفى السيد » لواء المعارضة ضد الخديو والمعتمد البريطانى .

وقد ابرزت سياسة الوفاق من ناحية أخرى مدى تماسك حزب الأمة دون ان تؤثر فى موقف الجريدة ، وحين كان مفروضا ان الجريدة وحزب الأمة سيكونان بزعامة كرومر ، لم يبـد أى مظهر من مظاهر الخلاف بين الملاك الاعيان والمثقفين بقسميهم : الموظفون وغير الموظفين يوم كان كرومر ينتقص من سلطات الخديو ، ولكن بعد سياسة الوفاق كان ثمة أمل فى التعاون مع حزب الأمة والاحتلال ، ولما اتخذ الحزب موقف المعارضة من السلطنةالشرعيةوالفعلية بدأ الخلاف بين أعضائه فقد رفض الموظفون

---

(١) الجريدة فى ٦ من يوليه عام ١٩٠٨ .

منهم الوقوف موقف المعارضة دون حماية تسندهم اذ ارتبطوا بحزب الأمة على أساس التعاون مع الحكومة ، وانقسم فريق الاعيان : فمنهم من رأى أنه يستطيع الافادة شخصيا من علاقته السياسية بالخديو فانشقوا على الجريدة وهاجموها ، ومن ظل يؤلف الحزب ، وكانوا يؤمنون بأن مصالحهم كطبقة لاتتفق مع محاولات الخديو التوسع فى سلطانه ، فلا غرو أن تمثل حملة « لطفى السيد » على سياسة الوفاق حقيقة موقفهم من الخديو واتجاهات المثقفين .

على أن هؤلاء ما لبثوا الا فترة فى الابقاء على الحزب ، اما الجريدة فقد مضت تناضل من أجل الحرية والدستور حتى تركها « لطفى السيد » .

ولم يستطع الاعيان وأبناؤهم من المثقفين التحول الى حزب سياسى قومى ، فكان عملهم كطبقة مقصورا فى دائرة نفوذهم فى بلادهم أو فى الهيئات التى اشتركوا فيها ، وكان السبب هو قلة ثقة الاعيان فى الشعب ومحاولة المفكرين الذين شاركوهم فى الظهور بمظهر الترفع عن العامة ، فلم يتحمس الشعب لحزب الأمة هذا فضلا على أن انقسام الحزب بين الاعيان والمثقفين أفقده تماسكه ، فقد بقى العنصران منفصلين مما أضعف الحزب ودفعه للتلاشى .

ومهما يكن من أمر ، فقد مضى الحزب الوطنى وحزب الأمة يعالجان المسألة المصرية ممثلين أسلوبين مختلفين ما بين التطرف والاعتدال .

كان الحزب الوطنى يحارب الاتفاق مع الانجليز ، وحزب الأمة يعترف بهم كحقيقة واقعة ، ويرى ضرورة التفاهم معهم ، وكان يتبع فى ذلك كل وسيلة شريفة توصل للمقاصد التى كان أعظمها منح الأمة الاستقلال الذاتى الى أن تتهيأ الظروف بما يؤدى الى زوال الاحتلال .

واذا كان الحزب الوطنى قد غذى الوعى القومى السياسى ، فقد غرس الكراهية فى الاحتلال، أما حزب الأمة فقد بث بذور القومية المصرية الحديثة ونمى بذور الاستقلال . وقد تجلت على يديه الفكرة القومية لأول مرة ، فكرة حديثة علمانية .

كان الاول يهدم الاحتلال ، وكان الآخر يبنى أسس مصر الحديثة.

وقد كانت مصر فى مطلع القرن العشرين فى حاجة الى الاتجاهين المتطرف الثائر والمعتدل البناء .

وقد اثار الحزبان احتداما فكريا سياسيا نشأت على اثرهما احزاب أخرى فى ظل سياسة الوفاق .

فى هذا الجو أخذ الموقف السياسى يتفتح عن آراء سياسية مختلفة تبلورت فى شكل احزاب ، كل له رأيه فى معالجة القضية المصرية .

كان أبرزها حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الذى نشأ ظلا للخديوية فى مواجهة الحزبين السابقين ، كما نشأ غيره أحزاب كانت تدور حول أشخاص لا حول فكرة ما .

وفى ظل احتدام الفكر السياسى نهضت الحركة القومية على يد المثقفين والأعيان وغيرهما وان اختلفوا فى درجة معالجة المسألة المصرية باختلاف مستوى الاختمار القومى السياسى .

وكانت آثار ذلك الاحتدام الفكرى واضحة على الهيئتين شبه المتباينتين القائمتين : مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فبدت بينهما حركة ، وقام نشاط دافق من أجل المطالبة بالدستور أكسبها حقوقا جديدة كعلانية الجلسات ، كما بدأ بين النواب روح استهدف الرقابة على الحكومة وكان رفض الجمعية العمومية لمشروع قناة السويس ، بناء على اشتداد الحركة القومية وضغطها على الحكومة والهيئتين حادثا يرمز الى تطور جديد فى مجرى الحركة القومية ، فقد كانت الحكومة تنوى مد امتياز قناة السويس مقابل حفنة عاجلة من المال على حساب المصالح القومية .

ولم يسع الاحتلال ازاء هذا الا ان يستخدم القوة فى مواجهة ذلك النضال القومى فى نهاية عهد جورست بالتنكيل والضغط على الحريات والمحاكمات ومصادرة الصحف ، فانحرف بهذا ناحية السلطة الشرعية انحرافا واضحا .

وبوفاة جورست وتعيين كتشنر بديلا له كمعتمد جديد لبريطانيا فى مصر كان قد بدأ عهد جديد فى مجرى النضال القومى بمصر .

شاء كتشنر معالجة الحركة القومية من زاوية جديدة لا ليكسب بها الخديو بجانب بريطانيا ، كما فعل جورست فيما سمى بسياسة الوفاق ، بل بخطة جديدة سارت على نهج سلفه فى خدمة أغراض بلاده ، ولكن بوسائل جديدة قامت على الامعان فى سياسة الرياء وبطرق المسألة المصرية من جانب المصريين ، فسعى يسترضى الفلاحين بحماية الملكية الصغيرة ، والمثقفين بمنحهم حق التمثيل فى تنظيم جديد ، حل محل

المجالس التمثيلية القـائمة ، وهى الجمعية التشريعيـة مع خنق الحريات وتشتيت الاتجاه المتطرف من النضال القومى والقضاء عليه .

ألغى نظام الهيئتين شبه النيابيتين القائمتين : الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، وأنشأ بدلهما نظام الجمعية التشريعية فى يوليو عام ١٩١٣ مشكلة من ٦٦ عضوا يمثلون المهن والهيئات ، وكانت مدة العضوية ٦ سنوات يتغير ثلثهم كل سـنتين ، أما انتخابها فكان على درجتين وقد بلغ أعضاؤها من ملاك الاراضى ٤٩ عضوا وبرغم وجود الاحزاب وقتئذ لم يحدث فى أثناء الانتخاب أن أعلن مرشح عن برنامجه بل كان الاعتماد على النفوذ والثراء الا « سعد زغلول » ، ذلك الذى كان قد نزل الى ميدان المعارضة وقتئذ ، فكان أول من أذاع برنامجـا للاصلاح الداخلى قائما على نشر التعليم وحرية الصحافة وغيرها دون السياسة .

وكانت الجمعية التشريعية الساحة التى تبلورت فيها هذه الزعامة حول « سـعد زغلول » ، ففى أول جلسة انتخب باجماع الآراء وكيلا للجمعية ، ومن ثم تجلى بمناقشـاته فى حرصـه على رعاية مصـالح الامـة .

كان رأى الجمعية استشارياً الا فى شئون الضرائب ولكنه خلق منها هيئة تذعن الحكومة لرأيها وناقشت الجمعية أمورا كثيرة : بحثت قانون « خمســة الأفدنة » واصلاح نظام الامتحانات ، وعدلت بعض القوانين ، وناقشت مشروعا عن التعاون الزراعى وغـيره ، ونفذت الحكومة كثيرا من نصائحها ، وبين المناقشات بدأ « سعد زغلول » واتباعه مبرزين على خصومهم ، كما بدا ايجابيا وهو ينتقد الوزراء ويوضـح أهداف الحكومة فيما كانت تعرضه ولم تتوقف حياة هذه الجمعية الا بعد قيام الحرب العظمى ، وفى الجمعية كانت مصر تقف على أبواب حرب عالمية أولى ، تهيئها لفجر جديد .

الفصل الأول

تجدد القوى الشعبية

وتهيؤ البيئة للغرس الثوري

كانت مصر مع انبثاق حركتها القومية تتهيأ بالنماء باسباب التجدد الاجتماعى ، وكان ذلك يتضح مع الأيام عن قوى شعبية جديدة يعزز اتجاهها القومى ويدعمه ، ويهيىء البيئة للغرس الثورى لتكون على يد هذا الميلاد الجديد المباداة فى الثورة ضد الاحتلال .

ولقد كانت مصر فى الفترة ما بين عامى ١٨٠٥ و ١٨٨٢ تجوز مرحلة الاعداد لذلك الميلاد الجديد ، وقد تشكل ذلك فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٤ من تاريخها ، تجددا فى قوى الشعب ، وتجلى تكوينا شعبيا من عناصر جديدة ، وتمثل بيئة تتهيأ لاستنبات الغرس الثورى فى مجرى الحركة القومية .

ولقد بدأ الاعداد لهذه المرحلة الجديدة ، وانتهى بالتجدد الاجتماعى على أساس التطور فى العلاقات والانتاج فى الزراعة والصناعة الحرفية .

كان الانتاج فى بداية القرن التاسع عشر ، يتمثل فى الصناعة الحرفية فى نطاق الطائفية بين المدن ثم فى الزراعة فى نطاق نظام الاقطاع الشرقى الذى كان يجعل الارض ملكا للدولة ويعتمد فى استغلالها على الوسطاء ، وكانت العلاقة بين سواد الشعب الاعظم من الفلاحين « ومحمد على » الذى اقام النظام الاقتصادى على أساس احتكار وسائل الانتاج الزراعية والصناعية والتجارية ، امتدادا لسابق العلاقات قبل عهده ، تقوم على أسس التبعية ــ تبعية الفلاحين وتبعية الصناع الحرفيين ــ وهو نظام يحظر الانتقال بحرية على الفلاحين وغيرهم ، ومن ثم يحرمهم مقومات العمل الجماهيرى ، وهو التجمع .

وبدأت خطوات الاعداد للتطور الاجتماعى بين الشعب ، تظهر منذ التحول فى علاقة الانتاج ، بما انتهى الى التجدد فى عناصر هذه القاعدة الشعبية وتغذيتها بامكانات جديدة .

ولقد بدأ التحول فى مجال الفلاحين مع ظهور نظام الملكية الخاصة، وقد تم ذلك فى سلسلة من التشريعات واللوائح ، كان أهمها اللائحة

الأولى سنة ١٨٤٦ التى اتاحت حرية التعامل بالاراضى ، واعترفت بملكية فردية محدودة للأرض ، وكانت اللائحة السعيدية الصادرة فى عهد سعيد سنة ١٨٥٨ بداية عهد جديد فى ظهور الملكية وطبقة الملاك المصريين ، وقد فتحت لمستغلى الارض حق تأجيرها لمدة ثلاث سنوات ورهنها وبيع حقه فى استغلالها ، وتوريثها للانتفاع ، وقد جاء قانون المقابلة الذى صدر سنة ١٨٧٦ فى عهد اسماعيل كسبيل من سبل العلاج لأزمته المالية مرحلة من مراحل تطور الملكية فقد قرر الحق للمنتفع بالارض على حيازة ملكية تامة اذا دفع مرة واحدة ستة أمثال الضريبة المربوطة سنويا ، مع اعفائه بعد ذلك من نصف المربوط عليه بصفة دائمة . وأخيرا كان القانون المدنى الأهلى الصادر فى ٢٨ من ديسمبر عام ١٨٨٣ والذى جاء فيه تحديد حصر الملك ، فقال : انها العقارات التى يكون للناس فيها حق التمليك التام .

وبهذه الاجراءات أخذت الملكية الزراعية تستقر ، وينتهى من ثم ذلك اللون القديم ، من الانتاج فى الزوال كتنظيم .

وبينما كان المجتمع المصرى الحديث يتفتح عن طبقة مصرية مالكة بدأ دورها فى السياسة المصرية من عهد اسماعيل — كان المجال يتهيأ فى القاعدة فيساير ذلك تطورا جديدا يشير الى تحرك المجتمع فى أعماقه بالتجدد الاجتماعى بما يذكى الشعور الذاتى ومن ثم يدعم الاتجاه القومى .

ومع ظهور تلك المكاسب فى بناء المجتمع المصرى الحديث كانت موجات التجدد تمتد الى السواد الأعظم من الشعب من الفلاحين وأصحاب الطوائف والصناع فتمتد اليهم من ثم موجات التهيؤ للعمل الجماهيرى بعد ظهور تلك المكاسب وان كانت محدودة ولكنها ذات قيمة ، كان أهمها استعادة حريتهم على الحركة والانتقال وبداية التخلص ولو الى حد محدود ، من السخرة بنوعيها : سخرة السيادة ، وسخرة المشروعات العامة ، ثم التطلع للون جديد من الانتاج الذى يعالج حالة الفقر السائدة بينهم ، واخذت الحركة تدب بينهم بحثا وراء العمل ، وكان تركيز الملكيات الكبيرة ولفيف الملكيات الصغيرة فى ظل الاحتلال من العوامل التى ضاعفت حركة انتقال الفلاحين المعدمين من المناطق الريفية الى المراكز الحضارية بحثا عن العمل .

ولم تقف موجات التحول الانتاجى فى نطاق الفلاحين بما نقلهم لمشرق جديد من علامات الانتاج والشعور الذاتى ومن ثم التهيؤ للعمل

الجماهيرى وتجدد القاعدة ، بل امتد الى العنصر الثانى فى القاعدة الشعبية الذى كان متغلغلا طوال تاريخهـا عامة وهو نظام الطوائف فهيأ لها الجو أن تتطور وتتشكل فى عناصر شعبية جديدة .

أخذت تلك الطوائف ، تتطور فى ظل النظام الاحتكارى الذى فرضه عهد « محمد على » ، وكانت تمثل مختلف الحرف وتعمل على رعاية شئونها وحماية افرادها ، فكان عددها فى بداية القرن التاسع عشر كبيرا ، وقد اخذت تتجدد نحو التطور فى ظل النظام الاحتكارى الذى تميز به حكم « محمد على » وفى كل مصانعه الكثيرة .

وقد أدت التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خـلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر الى زيادة اضمحلال هذه الطوائف ثم اختفائها ، وقد تلقت ضربات على يد سعيد واسماعيل سلبتها حق الشيوخ فى الولايات ووظيفتها فى جمع الضرائب من افرادها ، كما زعزع كيانها فى النهاية ، بما جعلها غير ذات موضوع ، وهو تغلغل رأس المال الأجنبى فى مصر منذ نهاية عهد اسماعيل ولا سيما فى ظل الاحتلال فى نهاية القرن التاسع عشر .

وحدث التحول الاجتماعى فى الانتاج ، وكان طبيعيـا أن تتجلى آثاره فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فى حركة انتقال بين العمال والفلاحين والصناع الحرفيين من الريف فى مرحلة الاضمحلال الطائفى بحثا عن العمل المأجور فى المدن .

ولقد صادف هذه الظروف تسلط الامبريالية على مصر اثر عجزها عن سداد القروض التى كان اسماعيل قد اقترضها ، فبسطت سيادتها على المال والاقتصاد والسياسة بما انتهى الى الاحتلال العســكرى وانتشار رأس المال الغربى فى مصر ، وقد وجد ذلك أيديا عاملة رخيصة .

وقد جذب الكثير من مشروعات اسماعيل الكثير من هؤلاء الفلاحين والحرفيين ، كما جذب العدد الأكبر من الاستثمارات الاجنبية الخاصة فى عهد الاحتلال ، بما بدات معه بطريق غير مباشر مرحلة التجـدد الاجتماعى بين صفوف الشـعب فى قاعدته العريضة تهيؤا للعمـل الجماهيرى السياسى والاجتماعى فيما بعد .

فعلى الرغم من الكوارث التى صاحبت القروض فى عهد اسماعيل والتى انتهت بالاحتـلال العسـكرى فى عهد توفيـق اسـتخدم جانب منها فى الانفاق الانتاجى ، وذلك فى مشروعات الكبارى ومشروعات

الرى ومصانع السكر ، وانشاء ميناء الاسكندرية ، ومياه الشرب بها ، وخطوط السكك الحديدية والمنارات .. وغير ذلك مما سمح بخلق نوع من الاستخدام التعاقدى بشكل محدود وتهيئة الفرص للعمل المأجور .

ونظرا لأن الملكية الخاصة كانت ـ اذ ذاك ـ قد أخذت فى الاستقرار على حساب نظام المجتمع الاقطاعى القديم بما يسمح للفلاح باستعادة حريته الى حد ما على الحركة والانتقال ، فقد كانت الفرصة مهيأة للفلاحين المعدمين لأن يعملوا نظير أجر فى هذه الاستثمارات والمنشئات كعمال ، ومن ثم أقبل هؤلاء الفلاحون ولفيف من الصناع الحرفيين على العمل فى هذه المنشئات وبهذا وجدت نواة طبقة عاملة جديدة .

ولقد امتد هذا التجدد الاجتماعى فى ظل الاحتلال بطريق غير مباشر بما نمى هذه النواة ، وخلق منها نواة طبقة جديدة فى ظل امتداد الاستثمارات الاجنبية الخاصة التى نبعت من مرحلة النمو الرأسمالى الاحتكارى الغربى وما خلقته من مرافق ومصانع وخدمات وصيانة مع بداية القرن العشرين .

وقد اتجهت تلك الاستثمارات الى مصر بمساعدة الاحتلال فبلغ تدفق رأس المال الاستعمارى مرحلة بلغت أقصاها فى الفترة الممتدة من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٧ ، حتى انشىء خلالها الكثير من الشركات .

وكان طبيعيا أن تكون نتيجة ذلك المد الاقتصادى الاستعمارى امتدادا لنمو الطبقة العاملة .

أخذت هذه الظواهر تزداد تفاعلا فى الوقت نفسه ، مع توالى انتقال حركة الفلاحين المعدمين أيضا الى المراكز الحضرية بحثا عن العمل وتفاعلا مع اضمحلال الصناعات الحرفية واضطرار أفرادها للبحث عن العمل ، وقد جذبتهم المشروعات الجديدة فوجدت منهم أيديا عاملة رخيصة . وبهذا مثلت تلك ومن قبلها الطلائع الاولى طبقة العمال .

وبقدر ما كان ذلك داعيا لتهيئة الفرص لظهور نواة طبقة العمال كان عاملا على نشأة نواة البرجوازية المصرية .

فقد أسفر فتح السوق المحلية للبضائع الأجنبية ، ثم نشوء الوحدات الانتاجية الحديثة ، وقيام بعض المصانع كمصانع السجائر والاسمنت والطوب والملابس والورق والبيرة والزيوت والسكر ...

وغير ذلك الى قيام تجارة التجزئة التى وجد فيها لفيف من الفلاحين المعدمين أو الحرفيين ـ وهم فى مرحلة اضمحلال طوائفهم ـ فرص العمل فى مجال التجارة وبهذا تهيأ الجو لقيام البرجوازية المصرية من صغار التجار .

وقد مضت الفئتان فى نموهما بمقدار التجدد الاقتصادى وانسحاب رءوس الاموال الاجنبية وانحدار نظام الطوائف حتى بدأتا تأخذان شكلهما العام الواضح فى بداية الحرب العظمى الأولى ، قوى شعبية جديدة تتطلع الى الامام .

ومع تهيؤ الفلاحين بأسباب الحركة وظهور طبقة العمال والبرجوازية الصغيرة كان المجتمع يتفتح عن نواة من المثقفين الصاعدين . ولقد بدأت تلك بوضوح منذ ازدياد الترابط بين مصر والغرب فى عهد اسماعيل ، فى ظل انسحاب الحضارة الفكرية الغربية على مصر ، وتجدد التعليم فيها ، وهى ـ وان فرض عليها النفوذ الاجنبى فى ظل الاحتلال ما أهمل شأن التعليم والمتعلمين كما رأينا ـ استطاع الكثيرون فيها من ابناء القادرين على التزود من التعليم عن طريق البعثات فى الخارج ، وفى الداخل فى المعاهد العليا ، ومن ثم ظهرت بينهم نواة المثقفين مع حركة التجدد الاجتماعى الأخرى .

كان المجتمع المصرى يتجدد ويتهيأ مع الايام بأسباب الحركة ودوافعها الفكرية ، من القلق والغضب والشعور الذاتى ، ومع ظهور الوعى السياسى بين المثقفين فقد كان الشعور السائد هو الشعور الاجتماعى السلبى ، على أنه مع هذا كان يمثل بيئة صالحة لغرس الفكرة السياسية اذا ما اصطدم مع نظام الاحتلال وان كان بين المثقفين يمثل شعورا سياسيا واضحا .

ولقد ظلت الحركة القومية فى هذه الفترة (١٨٨٢ ـ ١٩١٤) حركة أعيان فى أساسها ، كما رأينا ، ولم يكن للفلاحين الزراعيين والعمال والبرجوازية دور الا دور الاعداد والتهيؤ لعهد جديد من الكفاح الشعبى .

كان الفلاحون ينقصهم التنظيم ، وان استعادوا الكثير من القدرة على الحركة، فقد كان ينقصهم الوعىالاجتماعى والسياسى البصير، كماكان العمال والبرجوازية ـ وكانا طبقتين ناشئتين ـ فى فترة كان الاحتلال

البريطانى فى سطوته وعنفوانه ، ومع هذا فقد كان هؤلاء يمثلون اتجاها شعبيا صاعدا يتهيأ لأن يتولى زعامة الحركة مع الأيام ويشير الى ملامح مستقبلها .

ولقد بدأ ذلك الاتجاه الشعبى يعبر عن وجوده منذ أن استطاع المثقفون أن يثبتوا وجودهم فى اطار الفكرة القومية فى عهد « مصطفى كامل » وقد بدأت هذه الحركة القومية ، تنزل لمستوى الفلاحين فيلمسون وجودها منذ حادثة دنشواى كما بدأت تنزل الى العمال والفلاحين فى الكفاح فى عهد « محمد فريد » .

ومنذ أن اعتزمت الحركة الوطنية فى ظل « محمد فريد » الاعتماد فى نضالها على الجماهير فى المدن والريف ــ بدأ الاتصال بين المثقفين وهذه القاعدة عن طريق تنظيم الحركة العمالية فى شكل نقابات تسند الكفاح الوطنى .

ولقد بدأ « محمد فريد » بانشاء نقابة الصناعات اليدوية ، أوسع منظمة نقابية فى القاهرة والأقاليم ، فغدت احدى ركائز الحزب ، مع وجود الجمعيات الزراعية ومدارس الشعب ، وبهذا فتح ذلك التنظيم الطريق لاشتراك النقابات فى العمل الوطنى السياسى .

وبهذا نشأت الطبقتان فى ترابط عضوى بينهما ، بين تهيئهما كطبقتين والبعث الجديد للحركة القومية على يد الحزب الوطنى .

ومهما يكن من أمر فقد اخذ المجتمع المصرى يتهيأ بعناصر جديدة من عناصر النضال الشعبى ، بدأت طلائعه بزعامة المثقفين تشير الى مرحلة جديدة من الكفاح الشعبى المنبعث من القاعدة الشعبية وهى ــ وان كان يعوزها الوعى السياسى ــ كانت تمثل فى بداية فترة الحرب العالمية الاولى ، بيئة صالحة مهيأة للغرس الثورى ، وكانت هذه الحرب الاداة التى هيأت فى ظلها بذور ذلك الغرس .

الفصل الثانى

إعلان الحماية البريطانية على مصر
"وموقف مصر"

منذ ان أعلنت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، واخذت على اثرها العلاقات المصرية البريطانية تتطور باعلان الحماية ـ كان قد توافر بفضل ذلك أسباب الغرس الثورى وبذوره لتستنبته البيئة ، بعد أن أعدت ، وتتعهده بالنماء •

ونظرا لأن ذلك كان لا يزال نبتا ناشئا ، لم يؤت بعد ثماره بما ينتهى الى الاختمار الثورى ، كان على مصر ـ اذ ذاك ـ أن تواجه الموقف بروح العصر الذى انحدر الى هذا العام من سابق التطور ، فلا يكون تجاوبها الا بقدر مستوى الوعى القومى العام الذى لم يلتهب بعد فى ظل الحرب وظل الحماية . فكان تجاوبا سلبيا مثل سواد الشعب فى ضحالة وعيه القومى ، وايجابيا بين المثقفين فى أعلى مستويات ذلك الوعى ، وان كانت مصر ـ اذ ذاك ـ قد أخذت تجوز فترة ، تهيىء لمرحلة أعلى من النضال القومى الثورى •

ولقد انطلقت هذه الحرب ، ثمرة انقسام العالم ، الى معسكرين : أحدهما يمثل انجلترا وفرنسا وروسيا ، والآخر يمثل ألمانيا وايطاليا والنمسا والمجر •

ولما كانت الطبيعة تأبى المتناقضات ، كان لابد من أن يؤدى التناقض الى التلاحم والصراع بينهما فينتهى ذلك اما بتاليف بين الطرفين أو بتغلب أحدهما على الآخر فتكون الحرب •

ولقد بدأ ذلك الصراع جزئيا اثر صراع جزئى بين المعسكرين عقب اغتيال ولى عهد النمسا فى ٢٨ من يونيه عام ١٩١٤ على يد أحد الصربيين ، أعلنت على اثره النمسا الحرب على الصرب فى ٢٨ من يوليه سنة ١٩١٤ فمثل ذلك بداية الحرب الجزئيه ، ولكنه انتهى باشتعالها فى حرب عالمية ، اذ قامت الروسيا لنجدة الصرب فأعلنت الحرب على النمسا ، فانتصرت ألمانيا لحليفتها النمسا ، ثم وقفت فرنسا الى جانب

حليفتها الروسيا ، وفى ١٤ من أغسطس عام ١٩١٤ دخلت بريطانيا الحرب الى جانب فرنسا والروسيا •

كان لا بد أن يتأثر موقف مصر من ثم بموقف بريطانيا بوصفها بلدا كان محتلا لها • وقد انتهى الموقف فعلا بعد تطورات أدت الى قطع العلاقات بين مصر وبريطانيا وتحديدها على أساس فرض الحماية البريطانية على مصر •

كان الخديو عباس – عند اعلان هذه الحرب – فى الآستانة ، فحظرت السلطات البريطانية عليه العودة لمصر كحاكم غير مرغوب فيه ، وكان رشدى على رأس وزارة تمثل « قائمقام الخديو » فى مصر •

وما كاد ينقضى على اعلان الحرب بين انجلترا والمانيا وقت قصير حتى أخذت العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا فى التطور بما انتهى – مع تطور الأحداث العالمية – الى اعلان الحماية على مصر •

أخذت وزارة رشدى تستجيب للموقف منذ البداية فورا ، فاصدر مجلس الوزراء فى اليوم التالى لنشوب الحرب فى ٥ من أغسطس سنة ١٩١٤ قرارا حدد موقفها على أساس الامر الواقع ، جاء فيه: « ان وجود جيش الاحتلال البريطانى فى مصر يجعل من البلد عرضة لهجوم اعداء صاحب الجلالة البريطانية ، وبما انه من الضرورى نظرا لهذه الحالة العالمية ، التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الهجوم عن القطر المصرى ، وبما انه قد أشير على الحكومة المصرية – تحقيقا لهذا الغرض – أن تتخذ الاجراءات الآتية ، فلهذه العواقب يكون معلوما لدى جميع ذوى الشأن أن مجلس النظار فى جلسته المنعقدة فى يوم ١٣ من رمضان عام ١٣٣٢ (٥ من أغسطس سنة ١٩١٤) تحت رياسة عطوفتلو أفندم القائمقام الخديوى قرر ما يأتى •• » :

وقد تضمن ذلك القرار منع التعامل مع ألمانيا ورعاياها والاشخاص المقيمين بها ، وحظر التصدير الى ألمانيا وتخويل القوات البريطانية الحربية والبحرية حقوق الحرب فى الاراضى والموانى المصرية ، ومنع السفن المصرية من الاتصال بأى ثغر ألمانى وعد السفن الألمانية الراسية فى الثغور المصرية سفنا معادية وحجزها (١) •

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ١٦ من أغسطس عام ١٩١٤ •

وتدل هذه الوثيقة على أن حكومة رشدى ـ كما قلنا ـ قد حددت موقفها على أساس الامر الواقع ، فالاحتلال قد أصبح فى نظرها حقيقة ، ومصر قد أصبحت معرضة لما قد تتخذه ألمانيا ضد أعدائها وكذلك كان تخويل القوات الانجليزية حقوق الحرب أمرا لا مفر منه كما يجب منع التعامل مع الالمان فى نظرها أيضا وقد احتـاط مجلس الوزراء فقال : « أشير على الحكومة المصرية أن تتخذ كذا ٠٠ وكذا ٠٠ » ٠

ولقد كانت تلك بداية تشف عما وراءها من رغبـة هادفة لتعاون رشدى مع الاحتلال عن ثقة تنسيه ـ وهو يستجيب للاحتلال كواقع ـ حقوق البلاد ومصالحها .!

ولقد حاول « لطفى السيد » اثارة ذلك للكشف عن نياته وحقيقتها فى لقائه مع رشدى فى ذلك الوقت ، فزاد الامر ايضاحا .

يقول « لطفى السيد » (١) انه ذهب للقاء رشدى فى اليوم التالى لاعلان الحرب بالقاهرة ، وهناك وجد معه « عدلى يكن » وزير الخارجية ، فقال له رشدى : « ان انجلترا قد دخلت الحرب وقد كتبنا هذا باعلان الاحكام العرفية فى البلاد » ٠

وسلمه اعلانا فقال له لطفى السيد :

ـ أتدخل الحرب مجانا يا باشا ؟

فقال رشدى فى سذاجة سياسية :

« بل احترزنا مما تخاف بأن قلنا نظرا للاحتلال الفعلى لانجلترا فى مصر » ٠

ويستطرد فى الحديث الى أن يقول لطفى السيد :

« واتفقنا نحن الثلاثة على السعى لتعترف انجلترا باستقلالنا، ونكفل لها مصالحها الى حد أن نعاونهـا بدخولنا معها الحرب اذا كان هــذا ضروريا ! » ٠

وكان أكثر رجال الوكالة البريطانية فى أوروبا اذ ذاك ، ثم كان ونجيت أول من حضر منهم ، فكلمه رشدى فى ذلك وصارحه بأن مصر

---

(١) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، من ص ١٦٢ ـ ١٦٦ ٠

مستعدة لمناصرة بريطانيا بشرط أن تعترف باســتقلال مصر ، فارتاع ونجيت لهذه الفكرة ، ولكنه وعد بأن يعرض الامر على حكومته ٠

وحدث أن دعا رشدى سير ستروس الســكرتير الشرقى للوكالة البريطانية لتناول الغـداء معه فى الكونتننتال وعلم محمد محمود بذلك فدعا « لطفى السيد » أن يتناول غداءه معهم الى جانبهم كى يعلم بعــد الغداء من رشدى ماذا دار بينهما ولما انتهوا قال لهم رشدى :

« ان ستروس يؤيد فكرتنا كالسير ريجنلد ونجيت ، ووعدنى بأنه سيخابر أباه العضو فى البرلمان البريطانى ليثير هذه المسألة عندالحكومة البريطانية » ٠

ولم يجد لا هذا ولا ذاك ، فقد انتهى الامر بالاخفاق ، ولم يترك ذلك الاخفاق فى نفس المسئولين والحكومة وعلى رأسهم رشــدى ، أى حافز للنظر فى مستقبل مصر ، بل آثروا المضى فى سبيلهم جادين يستجيبون للموقف كما أرادته السلطات البريطانية فى ثقة وولاء ٠ !!

ومضى مجلس النظار الجديد يواجه الامر الواقع تدفعه الثقة للتعاون مع بريطانيا كأسلم السبل ولا يشغله ، برغم مواتاة الظروف المناسبة ، التفكير فى انتزاع ضمان لاسترداد حقوق مصر ٠

ففى ١٣ من اغسطس عام ١٩١٤ أصدر مجلس الوزراء أمرا بسريان أحكام القرار السابق على النمسا والمجر ٠

وفى هذا الشهر ـ أيضا ـ وضعت الرقابة على البرقيات والخطابات المتبادلة بين مصر والخارج أو بينها وبين السودان ، كما وضعت الحكومة فى ١٨ من أكتوبر عام ١٩١٤ قانونا بمنع التجمع وفرض العقاب عليه ٠

وعلى اثر نشوب الحرب بين تركيا والروسيا فى الاول من نوفمبر أصبح من المتوقع أن تشب الحرب بينها وبين انجلترا فأعلن الجنــرال السير جون مكسويل ـ قائد جيوش الاحتلال فى مصر ـ الاحكام العرفية بموجب القرار الصادر فى ٢ من نوفمبر (١) عام ١٩١٤ ٠

وتبعا لذلك وضعت الرقابة على الصــحف واصدر مكسويل بلاغا آخر حذر فيه الاهالى تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلتــرا أو

(١) الوقائع المصرية : ٣ من نوفمبر عام ١٩١٤ (عدد غير اعتيادى) ٠

حلفائها ودعاهم الى اتباع جميع الأوامر التى تصدرها السلطة العسكرية ثم أبلغ القائم بأعمال المعتمد البريطانى المستر شتيهام هذا المنشور الى « حسين رشدى » القائمقام الخديوى ٠

وعندما دخلت تركيا الحرب ضد انجلترا وحلفائها فى ٥ من نوفمبر عام ١٩١٤ أصدر مكسويل بلاغا أعلن فيه (١) دخول تركيا الحرب وأوضح وجه اعتدائها ، فذكر أن بريطانيا تحارب لغرضين هما : الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى كسبها « محمد على » فى ميدان القتال ، واستمرار تمتع مصر بالسلام والرخاء ٠ وان انجلترا أخذت على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب وانها لا تطلب من الشعب المصرى سوى الامتناع عن أعمال عدائية ضدها ثم قال :

« ٠٠٠ ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان ــ بصفته الدينية ــ من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن يطلب من الشعب المصرى أية مساعدة ، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطلب اليهم الامتناع عن أى عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو اداء أية مساعدة لأعدائها » ٠

ثم أعلن مكسويل فى منشور آخر أصدره بتاريخ ٧ من نوفمبر عام ١٩١٤ سريان قرار مجلس الوزراء الصادر فى ٥ من أغسطس عام ١٩١٤ على تركيا ٠

وفى ١٨ من ديسمبر عام ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها على مصر وقد نشرت الوقائع المصرية فى اليوم نفسه اعلان الحماية وهذا نصه :

« اعلان بوضع بلاد مصر تحت حماية بريطانيا العظمى ٠

يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ٠

وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها » (٢) ٠

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ٧ من نوفمبر عام ١٩١٤ ٠

(٢) الوقائع المصرية : عدد ١٨ من ديسمبر عام ١٩١٤ ٠

وبهذا تطورت الحماية المقنعة التى استنها الاحتلال من قبل الى حماية سافرة •

وقد تبع ذلك أن أعلنت بريطانيا فى اليوم التالى لاعلان الحماية ، خلع الخديو ، وكان اذ ذاك بالآستانة عند اعلان الحرب بين انجلترا وألمانيا، وكان يتردد فى العودة الى مصر ، فلما عزم على الرجوع اليها رفضت بريطانيا لأن النية كانت قد استقرت على خلعه وقد تولى الامير « حسين كامل » عرش مصر (١) بدلا منه •

انتهت تطورات الحرب باعلان الحماية وقد فضلتها بريطانيا على الضم بعد أن استقر الرأى عليه ، وأبلغوه فعلا لممثليهم فى القاهرة (٢) وذلك لأنه كان نظاما يتفق مع سير الاحتلال لمرونته وتفاوت معناه فهو اذ يحمل معنى السيطرة لا يختلف كثيرا عن منطقة النفوذ السياسى وينتهى فى حالة الوسط دفاعا عن البلاد المحمية ، كما أن تعرضه لشئون البلاد المحمية أمر قابل للشد والجذب ، فالدول الحليفة لانجلترا مثلا والمشتركة معها فى الحرب تستطيع بذلك النظام أن تقبله لأنه يمكنها من القيام بكل شئون الحرب فى مصر بدون تقيد بالمستقبل وتستطيع مصر الرضوخ له كحكم القوة مع أمل فى المستقبل وبقبول شركاء انجلترا للحماية ورضوخ مصر لها تستطيع انجلترا من هذا وذاك أن تقضى أغراضها فى مصر •

وضعت اذن الاسس فى عام ١٩١٤ وهى :

أولا : قبل دخول تركيا الحرب ـ تخويل القوات الانجليزية فى مصر حقوق الحرب وحظر التعامل مع ألمانيا ـ انجلترا تأخذ لنفسها حق الدفاع عن مصر واعلان الاحكام العرفية •

ثانيا : بعد دخول تركيا الحرب ـ الغاء السيادة العثمانية ووضع مصر تحت الحماية ، وخلع الخديو عباس وعودة الامير « حسين كامل » لقبول سلطنة مصر •

وتدل الوثيقة الاولى ـ كما أسلفنا ـ على أن حكومة رشدى قد حددت موقفها على أساس الامر الواقع •

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ١٩ من ديسمبر عام ١٩١٤ •

(٢) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٣٧ •

أما الوثيقة الثانية فلها أيضا دلالتها ، فهى التى صدرت فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٤ متضمنة اعــلان مكسويل مسئوليته فى مراقبة القطر المصرى ليضمن حمايته ، وقد نشر مقتضيات هذه الحالة فقال :

ان السلطة العسكرية لا تحل محل الادارة الملكية بل تعد تكميلا لها، وان الأهلين اذا امتنعوا عن كل عمل يكدر السلام ، وعن مساعدة أعداء انجلترا أو اذا اتبعوا الاوامر عن طيب خاطر ـ فلن تتعرض لهم السلطة العسكرية ، وان ما تطلبه السلطة العسكرية من الافراد من خدمات أو ما يملكونه قابلة للتعويض التام ٠

ولقد أجاب رشدى عندما بلغه ذلك بأنه رأى ــ نظرا لغياب الخديو الذى تستمد منه الحكومة سلطاتها ــ الاستمرار فى مباشرة الاعمال تجنبا للمضار التى تلحق البلاد فى حالة تعطيل ادارتها الداخلية ٠

ولقد أرسل فى ١٩ من ديسمبر القائم بأعمال المعتمد الانجليزى تبليغا للسلطان « حسين كامل » ، كان بمثابة دستور أولى لنظام الحماية جاء فيه :

ان الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق قد سقطت عنهما وآلت لملك انجلترا ، ولكن حكومة انجلترا تعد ـ وديعة تحت يدها لسكان مصر ـ جميـع الحقوق التى آلت اليهــا بالصفة المذكورة ، وكذلك جميع الحقوق التى استعملتها فى البلاد مدة سنى الاصــــلاح الثلاثين الماضية ، وقد رأت أن أفضل وسيلة لقيام انجلترا بالمســـئولية التى يمكنها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانيــة اعلانا صريحا وأن تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد ، ثم أضاف الى ذلك : ان مســئولية الدفاع عن مصر تقع على عاتق دولته وان الرعايا المصريين لهم الحق فى أن يكونوا مشمولين بالحماية الانجليزية أينما كانوا ، وانه بزوال السيادة العثمانية ، زالت القيــود على الجيش المصرى وعلى حــق السلطان فى منح الرتب والنياشين ، ولكن المخابرات بين الحكومة المصرية ووكلاء الدول الاجنبية ستكون عن طريق الوكيل الانجليزى وانهــا ـ ولو أن من رأى الحكومة الانجليزية أن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الاجنبية لم تعــد ملائمة لتقدم البلاد ـ ترى فى الوقت نفسه أن تؤجل النظر فى تعديل هذه المعاهدات الى ما بعد الحرب ، وتعهدت الحكومة الانجليزية فيمــا

يختص بالادارة الداخلية ، بأنها ستحافظ على التقاليد المأثورة عنها ، وهذه التقاليد هي الدأب على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها فى حماية الحرية الشخصية ، وترقية التعليم ونشره ، وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية ، والتدرج فى اشراك المحكومين فى الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة في الرقى السياسى ، بل ان الحكومة الانجليزية ترى أن تحديد مركزها فى مصر تحديدا صريحا يؤدى الى سرعة التقـــدم فى سبيل الحكم الذاتى !

ثم انتهى التبليغ بالحديث عن الشئون الدينية فالحكومة الانجليزية ستحترم عقائد المصريين الدينية فقرروا أن تحرير هذه الحـكومة لمصر لم يكن ناتجا عن أى عداء للخلافة بل كان تحريرا لها من ربقة من اغتصب السلطة السياسية فى القسطنطينية (١) ٠٠ الخ ٠

وفى غداة اليوم الذى أعلنت فيه الحماية وفى اليوم الذى خلع فيه عباس الثانى وتولى السلطان « حسين كامل » (فى ١٩ من ديسمبر عام ١٩١٤) تألفت وزارة « حسين رشدى » وبقى الوزراء فى الوزارة الجديدة مع تعـديل يسير فى مناصبهم ، فقد أصبحت البـلاد وحكومتها تحت الحماية البريطانية والغيت وزارة الخارجية تبعـا لنظام الحمـــاية ، وتم تأليف الوزارة بكتاب من السلطان الى « حسين رشدى » بتكليفه بتأليفها وجواب رشدى بتولى المهمة ، ثم صدر مرسوم بتأليفها وتم ذلك كله يوم ١٩ من ديسمبر عام ١٩١٤ ٠

وانتقلت البلاد بهذا كله الى دور تاريخى جديد ، فقـــد تطور فى ظلها مركز مصر السياسى فى الداخل والخارج واذا كان موقف البريطانيين قد دعاهم الى تطور العلاقة بين مصر وانجلترا بما يحقق مراميهم فلم يكن موقف السياسيين المصريين القائمين بالحكم ــ اذ ذاك ــ يرتفع الى مستوى المسئولية بعـد أن قبلوا فى ظل الحماية بغـير دراسة وافية ما يضمن للبلاد حقوقها مستقبلا ٠

موقف الحكومة :

ولقد كان موقف الحكومة من هذا كله موقفا سلبيا لا ينم الا عن ضحالة فى الوعى القومى السياسى وقد نجم عنه اهمال فى الحرص من أجل

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، من ص ٢٠ ــ ص ٢٢ ٠

المستقبل ثم الانفراد بالمسئولية من دون الشعب ، والاسراف في الثقة ببريطانيا على حساب الشعب .

لم يكن رشدى رجل كفاح ، ولكن كان يؤثر المصالحة مع بريطانيا بالذات ، وقد رأى منذ بداية الحرب أن فى تسليم القيادة لها منجاة وخدمة لبلاده !

ولقد سار رشدى مع بريطانيا منذ البداية على أساس التسليم بالامر الواقع ، فكان متوقعا اذا عرضت بريطانيا عليه قبول اعلان الحماية على مصر ، أن يكون القبول أقرب منه الى الرفض ، ولكن نظرا لان العرض هذه المرة كان أمرا أخطر ومن شأنه أن يؤثر فى مركز البلاد السياسى ولم يكن مجرد قوانين استثنائية اقتضتها ظروف الحرب ، كان متوقعا كطبيعة الامور هنا أن يتدبر الامر فى القبول أو الرفض .

ولكن نظرا لأن طبيعة رشدى ـ كما قلنا ـ لم تكن طبيعة كفاح ولا كان ممن يتشوقون الى الاستقلال التام كان أقرب الى الرضا ، وقبول ما يعرض عليه أيضا لأنه لم يكن لديه الاستعداد والشجاعة على الرفض تحدوه الثقة ببريطانيا ولكن هل كانت تلك العوامل النفسية كافية وقادرة على ترجيح الاتجاه الحاسم نحو قبول الحماية بحيث ينتهى الامر الى قبولها ؟

لا جدال فى أنها كانت أقوى العوامل التى دفعت رشدى لقبول اعلان الحماية البريطانية على مصر ، ولكنها لم تكن كل العوامل ، فقد كانت لرشدى آراؤه التى مالت به نهائيا عن اطمئنان ، نحو التسليم التام لبريطانيا وتبرير قبول الحماية .

كان لا يجد غضاضة فى قبول الحماية لا من جهته ولا من ناحية بلاده ، اذ تراه يقول :

« انى اذا كنت وقعت بالقلم العريض على معاهدة مع انجلترا تضع مصر تحت حمايتها فما كان ذلك يكسب الحماية التى أعلنتها هذه الدولة سنة ١٩١٤ أقل صفة من المشروعية ، لأنى من الوجهة القانونية لم أكن مشخصا لمصر ، وانما كنت رئيسا لحكومة مصدرها القوة الانجليزية (١) فاذا كان لا بد من قبول الحماية ، وكانت أمرا لا غضاضة فيه ، فهى من ناحية أخرى ، أمر مفيد فى رأيه لبلاده ! فلم الرفض اذن ؟ » .

---

(١) احمد شفيق : أعمالى بعد مذكراتى ، ص ٣٦٢ .

كان رشدى يخشى على بلاده سـيطرة دولة أجنبية أخرى أشد من الانجليز ، فكان يخشى أن يطمع فيها الالمان ، فليس عجيبا بهذا أن يقبل الحماية فهى فى رأيه عصمة لمصر من ذلك ، وكان يخشى أن تضم بريطانيا مصر اليها ، فالحماية فى هذا أيضا فى رأيه ، فيها عصمة منهـا ، فقد تستدرجها للاغضاء عن ذلك !!!

يقول رشدى :

« قد اشتركت فى العمل مع الحماية لسببين :

الاول : خوفى على بلادى من سـيطرة دولة أجنبية أخرى ، أشـد من السيطرة الانجليزية ، اذ أن عصبة الامم كانت لا وجود لها ٠

والآخر : ان الحكومة الانجليزية كانت فى ذلك العهـــد تنقسم قسمين : قسم يريد الضم وقسم يكتفى بالحماية اذا وجدت سلطة محلية تقبـــل الاشتراك معها فى العمـــل ، وكنت أخشى اذا انتصر الانجلـيز وحلفاؤهم ــ وهو ما كنت أرجحه ــ أن تصدق الدول على الضم ان كان وقع ! » (١) ٠

سلم رشدى واختار الحماية عن استعداد نفسى وفكرى ولم يجد محيصا بمقارنتها بغيرها من قبولها ٠

يقول رشدى فى ذلك :

« لم يكن أمام رئيس الوزارة المصرية الا أن يختار بين ثلاث خطط :

الخطة الاولى (وهى التى سلكها) « خطة الحماية » ٠

والخطة الثانية وهى استثارة الشعب ضد الانجليز «وهى فى نظره» جناية على الوطن اذ لو عملت « بريطانيا » على احبــاط الثورة لكان من المحقق قمعها فى ساعات ٠

والثـــالثة موقف الانتظار وهذا مالا يتفــق مع الكرامة والواجب الوطنى لأن فيه تفويتا للغرض (٢) » ٠

قبل رشدى الحمــــاية على مصر عام ١٩١٤ وغــيرت من مركزها السياسىعلى أنها أمر لم يجد هو بدا منقبوله ولكن عناستعداد أولا لقبولها

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ٠

ثم لفائدة رآها ، وذلك كله في انتظار التغيير ، وراح رشدى وصحبه يتجاوبان مع ذلك مهللين تهليلا زاد موقفهم منها ايضاحا بما يشف عن اسرافهم فى الثقة ببريطانيا وتبرير لموقفهم منها ٠

فقد عدوا الحماية أمنية من الامانى التى طال اشتياقهم لتحقيقها ، فذكر رشدى فى حديث له مع مراسل الديلى كرونيكل عقب اعلان الحماية (١) :

« ما دامت قناة السويس حلقة اتصال بين أجزاء الامبراطورية البريطانية وطريقا لازما لانجلترا — فمن الطبيعى أن تنعقد بين بريطانيا العظمى ومصر صلات الود المتينة ، وزد على ذلك أننا أمة ضعيفة تحتاج الى صديق قوى يصون بلادنا من كل اعتداء ، ويكون على جانب من الحرية والارتقاء لييسر لنا أن نسير بارشاده فى معارج الحرية الى ذلك المقام الذى يليق بنا فى مصاف الدول ، وهذه الشروط متوافرة فى انجلترا ! » ٠

ثم تحدث فى الثامن من شهر يناير عام ١٩١٥ الى مراسل جريدة التيمس فقال :

« لقد حقق هذا التغيير ما أملته طويلا ، اذ كان من رأيى دائما أن مصر كبيرة الشأن بالنظر الى موقعها الجغرافى ، وانها تثير المطامع عند الدول الاخرى وهى ضعيفة لا يتأتى لها الدفاع عن نفسها ، فلكى تحافظ على وجودها ينبغى أن تكون تحت سيطرة دولة عظيمة ، وهى تصبو الى بلوغ استقلالها الداخلى والامة الوحيدة التى يتوافر فيها الشرطان اللازمان هى بريطانيا العظمى ، لأنها قادرة على حماية مصر وتقاليدها الحرة خير ضمان لتحقيق آمالنا ، أما استقلال مصر الداخلى الذى لا أظن بلوغه ممكنا الآن — فأرى أنه قد يتسنى البدء فيه بتخويل المصريين رأيا نافذا فى المسائل البحتة التى لا علاقة لها بموضوع الاجانب : مثل الاوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية (٢) ٠٠٠ » ٠

ولم تكن الحماية لدى رشدى وصحبه كأمر لا مفر فيه ، شرا كلها اذن كما تجلى ، فلما تحفزت البلاد للمطالبة بالاستقلال حصر الغرض من سفره فيما بعد الى انجلترا فى تنظيم هذه الحماية ٠

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٦٠ ٠
(٢) الصفحة السابقة من المرجع السابق ٠

وليس بدعا ألا يشعر رشدى بالغضاضة من بقاء المصريين محكومين لدولة أجنبية ، لأنه قد نبت في بيئة الحاكم ولم ينبت فى بيئة الشعب المحكوم ، فهو من ناحية ، لا يمتزج بروح الشعب اذ ينحدر من سلالة تركية ، فلا بدع ألا يشعر ببعض الاهانة المثيرة للنفوس اذا قيل ان المصريين لا يصلحون كذلك للحكومة المستقلة •

لم يرتفع رشدى ولا السلطان ـ اذ ذاك بهذا ـ الى المسئولية الكبرى ولم يكن ذلك صعبا عليهما ادراكه لو شاءا ، ولكن كان صعبا عليهما الانفعال والتأثر به ، لأنهما لم يكونا صاحبى القضية بقدر ما كانا كالمحامى الذى يتقن فقط مسئوليات وظيفته •

ولقد قبل السلطان تولى العرش ، كما قبل رشدى وزملاؤه تولى الوزارة فى ظل النظام الجديد ، ومهما يكن الامر فقد قبل الجميع الامر الواقع قبولا سلبيا بلون من الشعور الذى يحمل صاحبه على الاذعان فى غير تدبر وبعد نظر نحو مستقبل العلاقات بين البلدين بما لا يضيع على مصر حقوقها •

ولم يكن من الصعب عليهما مع هذا تدبر الحاضر فى نظرة مثالية ، بل كان الأمر ميسورا أن يمضى كل ساعيا لانتزاع ضمانات للمستقبل ولا سيما بعد اعلان الحماية فى مقابل الضمانات التى أخذتها بريطانيا على مصر •

كان رشدى قد سبق له أن سعى ـ قبل اعلان الحماية ـ مع « لطفى السيد » للعمل من أجل الاستقلال فأخفق فى وقت لم تكن تركيا قد دخلت فيه الحرب ضد بريطانيا ، فلم يكن ثمة ما يدعوها مثلا لان تنقض تعهداتها بسلامة تركيا فتسيء من ثم الى مصر ، فلم يكن بدعا أن يحاول الارتباط بضمان مع بريطانيا بعد أن دخلت الحرب ضدها ، وأعلنت الحماية وتحرج مركز مصر بل أصبح الامر أدعى الى ذلك حتى لا تضيع مصر طعمة مستساغة لطمع الاستعمار البريطانى •

ولقد كان السلطان حسين يتمسك فى مفاوضاته مع السير رونالد ستروس السكرتير (١) الشرقى بالوكالة الانجليزية بأن يكون لمصرعلمها ولشعبها جنسيته •• وغير ذلك ، وكانت الطرق أمامه مهيأة لأن يطلب ضمانا لاثبات حق بلاده ولكنه لم يفعل •

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ص ٤٤ •

كان كلاهما يعلم أن بريطانيا ـ اذ ذاك ـ فى حاجة لمعاونة مصر وانهـا فى حاجة لاقامة حكومة مصرية شرعية ، ولكنهما لم يقـدرا ذلك تقديرا كافيا اذ كانت نظرتهما نحو مصر لا ترتفع لمستوى المسئولية .

كان فى استطاعتهما نيل عهد مكتوب بأن الحماية اجراء تقتضيه الحرب بحيث يستدعى الامر فى نهاية الحرب اعادة النظر فى العلاقات بين مصر وبريطانيا ، وان يطلبا من الانجليز عهدا بالتسليم بأن هذه الحماية اجراء حربى تقبله مصر ، كما قبلت الاجراءات ضد ألمانيا وحليفاتهـا كضرورات اقتضاها وجود قوات الاحتلال فى مصر ، وأن يطلب منهـا أيضا عهدا بأن تعيد لمصر الحقوق المختلفة التى عدتها وديعة فى بلادها .

وأعلنت بريطانيا فى التبليغ أنها تعد ، وديعة تحت يدها لسكان مصر ، جميع الحقوق التى آلت اليها بالصيغة المذكورة ، وكذلك جميع الحقوق التى استعملتها فى البلاد مدة الثلاثين سنة الماضية ، أما كان جديرا « بحسين رشدى » أن يطلب من الانجليز وثيقة صريحة بهـذا ، وتنشر هذه الوثيقة فى الصحف لتكون بمثابة ميثاق للامة ، وخاصة أن ذلك كان من الممكن فى ذلك العهد الذى كان الانجليز فيه مضطرين الى ممالأة كل أمة تنضم الى صفوف الحلفاء ؟

ويبدو فى الواقع أن « رشدى » لم يفعل ذلك لأنه كان ـ كما قلنا ـ قد وضع لنفسه عند قبول اعلان الحماية البريطانية على مصر خطة للعمل لضمان حقوق مصر من بريطانيا بوسيلة أخرى غير هذه الوسائل ، خطة كانت تستجيب اليها طبيعة وروح منهجه الذى سار عليه منذ بداية الحرب ، أساسها الاستعداد ، وتدعمها الثقة فى بريطانيا والتسليم لها ، تسليما بلغ حد الاسراف !

فلم يحاول رشدى عند قبول الحماية أن يساوم ليحصل على تحفظات يضمن بها حقوق مصر لأنه كان قد آل على نفسه بلوغ ذلك عن طريق آخر ، هو اتخاذ السلبية عن ثقة فى بريطانيا وعدم تدبير سبيل لكسب ثقتها ومن ثم ضمان الحقوق . مع العلم أن هذه الخطة لم تكن تبلغ مصر غايتها بسهولة لأنها كانت تقوم على الضعف والتسليم ، اللذين يثيران طمع الخصوم استخفافا بالحقوق لأنها لا تثير احترامهم ، فهـو يحاول بالسلبية ايجاد ضمان لحقوق لا ترد الا انتزاعا بالايجابية ، وكانت لخطته آثارها السيئة فى أعقاب الحرب كما سنرى .

ولقد آثر رشدى السير فى هذه الخطة مع بريطانيا لضمان الحقوق

فاقتضته الخطة أن يعمل جاهدا وأن يكسب ثقتها فلا يثير فى وجهها أية معارضة ، فلا بدع ألا يطالبها بتحفظات لأنه كان هو والخطة السابقة فى ولاء تام .

ولم يدافع رشدى عن الحماية أمام الشعب حفاظا على هذه الخطة خشية اثارة المعارضة فتراه يقول :

« ولم أدافع عن الحماية أمام الشعب الا لأنى كنت أرى أن من المصلحة أن يتجنب كل عمل عدوانى ضد الانجليز بل أن نساعدهم على قدر الامكان حتى نعامل عند الصلح معاملة الصديق المتحالف » (١) .

ومن وحى هذه الخطة أيضا آثر أن ينفرد بالحكم ولم يجد نفسه فى حاجة لاستشارة الامة ، فلم يدع الجمعية التشريعية فى الواقع الا خوفا من اثارة المعارضة لا بحجة الخوف من موافقتها على الحماية كما قال بعد ذلك ولم يعد نفسه مقصرا فى دعوتها للنظر فى النظام الجديد ويقول :

« ولو انى عملت بهذا الرأى التعس لكانت النتيجة الحصول على قرار رسمى من ممثلى الشعب بالاعتراف بخلع الخديو .. وبالحماية المبسوطة على مصر فى وقت لم يكن قد حدد فيه معنى الحماية (٢) » .
والحق أن عدم دعوته الجمعية التشريعية ــ ان بدا أساسا ــ اجراء كانت تستلزمه خطته الحقيقية حرصا على عدم اثارة المعارضة ، فقد كان استجابة من ثم لرغبة بريطانيا الصريحة فى اقصائها عن العمل السياسى خوفا من معارضتها أيضا اقصاء عزز خطة رشدى ، فلو كانت بريطانيا تعترف بأن ثمة أى اتجاه من الجمعية التشريعية للاعتراف بالحماية أو كانت تلك نظاما مواليا للاحتلال ــ ما توانت لحظة فى دعوتها لتحظى منها بالاعتراف الرسمى بها ، وقد كان الاعتراف بالحماية بهذه الصورة التى كانت عليها يعد فى مصلحة بريطانيا أمرا خطرا أعظم الخطر على مصر اذ لا يخفى أن الحماية نظام غامض مبهم ، لم يكن قد حدده العرف الدولى تحديدا دقيقا فهى عنوان لحالة قد تطبق حتى لا تمس الشخصية الدولية للبلاد المحمية الا فى علاقاتها الخارجية ، وقد تتسع حتى تستوعب البلاد المحمية بما تفقد معه شخصيتها .

---

(١) أحمد شفيق : أعمالى بعد مذكراتى ، ص ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

والواقع أن بريطانيا كانت تعمل ـ اذ ذاك للمعارضة ـ حسابها فى شتى أطرافهـا ولا سـيما فى الجمعيـة التشريعيـة ، وقد كانت تخشى معارضتها وكانت عيونهـا سـاهرة لمراقبة زعيم هذه المعارضـة « سعد زغلول » ، فلم يغب عنها انه لم يعترف بالحماية فى انتظار الفرصة مؤثرا الصمت الى حين ·

وقد حدث أن توفى صهر « سعد زغلول » « مصطفى فهمى » رئيس النظار فأرسل الخديو الى سعد فى ١٥ من سبتمبر عام ١٩١٤ وكيل الجمعية التشريعية ، يعزيه فى صهره ·

ويقول أحمد شفيق : « من ضمن برقيـة وردت فى ٢٥ منه قال رشدى : انه فى زيارة للوكالة الانجليزية قال له شيتهام : ان برقية أفندينا لسعد بمناسبة وفاة « مصطفى فهمى » كان لها وقع سيىء لأنها لا تعد تشجيعا للمعارضة فحسب بل تسببها (١) » ·

ولقد انفرد بالسلطة من دون الجمعية التشريعية ، وجاء أقصاؤها بناء على استعداد مستعجيب لرغبة انجليزية ، ما ان أبديت حتى أذعن لها رشدى !

وقد أبرق رشدى لمحب « باشا » يقول :

« ان الوكالة البريطانية طلبت مرارا وقف الجمعية التشريعية الى أن تنتهى الحرب بحجة امكان تداخلها فى المسائل السياسية (٢) ·· » ·

فرد رشدى بأن هذا الاجـراء ربما لا يرضى الرأى العـام ورأى تأجيلها الى تاريخ انعقادها المقبل ، فقبلت الوكالة ذلك الاقتراح على أن ذلك انتهى فى النهاية الى تأجيلهـا (٣) الى موعد غير معلوم ، ومن ثم حرمت البلاد قوة فعالة كان تتجمع فيها قوى الرأى الناجح المنظم ·

ومن هذا يتضح كيف كان موقف رشدى من الجمعية التشريعيـة مستجيبا لخطته فى اتجاه الرغبة البريطانية ·

على أنه مهما كان محتملا أن توافق الجمعية على الحمـاية كضرورة

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ قسم ٢ ص ٣٥٠ ·

(٢) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى من القسم الثانى ص ٣٥٥ ·

(٣) ظلت الجمعية التشريعية تؤجل من تاريخ الى تاريخ حتى صـدر الأمر بتأجيل انعقادها الى أجل غير مسمى · انظر الوقائع ١٨ من اكتوبر ١٩١٤ و ٣٠ من ديسمبر ١٩١٤ و١٣ من فبراير سنة ١٩١٥ ·

تحتمها الحرب دون أن تمس كيان مصر السياسى ، فان ذلك كله مهما كانت نتائجه ، كان من شأنه أن يعزز حقوق مصر ، وكان تشكيل الجمعية يحظى بالكثير من ذوى الرأى والشجاعة والتضحية ، وكان مرجحا أن يؤدى ذلك الى تلاحم فكرى ينتهى بمشروع يطالب بريطانيا بتحفظات على أقل تقدير ، وفى هذا وذاك كسب قومى ، ورأى الجماعة غير رأى الفرد ، ولكن لم يكن ذلك فى حسبان رشدى لأنه كان أساسا يسير مع خطته فى تحاشى كل احتمال يثير المعاضة أو القلق .

لقد كان رشدى نزيها ويبدو أنه كان فى ظاهره هذا حسن القصد، ولكن كيف يكون حسن القصد سليما مثمرا اذا قام على خطة من السلبية يصاحبها عدم التدبر ؟

وحتى لو صح وكان حسن الظن لا يقصد الاضرار ببلده ، فهل يجدى حسن الظن السلبى ازاء مصير شعب بأسره ليعفيه من المسئولية ؟

ان « رشدى » فى حسن ظنه لم يكن ايجابيا فيما قصده لأنه لم يكن مثاليا بحيث يعمل بالأحوط لتأمين حقوق مصر ، ومسلك كهذا يعد - بلا جدال - جزءا من حسن القصد الايجابى ، وكان ذلك سهلا ميسورا فكم من فرصة برزت أمامه بعد أن أخفق فى البداية فى طرق القضية المصرية .

ولم يبلغ اسرافه فى الثقة وحسن الظن ببريطانيا فى موقفه السلبى حد الاستسلام لبريطانيا بكل ما تريد انتظارا لوفائها ! بل أمعن فى ذلك فعول على تحميل شعبه من التبعات ما لم يكن مطلوبا منه بما كان من شأنه أن يزيد طمع الخصوم فى مصر !

فقد أعلنت بريطانيا فى البلاغ الذى نشرته على المصريين بمناسبة اعلان الحرب بينها وبين تركيا أنها أخذت على عاتقها وحدها جميع أعباء الحرب بدون أن تطلب من شعب مصر أية مساعدات نظير اخلاده للسكينة وعدم قيامه بأى عمل يعرقل أعمال الجيوش البريطانية بمصر ، أو تقديم أية مساعدة للجيوش المعادية ، ومع هذا كله ، يمضى رشدى - بامعان - فى الثقة ببريطانيا الى حد الخروج عن ذلك كله فيدعو الرديف بمصر لحمل السلاح والخدمة فى جانب بريطانيا ثم يجند نحو مليون من العمال المصريين بالاجبار لا للدفاع عن مصر فحسب ، بل لمساعدة القوات البريطانية فى فلسطين وسورية وفى ميدان الدردنيل حتى استخدمت بعضهم فى الميدان الغربى فى فرنسا ، كما اشترك الجيش المصرى نفسه

فى الحرب ، وقد قامت هذه الوزارة بجمع المحصولات على اختلاف أنواعها والدواب وغيرها لمصلحة السلطة العســكرية البريطانية ، ونجحت فى جعل مصر معسكرا للجنود البريطانيين ومنشآتها فى خدمتهم كما منحت وزارة رشدى الحكومة البريطــانية ثلاثة ملايين من الجنيهــات دون أن تطلبها منها ، وغير ذلك !

لقد كانت خطورة موقف وزارة رشدى لا تكمن فقط فى اخفاقها فى المساومة مع الانجليز ، وأخذ ضمان بحقوق البلاد وتسليمها لبريطانيا عموما ، ولكن كان فى اسرافها فى الثقة ببريطانيا فى الاعطاء لا الاخذ والاسترضاء حتى دعت الاحتلال الى الانحراف والمغالاة فى موقفه من قضية مصر !

ولقد كان مسلك « حسين رشدى » مسلكا ضعيفا فى اقناع الانجليز بالاهتمام بالاستقلال ٠ كان من شأنه أن يجنح بهم الى اهمال المطالب الوطنية بل واتهام دعاة الاستقلال بالشطط والمبالغة والاجتراء الذى لا تصح معاملته بغير الشدة ، وهو موقف شجع بريطانيا على الاستخفاف بحقوق مصر ٠

لقد أدى اسرافه فى الثقة بالانجليز الى أن أدخــل فى روعهم أنهم جديرون بالابقاء على الحماية ، فقد تبين لهم ـ اذ ذاك ـ أن هناك من يقبلها ٠

فلم تمض بضعة شهور حتى كانت الحماية قد نقضت كل ماعاهدت عليه مصر ، ومضت تطلق يدها فى البلاد وتسيطر عليها وهى مطمئنة ، فى ظل حكومة رشدى بل ومضت منذ عام ١٩١٧ تعد العدة بالتشريع لاصلاح القضاء ثم وضع قانون مصر النظامى تمهيدا لحصر السلطة فى يد المعتمد البريطانى ٠

لقد كان « حسين رشدى » نزيها ولربما كان حسن القصد ولكنه فى هذا لو صح ، لم يرتفع لمستوى المسئولية فكان غير ايجابى لدرجة الانحراف عن حسن القصد !

وكانت العلة فى ذلك أنه وصــاحبه « عدلى » لم يكونا من بيئــة الشعب المحكوم بحيث لا يشعران بقضــية الاهانة المثيرة اذا قيــل ان المصريين لا يصلحون للحكومة المستقلة ، وقد يكونان مخلصين ، ولكن ليس بقدر الاخلاص الذى حمل صاحبه على الاذعان والتسليم للكريهة من أجل مصر الا بمقدار ، لانه كان اخلاصا تنقصه الحرارة والحرص فى مواجهة

الصعاب ، فلم يكن شعور رشدى بالقضـــية الا شـــعور المخلص لأمانة الصنعة ، لا شعور صاحب القضية •

موقف الشعب :

لقد وقفت وزارة رشدى موقفا سلبيا وبيدها السلطة ، وكان من الطبيعى أن تؤثر بهذا على الشعب فى سواده الاعظم وقد كان له موقف ان اتسم بالسلبية لعدم توافر الامكانات والزعامة ، فقد استطاعت الطليعة المثقفة التعبير عن نقمتها على عهد الحماية برغم موقف الحكومة •

كانت مصر ـ اذ ذاك ـ يسودها شعور قومى ، ولكن لم يكن على درجة واحدة من حيث الاختمار السياسى ، فكان ضحلا بين سواد الشعب وكان بين المثقفين يمثل أعلى مراتبه اختمارا ، لذلك كانت السلبية أوضح بين سواد الشعب وجودا وتعبيرا يمكنها من ذلك فرض الاحكام العرفية وتدفق القوات المسلحة البريطانية على مصر ، وأقـل وجودا بين الطبقة الواعية التى تميزت بالايجابية ازاء القضية السياسية المصرية بعد اعلان الحماية بسبب موقف الحكومة •

واذ يبدو موقف الحكومة السلبى عقب اعلان الحمـاية وانفرادها بحمل المسئولية ، من شأنه أن يمكن روح السلبية بين الشعب الاعزل فى ظل الحماية المسيطرة ، فانه لم ينتبه للنتيجة نفسها برغم وقوع هذا بين المثقفين ، فقد كان وقع اعلان الحماية منهم مؤلما وايجابيا •

ولم تكن بريطانيا تخشى ـ ورشدى يمكنها من البـلاد ـ شـــيئا خشيتها من قيام المعارضة بزعامة هذه العناصر وكان المثقفون موزعين بين الجمعية التشريعية والحزب الوطنى والمهن الحرة •

وكان هؤلاء فريقين : فريقا يؤمن بالاســتقلال عن تركيا وانجلترا على السواء ، ولكنه لا يعترف بالاسلوب الثورى لتحقيق ذلك ، وهـو يتمثل عموما بين مثقفى حزب الامة •

وفريقا يؤمن بالاستقلال التام عن انجلترا مع عدم التهوين بالروابط الاسلامية والخلافة ، ويحاول مقاومة الانجليز بالتعاون مع الأتراك للقضاء على الحماية ، وكان بعضهم يتشيع للخلافة وللالمان وهؤلاء هـم شيعة الحزب الوطنى •

وكان يشغل هذا الفريق أكثر مما شغل الفريق الاول ، اعلان الحماية ، فقد استثارهم ذلك الاعلان من ناحية قومية ثم من ناحية الجامعة الاسلامية ، وكان هؤلاء من أنصار الحزب الوطنى المؤمن بالعمل الثورى سبيلا للوصول الى أهدافهم .

وقد ضمت الجمعية التشريعية الفريقين بجانب جمهرة من الملاك الاعيان وزعماء الطوائف المتشبعين للطرفين والمستقلين عنهما .

ولقد كان لهؤلاء دورهم فى التعبير عن موقف الشعب من الحماية برغم موقف الحكومة السلبى ، وسيطرة الاحتلال المباشرة فى ظل الحماية .

حاول « لطفى السيد » التعبير عن الاتجاه الاول منذ البداية مع رشدى ، وكانت فكرة الاستقلال تشغل ذهنه ، ولكنه لم يوفق فاعتزل السياسة .

وكان أول احتجاج من مصر على الحماية البريطانية هو قرار (١) من رئيس تحرير جريدة الشعب بأنه سيحتجب من ذلك اليوم ليعود الى الظهور حتى لا تنشر الجريدة اعلان الحماية المشئوم والبلاغات الخاصة بالحماية .

ولقد عمدت السلطات البريطانية الى اضطهاد الحزب الوطنى ومطاردة رجاله وتشتيت شملهم واعتقال الكثير منهم ونفى بعضهم الى مالطة وأوروبا .

ولا شك أن خروج عدد كبير من العناصر الثورية من الحزب الوطنى كان قد أحدث فراغا كبيرا بين المثقفين الثوريين استحال معه تكوين القيادة الشعبية .

ولقد اضطر عدد كبير من هذه العناصر للهجرة للآستانة واتخذ مركزهم فيها ينجلى عن مصر من أواخر عام ١٩١٤ ، وكانت الآستانة تفتح صدرها للمصريين ليتخذوها مركزا لنضالهم ، فلما حيل بين الخديو والعودة ، كان التجاوب بين الطرفين واضحا للتعاون ضد الانجليز .

اذ ذاك اعترف محمد فريد بأنه لا يمكن للحزب الوطنى ولا للاتراك

---

(١) الشعب عدد ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤ .

عمل شيء بدون مساعدة الخديو ، وبهذا بدأ العمل من جديد بين الخديو و « محمد فريد » ورجاله فى الآستانة لمقاومة الاحتلال فى مصر ٠

ولقد انتقل مركز المعارضة الى الآستانة وأخذ ينشط فى رسم الخطط والتحدث فى الشئون المصرية عن أسماء الفدائيين الذين يمكن الحصول عليهم من أعضاء الحزب الوطنى وقد رأى أعضاؤه ان من الواجب التفكير فى طريقة لتحريض الطلبة المصريين على القيام بواجب الوطن عليهم(١) ٠

وبدأ التقارب بين المثقفين من المصريين فى الآستانة والعناصر الالمانية، وكانت تركيا ـ اذ ذاك ـ على وشك اعلانها الحرب مع المانيا ضد الحلفاء واعداد حملة ترسلها الى مصر لتخلصها من الاحتلال البريطانى ٠

ثم أخذ الموقف يحتدم بحثا عن خطة للنضال ضد بريطانيا فى مصر بعد عزل عباس واعلان تركيا الحرب ضد الحلفاء ٠ فأخذ ذلك ينجلى عندما أرسلت تركيا فعلا حملتها لتخليص مصر من الاحتلال ٠

وكان ثمة شعور باطنى يخالج الكثيرين فى مصر ـ اذ ذاك ـ بأن انتصار الالمان والاتراك معناه الخلاص من الحماية البريطانية والاحتلال وكان ذلك بين المثقفين المتشيعين للخلافة وللالمان ٠

وعلى الرغم من تكتم الاخبار اذ ذاك ، وشدة الرقابة على الصحف والرسائل تخللت مصر اشاعات مستفيضة عن اعلان استقلالها والاعتراف بسيادتها فى الآستانة ، وترددت أنباء الحملة التركية المرجح ارسالها الى قناة السويس ، فذاع فى أنحاء مصر أن الخديو السابق قادم وبصحبته لفيف من المصريين على رأس جيش لطرد الانجليز واعلان الاستقلال ٠

ولقد أرسلت تركيا بالفعل قوتها الحربية فى فبراير عام ١٩١٥ الى ضفة القناة الشرقية ، فترامت بذلك أنباء تناقلها الناس ولم تشر اليها الصحف (٢) ٠

وكان المتشيعون للالمان ودولة الخلافة ، يتوقعون أن الجيش المقبل لن يستطيع الانجليز صده وكان أكبر رجاء المتشيعين ، أن تثور مصر على الانجليز ، فيهون على الجيش التركى أن يتخطى القناة فينضم اليه المصريون فتحل الكارثة بالانجليز !

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، قسم ٢ جـ ٢ ص ٣٦٣ ٠

(٢) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ٧١ ٠

غير انه لم يصل الى القناة الا القليل يصاحبه بعض المصريين الذين كانوا بالآستانة الا أن هذا العدد لم يثبت للانجليز ، ولم يستطع تخطى القناة ، فارتد على اعقابه ٠

ويبدو ان هذه القـــوة الصغيرة كانت تطمع من جانبها أن يبدأ المصريون بالثورة ليسهل عليها تخطى القناة لاشتغال الانجليز بقمع هذه الثورة كما كان المتحفزون من المصريين ينتظرون أن تتخطى القوات التركية القناة ليبدءوا حركتهم وكان اتكال كل من الفريقين على الآخر من أسباب تقهقر هذه القـــوة التركية وبقـاء مصر هادئة ، ولكن كانت السلطات العسكرية يقظة ساهرة لقمع كل حركة تحرك الثورة ٠

بدأ اليأس يدب فى قلوب أعضاء أنصار الاتراك والالمـان والخديو منذ تقهقر القوات التركية ، فقـد حرموا على الاقل القـوة التى تسقط الحكومة الموالية للاحتلال ، وبدأت السلطات العسكرية البريطانية بعد قليـل حركة انتقام فنفت عددا غير قليـل ممن تشتبه فيهم من المصريين لميولهم نحو الخديو أو ضد الانجليز الى مالطة واعتقلت كثيرين « على أن تبرم أهـل الريف المصرى بهذه التصرفات من جانب السلطـة العسكرية البريطانية لم يكن له أى مظهر وانمـا بدأت مظـاهر التبرم والقلق بعد زمن من بدء الحرب وبعد أن هاجمت القوات التركية قناة السويس وردت عنها(١) » ٠

وبقدر ما كان القلق يتجلى بين المثقفين عقب اعلان الحماية فى تطلع للخلاص منها ، كان ثمة نقمة ضد السلطان بالذات لقبوله هذه الحماية ، وقد تجلى ذلك بين الطلبة عندما اعتزم زيارة معاهد العلم فزار بعضها ، وكان من مظاهر سخط الشباب على الحماية والانقلاب الذى استتبعه ، انه لما جاء دور زيارته لمدرسة الحقوق اتفق معظم طلبتها على الامتناع عن الحضور فى اليوم المحدود لهذه الزيارة السلطانية وكان ذلك فى ١٨ من فبراير عام ١٩١٥ ، ونفذوا عزمهم ، وكان ذلك الاضراب بمثابة مظاهرة صامتة(٢) ضد الحماية ٠

ولقد أدى ذلك الى توقيع العقاب على الطلبة بالفصل تارة ، أو الحرمان من الامتحان تارة أخرى ٠

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ٧٢ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ص ٢١ ٠

وتجاوز سخط الشعب فى خاصته المثقفة على الحماية الى السخط على السلطان حسين نفسه ، وكان من مظاهر ذلك أن اعتدى عليه مرتين :

الاولى بالقاهرة فى ٨ من ابريل عام ١٩١٥ بعيار نارى على يد أحد التجار حين مروره بشارع عابدين فأخطأه !

وبعد مرور شهرين وقع اعتداء آخر فى ٩ من يوليو عام ١٩١٥ فى الاسكندرية ، فقد ألقيت عليه فى أثناء سيره بموكبه الى المسجد قنبلة من نافذة أحد المنازل المطلة على شارع رأس التين ، فسقطت على الارض دون انفجار وكان المتهمون فيها (١) لفيفا من شباب مصر المثقفين الفدائيين الذين انتظم بعضهم فيما بعد فى المنظمات السرية ضد الاحتلال ٠

واذ نال المثقفين من الاضطهاد ما حرم الشعب تبلور زعامته على أيديهم فأخفقت آمال هؤلاء من اثارة الثورة عقت الحملة التركية الفاشلة، كان لهم دور آخر فى الآستانة لاشعال نيران الثورة بتنظيم المخابرات مع مصر ٠

وقد تفتق الموقف فى الآستانة عن التئام بين بعض العناصر المصرية والالمانية بما انتهى بوضع مشروع باشعال ثورة فى مصر (٢) ٠

ولقد بدأ ذلك باتصال أحمد شفيق بالبارون مكس أوبنهايم الالمانى بناء على رغبة عباس لمهمة شاءها ٠

وكان المؤرخ « أحمد شفيق » فى خدمة عباس وهو مبعد خارج مصر فى بداية الحرب ، فلما اقتضت ظروف الخديو أن يتصل شفيق به كانت ثمرة اتصاله بالرجل بدء المخابرات مع مصر ٠

حضر البارون وأخبر « شفيق » بأنه سيقيم بالآستانة عشرة أيام وبعدها يتوجه لدمشق ويقيم فيها لنشر الدعاية الاسلامية ، وتوزيع منشورات فى مصر ثم سافرا معا الى الآستانة ، ولما خلا شفيق بالبارون قال له :

« ان مهمتى تنحصر فى نقطة واحدة هى جمع كلمة البلاد الاسلامية حول الخليفة على أن تكون كل مملكة مستقلة استقلالا داخليا ولكنها ترتبط بهذا المركز وان هذا الوقت هو أنسب الاوقات للقيام بالحركة لان

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ص ٣٤ ٠

(٢) دكتور عبد العزيز رفاعى : أحمد شفيق المؤرخ ، ص ٥٠ ــ ٥٣ ٠

الدول فى وقت السلم تعادى هذه الفكرة أما الآن فلا يمكنها عرقلة المساعى » .

ولتنفيذ ذلك المشروع فكر فى تشكيل هيئة باسم شيخ الاسلام بالآستانة للدعاية وانشاء صحيفة عربية لاذاعة هذه الفكرة فى البلدان الاسلامية على أن تطبع هذه الصحيفة فى دمشق ، وقد نصحه « أحمد شفيق » بانشاء صحيفة باسم الاتحاد الاسلامى فوافق ، وصرح بأن لديه الاموال اللازمة ، ثم طلب من شفيق مساعدته فى تحرير بيان بأسماء المصريين فى الآستانة والشام لانتخاب هيئة التحرير مع تبيان ميولهم السياسية وثرواتهم ، كما طلب مساعدته فى امتحان مندوبين فى روما ونابلى واثينا لجمع المعلومات عن أحوال مصر وتشكيل «قلمين» للمخابرة. أحدهما فى نابلى والآخر فى بيروت واستخدام بعضهم فى الاتصال بالمخلصين للخديو بمصر لاشعال الثورة وقت لزومها وانه يعتقد أن بين أصحاب الطرق من يقدر على ذلك ولهذا طلب منه مايأتى :

استخدام أرباب الطرق :

١ ــ كتابة تقرير عن مشايخ الطرق فى مصر وأمثالهم فى الشام والآستانة والحجاز .

٢ ــ البحث فى مصر عن أشخاص أمناء يمكن أن ترسل اليهم الخطابات بالنشرات ونسخ الصحيفة المزمع انشاؤها .

ثم زار شفيق البارون فى ١٢ من ابريل سنة ١٩١٥ ومعه الدكتور « سيد كامل » فقدمه له وكان قد حرر كشفا بأسماء المصريين فى الآستانة والشام وأوروبا ثم تركه للاستمرار فى العمل مع البارون ، وبعد ذلك اتفقوا على وضع برنامج يأخذ كل منهم صورة منه وقد أعد فعلا فى هذا اليوم برنامج مقسم الى عدة فصول تتلخص فيما يأتى :

تحديد مهمة الجمعية السرية فى مصر : تتلخص مهمتها فى الحصول على أخبار صحيحة عن مصر والقيام بثورة عامة فيها تستمر حتى انتصار الحملة التركية .

نظام المخابرات فى الجمعية السرية بالاسكندرية :

١ ــ تصبح المخابرات بين الوطن فى مصر والخارج بوساطة أحد المصريين بالاسكندرية حيث يكون للجمعية مركز سرى .

٢ ـ يتصل مركز فينا بمركز الاسكندرية وعليه ارسال التعليمات اللازمة والبحث عن مندوبين لارسالهم الى طرابلس واثينا ونابلى ٠

٣ ـ يؤلف مركز بسفارة ألمانيا فى الآســتانة يتصل به مركز فينا ويتلقى المعلومات التى أرسلت للاسـكندرية وعلى السـفارة الالمانية تزويد السلطات التركية والالمانية بالمعلومات وذلك باستعمال شـفرة وحبر كيماوى ٠

٤ ـ تكون لدى المراكز الثلاثة شـفرة بحبر خاص للمخـابرات ويعدها مركز فينا باللغــة العربية والافضل وضع الشـفرة بين أسطر المصحف ٠

وقد فكروا فى أن يكون عبد اللطيف المكباتى فى مركز الاسكندرية لأســاليبه المرنة ، وعند رفضـه رئى أن يختــار « أحمد حلمى » ثم اختـــاروا أن يكون « على الشمسى » معتمــدا فى نابلى اذا قبـل صديقه المكباتى أن يكون معتمدا فى الاســكندرية ، وفى حالة قبــول الشمسى يقيم فى نابلى ويقابل جميع المســافرين القادمين من مصر لمعرفة أفكارهم عن حالة البلاد فاذا رفض المكباتى والشمسى يختار « اسماعيل لبيب » فى نابلى وهو صديق «لاحمد حلمى» ، ثم اختير «ابراهيم صادق» الضابط السابق فى البحرية العثمانية ليكون معتمدا فى أثينا « وعلى محمد سلام » الضابط بالحربية على الحدود الطرابلسية ليتسلم مايرسل من أثينا ويسلمه لمعتمد الاسكندرية «وعلى أحمد أبو على» الضابط بالجيش العثمانى ليكون مراسلا للجهات الصحراوية وأن يترك سفر المراسلين الى طرابلس لتقدير « اسماعيل لبيب » الذى يتصل « بأنور باشا » ليأخذ منه خطابات توصية لشيخ السنوسيين « وفوزى بك شقيق أنور باشا » ٠

ولقد اتفقوا على طريقة المخابرة مع المكباتى لاستطلاع رأيه بالقبول أو الرفض ، كما فكروا فى طريقة أخرى لتوصيل الرسائل أو فى توصيل النقود والمقترحات ، فرئى انه اذا أمكن عمل هذه الاشياء فى طرابلس فعلى مندوبهم هناك أن يتسلمها ويوصلها الى أقرب نقطة فى الحدود المصرية وتسليمها لمن يعينهم مندوب الاسكندرية ٠

واذا لم يمكن عملها فى طرابلس فعلى مندوبهم فى أثينا أن يحصل عليها ويرسلها فى المراكب الشراعية المستعملة لاستخراج الاسفنج ويعهد

بها الى أشـــخاص موثوق فيهم من أهالى طرابلس أو من مسلمى كريت لايصـــال هذه الاشياء الى طرابلس ، أما خطا اثينا ونابلى الى الاسكندرية فلا يجوز استعمالهما لخطورتهما ، أما ارسال النقود الى مصر فمركز فينا يقوم بذلك .

ورئى أن تقـــوم الدعاية فى مصر على الامـــور التى تنفر المصريين وتستثيرهم ضد عدوان الانجليز عليهم وعلى دولة الاسلام وعلى الاســـهاب فى شرح سياســـتهم وايقاظ الحميـــة الاســـلاميـــة فى النفوس ورئى من المستحسن أن تقوم الطائرات بالقاء المنشورات مرتين فى الشهر أو ثلاث مرات .

وبعد الاتفاق على أسس المشروع المتقدمة طلب البارون وضع ميزانية فوضعها الدكتور «سيد كامل» واطلع عليها « أحمد شفيق » وقد بلغت ٥٠٠ر٢ جنيه نصفها لمعاونة المندوبين فى البلاد مدة اقامتهم وهى ثمانية شهور والنصف الآخر احتياطى للنفقات اللازمة .

وحدثت بضعة اجتماعات تقابل فيها المصريون مع البارون وأدخلت تعديلات كبيرة على المشروع ولا سيما فى ميزانيته حتى تضاءلت تلك فى النهاية ، ولما رفض سفير ألمانيا الموافقة على المشروع وتحمل مسئوليته رفع الامر للخديو عباس ، ونظرا لما لحق المشروع من تقلبات ، فكر « اسماعيل لبيب » فى مشروع مستقل ، ولكن المشروع كان قد أخفق من أساسه .

فلم يكن الخديو راضيا تماما عن بقائه متحالفا مع الاتراك لانه لم يكن يأمن جانبهم وكان يشـــعر بأن حل القضـــية على أيديهم يؤدى الى اعادة نفوذهم من جديد فى مصر ، ولم يكن يطمئن الى الركون الى الالمان ، فى استرجاع نفوذه لانهم كانوا يحابون الاتراك ، لذلك حاول الاتصال سرا بالانجليز دون علم « أحمد شفيق » وكان من مستلزمات ذلك انتقاله من فينا الى سويسرا البلد المحايد .

وأخفق المشروع ، كمـــا أخفقت الحملة التركية من قبـــل ، تنظيما وتنفيذا بين المتفقين وبين الاتصال بالشعب لتتولى زعامته لاقامة الثورة فى اطار المساعدات الخارجية .

ومضى الشعب سلبيا ساكنا يرقب الاحداث وهو يطوى بين جوانحه جراح الكرامة ويتهيأ بمعانى القلق والتذمر والغضب كل يـــوم بما يعده للثورة فيما بعد .

لقد تجلى من قبل موقف حكومة مصر فى سلبية رشدى وصحبه، وفى سلبية سواد الشعب ! ترى هل كان موقف شعب مصر، سلبيا من الحماية فى ســواده الاعظم ، ثمرة ما فرض عليه من قيــود اقتضتها الحماية واستلزمتها ظروف الحرب ؟

يبدو الامر فى ظاهره أن سلبية الشعب كانت ترجع الى كل هذا ، كانت المعسكرات والقــلاع والمطارات تعــج بالجيوش والاسلحة وكان المصريون محرومين من كل ســلاح ، وكانت الصــحف مراقبة والتنقلات مرصودة بالجواسيس فان تعذرت الثورة ، فغير عجيب ألا يثور الشعب ولكن أليست العلة أعمق من هذا ؟

وقد يقال ان السر الاكبر فى سلبية الشعب كان راجعا الى فقدانه الزعامة ، فقد كان فى مقدورها تنظيم صوته وتعبئة مشاعره ثم قيادته .

ولكن الى أى مدى كان فى استطاعة هــذه الزعامة لو توافرت أن تخرج هذا الشعب من سلبيته الى الايجابية الثورية ؟

كان متوقعــا اذا ظهرت الزعامة أن تظهر من أكثر العنــاصر وعيا سياسيا اما من بين المثقفين المقيمين فى الخارج واما من بين المقيمين فى مصر . وكان مرجحا اذا ظهرت من الفريق الاول أن تجد عونا خارجيا لها فهى تأتى اما بصحبة الغزو التركى أو من خلال التنظيم السرى الذى كان مزمعا ايجاده ، وكان متوقعا لو استطاعت الحملة التركية الولوج الى البلاد لتواجه الاحتلال أن توفق هذه الزعامة فى دعوة المصريين للثــورة ضد الاحتلال فلا تجد ثمة ما هو أقوى لاستثارته الا من خلال النزعة الاسلامية ولكنها برغم هذا كله لم تكن متوقعة أن تضــمن النجاح ثم ترجح كفة الاتراك على الانجليز .

فاذا كان المصريون مع الاتراك فى روابط اسلامية ، فقد كان زعماؤهم الملاك الاعيان يكرهونهم طغاة متحكمين ويخشون من وراء عودتهم . عودة الخديو ، ولم يكن شعور هؤلاء ضد الانجليز قد بلغ كما بلغ بين المثقفين مبلغ الاختمار الثورى، لذلك كان التجاوب مع هذه الزعامة محدودا تنقصه الحرارة وكان متوقعا مع قبضة الاحتلال وسيطرته القوية أن تنتهى الثورة بالاخفاق .

ولقد كان المصير نفسه ينتظر محــاولة المثقفين الاخرى مع بعض العناصر الالمانية اذا ما امتدت الحركة الى مصر فى بداية الحرب ليــكون الحكم بيد الشعب أيضا .

وعلى كل ، فقد أخفق الاتجاهان تنظيما وتنفيذا ، فلم يتصل عن طريقهما المثقفون بالشعب ٠

واذا كان الاخفاق ينتظر الزعامة فى محاولاتها اشعال ثورة فى مصر فى بداية الحرب فماذا يكون الامر لو ظهرت الزعامة من الداخل ؟

كان ثمة فى مصر بعض العناصر الثورية وكان الموقف فى بداية الحرب يتيح أنسب الاوقات لتحركها ، فقد كانت بريطانيا فيه قد بدأت تنال من الهزائم على يد الالمان بما يهيىء الفرص لبداية العمل ٠

ولكن كيف يحدث والاحتلال بحالته ؟ لم يكن من الممكن مثلا أن يحدث أن تستغل بعض العناصر الثورية من المثقفين الموقف فينزلوا الى ساحة الشعب عام ١٩١٤ بمزيد من الجهد والتضحية دون أن يعبأ هؤلاء بوعيه السياسى المحدود معتمدين على ما كان يسوده من معانى القلق ، وان لم يبلغ هذا مبلغ الاختمار الثورى ، ليستدرجوه استهواء واستعداد للعمل ضد الاحتلال ٠

كان ذلك محتملا اذا كانت العناصر الثورية المتبقية لا تزال متماسكة ولكن ذلك كان برغم هذا احتمالا ضعيفا غير مضمون النجاح وحتى لو كانت متماسكة ، فلم يكن كيان الشعب الفكرى السياسى قد بلغ درجة النضج الذى يحتل منه مركز الشعور فيمكنه من الثورة ولا سيما انه قد لعبت سياسة الاحتلال دورها فى تفتيته ، واذا كان الاستهواء ممكنا نظريا فى ظروف الشعب وقتئذ مما كان يعانى منه فقد كان عمليا غير مضمون النجاح فبرغم القلق السائد بين الشعب ــ ولو انه لم يكن على درجة من القوة التى تمكنه من الثورة بحرارة ــ كانت سياسة الاحتلال التى قامت فى عام ١٩١٤ تحول دون ذلك ٠ فضلا عما كان محتملا ــ اذ ذاك ــ أن ينأى كبار الملاك الاعيان عن كل نهج يأخذ بالثورة فى ظل هذه الظروف لمنافاته مع مصالحهم ، وكان محتملا أن ينعكس نهجهم الآخذ وقتئذ بالمصالحة معه على سواد الشعب اذا ما دعى للثورة مثلا فاستجاب لها استهواء لا عن اختمار سياسى أن ينتهى ذلك الموقف عليهم تسكينا لثائرتهم ودفعهم الى الرضا والاسراع بالتراجع بدافع سحر زعامتهم الاقليمية فى ظل سياسة الارهاب التى كان يتبعها الاحتلال ٠

واذا كان الامر هكذا فى الداخل فى ظل توافر الزعامة الثورية

المغامرة فقد كان من الطبيعي ألا يختلف تعبيرا في ظل ما يبقى من زعامة كانت قد تبلورت من ساحة الجمعية التشريعية اذا فرض وشاءت تلك الزعامة المعتدلة قيادة حركة ثورية وكان هذا أضعف الاحتمالات ٠

فاذا كان الشعب مسلوبا من القدرة على الثورة بهذا الوضع ومتابعة زعمـائه فهـل كان زعماؤه هؤلاء برغم قوة شخصياتهم يرضون الولوج وقتئذ في نهج ثائر وهم الآخذون وقتئذ بالحذر في قيادتهم المعارضة آلتي أشرقت في الجمعية التشريعية ؟

كان ذلك بحق أضعف الاحتمالات بوضع الشعب عام ١٩١٤ ولكن كان أقرب الاحتمالات اذا كان الشعب ناضجا أو كان على قدر كبير من الاختمار الثوري اذ يصبح في قدرته أن يخلق منهم زعماء ٠

لم تكن العلة اذن في موقف الشعب السلبي بين سواده الاعظم من الحماية هي قبضة الاحتلال الشديدة أو ما يعانيه من التدهور الاقتصادي أو حاجته لزعامة تقوده ، ولا كانت كل أولئك فقط بل كان الامر أعمق من ذلك ، فقد كانت العلة هي ان الشعب لم يكن قد بلغ بعد درجة الاختمار الثوري الذي يخلق منه شعبا قادرا على اذابة القيود وعلى التجـاوب مع قيادته ٠

واذ نبين عدم جدوى الزعامة في اشعال الثورة قبل أن يتهيأ لها الشعب بأسباب الاختمار ، فقد كان وجود الزعامة المغامرة لو توافرت ذا أثر بين ، واذا كان من غير المحتمل ألا تجدي أية محاولة من محـاولات المثقفين لزعامة الثورة استجابة شاملة ، فقد كان طرق هذه المحاولات حتى ولو قدر لها النجاح الجزئي من أسباب العمل على دعم القضـية المصرية وازالة ما كانت وزارة رشدي قـد ألقته في روع الانجليز من اتجـاه التسليم والاذعان للواقع ، كان من شـأنه أن يزيدهم طمعـا في مصر ولكن حيل بين الشعب وقيادة زعامته في الداخل والخارج ٠

حقا ، لقد كانت الثورة ضد الاحتلال مقدورة الوجود ، ولكن لم يكن وقتها قد حان والشعب على وضعه عام ١٩١٤ ٠

وكان من المتوقع بهذا كله أن تظل حقوق الشعب السياسية هكذا دون تحقيق اذا بقي الشـعب هكذا بحكم المقـدمات حتى ينضـج وعيه السياسي الثوري ، فلا تقوى المعارضـة على قيادته لاقرار الحقوق ، الا

فى تطور بطىء طالما كان ذلك يحتاج لوقت طويل وطالما كانت يد الاحتلال هى العليا وكانت أداته فى الحكم محوطة بطابعها التقليدى القائم على الغموض الذى يخفى حقيقته الآخذة بالشدة والانفراد بالحكم وخيرات البلاد ـ الغموض الذى يعبر عنه رياؤه الذى لا يثير المشاعر ٠ لم تتوافر قيادة الزعامة الثورية حتى عام ١٩١٤ ولا كان الشعب مستعدا للاستجابة للثورة ، وكان احتمال استهوائه لها عن تأثير بدعوة أى داع لها ، غير مضمون النجاح وكان الوقت سيطول بالشعب اذا ما سعى لنيل حقوقه السياسية فى ظل هذه الظروف ٠

ولكن الم يكن من الممكن برغم هذا كله أن تحدث المعجزة فيحقق الشعب بزعامة المعارضة فى مدة قصيرة ما لم يستطعه فى مدى الاجيال السابقة ، ولا كان مستطيعه الا فى تطور بطىء بعد ذلك ؟

ولكن كيف يكون ذلك ؟

يكون ذلك بأن يتهيأ للثورة على الاحتلال بغير طريق هؤلاء الزعماء ويتحرك بها بغير دوافع الوعى السياسى والاعتماد عليه فى ذلك بعد أن ثبت عدم جدواه لضحالة نموه وحدود انتشاره ، فيثور بدافع جديد يهيئه لذلك ، فيتخذ مسلكه الايجابى بالثورة بمجرد احساسه من مسلك زعمائه فى هذا بسلامة أعماله ، ترجمة عن طبيعته التى لم تتعود وقتئذ التفرد بالاقتحام قبل أن يرى غيره يقتحم الطريق ، وعندئذ تتخذ زعامته منه مستندا للوقوف صفا واحدا قويا لمعالجة القضية المصرية فى جانبها الداخلى والخارجى على السواء ٠

كان ذلك ممكنا ، ولكنه كان متوقفا على تغيير الظروف ووجود العامل الذى يغير من نظرة الشعب وشعوره نحو الاحتلال ويجعله يدرك حقيقته السياسية الجارحة بعد أن عز عليه ادراكها بطريق الوعى السياسى غير المكتمل ، ويغير من نهج زعماء المعارضة المنطوى على الاخذ بالحذر الى مزيد من المجاهدة والشدة الممزوجة بالامل لحل القضية الوطنية ٠

ولكن كيف يتوافر هذا العامل ؟ وكيف يكون ذلك الادراك بغير طريقه الطبيعى ؟ يتوافر ذلك اذا ما اضطر الاحتلال لان يفصح عن طبيعته المثيرة بتغيير الظروف فيطرق بها ما كان يهتم به الشعب مستقرا فى مكامن وجدانه ، مما كان يهتم به ويشتغل ، طرقا جارحا يشعر به

ويدركه بوجدانه ادراكا مباشرا بطريق المعاناة بحيث ينال من كرامته وعزته تكون آثاره اتجاها ايجابيا ثائرا للقضاء عليه ٠

ولكن ما جوهر المسائل التى كانت تشغل الشعب والتى اذا طرقها الاستعمار تشعره بمعناه السياسى الجارح الظالم فيثور ؟ كانت هى المسائل التى ترتبط بكيان أسرته التى كان يحسها احساسا مباشرا ويعيها وعيا كاملا ويندمج فيها اندماج الواعى وعيا سياسيا بالفكرة السياسية ، كانت هى المال والعرض والولد والدين والتقاليد الاسرية ، وكان طرق هذه المسائل ومحاولة العبث بها يدنيه بوجدانه من الحقيقة السياسية للاحتلال بغير حاجة الى اكتمال وعيه السياسى أو تقدم زعمائه بدعوته للثورة ٠

فقد عاش المصرى قضية خاصة من أجل مقومات الاسرة وكان آيمانه بها ايمانا يطغى على الايمان بالسياسة ، وهو الخلق الذى انحدر اليه من غابر السنين وتاريخ مصر العريق بروحه المصرية الصميمة ٠

كان من السهل أن يغضب فيثور من أجل هذه المقومات اذا مس وجدانه عبث بهذه المقومات ، وكان ذلك من أقرب الامور اذا ما اضطر الاحتلال للافصاح عن طبيعته والظهور بسياسته الجارحة ومن ثم تكون الثورة ٠

ولقد توافر هذا العامل بفضل اعلان الحماية فى ظل الحرب العظمى الاولى ذلك العامل الاكبر الذى غير من نهجه التقليدى الى النهج السافر فى سياسة الحكم فى محاولته الهيمنة على البلاد فى توجيهها من أجل الحرب للسيطرة على المال والاقتصاد والسياسة على نحو يطرق كوامن وجدانه ، وقد جاء خروجه فى ظل الحرب منذ اعلان الحماية نقطة البداية لاستكمال اعداد الشعب بالاختمار الثورى الكبير ٠

الفصل الثالث

الاختمار الثوري بين الشعب أثناء فترة الحرب وتطلع القوى الشعبية

كان الشــــعب من قبل على قدر من الاختمار الثورى بمقدار وعيه السـياسى ، كما تمثل بين المثقفين ، وذلك عندما أعلنت الحـرب العالمية الأولى ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لان يكون قوة كافية دافعة لثــورة الشعب .

ولم يكن ينقص الشعب من أجل ذلك يومئذ الا أن يتجدد اجتماعيا بعناصر الحركة في سواده الاعظم فتتوافر ثمـة بيئـــة أصلح لاستتباب مبادىء الاختمار الثورى ضد الاحتلال ، ومن ثم تكون هذه الاكثرية أقدر على التجاوب والاستجابة للفكرة القومية كما تمثلت بين المثقفين ، وأقدر على التغيير العملى عنها ومن ثم يكون رد الفعل بقدر تحدى الاحتلال ، أعمق بين الشعب عموما على نحو يرتفع فى مبادئه وأسلوبه الى مستوى العمل الثورى .

ولقد تجدد الشعب اجتماعيا بعناصر جديدة فى القاعدة الشعبية فما جاء عام ١٩١٤ كما أوضحنا سالفا ، حتى كان قد تفتح بعناصر الحركة بتجدد بنـــائه وأخذت تلك تتطلع لان تأخذ مكانتها بين المجتمع ، بيئة أصلح ، وعلى مدى أوسع ، للغرس الثورى .

وما كادت الحرب العالمية الاولى تنطلق وتعلن الحماية البريطانية على مصر حتى توافرت أسباب ذلك الغرس وتوافر جوه منذ أن اقتضى الاحتلال الخروج عن سنته التى قامت وسار عليها من قبل فى العهد الكرومرى .

كان الاحتلال بين الســـواد الاعظم من الشـــعب قبل الحرب هو الاحتلال بعد اعلانها ، ولكن كان الشعور به من قبــل يختلف فى مداه وقوته عنه من بعد .

كان الاحتلال من قبل الحرب فكرة يدركها الفرد بطريق غير مباشر منذ أن كان الاحتلال لا يطرق الا قليلا المسائل التى كان يحسها الفرد احساسا مباشرا ، فكان شعور الغضب ينمو فى بطء ولا يتجلى الا بين أكثر العناصر احتكاكا بالاحتلال اذ كان هؤلاء قلة .

ومنذ أن أعلنت الحرب أصبح الاحتلال عملا جارحا بجانب كونه فكرة لدى الفرد ، عندما اضطر لأن يفصح عن نفسه وعن حقيقته سافرا في ظل الحماية والحرب ، بارزا في حقيقته الجارحة ممعنا في المساس بالمسائل التى كان يعيها الفرد وعيا مباشرا ويهتم بها اهتمامه بذاته ، ومن ثم كان يطرق الوجدان طرقا جعله يدركه ادراكا مباشرا بالمعاناة من سيئاته وحقيقته الجارحة ، وبهذا كانت البيئة — والاحتلال يفصح عن طبيعته الظالمة — تبنى بناء ثوريا بمبادىء الغرس الثورى ضد الاحتلال ، لتتعهدها هذه البيئة الشعبية على وجه الخصوص بالنماء والاختمار سنة بعد سنة بمزيد من التذمر والتبرم من الكوارث ومن نظام الحكم وبمزيد من القلق على المصير والغضب الذى كان يحمل بين طياته تطلعا وأملا ينموان مع الايام فيزيدان الشعب قدرة على الاستجابة لتحديات الاحتلال، بما يسمو لمستوى المسئولية ويحقق الآمال ٠

ولقد تلونت أسباب الاختمار الثورى عموما منذ أن تجلى الاحتلال سافرا بارزا فى شتى صوره وان اختلفت من حيث النوع : من الاحتلال في صورته الاقتصادية ، الى الاحتلال فى صورته السياسية ، ثم الاحتلال فى مظالم السلطة الانجليزية ٠

ولقد تجلى الاحتلال فى صور المظالم الاقتصادية وكانت ثمرة زيادة سيطرته على الاقتصاد المصرى القائم ، وتوجيهه لصالح بريطانيا والحلفاء ، لسداد حاجات الحرب ثم فى مناصرته النفوذ الاجنبى الماثل فى البنوك والشركات وغيرها ، على حساب الاقتصاد الوطنى بما أدى ذلك كله الى احداث ضائقة مالية سببها انحدار القوة الشرائية للفرد اما بانخفاض الدخل أو بارتفاع الاسعار ، وايجاد شعور بكراهية النظام القائم فاذا كان من ثمار وقوع مصر تحت حماية بريطانيا فى الحرب ، انخفاض سعر القطن ، فقد كان موقف الحكومة ازاء هذه الضائقة يفرضه : أولا حاجتها للمال دون مصلحة الشعب ، فقد تشددت برغم الضائقة ، فىتحصيلها الاموال الاميرية بما زاد المشكلة حرجا فاضطر الفلاح والملاك الصغار لسداد ما عليهم الى بيع ما يساويه مما لديهم من محصول وعقار أو حلى ، ولم تعبأ الحكومة بمعالجة المشكلة بوضع حد أدنى لسعر القطن أو التسليف عليه أو ارجاء تحصيل أموالها فترة ما ، ومن ثم راح الفلاح ضحية البنوك العقارية فى الوقت الذى كانت تهتم فيه بالتمهيد للسيطرة على الاقتصاد بطريق آخر ، وهو دعم مركز البنك الاهلى بجعل أوراق النقد التى يصدرها ذات سعر الزامى وبالعمل على تأجيل دفع الاوراق التجارية والمالية ٠

ولما أخذ سعر القطن يرتفع شاء المستشار المـالى البريطانى عـام ١٩١٧ تحديد سعره ، وأصبح هذا مع ما تقرر من تحديد مساحته ، وما وقع من عقبات فى سبيل تصديره من القيود التى أدت الى زيادة الضائقة، فمع الازدياد النسبى لسعر القطن كان الغلاء ، فأصاب الطبقات الفقيرة ، ثم امتد الضيق الى طبقة التجار والملاك عندما احتكرت الحكومة البريطانية بذرة القطن عام ١٩١٧ والغت أوامر تصديره وحصر التصدير فى بنوك أجنبية ، ثم مضت الى أبعد من ذلك فقد دفعتها ظروف الحرب الاستثنائية وحاجتها لتوفير المواد الطبيعية لبريطانيا والحلفاء أن احتـكرت محصول القطن عام ١٩١٩ .

ولقد كان التحكم فى أسعار القطن عميق الاثر بين النـاس ، فقد حرم الزراع حرية المزاحمة فى الاسواق الخارجية فى وقت كان الايجار يتزايد .

أما الاحتلال فى صورته السياسية فهـو التسلط السياسى ، الذى نزع من مصر سيادتها وحريتها واستقلالها وانفرد بالحكم والنفوذ فيها متغلغلا فى شئون الحكومة كبيرها وصغيرها مستخدما فى ذلك الغموض تارة والقوة تارة أخرى .

وقد تجلى ذلك فى أثناء الحرب فى صورة الحماية ، التى زاد تسلطه بها فى هيمنته على الكليات والجزئيات فيبرز بحقيقته سافرا ، احتـلالا مقرونا بالحماية ، فساء مركز مصر السياسى واقترنت الحمـاية بمشروعات زادت معها الاهداف القومية بعدا عن التحقق .

أما الاحتلال فى صورة مظالم السلطة العسكرية فقد تجلى واضحا فى الأسلوب الذى بدأ به الاحتـلال فى ظل الحرب تعبيرا ، يتمثل فى شدة الاحكام العرفية والرقابة على الصحف ومنع الاجتماعات والاعتقالات والنفى بدون تحقيق أو محاكمة ، ثم فى أسلوب معاملة المصريين عامة من أجل تحقيق أغراض الاحتلال والحماية فى ظل الحرب .

وكان بجانب ذلك ، أسباب ثانوية ساعدت على تنمية ذلك الاختمار ، وأخرى مكنته من التعبير كظهور دعوة ويلسن بحق الشـعوب فى تقرير المصير ثم توافر الزعامة .

وكما اختلفت أسباب الاختمار الثورى من حيث النـوع اختلفت أيضا درجة التأثر بها بين فرد وآخر ، كل باختلاف استعداده للتجاوب ووضعه الاجتماعى ومشاكله ، وان كانت كلها تصب فى قناة واحدة ،

هى الاعداد للاختمار الثورى الموجه ضد الاحتلال السياسى ، علة العلل جميعا ٠

كان العامل الاقتصادى أشمل هذه العوامل لانه كان يتمثل ارهاقا اقتصاديا ويتحور فى صور اخرى ، فمن خلال المعاناة من المظالم الاقتصادية كان الناس يدركون حقيقة الاحتلال السياسى مباشرة بما يستثيرهم ٠

ولقد كان متوقعا أن يكون أكثر الطبقات حظا من الارهاق والحرمان والمظالم الاقتصادية عموما بين الفلاحين ، أكثرهم وحدهم حظا من الاختمار الثورى غير ان المظالم الاقتصادية كانت أشمل ، وهى - وان كانت تصاحب فعلا الحالة الثورية - لم تكن تعد كافية وحدها لاحداث التمرد والا كانت الجماهير المحرومة بوجه عام دائما فى ثورة ٠

كانت المظالم الاقتصادية اذن أشمل تأثيرا فقد ظهرت فى طبقات أخرى فى صورة محورة بشكل كان ذا تأثير أوقع فى تغذية الاختمار الثورى ٠

فهى - وان كانت قد ظهرت فى شكل فاقة وحرمان اقتصادى وارهاق بين الطبقات الدنيا - ظهرت تلك بين الطبقات الاخرى المتطلعة لتحقيق المزيد من النجاح فى شكل آخر بين البرجوازية الصغيرة والعمال ، ثم الملاك الاعيان ممن كانوا يعتمدون على محصول واحد وهو القطن ٠ ثم بين الملاك الرأسماليين وذلك فى شكل شعور عام يقوم على الاعتقاد بان الاحوال السائدة فى ظل الاحتلال تعوق نشاطها وتحد من نموها واستكمال وجودها وكان طبيعيا أن يبدو ذلك الشعور أقوى بين الطبقات الصاعدة التى أصبحت على قدر من الوعى الذاتى وهى تتطلع أماما لاستكمال وجودها ٠

اما العامل السياسى فقد كان أدخل الى وعى المثقفين منه الى وعى سائر الطبقات ، وكان هؤلاء ينظرون للقومية غاية وكرامة ثم وسيلة لهذا كان حظهم من الاختمار الثورى القائم على الوعى السياسى يمثل حظا وافرا عاليا ٠

على أن هذه الاسباب بالرغم مما كان لها من تأثير عظيم فى الاسهام فى الاختمار الثورى فانها لم تكن تمثل السبب الرئيسى لذلك ، بل كانت تلك أسبابا ثانوية مساعدة ٠

فمصر لم تغضب فقط لشظف العيش والفاقة والمظالم الاقتصادية

بألوانها ثم المصادرة وغير ذلك بل بسبب أهم وهو ما وراء كل ذلك من المساس بكرامتها ، فقد تحتمل هذه كلها لو كانت لغاية وطنية أو فكرة انسانية ولكن علام الاحتمال ؟ هل اذا كسبت انجلترا الحرب لا تكبل مصر باغلال العبودية فى ظل الحماية وتحرمها حقوقها القومية السياسية ؟ ولكن ربما كان ذلك الشعور أدخل ايضا الى وعى المثقفين وأوضح لديهم من غيرهم •

أما السبب الرئيسى العام الذى بعث الأمة بالاختمار الثورى ، فلم يكن فقط ما وراء المظالم من المساس بالكرامة السياسية بل المساس بالكرامة فى قيمها المرتكزة عليها فى الأعماق أساسا ، الروح المصرى الذى يمتد باصوله فى أعماق التاريخ العربى ويقوم عليه كيان الاسرة اذ ذاك والمجتمع وهو — وان كان فى مستواه قويا عند الفلاحين والمحافظين — كان يعد أقرب الى وعى الشعب كله •

ولقد استطاع الاحتلال وهو يفصح عن طبيعته الظالمة الجارحة بأساليبه التى تجلت فى مظالم السلطة العسكرية الى حد كبير أن يوغل الى قلب المجتمع حتى طرق مكامن وجدانه طرقا مباشرا جارحا فيما احتواه من قيم روحية وعاش من أجلها الشعب فى اطار الاسرة ومن ثم مكنه من اختمار ثورى بعثه بعثا ، كان قوامه القلق والتذمر والغضب والاباء ، اختمارا روحيا ثوريا هادفا نحو حياة أفضل •

كانت مصر — اذ ذاك — تعيش فى اطار قيم الاسرة مما انحدر اليها من غابر حضارتها وامتزجت بقيم الحاضر بما خلق منها كيانا روحيا مصريا قويا •

كانت لا تزال فى سوادها الأعظم تجوز عهد الرعاية الابوية ، فكانت كل أسرة لها زعيم أو شيخ تدين له بالولاء فيما جل ودق وكل قرية لها زعيم أكبر تدين له بالطاعة فهو للجميع بمثابة الأب •

على أن مصر لم تكن بهذا أمة بداوة بل كانت تعيش أساسا فى اطار من القيم الثابتة انحدرت اليها من ماضيها العريق — كما قلنا — على نحو يكون فى حاضرها محورا يشكل أسلوبها فى الحياة وتتحدد به الروابط التى تربط الفرد بالآخر وبينه وبين المجتمع •

ولقد كان قوام ذلك المحور الذى قامت عليه حياته الاجتماعية حب الاسرة والولاء التام لها والايمان بالموروثات والعقائد وكان المساس بها مساسا بأعماقه وقلبه وروحه على نحو لا يجد بديلا غير الوقوف فى وجه المعتدى بالثورة •

وحب الاسرة فى مصر يرجع فى أصوله أكثر ما يرجع الى أقدم عصور ، فقد نشأت الاسرة عظيمة الشأن وبقيت لتنحدر الى العصر الحاضر منذ غابر السنين لتنظم عقد المجتمع بقيمها ٠

ويتجلى قوام العرف الاجتماعي فى أخلاق المصرى فى الابقاء على عواطف الارحام من أبوة وأمومة وخلافهما ٠ ونجد مثلا أن من الاخلاق التى تلازم حب الاسرة ، غيرة الزوجية وصيانة العرض ، فالمصرى يروض نفسه حتى على الضنك ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت !

وثمة فارق هنا فى النزعة بين المصرى والبدوى مثلا ، فالمصرى بهذه الروح يغضب بدافع الغيرة على الزوجة وكأنه يغضب لقرابة أو مقدسات وهو لا يختلف عن نظائره من المشاعر لدى البدوى فهو يأبى أن يبتذل عرضه لكنه اذ يغضب فانما يفعل ذلك كمن يشعر بأنه قد منى بهزيمة فى أية معركة ، وثمة فارق بين الاثنين فى السلوك فالوضع فى الحالة الأولى يدخل ضمن آداب الأسرة أما الثانى فهو من آداب القتال ٠

ويتضح سلوك المصرى من خلال قيم الاسرة وعلاقاتها ، فالمصرى مطبوع بالانقياد الاجتماعى فهو ينقاد حتى فى السياسة لأن الطاعة فيها شبيه بنظام الأسرة ولأن فترة الركود لديه طويلة ، لاتثير فى نفسه روح الابتداء والتفرد الا اذا غلبته الحرية ، ولكنه سرعان ما يتهيأ بالاختمار الثورى اذا ما اعتدى على موروثاته أو قيم الاسرة ، ليكون انطلاقها ما يشبه الانفجار ٠

ولقد بدأ الاختمار الثورى ينساب بين المجتمع المصرى ضد الاحتلال عندما استطاع ذلك الاحتلال بوجهه السافر أن ينفذ الى قلب المجتمع ابان الحرب بطريقة مباشرة ومساسه بالقيم التى كانت قوام ذلك الروح والتى كان يعيها وعيا مباشرا ويحرص عليها حرصه على كيانه وحياته ومن ثم كان يمكن للاختمار الثورى من أكبر مصادره فى الدفع الحركى ، ولما كان الاحتلال أكثر احتكاكا ومساسا بالقاعدة الشعبية ، ونظرا لانها كانت اذ ذاك وهى البيئة المحافظة تمثل مكمن هذا الروح فى قوته ـ فقد كانت تلك تتأهل بطاقات ثورية كبيرة ٠

كان الاختمار الثورى ينمو فى فترة الحرب فى ظل الحماية ضد الاحتلال فترتبط مصر بشعور واحد وان تجلى مختلفا فى مستوياته بين فرد وآخر أو طبقة وأخرى كل باختلاف النظر والاستعداد للتجاوب مع تحديات

الاحتلال بين الفلاحين والعمال والبرجوازية والمثقفين والملاك والرأسمالية والملاك الاعيان .

الفلاحون :

كان الفلاحون ولا يزالون ، يمثلون قاعدة الشعب العريضة وسواده الأعظم ، ولكنهم لم يظهروا كقوة جماهيرية منذ بداية القرن التاسع عشر الا فى ثورة ١٩١٩ .

لم يكن الفلاحون بطبيعتهم يميلون للثورة ، فهم يعيشون مبعثرين فى مجتمع ريفى ، يتصفون بطبقات هى انعكاس للبيئة الزراعيـــة ، من الرضا والقناعة والصبر . وغير ذلك مما تزيده العقيدة صقلا وتتنافى معه الطبيعة الثورية الآخذة بالعنف .

ولقد دل تاريخ الفلاحين الطويل على أنهم برغم هذا سرعان ما ينقلبون ثوارا اذا ماطال صبرهم على مظالم الحاكم ، أو اذا أوغل الغزو فى المساس بمقدساتهم وعقائدهم وموروثاتهم ، عندئذ لا يجدون محيصا اذا ما اعتسف زعماؤهم الطريق ، أن ينقلبوا ثوارا ، دفاعا عن الحق والقومية من خلال العقيدة الاسلامية ، والموروثات ووشائج الأسرة .

ومنذ أن بدأت الحرب وأعلنت الحماية بدأت فترة تطور فى علاقة الفلاحين بالاحتلال بتغير نظرتهم اليه ، فبدأت معها من ثم فترة الاختمار الثورى بينهم وبين غيرهم من سواد الشعب كما اسلفنا .

ولقد عاش الفلاحون فى ظل الحـرب من أكثر العنـاصر الشعبية احتكاكا بالاحتلال فى صورته الاقتصادية وصورة مظالم السلطة العسكرية الجارحة ومن ثم شعروا بوجوده .

اعتدى الاحتلال على الفلاحين ، فيما فرضه من أنظمة جائرة جاءت ثمرة سيطرته على الاقتصاد القائم بما اصابته بالفاقة فى أرزاقه بطريق مباشر وغير مباشر فى ظل الحرب ، ومن السياسة القطنية التى رسمها خدمة لأغراضه أخذ يعانى هبوط أسعار القطن ، كان سعر القطن قبل الحرب أربعة جنيهات ، فأخذ ينزل تدريجيا الى حوالى عشرة ريالات فعم الكساد واشتد الضيق بالزارعين (١) من ملاك وفلاحين ، فقد كان القطن عصب

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ص ٧٣ .

الحياة وقد وقعت الحكومة تحت تأثير المستشار المالى البريطانى ـ كما سبق أن بينا وزاد فى تفاقم الحال أن البنوك نفضت أيديهـا عن الاقراض على القطن وكان هم الحكومة هو تحصيل الضرائب فى مواعيدها بالشـــدة فساءت حالة الزراع ، واضطر الكثيرون منهم الى بيع أقطانهم بأدنى حد ٠

وأخذت أسعار القطن فى الزيادة فى السنين التالية تدريجيا ولكن الحكومة ـ بتوصية المستشار المالى ـ قررت فى يونيه عام ١٩١٧ تحديد سعر القطن ب ٢٣ ريالا ، وهو يقل عن سعره الحقيقى واجتمع الى ذلك ما قررته الحكومة منذ نشوب الحرب عن تخفيض المساحة المزروعة قطنـا بناء على طلب السلطات البريطانية وما وضع من عقبات فى سبيل تصدير القطن ٠

ولقد اقترن الارتفاع النسبى فى سعر القطن باشـــتداد الغلاء فى البلاد ، فارتفعت أسعار الحاجات كالاقمشة والوقود واشتدت الوطأة على الطبقات الفقيرة والفلاحين والعمال الحرفيين والتجار مما أفضى الى انتشار القلق بين الفلاحين وغيرهم ٠

واحتكرت الحكومة البريطانية بذرة القطن جميعها من محصول عام ١٩١٧ بسعر أقل من سعرها الحقيقى وألغت فى هـذا العام أوامر تصدير القطن وحصرتها فى عدد محدود من بنوك التصدير الاجنبية ، ثم احتكرت حكومة بريطانيا محصول القطن كله فى موسم عام ١٩١٨ ٠

وكان سعر القطن فى الخارج وقت صدور هذا القرار نحو ٦٤ ريالا فبلغت خسارة المصريين من جراء ذلك الاحتكار عام ١٩١٨ نحو ٣٢ مليونا من الجنيهات ٠

ولقد أدى ذلك الى استياء الناس ، وخاصة الفلاحين الزارعين لأن هذا التحكم كان من شأنه حرمان الزراع من ميزة المزاحمة فى الأسـواق الخارجية ، ولا سيما أن ايجارات أطيانهم كانت فى زيادة ، فضلا عن مصادرة أرزاق الناس وحاصلات الفلاحين ومواشيهم ودوابهم فقد استولت عليها بأبخس الأثمان ، وقد فرض على كل مركز من مراكز القطر مقدار معين من الحبوب لتقديمه للجيش البريطانى ، فكان الفلاحون يقدمون ما عندهم كرها وبأثمان لا ترضى ٠

على أن هذه المظالم الاقتصادية التى تجلت فى صـــــورة تامة بين الفلاحين ـ كما سبق أن بينا ـ لم تكن المصدر الرئيسى للاختمار الثورى بل

كان أقوى أسبابه أن الاحتلال كان قد أوغل بأساليبه فى نظام المجتمع بما اعتدى على قيم الشعب التى قامت عليها وشائج الاسرة ، وبقدر ماكان يشعره وجوده الجارح كان يطرق قلبه كل يوم بالثورة فلا بدع بأن تتهيأ بذور الثورة على الاحتلال عاما بعد عام .

كان الفلاح فى ظل الحماية والحرب يرى الاحتلال مجسدا أينما مثل بتنظيماته وبجنوده التى انبثت فى كل مكان ، كما كان من السهل أن يدركه بالمعاناة من مظالم السلطات الانجليزية وتنظيماتها ادراكا مباشرا ، فيلمس حقيقته الجارحة لاعتدائه على كرامته .

وكانت بريطانيا قد جلبت الى مصر جنودا من المستعمرات ممن يجهلون طبيعة السكان فى مصر وتقاليدهم ، فكانوا ينظرون الى المصريين نظرة استغلال جارح ويعاملونهم بشدة واحتقار ، وقد عمدت السلطات البريطانية الى تجنيد أكثر من مليون مصرى من العمال والفلاحين لاستخدامهم فى أعمال الجيش ، وكانوا يؤخذون كرها باسم المتطوعين ، وما هم بمتطوعين ، يعاملون معاملة المعتقلين ، فكانوا يربطون بالحبال ويساقون كالانعام (١) وينقلون فى القطر فى مركبات الحيوانات ولا يعتنى بصحتهم ولا مقدراتهم وقد مات منهم كثير فى ميادين القتال وفى صحراء سيناء والعريش وفى العراق وفرنسا .

وكان العمال يؤخذون من الحقول بالاكراه ومن بين الفلاحين العائدين من حقولهم وقت الغروب ، فاذا ما رفض أحدهم الخضوع فانه كان يجلد حتى الاقرار بالقبول ، فساقوا بهذا اطفالا وشيوخا ، فضلا عن رداءة أسلوب المعاملة من سوء التغذية ورداءة الكساء والمسكن والعناية بالصحة مما جعلهم فريسة للامراض الوبائية مع تأثير الجوع والبرد .

وكان طبيعيا أن يحرك ذلك الاسلوب الظالم الجارح جموع الفلاحين اذا ما عادوا الى مصر بالروح الثورية ، فقد مس الاحتلال التقاليد والمعتقدات والعلاقات الاسرية وكان ذلك أعمق أثرا من أساليب المصادرات والحرمان الاقتصادى التى مثلت عاملا مساعدا لذلك الاختمار الثورى ، وكان اختمارا ينمو فتغذيه الفكرة الاسلامية المسيطرة .

على أنه برغم هذا لم يكن مقدرا للفلاحين أن يثوروا ، فتعودهم

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ص ٥٤ .

على الانقياد الاجتماعى وأزمة الركود الطويلة التى مروا بها ـ كل ذلك لم يكن من شانه أن يبعث فيهم روح الابتداء والاقتحام بغير أن يروا زعماءهم يعتسفون أمامهم الطريق ٠

وكان للفلاحين زعماء بحكم تكون المجتمع القائم فى الريف يدينون لهم بالولاء والطاعة ٠

كان المجتمع كما أسلفنا اذ ذاك لا يزال فيه بعض القيم القبلية ويجوز عهد الزعامة الابوية المنحدرة من المعيشة القبلية وذلك فى اطار الاسرة وقيمها ٠

وكانت كل قرية تدين لزعيم أسرة بالطاعة وكان هؤلاء فى الغالب من الملاك الزراعيين الأعيان فهو بهذا أب يرجع الكل اليه بل كانت نظرة الفرد نحو الناس تتم بوحى من هذه القيم وفى اطارها فكان ينظر لكل من هم فى مستوى أعمار رب الأسرة نظرته اليه من حيث الاحترام وكان الترابط بين وشائج الأسرة قويا كانعكاس لتكوين هذا المجتمع ٠

كان طبيعيا اذن أن ينزع الفلاح ، من خلال قيم مجتمعه ، وهو يتهيأ ببذور الثورة على الاحتلال ، فينتظر بدء العمل من زعمائه الملاك الأعيان الذين مثلوا منه زعاماته المحلية ، وكان الفلاحون ينقادون لهم بالطاعة انقيادا أشبه بنظام الأسرة ٠

العمال :

طبقة حديثة النشأة ، تجدد بها المجتمع المصرى بما غذى القاعدة الشعبية بقوى شعبية جديدة ٠

ولقد نشأت طبقة منطلقة وزادت نموا فى أثناء الحرب باتساع رقعة المصانع والعناصر الداخلية ولكن وجدت فى سنوات الحرب من الأنظمة والازمة الاقتصادية وأساليب الاحتلال ما غرس فيها بذور الثورة وتعهدها بالنماء ٠

وفى ظل الحرب توقفت النقابات العمالية عن النشاط فى ظل اعلان الاحكام العرفية وجمع نحو مليون عامل وفلاح لخدمة القوات البريطانية ٠

ولقد عانى العمال كثيرا فى أثناء الحرب من المظالم وأحسوا وهم الطبقة الناشئة المنطلقة لاستكمال وجودها ، بحاجز يقف أمامها يحد من

نشأتها ويفرض عليها التزامات تحد من نموها ولمسوا من الاحتلال ظلما فى السياسة الاقتصادية التى كان ثمارها هبوط الاجور وارتفاع الأسعار وانتشار البطالة •

كان العمال كثيرى الاحتكاك بالاحتلال ، وقد تمكن ذلك من أن يطرق مكامن وجدانهم طرقا أصاب مقومات حياتهم ومقدساتهم التى كانوا يعيشون كالفلاحين من أجلها فدعاهم الاحتلال الى الشعور به شعورا جارحا ملأ قلوبهم بالاختمار الثورى بما منحهم القدرة على التجاوب مع الاتجاه القومى كالفلاحين اذا ما تزعمه المثقفون •

لم يكن العمال على جانب ما من الوعى السياسى ، ولكنهم منذ أن أدركوا الاحتلال بالاحتكاك المباشر بالمعاناة من مظالمه وأساليبه الجارحة والعبث بالكرامة المصرية ، كانت الفكرة السياسية الثورية تتجلى لاشعوريا فى اطار المصالح الذاتية ، ومن ثم ارتبط مصير كفاحهم الاقتصادى والاجتماعى بتحقيق الفكرة القومية كسبيل لحل مشاكلهم •

البرجوازية :

طبقة ناشئة من صميم القاعدة الشعبية متطلعة لأن تأخذ مكانها فى المجتمع •

كانت تشعر كسائر الشعب فى قاعدته الشعبية بالكرامة الجريح فى ظل الحرب وفى ظل النظام الاقتصادى من قلق على مصيرها مما مكنها من أسباب الاختمار الثورى •

كانت البرجوازية الناشئة تعانى فى ظل الحرب منافسة الرأسمالية، ولكنها وجدت فى ظل الحرب حماية الزامية من منافسة هذه الرأسمالية الأجنبية فانتعشت على يديها تجارة السوق المحلية ، عندما اختل التوازن التجارى فى أثناء الحرب ، من تجارة التجزئة والصناعات المختلفة والدباغة والأدوات الجلدية والأثاث ومعاصر الزيت ومطاحن الغلال وزادت حركة التبادل فى ظل ذلك ، وكذلك الأموال فى المدن والقرى ونشطت التجارة •

ومع احساس هذه الطبقة الناشئة بوطأة ارتفاع الأسعار كان شعورها بوطأة المظالم الاقتصادية يبدو محورا فى ايمانها بأن الاحتلال يقف حائلا دون نموها •

وكانت نهاية الحرب نذيرا بانهيار ذلك كله أمام منافسة الرأسمالية

الأجنبية التى قامت فى ظل الاحتلال فلا بدع أن تندمج مصالحها بالفكرة القومية اندماجا لا يجد سبيلا لتحقيقها الا بالقضاء على الاحتلال .

المثقفون :

نقصد بهم من لاءمت ثقافتهم العصر ، وهم بهذا ، هنا ، كل من نهل من الثقافة بمعنى الحضارة الغربية الحديثة ، فى جانبيها الفكرى والانسانى وهم المفكرون الذين يقيمون تفكيرهم على أساس المذهب العقلى .

نشئوا مع بداية مجيء الحضارة الغربية الى مصر فى القرن الماضى وزادوا نموا برغم مناهضة الاحتلال لسياسة التوسع فى التعليم ، مع حركة الرواج الاقتصادى النسبى فى بداية القرن العشرين عندما زادت القدرة المادية على التزود بالتعليم فى الداخل وفى الخارج ، ليجدوا أنفسهم كما شرحنا ، وقد أهملهم الاحتلال وضرب عليهم الحدود الفكرية والاجتماعية بما يحول دون تحقيق مبادئهم أو استكمال وجودهم ، وكانت الوظائف الرئيسية يسيطر عليها الأجانب من انجليز وشرقيين ، وكان الاحتلال يساندهم ، وكانت الوظائف الصغيرة مخصصة للمصريين على ضيق حدودها .

ولقد انطلق كفاحهم فى اطار المبدأ القومى ، مبدأ ووسيلة ، ومضوا برغم الاضطهاد فى طريقهم حتى واجهوا الحرب ليلاقوا المزيد من الاضطهاد السياسى والاجتماعى ، والضيق الاقتصادى ، مما زادهم تهيئوا للعمل .

ففى ظل الحرب والحماية طرق الاحتلال المسائل التى كانوا يشعرون بها شعورا مباشرا وهى العقيدة السياسية ومسائل الطبقة ثم القيم الاجتماعية التى كان المجتمع المصرى يقدسها ويجعلها من مقومات حياته ومن ثم زادهم شعورا به كاستجابة لذلك وتهيؤا للعمل نحو حياة أفضل .

كانوا يؤمنون بالفكرة القومية مبدأ ووسيلة فاذا كانوا ينظرون الى الاحتلال نظرة جارحة تتعلق بالكرامة الانسانية فقد غدا ذلك الاحتلال أكثر جرحا يوم أن فرضت على مصر الحماية وزاد عليها سيطرته وتوجه اليهم بالاضطهاد والنفى والسجن والتشريد والمطاردة والمراقبة ، وكانوا يعانون من مشاكل الطبقية والحرمان من خيرات بلادهم على حين كان يتمتع بها الأجانب وأبناء الأعيان وقد عانوا من ذلك فى أثناء الحرب بانتشار البطالة وارتفاع الأسعار والحرمان من الوظائف فكان طبيعيا أن يزيد ايمانهم بالفكرة القومية كسبيل لحل هذه المشاكل .

على أن المظالم الاقتصادية والاضطهاد وغيرها كلها أشياء تحتملها الشعوب اذا كان فى ذلك تحقيق لغاية ، ولكن لم تكن اتجاهات بريطانيا هادفة الا لكسب الحرب ولتكبيل مصر بالعبودية الابدية ، فبالاضافة الى منافاة الاحتلال والحماية لمبادىء المثقفين السياسية كانت المظالم الاقتصادية وما وراء ذلك كله ، من شأنهـا أن تزيد النفوس جرحا واشعالا لنيران الغضب •

كان هؤلاء كل يوم يشعرون أنهم غرباء فى بلادهم ، وقد تحولت تلك الى معسكر كبير يحشد فيه أخلاط الناس وقد غدت مصر قاعدة للغزو والتسلط تحركت بها حملة غاليبولى نحو الدردنيـل ، وتحركت منهـا حملات أقلام المخابرات والدعاية لاثارة العرب على الدولة العثمانية وحملات نحو فلسطين والشام شرقا ونحو السويس غربا •

على أنهم اذا كانوا يرون فى الفكرة القومية مبدأ ووسـيلة فقد استثار الاحتلال المثقفين فى هذا ، من ناحية أخرى عندما عمل الانجليز على الاستعداد لتنظيم الحماية حينما تنتهى الحرب والتهيؤ لتركيز السلطة فى يد المعتمد البريطانى •

فقد ألف مجلس الوزراء فى ١٤ من مارس عام ١٩١٧ لجنة لوضع التعديلات التى يستدعى ادخالها فى القوانين والانظمة القضائية والادارية وما كان محتملا من زوال الامتيازات الأجنبية فى ظل الحماية ، وكان السير وليم برونيت العنصر الفعال فى هذه اللجنة وكان ذلك مستشـارا ماليا بالنيابة •

وضعت اللجنة عدة مشروعات قوانين ومضت شـوطا فى وضـع النظام القضائى •

ووضع برونيت مشروع قانون نظامى لمصر قضى بانشـاء مجلس نواب مصرى من المصريين لا يقطع فى شىء بل هو استشارى محض بجانبه مجلس شيوخ ، له وحدة السـلطة التشريعية ويشـكل ذلك من أعضاء رسـميين من الوزراء المصريين والمسـتشارين الانجليز وبعض الموظفين الانجليز مما يسايرونهم فى النزعة ، ثم من أعضاء منتخبين ، منهم ثلاثون مصريا يجرى انتخابهم على قواعد محدودة كثيرة القيود ، وخمسة عشر أجنبيا ينتخبهم الأجانب •

كان الهدف من ذلك هو اسـتدراج الأجانب الى الرضـا بابقـاء

امتيازاتهم على حين تنحصر السلطة كلها فى يد المعتمد البريطانى ، وبجانب ذلك تصبح بهذا مصر مستعمرة يغمرها الموظفون الأجانب ·

كان معنى ذلك من الناحية القومية كما هو فى مفهوم المثقفين قبل غيرهم مساسا بمبدأ قومى يدينون له بالولاء ، كما كان معناه أيضا من ناحية حقوقهم الطبقية مساسا بالقومية كسبيل لتحقيق ذلك فى اطار المبدأ · لذلك ما كاد المشروع يذاع حتى قدم برونيت صورة منه الى رشدى فى نوفمبر من عام ١٩١٨ حتى كان قد أثار بين المثقفين وبين الطلبة عموما قلقا على مصر وعلى مصيرهم ومستقبلهم كطبقة صاعدة ·

كان المثقفون يتزودون كل يوم فى فترة الحرب بالاختمار الثورى والسياسى بما يشحذ نزعتهم القومية ويزدادون تهيؤا للعمل الثورى السياسى فى مواجهة الاحتلال · وكانت تمتد اليهم بجانب هذا — بوصفهم أفرادا من الشعب الذى طرق الاحتلال السافر وجدانه بالمساس بمقدساته — موجات من المد الثورى الذى كان يستشرى واضحا بين الفلاحين بصفة خاصة ، فيزيدهم اختمارا قويا وتطلعا الى حياة أفضل ·

الملاك الرأسماليون :

شاءت بعض العائلات من الملاك الأعيان قبل الحرب دخول ميدان الأعمال المصرفية غير أن هؤلاء الرواد للرأسمالية المصرية الأوائل لم يستطيعوا الصمود أمام منافسة البنوك الأجنبية ·

ولكن ذلك لم يدم طويلا حتى كانت الحرب العالمية الأولى قد وفرت الجو الذى هيأ للرأسمالية المصرية الظهور والنمو تحت حماية الزامية اقتضتها ظروف الحرب ·

وقد استطاع لفيف من طبقة الملاك التحول الى الأعمال المالية فى ظل الحرب ، فمثل ذلك بداية ظهور الرأسمالية المصرية ، ولقد دخلت الرأسمالية المصرية ميدان الصناعة فى ظل الحماية بانقطاع الواردات من الخارج واشتداد الحاجة الى صناعات محلية لسد حاجة السوق المحلى فأفادت من فرصة الحرب ·

وقد بلغ ارتفاع رءوس الأموال المصرية فى البنوك ارتفاعا سريعا وخاصة فى البنك الأهلى والبنك الانجليزى المصرى ، فقد زاد رصيدهما

عام ١٩٢٠ الى ٣٥٫٥ من مليون الجنيه بعد أن كان من قبل ٦٫٥ من مليون الجنيه عام ١٩١٤ (١) ٠

ولم تنشأ هذه الطبقة امتدادا للنشأة البرجوازية التجارية ، لأنها كانت ــ اذ ذاك ــ ناشئة ، وعلى ذلك فــلا يمكن منطق التطور أن يستثيع تسميتها بالبرجوازية الرأسمالية لاختلافهما فى النشأة والأيديولوجية ٠

كانت نواة طبقة جديدة من المغامرين الملاك الزراعيين ، تأخذ فى بداية النشأة حكم الطائفة فى اطار طبقة الملاك الزراعيين ٠

ومهما يكن الأمر فقد نشأت فى ظل حماية فرضتها الظروف فرضا فى وقت انقطع فيه الوارد من رءوس الاموال الاجنبيــة وكان ادراكهــا للمظالم الاقتصادية يتجلى فى شكل شعور من القلق على المصير من سيطرة الاحتلال ، وكانت تدرك ان مشروعاتها قابلة بعد الحرب لمنافسة حادة لاتستطيع أن تصمد أمامها ، ومن ثم ارتبطت مصالحها الاقتصادية بضرورة القضاء على الاحتلال تامينا لمستقبلها ٠

طبقة الملاك الاعيان :

كانت هذه الطبقة أبعد احتكاكا بالاحتلال من سائر الطبقات لذلك كانت أقل تعرضا للمظالم الاقتصادية التى حلت بالبلاد فى ظل الحرب بما ينتهى بهم الى الفاقة والارهاق لأنهم كانوا أقدر على تحملها ، وذلك بما فرضته سياسة الاحتلال المالية من قيود تحد من ثرواتهم مباشرة كهبوط أسعار القطن ، وتحديد مساحته ، واحتكار الحكومة لتصديره ، وارتفاع الاسعار بطريق غير مباشر فى الزراعة وغيرها باستخدام الفــلاحين فى الأعمال الحربية مما أدى الى فشل الطاقات البشرية فى الانتاج الزراعى ٠

وبالرغم من هذا فقد كان لهذه المظالم الاقتصادية اثرها الكبير فيما بينهم فقد تجلت محورة فى شــــكل شعور عام بأن الحالة القــائمة فى ظل الاحتلال من شأنها أن تحول دون نموهم وطموحهم كطبقة قوام حيـــاتها نظام الغلة الواحدة ؛

ولقد كان لذلك القلق الذى كان يتسرب الى الملاك الاعيان وينتشر

(١) دكتور أمين مصطفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، ص ٤٨٩ ٠

فيما بينهم تأثيره فى التهيؤ للتجاوب بينهم وبين الفلاحين والالتقاء فى ساحة واحدة لمواجهة الاحتلال ٠

الامراء :

وبرغم أن أمراء الاسرة المالكة كانوا أبعد من أن تنالهم الكوارث التى اطبقت على البلاد فى ظل الحرب والحماية ــ أو يصيبهم سوء منها ــ فقد حلت بهم بعض المشاكل التى تركت آثارها تذمرا ونقمة على الاحتلال ٠

كان أعضاء الأسرة المالكة ينقمون على بريطانيا دخولها فى حرب مع تركيا التى كانوا يعطفون عليها ٠

ولقد امتد التذمر الى لفيف منهم ثمرة ما حل باقتصادياتهم فى ظل الحرب من تحديد المساحات القطنية واحتكار صادرات القطن ٠

وكان عمر طوسون على رأس الناقمين على الاحتلال لتضييقه على حريته فى بداية الحرب عندما حاولت السلطات العسكرية البريطانية منعه من العودة الى بلاده ، فقد ظل وقتا طويلا تحت الملاحظة فى مرسيليا حتى أذن له بالعودة لمصر ٠

كما كان يعانى عدوان ذلك الاحتلال على بعض أملاكه فى أبى قير ؛ اذ استولت السلطة العسكرية على أراضيه عام ١٩١٦ فى أثناء الحرب (١) وحولتها الى مطار عسكرى وكان متوقعا أن تعيدها الى مالكها بعد الحرب ولكن ما كادت الحرب تنتهى حتى أعلنت بريطانيا ضمها الى أملاكها وزادت تمسكا بها بالرغم من مطالبتها برد الحق الى أهله بالاحتجاج والشكوى ٠

ولقد أدى ذلك التذمر وذلك القلق والكره من هؤلاء نحو الاحتلال الى الوقوف بجانب كل حركة تثب فى وجه الاحتلال للقضاء عليه ، وكان من الطبيعى أن ينمى موقفهم ، كملاك زراعيين ناقمين على الاحتلال ، الاختمار الثورى بين الفلاحين على وجه الخصوص ويزيده قوة وتوثبا ٠

هيئت البيئة للغرس الثورى من قبل بالتجدد الاجتماعى ، وكانت ثمار الغرس فى ظل الحماية ألوانا من القلق على المصير والبرم بالمساس بالمصالح المشتركة والكراهية لمصير الداء كله كقوة متسلطة والغضب الجارف الذى كان ينطوى على أمل فى حياة أفضل ٠

---

(١) « عمر طوسون » كلمات فى سبيل مصر ٠ ص ٧٠ ٠

وأخذ قلب مصر يتحرك وينبض فى تيقظ ، ويعود اليها الروح شعورا ثائرا ايجابيا يمتد بجذوره فى أعماق القاعدة الشعبية عميقا يتجه فى مجموعه الى اجتذاب الناس جميعا للخروج على ذلك الاحتلال وسلطانه وأساليبه ، وكانت الدلائل تشير بانه قد أصبح للأمة فكرة ثابتة ومشاركة حقيقية فيها •

كانت القوة الروحية التى كان الشعب فى حاجة اليها ليبلغ غايته قد توافرت ، شعورا قوميا موحدا وان اختلفت مراتبه بين طبقات الشعب باختلاف المستوى الفكرى والاجتماعى وغيرهما •

ولقد مثل ذلك الشعور اختمارا ثوريا واعيا ، فى أعلى صورة بين المثقفين ، وكان هؤلاء يرون الفكرة القومية مبدأ يرتبط باحترام وكرامة الانسان ، ووسيلة تحقق غاياتهم فى تحقيق هدف المجموع ، وكان هؤلاء لمستواهم الثقافى ، على جانب كبير من الوعى القومى السياسى ، فى استطاعتهم زعامة ذلك التهيؤ الثورى اذا ما انطلق ، وتوجيهه بحيث يصبح قوة تحقق آمال الشعب •

وكان ذلك الشعور القومى يتجلى بين الفلاحين والعمال والبرجوازية اختمارا ثوريا عميقا ، ولكنه لم يكن يمثل وعيا قوميا سياسيا اذ كانت الفكرة السياسية بين هؤلاء لاتزال غامضة ، ولكنه كان مع هذا يمثل اختمارا قوميا ، يقوم على وعى وجدانى تدرك الفكرة السياسية فيه لاشعوريا فى اطار النزعات التقليدية تغذيها الفكرة الاسلامية ، وكان ذلك الشعور يتميز بعنفه وقوته وقدرته على التجاوب مع زعامة الفكرة القومية بين المثقفين •

وبقدر ماكان ثمة فرق بين تركيب هذين اللونين من الوعى كان ثمة فرق فى النزعتين القوميتين :

وكانت النزعة ــ فى الحالة الأولى نزعة قومية واعية سياسيا ــ ثمرة ادراك يفكر ويخطط ، ووجدان ينفعل بما يفكر فى توازن بين جانبى الشعور ومن ثم كانت هناك نزعة مثالية عقائدية تتميز بالقدرة على الصمود وان كانت محدودة الانتشار بحدود المثقفين • وكانت النزعة فى الحالة « الثانية » قومية ، ولكنها كانت تعتمد فى انبعاثها على وجدان ثائر مسيطر على سائر جوانب الشعور بما لايسمح بتفكير كبير ، بل وقادر على الاستجابة الى تحدى الاحتلال فى شدة وصرامة ، فى حاجة الى قيادة وارشاد ليصبح أقدر على الصمود الطويل والافادة ، وكان ــ من هذا

وذاك ـ بعث قومي وهب للشعب القدرة على مواجهة الاحتلال والتجاوب مع قيادة المثقفين ٠

أما مستوى الاختمار في غير المثقفين وعناصر القاعدة الشعبية ، من الملاك والرأسماليين والاعيان والاجراء ـ فكان ضـــحلا ؛ اذ جاء تأثرهم بالاحتلال بطريق غير مباشر فى معظمه ، غير ذى تأثر كبير الا بقدر ما يسمح لهم بالتجاوب مع الاتجاه الثائر فى اطار مصالحهم الذاتية ٠

ومع نمو مراحل هذا الاختمار الثورى كان الرجاء فى حل القضية يزيده اشتعالا ونموا عندما أعلن ولسن شروطه الاربعة عشر فى أواخر عام ١٩١٧ ومنها انصاف الشعوب الضعيفة فبعد أن ظلت مقادير الحرب تتردد بين المتحاربين زهاء ثلاث سنوات منها تشيل فيها كفة النصر وتهبط فى كل ميدان ، دون أن يلوح مايؤدى بانهائها حتى دخلت الولايات المتحدة الحرب ـ أعلن ولسن شروطه المذكورة ٠

وزادت النفوس رجاء واملا عندما هزمت تركيا وعولت على التسليم أواخر عام ١٩١٨ اذ ذاك تكشف العمل الذى كانت تفرضه الحوادث على مصر وزعمائها ولم يبق لمصر محيص عن المطالبة بحقهـــا ولم يعد أمام مصر ـ اذ ذاك ـ الا أن تعثر على الزعامة التى تنظم وتعتســـف أمامها الطريق بالعمل من أجل القضية المصرية ٠

الفصل الرابع

تأليف الوفد المصرى

وبداية العمل لحل القضية المصرية

تهيأ الشعب بأصول الاختمار الثورى ، وأعلنت الهدنة فتكشف أمامه الطريق للعمل الثورى ، ولكنه بالرغم من أن هذا كان لايزال يتحرز من الابتداء والتفرد باعتساف الطريق ، لأنه كان لا يزال يشعر بسيطرة الانقياد الاجتماعى ــ كانت لاتزال تنقصه لكى يستكمل قوى الحركة فيه زعامة منه ، تقوم فى اطار قيمه ومن أجل اهدافه السياسية وعلى مستوى هذه القيم وتلك الاهداف ويدين لها بالطاعة والولاء .

ولم يكن متوقعا أن تتوافر تلك الزعامة الا بين من غلبت فيهم نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال ، ممن كانوا أكثر وعيا وأكثر تطلعا نحو حياة افضل ، من بين المثقفين .

ومن بين هؤلاء أخذت زعامة الشعب تتبلور مع بداية العمل لحل القضية المصرية عقب الهدنة حتى توافرت على رأس تنظيم سياسى وعلى نحو استكمل الشعب بها قدراته لبداية العمل الثورى .

لم يكن لمصر محيص عقب انتهاء الحرب من المطالبة بحقها ولا للحلفاء محيص من تحقيق ما يشيرون به وقد أرهف الاحساس تطلعا لان تسأل مصر بريطانيا عن مصيرها دون مساومة ، ألم تنع على الالمان سوء معاملتهم للشعوب وقد حاربتهم من أجل هذه المعاملة ؟ ولقد كان ذلك واجبا على مصر فرضته نهاية الحرب عليها .

واذا كان من الطبيعى أن تخطر فكرة كهذه على بال المثقفين فتجد بينهم صدى ملحوظا ، وعلى بال المسئولين والمعنيين عموما بخدمة القضية المصرية من المصريين ، فقد كان متوقعا أن تنتهى زعامة الفكرة الى يد المثقفين كنسق متسق مع سوابقهم فى زعامة الحركة القومية ، ونظرا لتفاوتهم فى التحفز لرفع الظلم والقدرة على انكاره كان لابد ألا ينتهى التفكير فى ذلك الواجب القوى بالمبادأة فى العمل الا بين أكثرهم حظا موفورا من هذه الصفات ، فلا ينعقد لواؤه الا على من كان يملك منهم بجانب هذا ، القدرة التمثيلية للشعب والمكانة الاجتماعية والقدرة النفسية

على اعتساف الطريق على « سعد زغلول » واذا كان لابد لهذا الواجب من هيئة تتولاه بالنيابة عن مصر فقد فكر سعد وأصحابه الى ما قبل الهدنة بأيام قلائل فى ذلك ٠

ففى سبتمبر دعا سعد اصحابه « محمد محمود باشا واحمد لطفي السيد بك و عبد العزيز فهمى بك » الى مسجد وصيف للتحدث فيما ينبغى عمله عندما تسنح الفرصة للبحث فى المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة ، فأجاب « محمد محمود باشا واحمد لطفى السيد بك » واعتذر « عبد العزيز بك » لمرضه (١) ٠

وما لبث هؤلاء أن كاشفوا بنيتهم بعض زملائهم من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم ٠

لم يقتصر التفكير اذن فى ايجاد هيئة تتولى عن الأمة علاج قضيتها على فرد واحد ، بل كان ذلك يشغل بال المثقفين ، كما يشغل بال السياسيين بل والمهتمين أيضا بخدمة مصر ٠

فشغل ذلك الأمر سعدا وصحبه من رجال حزب الأمة كما شغل بال « عمر طوسون » وبال « حسين رشدى » بوصفه المسئول الاكبر عن استرداد مصر تلك الوديعة التى رضى بوعد الانجليز بردها ٠

ولعل ذلك كان السبب فى اختلاف الروايات عن فكرة الوفد المصرى فى التساؤل عن معرفة صاحب فكرة تاليفه كتنظيم للعمل السياسى لا كحزب ٠

لم يؤثر عن « حسين رشدى » أى ادعاء أنه صاحب فكرة تاليف الوفد المصرى فى أى تصريح علنى أو حديث سياسى ، ولكن أثر عن « سعد زغلول وعمر طوسون » ما يشير انتساب هذه الفكرة لأحدهما ٠

ويبدو ان « عمر طوسون » هو صاحب فكرة تأليف الوفد المصرى كاول خطوات عملية ، فاذا كان لم يؤثر عن « حسين رشدى » ما يدل على ذلك كما سبق ، فقد سجل « سعد زغلول » فى مذكراته عبارة تفيد أن فكرة تاليف الوفد المصرى ، فكرة جميلة قامت فى بعض الرءوس من قبل (٢) ٠

ولقد أفضى الى « عمر طوسون » بهذه العبارة عندما فاتحه فى الامر وقد

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٩٢ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٢ ٠

أفضى اليه بالموافقة وارتياحه وتدبر معه مايحتاج اليه تنفيذ هذه الفكرة من المال الكثير ٠

ويقول « عمر طوسون » ان فكرة ارسال وفد رسـمي الى مؤتمر الصلح للمطالبة بحقوق مصر كانت قد خطرت بباله بعد أن صرح ولسن بمبادئه الاربعة عشر المشهورة فى ٨ من يناير عام ١٩١٨ ، ولما كانت المسألة المصرية تعد مسألة دولية وفى حاجة الى دراسة واقعية قبل اجتماع هذا المؤتمر للمطالبة بحقوق مصر ـ فقد دفعه ذلك الى مفاتحة «محمد سعيد» فى أمرها فاقترح عليه أن يتكلم فى ذلك مع «سعد زغلول» وكان معروفا بشخصيته القوية فى الهيئة الاجتماعية وبشخصيته البارزة فى الجمعية التشريعية فاستصوب عمر طوسون ذلك وصمم عليه ويقول :

« ولم تمكننا المقادير من مقابلة « سعد باشا » الا فى الحفلة التي أقامها المرحوم « رشدى باشا » فى ليلة ٩ من أكتوبر عام ١٩١٨ ٠٠٠ احتفالا بعيد جلوس المغفور له فؤاد الاول وذلك قبل الهدنة والصلح ؛ لأن هذا التاريخ كانت نهاية الحرب قد بدأت به ، وفى تلك الليلة ذكرنا « لسعد باشا » قرب انتهاء الحرب وانعقاد مؤتمر الصلح وانه يحسن بمصر أن تفكر فى ارسال وفد للمطالبة بحقوقها أمام هذا المؤتمر ، فاستحسن الفكرة ووعد بالتكلم مع اصدقائه فيها عند عودته الى القاهرة وأنه سيخبرنا بالنتيجة » (١) ٠

ويقول سعد فى روايته عن ذلك الموضوع : انه ذهب الى الاسكندرية للمعايدة وحضر وليمة رشدى بمناسبة عيد الجلوس ، ثم قابله « عمر طوسون » وقال له : انه يفكر فى أن تقوم من المصريين طائفة للمطالبة بحقوقها فى مؤتمر الصلح فقال : « فكرة جميلة قامت فى بعض الرءوس من قبل (٢) » ، ثم انصرف كل منهما عن الآخر ٠

ومن المرجح بهذا أن تكون فكرة تاليف الوفد كأول خطوة عملية على الاقل ، كانت ابتداع « عمر طوسون » ٠

ولقد سلم الوفد فيما بعد بهذا فى تحليله لمذكرات سعد فى سلسلة المقالات التى ظهرت بعد ذلك عام ١٩٤٨ التى رد فيها الوفد على مذكرات صدقى التى كان ينشرها ـ اذ ذاك ـ بجريدة المصور فقد رأى الكاتب أن سعدا انما يسجل فى مذكراته أن مصدر فكرة تاليف الوفد هو « عمر

---

(١) عمر طوسون : مذكرة بما صدر منا ، ص ٤ ـ ٥ ٠

(٢) المرجع الأسبق نفسه ص ١٩٢ ٠

طوسون » وانه اذا كان سعد قد سجل فى مذكراته بجانب ذلك أن الفكرة قد جالت فى بعض الرءوس من قبل فانه لم يقل انها جالت فى رأسه وحده ، وقد استدل الكاتب على أن « عمر طوسون » هو صاحب الفكرة بعبارة فى مذكرات سعد قالها وهى : « ان الأمير يستحق تمثالا من الذهب لو نجحت الفكرة » ٠

ومهما يكن الامر فقد اتفقت كلمة «عمر طوسون» وسعد على تاليف الوفد ، ولكن سرعان ما اختلفت الآراء عندما دخلت هذه الفكرة الى حيز التنفيذ بما انتهى الى انفصالهما وتشكيل الوفد بزعامة «سعد زغلول» ٠

ولقد كان السبب الذى بدأ فيه الخلاف هو الجهة التى يتجه اليها الوفد : هل يذهب الى انجلترا أو الى مؤتمر الصلح ؟

كان طوسون يرى تاليف الوفد وعرض القضية على مؤتمر الصلح غير أن الأمر سار فى اتجاه آخر ٠

فبعد مقابلة سعد « لعمر طوسون » بالاسكندرية عاد الاول الى القاهرة ، فلاقى « عدلى يكن » وتكلم معه فى تلك المسألة ورأيا توسيط قنصل أمريكا فى تسهيل السفر للمندوبين المصريين ، وفاتحه رشدى فى ذلك ، فلم يجد عنده استعدادا لتأييد المسعى (١) ٠

ولقد بدا ــ اذ ذاك ــ أنه ليس ثمة مفر من أحد أمرين ، اما أن تترك تركيا لمصر حقوقها واما الالتجاء الى الحكومة الانجليزية ٠

كان من المتوقع الأخذ بالامر الأخير وهو التفاهم المباشر مع انجلترا واخراج القضية المصرية عن دوليتها بسبب تعذر السفر الى مؤتمر الصلح بل لانه كان اتجاها متغلغلا فى المدرسة التى كان ينتمى اليها سعد ورجال حزب الأمة ؛ فقد كانت مدرسة ذات تاريخ ــ كما رأينا سابقا ــ تأخذ بالتفاهم المباشر مع الانجليز ٠

ونظرا لأن حكومة رشدى لم تكن تمثل المصريين ولا كانت تستطيع الادعاء بأنها تمثلهم كما سبق أن صرح رشدى نفسه بذلك (٢) ، لما كانت تدين ببقائها فى الحكم للاحتلال فانها لم تكن تشعر بصلاحيتها للوقوف أمام الانجليز ! ٠

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٩٢ ٠

(٢) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب ٠

لذلك كله ، وبعد دراسة عدة اجتماعات قرر سعد وصحبه من حزب الأمة ورشدى وعدلى تأليف وفدين : أحدهما رسمى يمثل الحكومة المصرية يتولاه رئيس الحكومة لدى بريطانيا ، والآخر شعبى يمثل الأمة المصرية يرأسه سعد لشد أزر الرسميين لدى الشعب المصرى والرأى العام فى انجلترا وفى غيرها ولدى ممثلى الدول فى مفاوضات الصلح فى تفاهم لحل القضية المصرية مباشرة ٠

ولقد أبعدت تلك الخطة التى اتبعها سعد ثم رشدى وعدلى ـ أبعدت « عمر طوسون » عن زعامة الحركة بالرغم من أنه كان صاحب الفكرة فى تأليف الوفد المصرى ٠

فقد كانت خطة التفاهم المباشر مع الانجليز لا تتفق مع اتجاه طوسون فى النظرة للمسألة المصرية كمسألة دولية فضلا عما كان ثمة من عداء بينه وبين الانجليز ، وان ميوله العثمانية كانت معروفة من موقفه المشوب بالعطف والمساعدة على موقف تركيا فى حربها ضد ايطاليا فى طرابلس ٠

أخذ سعد يبرز ، والموقف يتبلور كبداية للعمل لمعالجة القضية المصرية ، وكانت وكالة سعد للجمعية التشريعية وزعامته للمعارضة واعتراف زملائه له بالزعامة وقوة شخصيته ومواهبه ومكانته الخطابية ـ كان كل ذلك يؤهله للهيئة التى تشكل للتحدث باسم الأمة ٠

اتفق سعد مع « عبد العزيز فهمى» « وعلى شعراوى » زميله فى الجمعية التشريعية على أن يطلبوا من دار الحماية تحديد موعد ليقابلوا السير ريجنلد ونجيت المعتمد البريطانى للتحدث اليه فى طلب الترخيص لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة الانجليزية بناء على نصيحة « حسين رشدى » (١) ٠ وبفضل وساطة « حسين رشدى » ، طلبوا هذه المقابلة يوم الاثنين ١١ من نوفمبر عام ١٩١٨ يوم اعلان الهدنة ، فأجابت دار الحماية طلبهم بوساطة رشدى أيضا ، وحدد لهم يوم الأربعاء ١٣ من نوفمبر عام ١٩١٨ موعدا للمقابلة المطلوبة ٠

كان من الطبيعى أن يثير هذا الاتجاه « عمر طوسون » فقد كان معناه اقصاء له عن ميادين الحركة القومية ، فدفعه ذلك لأن ينشط فيلقى بثقله فى المعركة ٠ وقد بدأ ذلك فى ١١ من نوفمبر حينما علم من

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة عام ١٩١٩ ، ج ١ ص ٩٢ ٠

« محمد سعيد » نبأ هذه المقابلة السابقة ، فأسرع الى القاهرة فى اليوم نفسه لمقابلة « سعد زغلول » ونزل فى شبرد وطلب من « محمد محمود » تليفونيا الحضور لمقابلته ، حيث يتيقن منه حقيقة الأمر فاتصل بسعد تليفونيا ، وأخبره بأنه سيحضر عنده لمقابلته ، فلما اجتمع به فى بيته قامت بينهما مناقشة أدت الى الاتفاق على عقد اجتماع عام يضم أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم فى قصر « عمر طوسون » بشبرا فى ١٩ من نوفمبر عام ١٩١٨ (١) ، وذلك للتحدث فيما هو واجب اتخاذه فى هذه المسألة ، ورئى أنه لا بأس من ذهاب سعد وزميليه بحسب اتفاقهم الى دار الحماية للمحادثة وبحث الموضوع ثم عرض النتيجة على هذا الاجتماع ٠

ذهب سعد وصاحباه فى الموعد المحدود الى دار الحماية وقابلوا المعتمد البريطانى ، وتلقاهم ونجيت بالتحية قائلا (٢) : « ان الصلح اقترب موعده والعالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمنا طويلا وان مصر سينالها خير كثير وان الله مع الصابرين ٠٠ » الى آخر ما قال ٠

فكان جواب سعد انه بانتهاء الحرب يظن أنه « لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، والناس ينتظرون بفارغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدرهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنين » ٠

فوعد المعتمد البريطانى بالرجوع الى حكومته فى ذلك بعد الاتفاق مع القائد العام وقال : « ويجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت انجلترا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها ولكن لا يكون الأمر الا خيرا » فقال سعد :

« ان الهدنة قد عقدت وان المصريين لهم حق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما الخير الذى تريده انجلترا لهم ؟ » فقال ونجيت :

« يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم فان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة » فقال سعد مستفسرا :

« ان هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها » ففهم ونجيت أن سعدا قد استاء فاستدرك قائلا :

---

(١) عمر طوسون : كلمات فى سبيل مصر ، ص ٦ ٠

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٩٧ ، ص ١٩٩ ٠

« أريد أن أقول ان المصريين ليس لهم رأى عـام بعيد النظر » فرد سعد قائلا : « لا أستطيع الموافقة على ذلك لأننى ان وافقت إنكرت صفتى فانى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى انتخـابى ، وكذلك كان الامر مع زميـلى « على شـعراوى باشـا » « وعبد العزيز فهمى بك » .

وبعد مناقشة وجيزة قال « على شعراوى » : « اننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد » فكان لذلك وقع سيىء أثار دهشة ونجيت فى وقت لم يكن أحـدا من المسئولين الانجليز يفكر فى أن يطلب المصريون الاستقلال ، فقد كانت ـ اذ ذاك ـ تعد مشروعا يجعل من مصر مستعمرة !

وصاح ونجيت مدهوشا قائلا : « اذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟ » فأجابه سعد : « نعم ونحن أهل له وماذا ينقصنا ليكون لنـا استقلال كباقى الأمم المستقلة ؟ » ثم قال بعد مناقشـة طـويلة فى كفاية مصر وجدارتها للاستقلال : « متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام فاننا نعطيها ضمانة معقولة عن عدم تمكين أية دولة من استقلالنا والمسـاس بمصلحة انجلترا فنعطيها ضمانة فى طريقها الى الهند وهى قناة السويس بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تسـتلزمه المحـالفة من الجنـود » ثم قال شعراوى :

« يبقى أمر آخر وهو حقوق ارباب الديون الاجانب فيمكن بقـاء المستشار الانجليزى بحيث تكون سلطته هى سـلطة صندوق الدين العمومى » ثم قال سعد : « نحن نعترف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية وانا نعترف لها بالأعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر فنطلب باسم هذه المبادىء أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر ، واننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخصا لهذه الدولة العظيمة . وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الامور فى انكلترا ، ولا نلتجىء هنا لسـواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانكليزية ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر مطلعا على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب » فقال ونجيت :

« قد سمعت أقوالكم وانى أعد محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة

حبية ، فانى لا أعرف شيئا عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد » ثم انتهى الحديث ٠

وحرى بنا وانصاف للتاريخ أن ننظر الى مقـــابلة ١٣ من نوفمبر بظروفها ونتائجها ، فلم تكن مفاوضة ، وانما كانت فتحا لموضوع وبدءا للعمل ورسما لخطوط رئيسية ، وقد قرر الزعماء الثلاثة المطلب الأساسى وهو الاستقلال التام دون أن يكشـــفوا عن كل مالديهــم ، وقد أبدوا استعدادهم لبحث الشىء المعقول وأكدوا أنهم على استعداد بالاكتفاء لتحقيق المطالب القومية مفاوضة الانجليز وحدهم ، ولقد قام الحديث على نزعة قوامها التفاهم المباشر مع الانجليز ولم يأخذ بالتطرف ، مع اعطاء بريطانيا الضمانات التى تكفل مصالحها فى مصر ٠

تاليف الوفد المصرى :

كان سعد وصاحباه على اتفاق مع « حسين رشـــــدى » على هذه المقابلة قبل حدوثها (١) ، وقد قابلوه بعدها مباشرة فى وزارة الداخلية وكان ـ اذ ذاك ـ ينتظرهم فأفضوا اليه بما دار مع ونجيت من حديث وكان مؤيدا لهم فى نشاطهم ويشد أزرهم بوزارته ، وقد أفضى اليهم من ناحيته بانه قد أعد خطابا لرفعه الى السلطان باستئذانه فى السفر مع عدلى الى لنـدن ٠ وبعد أن رفع كتابه للسلطان فى ذلك قابل ونجيت فى اليوم نفسه ، وكاشفه بعزمه هو أيضا على السفر الى لندن مع عدلى ، واستطرد الحديث الى مقابلة سعد وصاحبيه للسير ونجيت وممـــا قاله عنهم انه يدهش لأن ثلاثة رجال يتحـــدثون عن أمة بأسرها دون أن يكون لديهم ما يخولهم صفة التحدث باسمها ، فاجابه رشدى بأن لهم هذه الصفة فان سعدا هو الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وكان الكاتبان عضوين فيها ٠

فلما علم سعد من رشدى بذلك اجتمع وصحبه للتشاور فى الطريقة التى تصلح للتحدث عن الأمة ، ولقد حثهم على انجاز ذلك الأمر ، ما كان من اتجاه هادف الى ابعاد « عمر طوسون » عن رياسة الوفد ٠

كان « عمر طوسون » فى انتظار الاجتماع الموعود لدراسة الموقف وكانت المعارضة فى رياسته للوفد تقوى وتشتد فى جهات كثيرة منها السراى والوزارة ومنها أصحاب سعد جميعا بغير استثناء ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ٩٩ ٠

كان فؤاد غير مستريح لظهوره على راس هذه الحركة ودخول اعضاء البيت المالك فى مآزق سياسية من الواجب أن يكونوا بمعزل عنها .

وكان رشدى بوحى من نفوذ « محمد سـعيد » صديق « عمر طوسون » الحميم يشفق من عواقب ذلك ولا يريد أن يمهله حتى يقبض بين يديه على زمام الموقف باساليبه الملتوية .

وكان أصحاب سعد يريدونها كما قالوا « حركة شـعب لا حركة امارة ، حركة استقلال لا خلافة (١) » ويعتقدون أن طوسـون وصديقه « محمد سعيد » يبغيان المحافظة على السيادة العثمانية الى أن ينزل عنها الاتراك للمصريين فى معاهدات الصلح .

لذلك اذا كانت الضرورة قد دعت سعدا وصاحبيه عقب مقـابلة ونجيت للبحث عن طريقة تخولهم التحدث عن الأمة فقد حثهم ذلك على تنفيذ اتجاههم ، ففى ذلك تعزيز له وقضاء على خطة طوسون .

فتقرر تاليف هيئة تسمى الوفد المصرى اشارة الى أنها وفد مصر للمطالبة باستقلالها وأن تحصل الهيئة على توكيلات عن الامة تخولها هذه الصفة .

وقد تالف الوفد فعلا فى ١٣ من نوفمبر عـام ١٩١٩ على النحو الآتى :

« سعد زغلول رئيسا وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى واحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة » وكانت تجمعهم رابطة العضوية فى الجمعية التشريعية عدا « محمد محمود ولطفى السيد » وقد قرروا توكيلا يوقع عليه من طبقات الأمة المختلفة وهذا نصه :

« نحن الموقعين على هذا قد انبنا عنا حضرات : « سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا واحمد لطفى السـيد بك » ولهم أن يضموا لهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر تطبيقا لمبادىء الحرية والعدل التى تبشر بها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبهـا تحرير الشعوب » (٢) .

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٩٤ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ص ١٠٢ .

ولما كان من الميسور ـ اذ ذاك ـ أن يقدح الانجليز فى وكالة الجمعية التشريعية فى قضية الاستقلال وغيرها من المطالب القومية ، لأنها كانت قد انتخبت قبل الحماية ولم يكن من أغراضها التصدى لمثل تلك القضية ـ فقد رأى الوفد دعما لنيابته عن الأمة أن يضيف دليلا آخر غير تأييد اعضاء هذه الجمعية ، بالحصول على توكيلات الامة مباشرة فى قضية الاستقلال ، وهذا يدعم بلا جدال التشكيل الجديد القائم على انتخاب قديم •

لهذا أسرع الوفد يطبع هـذه التوكيلات غير منتظر اتمام تأليفه فامضاها كل من عرضت عليه من ذوى المكانة والرأى واقبل عليها المصريون كل أقبال •

ثالف الوفد ولكى يعزز اتجاهه وموقف اتجاه طوسون ، قرر الغاء الاجتماع الذى كان مقررا عقده ، لهذا أقرت الوزارة الغاء الاجتماع الذى كان يدعو اليه ، فلما حضر طوسون الى القاهرة مستفسرا أبلغه « أمين يحيى » أن السلطان يرى أن يبتعد عن هذه الحركة وأن يبرح القاهرة الى الاسكندرية •

على أن طوسون قبل أن يتلقى هذا الأمر كان قد اجتمع « بمحمد سعيد واسماعيل صدقى » وبعض أعضاء الحزب الوطنى وبحثوا فى تأليف الوفد مستقلين للسفر الى أوروبا فاستحسنوا أن يشركوا معهم سعدا ومن معه وخاطب طوسون سعدا ليلقاه بفندق شبرد ، فاستأذن سعد أصحابه ليذهب اليه وخشى هؤلاء الاصحاب اذا خوطب سعد فى رياسة طوسون للهيئة أن يقبلها فناشدوه الا يقبل رياسته بغير رأيهم لأنهم يختارونه هو للرياسة •

ثم علم طوسون بأمر السلطان فؤاد فأطاعه ، وسافر الى الاسكندرية وسرى نبأ الخلاف بين الوفدين الى جمهرة الشعب فأسفوا وتذمروا وبدت بوادر غضبهم فى مطاردة الدعاة والرسل الذين كانوا يروجون لتوكيل الوفد الجديد (١) ، فآثر طوسون لهذه الاسباب العدول عن سعيه وآثر سعد وأصحابه رأب الصدع بانتخاب بعض انصار طوسون فاندمجت الهيئتان فى هيئة واحدة وانحسم الخلاف •

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ١٩٤ •

تعديل صيغة التوكيل :

لم يرض الحزب الوطنى عن صيغة التوكيل التى وضعها الوفد (١) لخلوها من النص على الاستقلال التام ومنافاتها للكرامة القومية اذ جعلت المطالبة باســـتقلال مصر فى حدود مبادىء العدل والحرية التى تنشرها بريطانيا فى حين أن جهاد الامة وشكواها من الاحتلال انما يرجعان الى سياسة بريطانيـا التى اتبعتها فى الاحتلال ، هذا مع خلو التوكيل من الاشارة الى السودان فيما يتنافى مع وحدة وادى النيل •

فلما نشرت الصيغة توجه اربعة من أعضاء الحزب الوطنى وهـــم الاستاذ « عبد المقصود متولى ومصطفى الشـــوربجى ومحمد زكى على ومحمد عبد المجيد العبد » الى دار سعد وناقشوه فى التوكيل حتى اشتدت المناقشة واثارت غضب سعد وعد اعتراضهم اهانة له وقال لهم : كيف تسمحون لأنفسكم بهذه الحدة وكيف تهينوننى فى منزلى ؟ فأجابه الأستاذ « محمد زكى » على الفور : بأنهم يعدون أنفسهم فى بيت الأمة لا فى بيت « سعد باشا » الخاص فسر سعد لهذه التسمية وابتسم لمحدثيه وقال لهم منبسطا : « لقد تنازلت عن ملاحظتى » ومن ذلك الوقت أطلق على بيت سعد بيت الأمة وعلى اثر ذلك اجتمع الوفد عقب انتهاء هذه المقابلة وبحث فى تعديل صيغة التوكيل •

اذ ذاك ادرك الوفد ما وراء حركة الاعتراض على نص التوكيل من مغزى يدل على الحيوية ، فازداد شجاعة وقوة وغير صيغة التوكيل بصيغة أخرى صريحة لا يدخلها الشك (٢) وكان نص التوكيل :

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات ••• فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى اســـتقلال مصر استقلالا تاماً ، اما عن السودان فقد عقد الوفد أن كلمة مصر تتناول السودان » •

دعم الوفد بأعضاء جدد :

ولقد أبرزت حادثة تعديل توكيل الوفد فضل الحزب الوطنى على الدعوة والحركة القومية فازداد الشـــعور بين الوفد بالحاجة الى تضمين الوفد بعض عناصر الحزب الوطنى ، كما قضى استكمال تشكيل الوفد

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ص ١٠٣ •
(٢) محمود أبو الفتح : المسألة المصرية ، ص ٤٤ •

ضم أعضاء آخرين على نحو يستكمل تمثيله للأمة وقدرته على العمل السياسى .

نبه ذلك سعدا الى ضرورة دعم الوفد بعناصر جديدة لاستكمال تمثيل الامة ، كان معظم الوفد الأول من حزب الامة ممن كانت تربطهم رابطة الجمعية التشريعية ولم يكن ثمة من غير حزب الأمة سوى محمد على علوبة ، وكان عضوا فى لجنة الحزب الوطنى الادارى وكذلك كان المكباتى ، وكان يؤيد الحزب بشعوره وأقرب ميلا اليه ، وكانا عضوين فى الجمعية التشريعية و « أحمد لطفى السيد » برغم انه ليس عضوا فى الجمعية التشريعية كانت تغلب عليه صفة حزب الأمة .

ولقد سعى سعد لضم بعض الذين كانوا مع طوسون فضم « اسماعيل صدقى ومحمود ابو النصر وعبد الخالق مدكور » ولما أدرك بعض أصدقاء الوفد ما فيه من نقص فى تكوينه ، بخلوه من تمثيل الحزب الوطنى عرضوا عليه ضم أعضاء جدد من الحزب الوطنى ، وقد جرت فى هذا الشأن مفاوضات بين الوفد والحزب الوطنى قبل فيها الحزب مبدأ تمثيله فى هيئة الوفد (١) ولكن وقع بينهما خلاف حول الاعضاء الذين يمثلونه فى الوفد ، ولما تقرر الاتفاق على الأشخاص اختار الوفد من تلقاء نفسه « مصطفى النحاس » وكان قاضيا بالمحاكم الاهلية « والدكتور حافظ عفيفى » عضوين بالوفد على أساس أنهما يمثلان الحزب الوطنى وكانا يعتنقان مبادئه .

ثم ضم الوفد اليه أعضاء آخرين لاستكمال بعض العناصر التى تمثل طبقات الأمة من ذوى المكانة والشخصية وأصحاب العصبيات مثل « حمد الباسل » وبعض الممثلين للطائفة القبطية مثل « سينوت حنا وجورج خياط وواصف غالى » قد انضم هؤلاء الى أعضاء الوفد الأول بالاضافة الى بعض أعضاء وفد « عمر طوسون » حتى اذا بلغ الأعضاء ١٤ أعيد تكوين الوفد من جديد وصدق الاعضاء الجدد على قانون الوفد فى ٢٣ من نوفمبر عام ١٩١٩ وهو القانون الذى كان الوفد الأول قد وضعه .

شكل الوفد فى هيئة ضمت المعتدلين والمتطرفين قوامها اقدر عناصر المثقفين المنحدرين من عل ، مع لفيف من الأعيان والماليين وممثلى الطوائف بزعامة سعد لتمثيل الأمة فى بداية العمل من أجل حل القضية المصرية .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٢٦ .

ولقد تجلى واضحا أن هذا الوفد لم يكن فى تشكيله ثمرة انتخاب عام ، فقد كان ذلك امرا تحـول دون انجـازه الظروف القائمـة فى ظل الحماية ، بل جاء ثمرة أسس سبق اليها الوفد كان أولها الاساس التمثيلى الذى درج المجتمع على تحديده فى نطاق من لهم صفة التحدث باسـم المصريين ، وقد اتخذ ذلك صورة الصفة الرسـمية فى تمثيل الأمة فى الجمعية التشريعية .

ولم يكن ثمة مفر لسعد من اتباع ذلك ، فلم يكن سهلا الاستغناء عن شركاء الجمعية التشريعية أو من تؤيدهم ، ولقد حد من فرص اختيار هؤلاء ، الظروف القائمة اذ ذاك ، من الرقابة الصارمة التى وضعت على وسائل الاتصال فكان أول عمل هو البدء بالعناصر المتقاربة .

وبرغم ما كان يبدو على هذه الأسس من معانى القيود التى تقلل فرص الاختيار ، فان هذه الأسس كلها لم تكن تبدو مطلقة فقد كان الحرص أول الأمر مركزا على اختيار الأعضاء من الجمعية التشريعية ، ولكن الضرورة اقتضت الخروج نسبيا على هذه القاعدة فمثلت الطائفة بواحد من أبنائها البارزين .

ثم حدث التوسـع بعد ذلك فى التمثيـل من غير تقيد بالجمعية التشريعية أو بغيرها .

ومن الأسس ما فرضته الرغبة فى ابراز اتفاق الكلمة من الاتجاهات السياسية فقد تشكل معظم الوفد من المعتدلين عندما كان المقصود طرق القضية الوطنية على أساس التفاهم فقد كان اختيار أناس من المتطرفين بجانبهم من شأنه أن يمثل اتفاق الأمة كلها وتطعيم الوفد بعناصر شابة فى مجال العمل القومى ، كما كان فى هذا ابعـاد لشر قد ينجم من ترك المتطرفين دون تمثيل .

ومن الأسس ما فرضته الضرورة لمحاولة التآلف بين وفد « عمـر طوسون ووفد سعد » لرأب ما قد يحدث من تصدع وانقسام بين الأمة .

ومن المسـائل التى لم يتمكن الوفد من تجاهلها مسـألة اصحاب الثروة ، فكان لابد من تمثيلهم ضمانا لمصادر المال ليتمكن الوفد من انجاز عمله فى مصر وأوروبا وسائر الاقطار .

ومهما يكن الأمر ، فقد تشكل الوفد فى هيئته ولم تضـع الأمة أعضاءه فى مستوى القيادة السياسية فحسب بل غدا فى اطار القيم السـائدة فى مسـتوى الزعامة الأبوية التى تعد الطاعة فيها أشبه بنظام الأسرة واجبة التنفيذ .

لهذا أصبحت الطاعة والولاء واجبين للوفد من الشـــعب كله فقد اودعه آماله وأسلمه قياده ٠

انه اذا كان الشعب قد اكتسب من الاختمار الثورى ما هياه للثورة فقد استثار تشكيل الوفد بين الشعب أملا فى مستقبل خير مما هو فيه وثقة جديدة فى ذاته ، وزاده تحفزا من أجل العمل القومى فى ظل زعامته الجديدة ٠

وقد أخذ ذلك يتجلى عندما أصدر الوفد نصا بتوكيل المصريين اياه فى السعى للاستقلال أينما وجد الى السعى سبيلا ، وبعث بصورة هذا التوكيل الى مختلف الهيئات لتوقيعها والى الهيئات النيابية المحلية والى العمد والاعيان ، فاذا عشرات الألوف ومئات الألوف من التوقيعات تنهال من كل جانب (١) ٠

تهيأ الشعب بأصول الثورة وكان طبيعيا أن يزداد أملا فى الحياة الكريمة فى ظل زعامته الجديدة ٠ وقد أولاها ثقته وفرض على نفسه طاعتها طالما ظلت فى اتجاهه الاصيل ، ولكن الى أى مدى كان استعداد ذلك الوفد من حمل المسئولية والتجاوب مع الاتجاه القومى ؟

كان معظم أعضاء الوفد من المعتدلين مفطورين على الدعة ولا يفهمون العناد ولا يعيشون أو يؤمنون بالكفاح وأسلوبه ، ولا يميلون للصمود أمام الصعاب والصبر على الشدائد الا بمقدار ما يدنيهم من مصالحهم الذاتية ٠

ولم تكن القلة ، وعلى رأســـها سـعد ، كهذه الكثرة فى الطبيعة والنظرة ، بل كان افرادها يتميزون بالثقة والايمان بالحق والصمود من أجله والتشدد فى طلبه ، والتحفز لرفع الظلم ٠

وليس بدعا أن يختلف الطرفان ، بمقدار هذا الاختلاف فى النظرة نحو الفكرة القومية مبدأ وأسلوبا ، كانت تجمع الوفد عقيدة سـياسية واحدة ، وهو العمل من أجل الاستقلال التام الا أن الكثرة والقلة كانتا تختلفان بمقدار اختلاف الطبيعة ، وكانت الكثرة اكثر تمسكا بالمبدأ الحر عن ايمانها بالمبدأ القومى ، لأن الأول كان داخلا فى مصالح الطبقة وأقرب للاستجابة الى مستلزمات وجودها وتطورها ، فقيام الدستور فى رأيهم يرفع السلطة المطلقة الشرعية ويدنى مصر من هدفها وهو الاستقلال أو يفتح فرص النهوض بالشعب عندما لم يكن عليه سلطان ، فتقدير المبدأ

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ٨٦ ٠

الاول هو الطريق لهم نحو تحقيق المبدأ القومى ، أما القلة وعلى رأسها سعد فكانت تؤمن ايمانا كاملا بالمبدأ القومى وتتشدد فيه مقدما على كل تقدير مع ايمانها بالمبدأ الحر .

وبمقدار الاختلاف فى النظرة القومية كان الاختلاف فى النزعة وأسلوب التعبير وأسلوب العمل ، حقيقة كان يجمع الوفد كله أسلوب حزب الأمة وهو المصالحة ، أخذ شىء بترك شىء ، ولكن الطرفين كانا على اختلاف فى الأخذ به من حيث الدرجة فقد كان ذلك الاسلوب لدى الكثرة أقرب الى السلبية ، لأنه لم يكن مثمرا تماما اذ يمكن الخصوم من الأخذ اكثر من العطاء فلا بأس لدى هؤلاء من تحقيق المبدأ الحر ولو أدى بأنصاف حلول للمبدأ القومى، وكان ذلك الاسلوب لدى القلة مثمرا لأنه كان ايجابيا يقوم على الثقة والايمان بالحق بما يفرض احترامه على غيره ويقوم للمبدأ على التشدد فى طلب الحق ، لدرجة الكفاح والتصادم ولا بأس لدى هذه القلة من الثورة اذا شاء الشعب فانها تجد بينها استعدادا وتجاوبا ، فاذا اضطر المكافحون للتسليم فالى ميدان آخر من أجل تحقيق الواقعية المثالية .

كان استعداد الوفد للتجاوب مع الاتجاه القومى اذن غير موحد اذ كان معرضا للهزات والانقسام مع النزوات والمنافع والاهواء ، وكانت قدرته تكمن فى هذه القلة التى كان سعد خير من يمثلها ولا تجد عصمة تقيه اليوم الذى يواجه فيه صعابا من أجل القضية المصرية فلا يجد عصمة من الانقسام والتصدع السريع الا فى ظل مبادئه وزعامته التى يستمدها من تأييد الأمة له .

وقد استمد سعد من تلك الذخيرة زادا يشد أزره كلما احتاج اليه .

ومهما يكن الأمر ، فقد أصبح للشعب هيئة تقف منه موقف القيادة والزعامة القادرة على تمثيل المصريين ، لم تكن حزبا سياسيا بقدر ما كانت اداة للعمل السياسى لا ينبغى أن تتحول الى حزب سياسى .

وكان للوفد أن يعمل وفق قانون نظامى أصدره ، حدد طبيعته واختصاصاته ورسالته وجميع أبعاده .

فالوفد المصرى قيادة سياسية مهمتها السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما .

وهو يستمد قوته من رغبة اهالى مصر التى يعبرون عنها رأسا أو بمندوبيهم بالهيئات النيابية مادة (٣) .

والوفد لا ينفض الا اذا أنجز مهمته « ما دام العمل الذى انتدب لاجله قائما » مادة (٤) ٠

ولا يجوز له التصرف فيما انتدب من أجله فليس للوفد ولا لاحد من اعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود الوكالة التى يستمد منها قوته وهى : « استقلال مصر استقلالا تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل » مادة (٥) ٠

وقد نصت المادة السادسة من القانون على ضرورة قسم كل واحد من اعضائه على قضاء مهمته على الوجه الأكمل الذى انتدب له وعلى التضامن فى العمل ٠

أما المادة السابعة فقد نظمت طريقة انفصال الاعضاء واستقالتهم ٠

وكذلك خولت المادة الثامنة الوفد « أن يضم اليه اعضاء آخرين مراعيا فى انتخابهم الفائدة » ٠

ثم جاءت المادة التاسعة فنصت على أن يسافر الوفد الى أية جهة يرى فى التوجه اليها فائدة للقضية المصرية ، وله أن ينتدب بعض اعضائه للسفر الى أية جهة كانت متى وجد لذلك فائدة ٠

أما المادة العاشرة فقد نظمت طريقة اصدار القرارات بأغلبية الآراء على انها اذا تساوت يرجح رأى الفريق الذى فيه الرئيس ٠

ثم كانت المواد التالية منظمة لادارة الوفد ٠ فالمادة الحادية عشرة جاءت عن تعيين الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق ومساعدتهم الأعضاء والتالية عن تعيين من يراه الوفد من أعضائه للتقدم لوظائف معينة ٠

وقد نصت المادة الثالثة عشرة على أن : « الرئيس يشخص الوفد ويرأس جلساته ويحافظ على نظامه ويشرف على أعمال اللجان والاعضاء ذوى الوظائف وعلى عمل السكرتارية وامانة الصندوق » ٠

وجاءت المادتان (١٤ ، ١٥) تحددان وظائف السكرتير وأمين الصندوق واختصاص كل منهما والمادة (١٦) اختصت بتنظيم الجلسات فقررت « ان الوفد يعد فى حالة دائمة الانعقاد وتنعقد جلساته النظامية بدعوة من الرئيس ، وعند الضرورة يجوز أن يتخذ ما يراه من القرارات المستديمة ، وعليه فى هذه الحالة أن يعرضها فى أول جلسة نظامية لادراجها ضمن المحضر » ٠

وقد نظمت المادة (١٧) طرق وضع محاضر الجلسات فى مشتملاتها

والمادة (١٨) عن التصديق على المحاضر والمادة (١٩) عن واجبات السكرتير في اتخاذه سنجلا يقيد فيه يوميا جميع ما يهم من الحوادث وغيرها على أن يؤشر الرئيس على السجل يوميا ٠

ثم جاءت المادة العشرون عن واجبات الاعضاء عند محادثاتهم مع الاشخاص الرسميين باسم الوفد ، أما المواد (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) فقد نظمت شئون الوفد المالية عن طرق الصرف ومصادر تمويله وغير ذلك ، ونصت المادة السادسة والعشرون وهى ختام المواد ، على أن يعين الوفد لجنة تسمى باللجنة المركزية للوفد المصرى يختار اعضاؤها من ذوى المكانة ومهمتها جمع التبرعات للوفد وارسالها اليه ومراسلة الوفد بما يهم من الشئون الخاصة بمهمته ٠

وقد صدق على هذا القانون فى ٢٣ من نوفمبر فى سنة ١٩١٩ منهاجا للعمل بمقتضاه يسوده اتجاه سياسى قومى واضح يتركز حول العمل على الاستقلال التام ، وقد خلا من البرنامج الاقتصادى اذ شاء الوفد التركيز حول العمل السياسى قبل كل اعتبار ٠

ولما كان الوفد يدخل فى برنامجه العمل على الغاء الامتيازات فقد رأى من اللياقة ألا يطالب المنتصرين من الدول بالنزول عن امتيازاتهم مع مطالبة بريطانيا بالاستقلال ٠

الوفد والأحزاب المعاصرة :

وقد احتل الوفد مركز المهيمن على دائرة السياسة ، اتجاها قوميا متحررا من الرواسب التقليدية التى كانت تشوب الفكرة القومية ، وذلك فى وجه مدرسة أخرى عاصرها ، تجسدت فى الحزب الوطنى كانت امتدادا ذابلا من الماضى ٠ لقيم ثورية تشوبها الرواسب التقليدية ازدهرت فى ظل أحلك أيام التبعية الشاملة ، وناهضت الاستكانة والرضوخ فى ذلك الوقت ، وقد امتدت تلك القيم الى ذلك الوقت دون أن تتحرر من تلك الرواسب ، ومن ثم كان الوفد يمثل بحق زعامة الفكرة القومية فى صورتها الحديثة ٠

ولقد حدثت ثمة محاولات لفريق من المثقفين بعد أن شكل الوفد للتعبير ، فى شكل منظم حزبى ، يمزج بين المبادىء السياسية والاقتصادية وبرغم محاولة البعض ايجاد صلة بالوفد فقد رفض ذلك ، مؤثرا العمل مستقلا من أجل الهدف القومى السياسى ٠

الفصل الخامس

بداية التصادم بين الوفد والإنجليز وتطور خطة الوفد

قام الوفد ، وانطوى تاليفه من أجل تحقيق هدفه القومى ، على خطة كان قوامها تحقيق ذلك الهدف على أساس المصالحة بالتفاهم المباشر وبالطرق السلمية بينه وبين الانجليز ٠

ولقد بدأ ذلك يتجلى منذ اللقاء الاول ، عقب اعلان الهدنة كما أسلفنا بين سعد وصاحبيه ونجيت بما أفصح عن أبعاد تلك الخطة وزادها ايضاحا ٠

فقد قال سعد ـ اذ ذاك ـ لونجيت عن المطالب المصرية فى هذا اللقاء:

انه عند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الأمور فى انجلترا ولا نلتجىء هنا لسواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية (١) ٠

ولقد كان من الطبيعى بعد أن تم تاليف الوفد ملتزما بالعمل من أجل قضية الاستقلال وكيلا عن الأمة ـ أن ينهض فى عزم صادق برسالته على اساس هذه الخطة ، فلا يغيرها الى خطة اخرى الا اذا اضطرته الظروف واقتضاه حمل عبء الرسالة أن يمضى بها ، عندئذ لايجد محيصا عن تطوير الخطة بما يخدم القضية الوطنية ٠

ولقد اخذ الوفد بمقتضى ذلك الالتزام القومى يسعى فى جد بعد تاليفه من أجل الاستقلال ، وبوحى من خطته الاصيلة ، آثر السفر الى لندن فى نوفمبر من عام١٩١٨، ولكن كان الموقف يحمل بين طياته بذور الخلاف بين الطرفين المصرى والبريطانى ، ومن ثم كان لابد أن ينتهى ذلك بالتصادم بما يطور هذه الخطة الى خطة أخرى تستلهم وجودها من طبيعة التطور فى مجرى العلاقات بين الطرفين ٠

كانت بريطانيا اذ ذاك ، عند ما عزم سعد على التفاهم المباشر معها

---

(١) انظر الفصل السابق من هذا الكتاب ٠

بشأن مستقبل مصر ، لاتفكر فى هذه المسألة قبل تمام عقــد مؤتمر الصلح وفراغها من جميع المشكلات المتخلفة من الحرب العالمية الاولى ، وهى اذا فكرت فيها بعد ذلك فباستعلاء الدولة التى كانت تنظر لمصر من خلال نشوة النصر ، فلا ترميها بشىء غير الجحود الذى لا يرمى به أحد الا من صاحب فضل ، ولم يكن فى نيتها أن تلغى الحماية وتعترف لمصر بالاستقلال فقد دهش ونجيت حين فوجىء بكلمة الاستقلال ! وكان على مصر بهذا الوضع أن تنتظر الى أجل غير مسمى ، وليس لها بعد طول انتظار أن تطمح الى الاستقلال ، فلا يصح لها فى نظر بريطانيا أن تطلبه والا عدته تلك منها ذلك اجتراء يعاقب عليه المطالبون به بالشدة ! فلم يكن موقف رشدى من قبوله الحماية دون تحفظات من شأنه أن يقنع الانجليز بعدم الاكتراث بالاستقلال ، فاذا كان لبريطانيــا أن تتنازل بالنظر نحو مطالب مصر فليس فى مقدورها باكثر من الاستماع الى مقترحات تقدم عن نظام الحكم الى المندوب السامى على الا تخرج على الخطة التى رسمتها بريطانيا من قبل فى اطار الحماية !

ولم يكن سعد بالطبيعة ليغيب عن ذهنه حقيقة هذا الموقف عندما هم بالسفر ولا بد أنه كان قد ادرك ذلك بالاستقراء من مقابلته لونجيت من أن بريطانيا لم تكن تفكر فى المسألة المصرية لاشتغالها بمهام قبل عقد مؤتمر الصلح ، وذلك من دهشة ونجيت من ذكر طلب الاستقلال ، ولكنه لم يكن يثنيه ذلك عن سعيه ، فكان لابد أن يمضى الوفد من أجل غايته باية وسيلة لتنفيــذ ما التزمه امام الامة وفى اطار خطتــه يحدوه الامل فى أن يجد بالاتصال المباشر بالرأى العام البريطانى سبيلا يبلغه غايته .

وقد كان سعد ـ اذ ذاك ـ يرى أنه من المستحيل الوصول الى الغاية المنشودة بمخابرات بسيطة تجرى فى مصر وحسب ، فان القضية التى يدافع عنها يجب أن تعرض بادىء ذى بدء على الرأى العام الانجليزى الذى لا شك فى أنه للاستنارة فيها ، فى حاجة الى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبديهــا الا الممثلون الطبيعيون الموكلون من الأمة المصرية ذاتها (١) .

كما اراد بهــذا أن يكون على اتصــال برجال الســياســة الممثلين لبريطانيا والمعنيين بتوجيه الرأى العام اعتقادا منه أن نجاح حل القضية المصرية يتوقف جزء كبير منه على عدالة بريطانيا !

---

(١) من كتاب سعد الى ونجيت فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩١٩ .

بهذا شاء الوفد الاتصال مباشرة بالانجليز بالسفر الى العاصـــمة البريطانية لاستطلاع أفكار تلك الحكومة ثم بالافصاح لها وللرأى العام عن افكار مصر ٠

ونظرا لأن بريطانيا لم تكن ترحب بدعوة الاستقلال التام ولا كانت راغبة فى التفريط فى الحماية فقد كان متوقعا ألا ترحب بحضور سعد وصحبه اليها ، لانها كانت تخشى أن يساء فى مصر فهم وجودهم فى لندن فيقال باتجاه بريطانيا للتخلى عن الحماية بما يفسد على بريطانيا ما كانت قد عزمت عليه من الابقاء على هذه الحماية !

كان نجاح الوفد اذن فى السفر الى لندن يكتنفه صعاب كبيرة تنذر بتطور خطته وكانت نقطة التحول فى يد حكومة « حسين رشدى » ٠

كان ثمة خطة تعاون منذ البداية بين « سعد وحسين رشدى » للعمل على سفر وفديهما الى انجلترا فاذا كان ثمة أمل لان يجد حسين رشدى من بريطانيا استعدادا للسماح له بالسفر فقد كان طبيعيا ألا يرضيه أن ترفض بريطانيا ســفر الوفد وفاء للخطة وعندئذ لا يجد غير التشبث بضرورة سفر الوفد مع وفده الرسمى لانه كان يدرك أن وزارته لم تكن تقوم على أسس دستورية ، بحيث تمثل البلاد وانه لا يستطيع الاتفاق مع بريطانيا وحماية ما يصل اليه من نتائج وحده ، بغير مصاحبة الوفد الممثل للأمة ، فيتجنب التعرض للاخفاق اذا ما ترك الوفد خلفه فى مصر !

وكان الرجاء فى نجاح خطة الوفد متوقفا على مدى استجابة بريطانيا لتشبث حسين رشدى أمام بريطانيا فى المطالبة بسفر الوفد معه ٠

ونظرا لان بريطانيا كانت ترحب بأى مسعى حول مستقبل مصر يتم فى اطار الحماية ، ونظرا لان « حسين رشـدى » كان يريد الســفر — اذ ذاك — مع زميله عدلى لعرض مطالب مصر حول تنظيم الحماية فقد كان مرجحا ، وهى تنظر اليه نظرتها الى العناصر التى تثق ببريطانيا وترضى بالتعاون معها أن تسمح له بالسفر ، ولكن دون أن تسمح للوفد بالسفر فلا يكاد الوفد عندئذ يجد من مؤازرة الوزارة لموقفه فى البداية حتى تبوء خطة التعاون بين « سعد وحسين رشدى » بالفشل أمام اصرار بريطانيا على موقفها بما لا يجد « حسين رشدى » ازاءه محيصا من الاستقالة وبما لايجد الوفد ازاء ذلك محيصا من الاستجابة لذلك التحدى فيطور خطته الى خطة أخرى ٠

وبدأت حلقات اللقاء الأول بين الوفد وبريطانيا فى صورة محاولة للسفر الى انجلترا فعزم سعد على السفر ، ولما كانت البلاد وقتئذ تحت الأحكام العرفية فقد كان الترخيص بالسفر تتولاه السلطة العسكرية البريطانية ، ففى ٢٠ من نوفمبر عام ١٩١٨ طلب سعد من قيادة الجيش الانجليزى جوازا له ولأعضاء الوفد بالسفر الى انجلترا .

ولما ردت عليه السلطة العسكرية فى اليوم التالى بالوعد فى النظر فى طلبه وأبطأت فى الرد أرسل اليها فى ٢٨ من نوفمبر استعجالا بالنظر فى طلبه فجاءه الرد فى اليوم التالى بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من اجابته الى طلبه فى الوقت الحاضر ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر السلطات البريطانية باعطائه وصحبه الجوازات التى يطلبونها (١)!

فبادر سعد بعد أن بدت هذه النية من السلطة العسكرية بارسال خطاب الى المندوب السامى البريطانى فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩١٨ يعرض محاولاته التى بذلها من أجل السفر فيقول :

« ... ونظرا الى أنه من الضرورى أن يكون وفدنا بلندن قبل الاسبوع الأخير من شهر ديسمبر جئنا بهذا راجين من فخامتكم أن تتفضلوا باستعمال مالكم من النفوذ لدى السلطة العسكرية لحصولنا على جوازات السفر سريعا فى الوقت المناسب » (٢) .

وبعد أن تلقت دار الحماية تعليمات لندن أرسل نائب السكرتير الخاص للمندوب السامى خطابا الى سعد يرفض الترخيص له بالسفر وأنه اذا أراد أن يقدم مقترحاته عن نظام الحكم فى مصر الى المندوب السامى فيفضل أن يكون كتابة على ألا تخرج عن الخطة التى رسمتها الحكومة البريطانية من قبل أى فى دائرة الحماية !

كان ذلك الرد ايذانا بعدم تمكين الوفد من السفر الى انجلترا مع الحد من مهمته وحصرها ، فى أن تكون مقصورة على نظام الحكم فى دائرة الحماية التى اعلنتها انجلترا على مصر عام ١٩١٤ .

اعترض الوفد وأرسل سعد فى ٣ من ديسمبر الى السير ونجيت خطابا يعبر فيه عن اعتراضه ، جاء فيه :

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ص ١٣٩ .

« ليس فى وسعي ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لاتكون مطابقة لارادة الامة المصرية المعبر عنها فى التوكيلات التى أعطيناها وانى أعرض على أنظاركم أن هذه التوكيلات قد أقبل على التوقيع عليها بشغف ٠٠ وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال الى الاجماع لولا تدخل الادارة فى منع تداولها وفى مصادرتها ٠٠ » ٠

« والصعوبات التى وضعت فى سبيل سفرنا تجعل المأمورية التى أخذناها على عاتقنا غير محققة النفاذ ، وهي مأمورية اظهار ارادة الأمة » ٠

وفى هذا الرد اثبات للتوكيلات كما هو اثبات للمنع وللحجر على كل وسيلة من وسائل الاعراب عن الرأى ٠

كان رشدى ـ اذ ذاك ـ معتزما السفر الى لندن مع زميله عدلى لعرض مطالب الحكومة المصرية على بساط البحث ، وكان ينتظر من آن لآخر قبول الحكومة البريطانية هذه المهمة منه فارسل اليه سعد فى ٤ من ديسمبر كتابا يبلغه فيه فحوى الرد ويطلب اليه أن يستغل نفوذه فى تمكين الوفد من السفر ٠

ولقد تبين من هذا أن بريطانيا ـ اذ ذاك ـ لم تكن على استعداد للاستجابة الى رغبة سعد ولا كانت مستعدة للنظر فى رغبة رشدى فى السماح لهما بالسفر الى لندن ، والواقع ان وزارة الخارجية البريطانية كانت تنظر الى حركة سعد فى مطالبته بالاستقلال كما يقول لويد جورج، نظرة سخط وكانت تنكر على رشدى عرض مطالب مصر فى لحظة غير ملائمة بالنسبة لها بل كانت مستاءة من ونجيت لانه بدا وكأنه غير مدرك حرج وزارة الخارجية ، وقد حدد بلفور موقف حكومته من هذه الطلبات فى رسالة الى ونجيت فى ٢٧ من نوفمبر عام ١٩١٨ قال فيها :

« ان حكومة جلالة الملك تود أن تعمل طبقا للمبادىء التى اتبعتها دائما فى اعطاء المصريين نصيبا مطردا من حكومة بلادهم ولكن ، كما نعرف جيدا ، ان المرحلة التى يصبح فيها ممكنا منح الحكم الذاتى لم تحن بعد ، وأن حكومة جلالة الملك ليس فى نيتها أن تتخلى عن مسئولياتها نحو اقرار النظام والحكم الصالح فى مصر وفى حماية حقوق ومصالح الوطنيين والمقيمين الاجانب فى البلاد » (١) ٠

---

(1) L. Lloyd : Egypt since Cromer vol. I p. 293.

أما بخصوص سفر الوفد الى لندن فقد رفض بلفور هذا الطلب بحجة تغيبه وزملائه عن لندن بسبب مؤتمر الصلح ·

ولقد جاء معنى هذا الامر انهيارا لخطة رشدى مع الوفد ، فلم يجد بدا من رفع استقالته وعدلى ، فى الثانى من ديسمبر عام ١٩١٨ (١) ·

وحاول ونجيت تلافى الأزمة فنصح السلطان بتأجيل البت فى أمر هذه الاستقالة حتى يفاوض حكومته ، فردت وزارة الخارجية فى ١٢ من ديسمبر بأنها تؤجل استقالة الوزارة الى مارس من سنة ١٩١٩ ، وتطلب اليه فيما يختص بمصر والزعماء أن يحث السلطان الى العمل على تهديدهم، فلم يقبل السلطان ·

سعى الوفد بالطرق السلمية للتفاهم بالمصالحة حول استرداد حقوق مصر ، فأغلقت بريطانيا الباب فى وجهه ، ولم ترض بالتفاهم معه ولا مع الوفد الرسمى ·

كان لابد للوفد بالضرورة أن يمضى فى رسالته وفاء بالتزاماته التى حملها عن الأمة بمقتضى وكالته بذلك ، فلما لم يجد ثمـة بدا من المضى فى سبيله بعد منعه من السفر واخفاق محاولات رشدى وعدلى كان لابد من تطوير هذه الخطة بما يسمح له بالعمل السياسى ثم صيانة للكرامة ، وقد تم هذا بتغيير وجهته الأولى الى الوسائل التى بقيت بعد هذا الحجر المطلق المفروض على الأمة من كل ناحية ·

بدأ الوفد بمواجهة هذا التحدى بالتحلل بما ارتبط به فى حديث ١٣ من نوفمبر من وعده بالاقتصار على محادثة الانجليز وحدهم ، فى الداخل والخارج لمعالجة القضية ، فحول جهوده الى الوسائل التى بقيت له بعد ذلك ، وهو اشهار الاحتجاج فى مصر كلما سنحت فرصة القول بالخطابة ومخاطبة الدول الأجنبية عن طريق وكلائها أو عن طريق الرسائل البرقية والبريدية الى كبرائها ورؤسائها برغم اشتداد الرقابة ، فأرسل فى ٦ من ديسمبر نداء الى معتمدى الدول الأجنبية بتأليف الوفد ومقاصده وخطواته الأولى وموقف السلطة العسكرية البريطانية آن ذاك ، كما أرســل الى ويلسن نداء برقيا وطلب اليه تحقيق سعى الوفد فى السفر الى مؤتمر الصلح وقد ضمن نداءه الى معتمدى الدول الأجنبية مطالب الوفد (٢) ·

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٥٤ ·

(٢) المرجع السابق · ص ١٤٣ وما بعدها ·

كان منها طلب الاستقلال التام لأنه حق طبيعى للامم ولان مصر لم تهمل قط المطالبة به ، كما أنها تعد نفسها متحررة من السيادة الاسمية لتركيا ٠

وكان المطلب الثانى عن ايجاد الحكومة الدستورية ، وقد أعلن فى الطلب الثالث احترام مصر لامتيازات الأجانب وفى الرابع تعهدت مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية ، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى ، وفى الخامس استعداد مصر لقبول كل ماتراه الدول من الاحتياطات مفيدا للمحافظة على حيـــاد قناة السويس ، وفى الســادس أعلن عد مصر حائزة لأكبر شرف بوضع استقلالها تحت حماية هيئـــة الأمم ٠

ولما لم تفد المساعى التى بذلت لتمكين الوفد من السفر وقرب موعد اجتماع مؤتمر الحلفاء فى باريس لتقرير شروط الصلح دون أن يرخص للوفد بالسفر أرسل فى الرابع عشر من ديسمبر الى الرئيس ويلسن عندما بلغ باريس احتجاجا على منع مصر من اسماع صوتها والافضـــاء بمطالبها فى مؤتمر الصلح جاء فيه :

ان مصر لم تقبل مطلقا هذه الحماية التى ليست الا عملا من الأعمال الحربية والتى مع كونها مناقضة لآمالنا فى الاستقلال فهى مناقضة أيضا للحقوق التى كسبناها من تركيا من زمان بعيد (١) ٠

وفى العاشر من يناير أذاع نداء الى الاوروبيين أوقفهم فيه على حقيقة الحركة السلمية التى أخذ الانجليز يشوهونها ويصفونهما بصفة العداء ، فقال :

« ينبغى أن نستقل بشئون بلادنا فى شكل حكومة دستورية حتى يصلح من حالتنا الاجتماعية مايفسده عادة حكم الاجنبى عمدا ومن غـير عمد ٠٠ » ٠

ثم ارسل الى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام رسالة برقية قال فيها :

« مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية فان الحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لما اتفق عليه جميع الحلفاء » ٠

ومضى الوفد يوالى احتجاجاته لدى رجال الدول كلما وصل وفد من

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٠٦ ٠

وفودها الى المؤتمر ، وكائنا ما كان مصير ذلك كله فلا بد أن كان له أثره في نفي الشبهة التي قد يثيرها سكوت مصر عن قضيتها .

ولقد عمد الوفد الى عقد الاجتماعات يعبىء فيها المشاعر القومية كلما سنحت الظروف :

فأعد اجتماعا في ١٣ من يناير سنة ١٩١٩ دعا اليه « حمد الباسل » بمنزله وحضره جميع ذوى الراى من مختلف الطبقات وألقى فيه سعد أول خطبه السياسية بعد تأليف الوفد ، أبان فيها طريقة تأليفه وما يرمى اليه من هدف ، وكيف حظرت عليه السلطة العسكرية الانجليزية فمنعته من السفر الى الخارج ، جاء فيه :

« منعنا عن السفر وصودرت الحرية في أشخاصنا وفي المصريين جميعا ، فلم نغادر مرجعا من المراجع الا احتججنا لديه على هذا التصرف وها نحن أولاء لانزال نطمع في أن يخلي بيننا وبين القيام بمهمتنا بأنفسنا وأن ما أؤكده لكم هو أن هذا المنع لم يزد زملائي الا حبا في التقدم الى الغرض العام ، وجدة في التضحية بكل مايستدعيه من الضحايا سالكين سبيل الحق والعدل ومالنا غيره من سبيل » (١) .

ثم تحدث عن مبادىء ولسن ، فابان مطالب الوفد التي يدعو الى تحقيقها قال :

« ان ايماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا وكفى بها عدة ، وان اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة وماينقصنا الا أن نسمع مؤتمر السلام صوت الامة ، ولكن سيصله ولو من بعيد ، هذا هو النحو الذي ننحوه في قضيتنا » .

ثم أوضح مطالب الوفد كما أذاعها في ندائه الى معتمدى الدول ، كما تحدث عن السودان والامتيازات الأجنبية .

وقد طبع الوفد هذه الخطبة ووزعها على الناس في العاصمة والاقاليم ، وبهذا تطورت خطة الوفد واتضحت مناحيها ، وأخذ الوفد ينحو بهـا ناحية أخرى لخدمة القضية .

كان الوفد اذن يريد الذهاب الى باريس ليحاج الحلفاء بمبادئهم ، ولكن هل كان الوفد حقا مؤمنا كل الايمان بأن هؤلاء الحلفاء مقتنعون بهذه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ، ج ١ ص ١٤٦ .

المبادىء ؟ وماذا يحدث لو خذله الحلفاء ؟ هل كان يحسب أن الثـورة أو النضال الشعبى يحقق للبلاد استقلالها وسيادتها كاملين ؟

يقول « حسين هيكل » فى مذكراته ، فى ذلك الوقت (١) :

« حضرت بعض اجتماعات الوفـد وبخاصـة اجتماع عقد بمنزل « حمد باشا الباسل » وكان فى شارع الداخلية على مقـربة من شـارع « سعد باشا زغلول » فرأيت « سعد باشا » يخطب ويرد على اعتراض للحزب الوطنى خاص بموقف مصر من السودان ومطلبها بشأنه ، وكان جواب « سعد باشا » على هذا الاعتراض هو الجواب الطبيعى فقد كرر الكلمة المأثورة عن « شريف باشا » ومع اقتناعى بقوة هذا القول وعدالته فقد أدى سوء الظن بدول الحلفاء الى الاعتقاد بأن تحقيق ما قاله «سعد باشا » باسم الوفد يحتاج الى جهد يتصل على مر الزمن ، وأدى فى اكثر من ذلك الى التفكير فيما يعتزمه الوفد ، وهل رسم خطة العمل اذا لم يحالفه التوفيق فى تحقيق ما أراد لمصر من استقلال وسيادة ؟ » ٠

« ٠٠٠ وعزمت على أن أسال استاذى « لطفى بك السيد » فيه فانتهزت الفرصة وذهبت يوما الى منزل « سعد باشا » وطلبت مقابلة « لطفى بك » وصارحته بما يدور بخلدى وسألته عن مبلغ اقتناع الوفد بما يسميه من حظ فى النجاح ، وكان الرجل صريحا فى اجـابتى قال لى :

« ان خطتنا أن نسـافر الى باريس وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وان نطلب حق تقرير المصير على مصر والسودان ، فان أجبنا الى مطلبنا كان ذلك مانبغى ، والا ذهب « رشـدى وعـدلى » الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية تنظيما أساسه قيام الحكم الدستورى الصحيح فى البلاد ، فقيام هذا الحكم يرفع عنا ماننوء به من سلطة مطلقة شرعية ٠٠ ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال » ٠

وقد تجلى من هـذا أن الوفد لم يكن حين غير خطته نحو مؤتمر باريس ، مؤمنا تماما باقتناع الحلفاء بمبادئهم ٠

ولقد جاءت خطته التى شاء بها مواجهة الخذلان خطة منتظرة فى مثل هذه الحالات العادية ومن هيئة غير ثورية وان كان متوقعا ألا تجد

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ٨١ ٠

ترحابا من العناصر المتطرفة الا بما يشبه الاذعان للعمل الكريه ، ففي حالة الخذلان لا يجد الوفد عنــاء ولا محيصــا من الاســتجابة للواقع من خلال طبيعته وأسلوبه المسيطر القائم على المصالحة فى معالجة القضية المصرية بالشكل الذى رسمه ، فى استجابة لا يحدها امتعاض القلة المتوقع ٠

ولم يعلن الوفد عن خطته لأنها كانت تتنافى مع التزام العمــل من أجل الاستقلال التام ، وقد ظلت خطته مكتومة حتى لا يواجه بالهجوم وتمنى الامة بالتصدع مبكرا ، على أن الوفد لم يجد سبيلا لتنفيذها الا فى شطرها الاول وهو اعتزامه عرض القضية على مؤتمر الصلح ، فقد تطورت الحوادث بما انتهى الى أن جعلت من الطرفين خصمين لا سبيل الى التفاهم بينهما ، ومن ثم حيل بين تنفيذ الخطة ٠

مضى سعد فى خطته ، فدعا مئات من وجوه البلاد وأعيانها لشهود اجتماع عقده فى ٣١ من يناير سنة ١٩١٩ ، ولكن منعته القيادة العسكرية فأبلغ ذلك رئيس الحكومة البريطانية كمـا أبلغه رئيس مؤتمر الصلح٠

ولاحت أمام سعد فرصة فى احدى المحاضرات فانتهزها للهجوم على الحماية بخطاب قوى ٠

وبينما كانت السـلطات البريطانيـة تمضى فى تشـددها فى منع الاجتماعات الوطنية كان أحد القضاة الانجليز يوالى محاضراته فى نادى جماعة الاقتصاد والاحصاء والتشريع ليمهد الأذهان لاستبدال القوانين الانجليزية بالقوانين المصرية وتخليد الحماية على مصر ، والتشهير بالجمعية التشريعية بدعوى قلة صلاحيتها للتشريع وغير ذلك ٠

ولما القى محاضرته الثانية فى السابع من فبراير بين أعضاء الجمعية ومدعويها اغتنم سعد هذه الفرصة فاعتلى المنبر بعد فراغ المحاضر بخطبة جاءت فى غير أوانها ومكانها ، فقال :

« ان أمتنا المصرية ليست من قبيل الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقـررة ٠٠٠ » الى أن قال : « أعلنت انجلترا حمـــايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » (١) ٠

انطلقت صيحات سعد تلو صـيحات ، فى وجه الحماية بين أساطين

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢١٢ ٠

الاحتلال ، منكرا لنظام الحماية ، ومطالبا بالحرية والاستقلال للبلاد ، والسماح لاسماع صوتها فى مؤتمر الصلح ، صيحات غير عابئة بالقوة العسكرية فيتناسخ الناس ما يصل منها فتردد بينهم بما يعبىء شعورهم القومى ضد الاحتلال .

ولقد زاد الموقف شدة ، اصرار وزارة رشدى على الاستقالة تضامنا مع الوفد ، على أنه بقدر ما أفادت وزارة رشدى الوفد فى البداية بالنفع الكبير فى تشددها لسفره الى أوروبا مما ساعد على ايقاظ طليعة الحركة القومية على أقدامها ، فانها لم تستطع طوال عهدها أن ترفع تلك العقبات التى كانت قد وضعتها فى طريق الشعب بما سلف من مسلكها أوائل الحرب العالمية الاولى ، بالتسليم الذى وضع الوفد أمام بريطانيا موضع الغلو والشطط وترك فى عقول البريطانيين فكرة أقنعتهم الى حد كبير بسهولة الاغضاء عن مطالب المصريين والمضى فى فرض الحماية بما أثار الصعاب فى وجه الوفد ، وقد كان طبيعيا أن يكون لاسلوب استقالتها الاثر نفسه فى نفوس البريطانيين .

فبقدر ما أسهم رشدى بسياسته الأولى فى اثارة المتاعب كان لأسلوب استقالته الاثر نفسه تقريبا ، فقد كتب فى ٢٣ من ديسمبر عام ١٩١٨ الى السلطان خطابا ضمنه تعزيزا لاستقالته الأولى التى لم تقبل ، فلم يشفعه الا بما نم عن عدم الاكتراث بفكرة الاستقلال اذ حصر الغرض من سفره لانجلترا فى تنظيم الحماية فى كتاب استقالته حيث قال :

« وفى هذه الأثناء تألفت وفود من أعضاء الهيئات النيابية فى البلاد وطلبوا أن يسمح لهم بالسفر الى لندن للمدافعة عن مصلحة مصر ، فنصحت أن يؤذن لهم فى ذلك وأن تسمع أقوالهم ، فلم يصغ لنصيحتى ، ولم يكتفوا بذلك بل أبوا على أنا نفسى أن تسمع أقوالى فيما عساه أن يكون نظام الحماية (١) » .

كان متوقعا أن يجد الوفد صعوبات جمة فى ذلك الوقت التاريخى الحرج وكان الغرور البريطانى قد بلغ حد الاستخفاف بحقوق الشعب وسوء الفهم بحقيقة الحركة القومية مبلغا حجب عن بريطانيا حقيقة مصالحها بما دفع الأحداث الى التطرف بين الطرفين للتصادم ، بما لم يجعل بينهما أى سبيل للتفاهم ، وبرغم تدهور الموقف ـ اذ ذاك ـ مما أدى الى مزيد

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٥٥ .

من الحدة بين الوفد والانجليز ، كان من الممكن لبريطانيا من زاويتها وقبل أن تدفع الأحداث الى نهايتها ، أن تتدارك الموقف فتلتقى مع الوفد فى منتصف الطريق • ولكنه الكبرياء الاستعمارى وسوء فهم حقائق الأمور فى مصر هما اللذان فوتا عليها رؤية الحقائق بما دفعها الى الاصرار على منع الوفديين من السفر الى مؤتمر الصلح حتى انتهى الأمر بالتعجيل بالتصادم بين الطرفين •

فقد كان مرجحا باستقراء الموقف الدولى ألا يأتى ذلك الموقف بنتائج حاسمة لحل القضية المصرية ، وكان فى مقدور بريطانيا ادراك ذلك بسهولة ، وعندئذ كان من المحتمل اذا ما سمح بالسفر للوفد وقبل أن يتحول الموقف الى درجة الحدة فى الخصومة بين الطرفين ، أن يبرز الوفد وفقا لخطته فى شقها الثانى ولا يجد سبيلا ، عند الخذلان ، غير أن يبعث « عدلى » الى لندن للمفاوضة ، ومن ثم يكون الطريق قد فتح للتفاهم من جديد فعلا بين الطرفين وان كان النجاح فى ذلك يتوقف ، بعد أن شعر الوفد بقوته ، على مدى خلو الاتجاه البريطانى من كل تصادم مذل •

فاذا كان الغرور البريطانى والاستخفاف بالمطالب المصرية هو الذى فوت على بريطانيا فرصة البحث والتفكير بل وبلغ حد الاضرار بمصالحها ذاتها ، فقد انتهى ذلك من ثم الى استثارة الشعب المصرى فأدناه من حقوقه بالثورة ضد بريطانيا وأوقفه أمام خطة جديدة لا ترضى كحل للقضية بانصاف الحلول •

ويحلل « جورج لويد » موقف بريطانيا من منع الوفد من السفر الى مؤتمر الصلح فيقول : ان الوطنيين فى مصر مثلهم فى ذلك مثل كثير من الشعوب التى كانت من قبل أجزاء من الامبراطورية العثمانية كانوا فى ذلك الوقت قد أخطئوا فى حساب الوقت الذى سيحدده مؤتمر الصلح لهم ، كما اساءوا المدى الذى سوف تذهب اليه الولايات المتحدة الأمريكية فى تطبيق ما نشرته من حق تقرير المصير « فلو كانت الحكومة البريطانية والسلطات البريطانية قد سمحت للزعماء المصريين بالذهاب الى باريس وتضييع وقتهم فى المعركة هناك ، لكانوا دون شك قد منوا بالاخفاق ، ولعادوا الى بلادهم يجرون أذيال الخزى وخيبة الأمل ! ، ولكن الحكومة البريطانية اختارت أن تخوض المعركة فى مصر دون باريس ، وكانت هذه غلطتها لأنها فى باريس كانت تقف على أرض صلبة على حين كان

المصريون فيمصر سادة الموقف لأنهم كانوا يعرفون كل شيء أما الحكومة البريطانية والسلطات البريطانية فى مصر فكانت لا تعرف أى شيء ! (١)

رفضت بريطانيا السماح للوفد بالسفر لعرض القضية أمام مؤتمر الصلح ، وكان ذلك من شأنه بالطبيعة أن يمكن ثورة الغضب تهيؤا للانفجار ، وزاد الموقف شدة ، اصرار وزارة رشدى على الاستقالة تضامنا مع الوفد ، ومما دعاه الى ذلك شعوره بازدياد مركز أنصار الحركة القومية دعما ، فكان يرفض السفر وحده تاركا « سعد » وراءه بمصر لأنه لا يظن بهذا نجاح مهمته ، بل ولا قبول ماكانت تنتهى اليه من نتائج .

ولقد ظلت استقالة رشدى من الوزارة معلقة احتجاجا على عدم السماح له وللوفد بالسفر الى انجلترا فلم تقبل ولم ترفض حتى أزمع ونجيت السفر الى لندن تلبية لاستدعاء بريطانيا له فوعد « رشدى » بأنه عندما يصل الى لندن سيبذل جهده فى اقناع بريطانيا بالترخيص له ولزميله عدلى بالسفر الىانجلترا ، وطلب اليه سحب استقالته اذا قبلت الحكومة البريطانية ذلك ، ولكن «رشدى» اشترط لسحب استقالته أن يسمح أيضا لمن يشاء من المصريين بالسفر الى أوروبا وأن يصل جواب الحكومة البريطانية تلغرافيا فى المدة المناسبة بعد وصول المندوب السامى الىانجلترا ، ولكن مضت المدة الكافية ولم يصل الجواب فجدد رشدى استقالته فى خطاب رفعه للسلطان فى ١٠ من فبراير عام ١٩١٩ ويقول فيه :

« يستحيل على أن أقبل أى تأخير جديد ... وألتمس من عظمتكم بكل الحاح انهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها » (٢) .

ولقد كان الموقف فى مصر – اذ ذاك برغم صيحات سعد – يبدو فى ظاهره هادئا ، ولكنه كان هدوءا يسبق العاصفة تتجلى فيه نيران الثورة خلال الرماد ، على نحو لا يتطلب عناء لمعرفة حقيقته ولاسيما بعد أن أصبح لمصر زعيم على رأس هيئة سياسية للمطالبة بحقوقها ، ولكنه لم يكن فى حسبان المسئولين البريطانيين فى مصر استخفافا بالأمر .

ومما ساعد على تشجيع السياسة البريطانية على موقف الاستخفاف الذى نهجته بريطانيا ازاء المطالب المصرية بجانب ما ذكرنا جهل هؤلاء الموظفين البريطانيين وكذلك السلطات العسكرية فى مصر بحقيقة ذلك

(1) Lloyd : Egypt since Cromer vol. I p. 293—294.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٥٧ .

الواقع ، فقد ظل هؤلاء يقررون خلو الموقف من أية خطورة وقد كتب نائب المندوب البريطانى ميلين شينهام ــ اذ ذاك ــ الى حكومته برقية فى ٢٤ من فبراير عام ١٩١٩ يقول :

« ان الوزيرين « رشدى وعدلى » فقدا الشهرة المرموقة التى عادت عليهما من الاستقالة بل ان زغلولا نفسه لا يثق به أحد ، وان هناك قلقا بين أفراد الطبقة العليا من ملاك الاراضى والعناصر المهنية الذين يطمعون فى تنظيم مكانتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتية ، ولكن الحالة لا تختلف عن الحالة التى طرأت عام ١٩١٤ ، عندما رفض الامير حسين وكبار الوزراء طويلا أن يقبلوا الحماية ما لم تكن مشفوعة بتعهدات لم تكن على استعداد لاعطائها وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتى تضارع حركة « مصطفى كامل » أو بالتى يصح أن تؤثر فى قرارات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل الدستورية والوضع الذى توضح فيه الحماية (١) » •

دفعت بريطانيا باستخفافها بمطالب مصر وجهلها بحقيقة الامور ، الى الشدة فزادت معها أزمة الثقة بينها وبين الوفد شدة واستحكاما ، وأصبح الطرفان بحق خصمين لا سبيل للتفاهم بينهما •

فاذا كانت الطبيعة تأبى المتناقضات فقد كان لابد من أن يتصارعا فلا يكون منهما تاليف يمثل وجهة نظر هذه الثنائية بل محاولة لتغلب أحد طرفيها على الطرف الآخر تصادما بالطبيعة يتنقل الى الشعب فيقف منه موقف الحكم الفاصل بما يضطر بريطانيا فى النهاية للسماح للوفد بالسفر ولكن بعد أن يفرض الشعب على الوفد خطة جديدة ثورية ويكون على يديه فى النهاية حسم الأمور فى مصر •

وما جاء مارس حتى كان الجو السياسى ينذر بهبوب العاصفة واحتدام الخصومة بين الطرفين •

كانت استقالة رشدى ايذانا بمرحلة جديدة من الكفاح القومى ، اذا جاء اثرها بداية تطور كبير فى درجة التماسك القائم بين الجانب الشعبى والجانب الرسمى ، اذا بدأت تتفكك هذه الوحدة ويقترب الجانب الرسمى فى صف الانجليز فى مواجهة الجانب الأول •

ومن قبل ، كانت وزارة رشدى تقف من الحركة القومية سندا وعفى

(1) Lloyd : Egypt since Cromer vol. I P. 290.

تحظى بثقة السراى قبل استقلالها ، فكان الرأى العام على استئناس من بقائها وهى تشاركه في شعوره وتمكنه من رفع صوته فى مؤتمر الصلح وكان بقاؤها مجددا للآمال القوميــة فى أن تنجح فى سبيل مصر فى المؤتمر .

وكانت من بعد قبول استقالتها نذيرا ببداية اشتداد الخصومة بين الوفد والانجليز كما قلنا ، كان المتوقع اذن هبوب العاصفة في شدة .

ولقد كان الوفد أول من شعر بالخطر من هذا التحول الكبير الذى نجم عن الانفصــال عن العــامل الشــعبى والعامل الرسمى فى مواجهة الانجليز ، كان منذ تأليفه يسير مطمئنا الى معاونة رشدى ، فلا غرو أن يوجس خيفة من اقصائه واحتمال تأليف وزارة جديدة ، فكان مقدورا اذن أن يقف منه موقف التحدى فلا يكون بين النقيضين الا ما ينتهى ويرتد فيفجر طاقات الغضب الكامن من الشعب .

وأخذ ذلك الشعور بين الوفد يتجلى فى ذلك الكتاب الذى رفعه الوفد للسلطان على اثر قبول استقالة رشدى (١) ، فقد احتوى على عتاب شديد واعتراض قوى على قبوله اســتقالة الوزارة وقد عد الوفد ذلك القبول بمثابة معاونة للسياسة البريطانية ضد أمانى الشعب وقد جاء فيه :

« قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضــطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيكم المغفور له الســلطان حسين ، ولكن الامة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العــرش فى زمن الحماية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لارادة الامة لايمكن أن يتفق مع ماجبلتم عليه من حب الخير لبلادكم والاعتداء بمشيئة شعبكم .. » .

ولقد أرسل الوفد فى ٤ من مارس الى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر احتجاجا قويا على الســياسة الانجليزية فى قطعها الطريق على الأمة الى المؤتمر ، أشــهدهم على المعــاملة الجائرة التى تعامل بها مصر والمظالم التى تأتيها من المطامع الاستعمارية .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٦٠ .

وبرغم فرض الرقابة على الصحف فى ظل الأحكام العرفية والحظر على نشر مثل هذه الرسائل ، فقد أذاع الوفد كتابه الى السلطان واحتجاجه لدى معتمدى الدول فى نشرات خاصة طبعها ووزعها على الجمهور فى الأقاليم والقاهرة ! .

« وتناقلها الناس فى كل مكان فأثارت حماستهم وتوالت الوفود على بيت الامة ودارى الوزيرين المستقيلين ، تعلن تأييدها للوفد وللوزيرين وتوالت الاحتجاجات الى معتمدى الدول من الهيئات والطوائف المختلفة ، وحمل الوفد الى مؤتمر الصلح رسائل الاحتجاج من مختلف هذه النواحى (١) » .

حاول سعد ـ بهذا ـ الحيلولة دون تأليف وزارة جديدة عبثا فلم تكن السلطات العسكرية تريد أن يجيب السلطان ذلك الطلب ، لذلك كان متوقعا مقاومة الوفد .

هالت هذه الخطوة الجريئة رجال دار الحماية كما انتظر سعد وأصحابه فأبرق السير ميلين شينهام الى حكومته يشرح لها الحالة ويقترح نفى سعد الى مالطة ، فجاء الرد السريع بالقبول !

كان الانجليز يفضلون اعتقاله أو محاكمته بحجة أخرى غير حجة التمرد على الاحكام العسكرية واحباط تأليف الوزارة ، فيطلبون من فؤاد أن يصرح بعصيانه وأصحابه وخروجهم جميعا على الولاء للعرش فيحاكمون بناء على هذه الحجة حتى لا يقال انهم يحاكمون أناسا ينشدون حقوقهم ، فلما رفض فؤاد ذلك عمدوا الى انذاره بأنه ان لم يكف عن الحركة اعتقلوه ومن معه .

وفى اليوم السادس من مارس استدعى القائد العام البريطانى سعدا مع لفيف من أصحابه الى مركز القيادة ، فوجه اليهم انذارا يحذرهم فيه وضع مسألة الحماية موضع المناقشة واقامة الصعاب فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية ، وهددهم بالمعاملة الشديدة بمقتضي الأحكام العرفية ان أقدموا على مخالفة ذلك .

ولم يكن الوفد الذى نهج ذلك النهج وتحمل المسئولية يرهبه التهديد

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

لذلك لم يــكن الأمر من السهولة أن يلقي ذلك القائد انذاره لينهي الوفد أعماله ويكف عن معارضة الحماية وطلب الاستقلال ٠

وشاء سعد الرد على الانذار فطلب نسخة منه ، وما هى الا ساعات حتى بعث الوفد بجوابه عن ذلك الانذار لرئيس الوزارة البريطانية وقد أبلغه فيه أن الوفد يطلب الاستقلال وأنه لا يتأخر عن أداء واجبه ٠

زادت الخصومة حدة وغدت الاحداث تشير الى قرب تصادم الاحتلال مع هذه الطليعة التى اختارها الشعب قيادة له ، ولم يدم الامر طويلا حتى تقدم لفيف من الضباط البريطانيين الى منزل سعد فقبضوا عليه وعلى صحبه : « اسماعيل صدقى وحمد الباســل ومحمد محمود » ونفتهم بريطانيا الى مالطة ٠

لم يكن سعد جازما بأن الثورة آتية ولكنها ما لبثت أن أصبحت حقيقة واقعة ٠

الفصل السادس

انطلاق الثورة فى مارس ١٩١٩



هييء الشعب من قبل للثورة فى أثناء فترة الحرب العالمية الأولى ، واختار زعامته على طريقة عصره ، فاستكمل بها من ناحيتـــه مقومات العمل الثورى ووضـــع فيها آماله وارتبط بها ارتبـــاطا قويا فى اطار قيمه الاجتماعية ، بالاحترام والثقة ووجوب الطاعة ٠

ولم يكن ينقصه ــ بعد أن أعد بأصول الثورة واختار زعامته ــ شيء لكى يبدأ وينطلق بالثورة فى وجه الاحتلال ، الا أن يطمئن على ســلامة عمله الثورى ، بأن يرى زعامته تعتسف أمامه الطريق فتدعوه للعمــل أو يعتدى الاحتلال على هذه الزعامة ، وعندئذ يتداعى بالضرورة سائر الكيان الشعبى بالثورة تلقائيا ٠

ولقد بدأت هــذه الزعامة بعد تاليف الوفد تعتسف بالوســائل السلمية الطريق أمام الشعب لمعالجة المسألة المصرية متخذة كل وســائل التفاهم ، وكانت بداية التصادم مع الانجليز بداية عمل ثورى لأنه كان بداية تمرد على الحماية ٠

على أن هذه البداية القصيرة ــ وان أسهمت فى تغـــذية الشعور الثورى ، واذكاء نيران الغضب الكامنة وتحرير الشعب من النفور من المخاطرة ، بما نقل الشـــعب الى مشارف العمل الثورى ــ لم تكن لقصرها ولا أسلوبها الهادىء ، من القوة بما يجعلها قادرة على اشعال نيران الثورة، اذ كان من الضرورى حدوث عمل عنيف يكون من القوة والاســـتثارة ما يشعل نيران الغضب الكامن ، وكان ذلك من الممكن أن يتوافر بأحد أمرين : اما أن يستكمل ذلك المسير السابق بدعوة صريحة توجه للشعب من زعامته للقيام بالثورة ، واما أن ينتهى بالتصادم بعمل عنيف ، وفى كلتا الحالتين كان مقررا بالتأكيد أن تنطلق الثورة ٠

كان متوقعا ، لو دعمت زعامة الشعب بعـــد أن أعد للثورة ، أن يستجيب لها فى قوة ، ولكن هذه الزعامة لم تحـــاول ذلك لا لشيء الا

لأنها لم تكن جازمة بأن الثورة آتية ، فكان سعد يستبطىء وقوعها من أمة مكبلة بالقيود ولا يتوقع حدوثها (١) ومن ثم لم يكن ثمة احتمال يتوافر به العمل العنيف الا عن طريق الامر الاخير •

ولقد انتهى التصادم فعلا بعمل عنيف عندما لم تجد بريطانيا بدا من اعتقال سعد وصحبه ونفيهم الى مالطة كما مر بنا •

اعتدت بريطانيا بهذا كسابق اعتداءاتها على الشعب ، ولكنه جاء هذه المرة عدوانا على من وضعهم الشعب الثائر فى مركز الرعاية الابوية والسياسية ، فقد أساءت بهذا الى الشعب فى قيمه وتطلعه ، الى رمز احترامه ، وموضع ثقته وتقديره ومحط رجائه وأمله ومركز الولاء جميعا ، فليس بدعا أن يكون العدوان عنيفا صارخا عميقا •

لم يردع السيل المتجمع وراء السدود اعتقال الانجليز لزعيم الامة انما جاء بمدد جارف أطلقه من عقاله ، وفجر طاقاته الكامنة ، وأخرجه من صبره ثائرا ، ولم تكن ثورته فى أعماقها وفى وزنها بقدر رد فعل ذلك الاعتقال فحسب بل بقدر التحدى البريطانى كله فى أعماقه الممتدة من قبل ومن بعد •

أخذ الشعب يتحرك تلقائيا ، وبغير تنظيم فى البداية وبشكل لم تكن تتوقعه بريطانيا ولا الوفد ، وما لبث أن انفجر بالثورة فى شكل منظم •

سرى نبأ الاعتقال بطيئا متناقضا فى اليوم الاول وذلك لحظر النشر، فعلم به أعضاء الوفد وأصدقاؤه فى يومه ، وفى اليوم التالى انتشر بين طلبة المدارس العليا فقد كانوا يجتمعون فى أمكنة متقاربة ، وكان بعضهم ينتمى الى أعضاء الوفد وأصدقائه ، اما بصلة القرابة أو بصلة المعرفة وأخذ يتسامع به احياء القاهرة ثم ينتقل منها الى الاقاليم بمثل ذلك البطء والتناقض تحمله ألسنة الناس تارة وينقله التليفون تارة أخرى حتى عم مصر كلها فى أيام قليلة •

ومع سريان النبأ واتضاحه ، كان طبيعيا أن يثير معه المشاعر القومية بين أفراد الشعب فيتجلى ذلك فى البداية فى تعبيره سلميا فى مظاهرات

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٢١ •

قلم بها طلاب المدارس العليا فى القاهرة ولكنها كانت شررا ينطلق تعبيرا بغير ايحاء من أحد ، ينطلق بركانا يغلى ويهم بالانفجار ٠

ولقد قامت مظاهرة الطلبة الأولى ووقعت على غير علم سابق من الوفد بل على خلاف النصيحة التى سمعها الطلبة من بعض أعضائه الذين بقوا فى القاهرة بعد اعتقال سعد وأصحابه الثلاثة (١) ٠

ولقد أصبح الطلبة مضطربين فى مدارسهم يوم المظاهرة ، وهم مختلفون فى الخروج أو البقاء ، ثم خطر لفريق منهم أن الخروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد عليه رأيا يفكر فيه أو خطة يتوخاها فبعثوا الى بيت الأمة « أفرادا منهم يستفسرون ويعودون اليهم بما يقر عليه رأى الأعضاء ، وهناك التقوا بالاستاذ « عبد العزيز فهمى بك » فأفضوا اليه بقصدهم وأبلغوه هياج الطلبة وتحفزهم للخروج والتظاهر فى أحياء القاهرة ، فثار فيهم الأستاذ وانتهرهم انتهارا شديدا وهو يقول لهم ما معناه :

« ان المسألة ليست لعب أطفال ! دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا نار الغضب اشتعالا عند القوم » (٢) ٠

انصرف رسل الطلبة على أن يبلغوا زملاءهم ما سمعوه ٠ وهم مترددون بين الاغضاء عنه أو الاصغاء اليه ، ولكن زملاءهم كانوا قد استبطئوهم فخرجوا بعد أن استثارهم دعاتهم ، وقبل أن يعود اليهم رسلهم بنتيجة سؤالهم امتدت المظاهرات السلمية نذيرا يشير الى بركان يغلى ، ونظرا لأنها كانت احتجاجا ضد السياسة البريطانية وتمردا على الحدود المضروبة فى ظل الحماية قابلتها السلطات البريطانية بالشدة ٠ فلما أوغلت بهذا بالمساس بحياة الافراد بالقتل وغيره كانت قد فجرت البركان وأطلقت قواه ، فانطلق الشعب فى القاهرة بالثورة ، غضبا وتمردا على الاحتلال بشتى ألوان المظاهرات التى تميزت بالعنف ، كما تميزت بالتنظيم السريع وما لبثت أن امتدت بعد ذلك واتسعت رقعتها فانضمت اليها القوى الشعبية الاخرى ، وتصدى لها الطلبة والمثقفون ، ومن ثم أخذت تتحول الى ثورة منظمة ذات تنظيمات سرية ٠

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٢٩ ٠
(٢) المرجع السابق ٠

وامتدت نيران الثورة الى الأقاليم بغير ايحاء ولا تدبير ، ووجدت كما حدث فى القاهرة من موقف السلطات العسكرية زادا غذاها وزادهـا اشتعالا •

انطلقت الثورة ولم تكن منذ بدايتها المسالمة الى تطورها الشديد من صنع أحد ولا بايحاء من الوفد ، وكانت تلقائية •

يقول « لطفى السيد » :

« ان الوفد برىء منها وان تبعيتها تقع على السلطة العسكرية التى نفت أربعة من رجال الوفد المصرى بلا ذنب أتوه الا أن يطالبوا بحرية بلادهم ثم قابلت المظاهرات البريئة بالمتراليوز فغضب أهالى البلاد لقتل أبنائهم وقاموا بهذه الحركة » (١) •

وكان للثورة طابعها فى القاهرة وفى المدن ثم الريف : كان من طابع الثورة فى القاهرة تعطيل المواصلات والقتال فى الشوارع ، وفى المدن اشتد هذا الطابع الى مهاجمة مراكز الشرطة وتدمير الكبارى والجسور والاستيلاء على السلطة ، وفى قرى الريف خرجت جمـوع الفلاحين لقطع المواصلات •

احداث الثورة :

بدأت الثورة بمظاهرات سلمية ألفها الطلبة كما قلنا ، فى ٩ من مارس بالاضراب عن تلقى الدروس ، ثم ساروا فى هدوء يهتفون بحيـاة مصر والوفد وسعد وسقوط الحماية •

ولقد انتهت مظاهرات ٩ من مارس باعتقال ثلاثمائة من الطلبـة ، وكان الذين (٢) يسيئون الظن فى وطنية مصر يرون أن الارهاب كفيل باخماد جذوتها المشتعلة فى مهدها ولكنها كانت تجد فيه زادا يزيدهـا اشتعالا •

ولشد دهشة هؤلاء أن تبددت ظنونهم أمام اسـتمرار الاضراب واتساع المظاهرات واستمرارها فى الأيام التالية • ففى اليـوم التـالى كان جميع طلبة المدارس والأزهر قد خرجوا وألفوا مظاهرة من المظاهرات الكبرى مروا بها بدور المعتمدين السياسيين وهم ينادون بسقوط الحماية

---

(١) احمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ١٧٩ •

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ١٧١ •

وبرغم أن السلطات البريطانية كانت قد بدأت ــ اذ ذاك ــ تتصدى للمظاهرات فان الناس لم ترهبهم الشدة ولا أخافهم القتل ، بل أقبل الشعب كله على التضحية بلا خوف ولا وجل وأخذ يألف الدم المسفوك في الشوارع .

ويقرر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي فى ذكرياته ذلك فيقول :

« رأيت الجماهير يشتركون فى المظاهرات ولا يبالون ما يستهدفون له من الاخطار ، كانوا يواجهون رصاص البنادق والمدافع الرشاشة بشجاعة لا تقل عن شجاعة الجندى فى ميادين القتال وسقط كثيرون منهم قتلى فى أثناء المظاهرات ، كان اذا سقط رافع العلم فى مقدمة موكب المظاهرة مضرجا بدمائه تقدم غيره ورفع العلم بدله مناديا بحياة الوطن ويردد أخوانه نداءه ! » (١) .

وأخذت روح الجماعة تسرى بين الناس ويشعر كل بأنه كيان جزء من كيان عضوى متماسك ، وتجلى الشعور الذاتى وزاد الشعور بالواجب وضوحا ، وكانت الجموع تسير فى جنازات الشهداء دون أن تعرفه شخصية الشهيد الذى تشيع جنازته .

ومنذ أن واجهت السلطات البريطانية المظاهرات بالشدة كانت قد زادت ولوجا الى قلب المجتمع وفجرت طاقات اختماره الثورى ، ولقد استمر اضراب الطلبة فى ١١ من مارس عام ١٩١٩ ، ثم أخذت القوى الشعبية الأخرى من هذا التاريخ تنضم الى ركب الثوار من العمال والمثقفين ، وقد اتجهت الثورة بعد ذلك تأخذ صورة أكثر تنظيما وقوة . ففى هذا اليوم أضرب المحامون عن أعمالهم ، وأضرب عمال الترام فتعطل سيره ، واشتدت المظاهرات فأصدر القائد العام أمرا بمنعها ، كما أخذ نشاط العمال فى هذا الشهر عموما يتجلى فى الاجتماعات لاقامة نقابات لهم (٢) .

ولقد استمرت المواصلات معطلة فى العاصمة فى ١٢ من مارس ولم تعبأ الجماهير بالأوامر المشددة لمنع المظاهرات ، فلما تجددت تلك المظاهرات أطلق الجنود البريطانيون على المتظاهرين وابلا من رصاص بنادقهم ، فقتلوا عددا كبيرا وكان أكثر القتلى من طلبة الأزهر .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .
(٢) المقطم : فى ١١ من مارس ١٩١٩ .

ومضت الثورة واستؤنفت المظاهرات فى اليوم التالى فوقع أكثرها فى الحلمية والغورية وشبرا والظاهر وحي الحسين ، كما تجددت المظاهرات فى يوم الجمعة ١٤ من مارس وأضرب المحامون الشرعيون فى ١٥ من مارس ، وفى اليوم نفسه أضرب عمال العنابر وقد استمرت المواصلات معطلة داخل المدينة وخارجها فى ١٦ من مارس وشاركت المرأة الرجل فى الثورة فى اليوم نفسه .

ولقد شاءت السلطة العسكرية بعد ذلك قمع المظاهرات فأعلنت فى بلاغها الصادر فى ١٨ من مارس بوضع حد لهـا ، وأصدرت أوامر مشددة بعدم السماح بالاجتماعات العامة أو مظاهرات أو مواكب .

على أن ذلك لم يمنع الجماهير من التعبير عن مشاعرها الثـائرة ضد الاحتلال ، فقد استمرت المظاهرات فى الأيام التالية كما ظلت قطر الترام معطلة ما عدا خط واحد بين شبرا والعتبة الخضراء ، وكان ذلك موضوعا تحت حراسة الجنود البريطانيين ، وكانت المظاهرات تتعـدد فى كل ناحية دون انقطاع والانجليز يتصدون لتفريقها بالشدة، خصوصا فى شوارع قصر العينى وبولاق كمـا رابطت شراذم منهم فى الأحيـاء الوطنية (١) وبخاصة فى مداخل الأزهر والشوارع المؤدية اليه لتمنع المظاهرات والتجمهر .

ولقد كانت مظاهرة بولاق على الأخص ميدانا لحوادث دموية فى ١٨ من مارس ، فقد اجتمع عمال العنابر وجمهرة من الصناع وبعض الشبان فى شارع بولاق وصاروا قاصدين الأزهـر للانضـمام الى المتظاهـرين ، فاعترضتهم القوات البريطانية بالقرب من كوبرى « أبو العلا » وأطلقت عليهم نيرانها فسقط كثير من القتلى والجرحى كما حدثت مظاهرة أخرى للسيدات فى ٢٠ من مارس .

وكان للثورة منتدياتها فى القاهرة . كان يجتمع فيها دعاة الثورة والمتحدثون فى شئونها وشئون البلاد ، كانت الأفكار تصدر عنهـا والمسائل العامة تدرس فيها ، ومنها كانت تتخذ القرارات وتحدد الأهداف وكان فيها أماكن سرية ليس من الممكن حصرها ولا سيما السرية ومن الممكن (٢) أن نذكر فى طليعتها الأزهر وبيت الأمة ومحـل جـروبى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ٢٠٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

القديم بشـــارع المناخ (الملكة فريدة ، الآن عبد الخـالق ثروت) ومحل صولف بشارع فؤاد ، وقهوة ريش بشارع سليمان وبار اللواء وقهوة السلام بميدان الأوبرا ودار عبد الرحمن فهمى بقصر العينى ودار أمين الرافعى بالحلمية الجديدة ودار الشيخ الفاياتى بالسكرية ودار محمود سليمان بشارع الفلكى ... الخ .

ولقد كانت القاهرة تعد بلا جدال قلب الثورة النابض وقد سرت منها الثورة الى مدن مصر وقراها ، وتشابهت مظاهرها فى الريف والحضر لأنها كانت تنبعث عن اختمار ثورى ، كانت أصوله واحدة ، وان اختلفت مستويات التجاوب بمقدار ذلك الاختمار .

ولقد كان الاعتقاد أن وقوع حوادث الثورة الأولى فى القاهرة امر مقصور عليها ولكن ما لبثت أن انتشرت الى الأقاليم انتشار النار فى الهشيم ، مع زيادة انبعاث الثورة وتطورها فى القاهرة ، فأخذ الاعتقاد يسرى بأن فى مصر ثورة عامة ولم يكن ثمة من يعتقد أن تثور مصر فى تلك الظروف بمثل ذلك الاتساع والسرعة والقوة .

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

« لم أكن وحدى فى هذا الشعور بل ان « فريد » رحمه الله حين بلغته فى منفاه فى أثناء الثورة عدها من الحوادث المفاجئة وقال عنها فى مذكراته : «ان من الأمور التى كانت غير منتظرة ما حصل بمصر فى شهرى مارس وأبريل من هذه السنة (١٩١٩) وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها » وقال عنها أيضا : « ان هذه الحركة لم تكن فى الحسبان وان ما أظهره المصريون من التضامن والاتقان ما كان أحد ليحلم به » (١) .

ولقد تتابعت حوادث الثورة ممتدة من القاهرة الى الأقاليم فقامت ثمة مظاهرات على غرار مظاهرات القاهرة تميزت فى كثير من الأحيـان بالشدة والضراوة فى مواجهة الاحتلال وحكومته فى مصر .

ففى الاسكندرية تحرك طلبتها فى ١٢ من مارس مضربين وأخذت المظاهرات بعد ذلك تذكى نيران الحماس فتعددت وكانت المظاهـرات الكبرى تبدأ عادة كل يوم جمعة عقب الصلاة ، وكانت الجماهير تواجـه فيها أشد ضروب الشدة من الاعتقال الى سفك الدماء !

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

وامتدت الثورة الى بور سعيد فى ٢١ من مارس وقامت فى دمنهور فى ١٧ من مارس ومنها اعتدت الجماهير على مدير البحيرة ضربا عندما تعرض بشخصه للمتظاهرين ، ثم انبعثت الثورة فى رشيد فى ١٧ من مارس •

وبدأت الثورة فى طنطا مبكرة فى ١٢ من مارس بمظاهرات قام بها طلبة الجامع الأحمدى والمدرسة الثانوية ، وما لبث الشعب أن انضم اليهم ، وقد اعتدى عليهم الجنود البريطانيون المرابطون بمحطة السكة الحديدية •

ولقد تجلت الثورة فى زفتى بأعنف ما تجلت فى الوجه البحرى وتميزت بطابع الخروج على السلطة •

بدأت بمظاهرة قام بها طلبة المدرسة الثانوية بزفتى ، طافت فى المدينة (١) وانضم اليها الأهالى •

وما لبثت هذه الظاهرة أن عمت المدينة وما حولها روح الثورة وسرعان ما تألفت بها لجنة وطنية للثورة برياسة يوسف الجندى فى ٢٣ من مارس ١٩١٩ (٢) ولقد أعلنت هذه اللجنة الاستقلال وأنزلت العلم الذى كان يرفع على المركز ، ورفعت بدله علما آخر ، وطنيا ايذانا باعلان الاستقلال، وأذاعت فى منشور وزعته فى المدينة أن اليها يرجع الأمر والنهى ، وقد تعاون مأمور المركز مع اللجنة بصفة غير رسمية وشاركها فى شعورها اذ كانت ميوله وطنية وتركها تباشر سلطة الادارة فألفت لجانا فرعية منها : لجنة للمحافظة على الأمن وأخرى لتحصيل عوائد البلدية ، وأخذت تعتنى بمرافق المدينة كما أصدرت جريدة اسمها الجمهور •

وما ان ترامت أخبار هذه اللجنة الى السلطة العسكرية حتى بعثت اليها بقوة من الاستراليين لقمع الثورة فيها •

وأتت القوة فلما اقتربت من المدينة أخذ الأهالى يحفرون الخنادق العميقة فى الطرق الزراعية الموصلة اليها وخربوا قضبان السكة الحديدية ، فلما استعدت القوة لمهاجمة المدينة تدخل المأمور فى الأمر ، فأذن للقوة بدخول المدينة على ألا تتدخل فى شئون الادارة ، فدخلها الجند ولكن عبثا حاولوا معرفة أعضاء لجنة الثورة •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ج ١ ، ص ٢١٧ •

(2) Sabry : La revolution Egyptienne P. 29.

وتعددت المظاهرات فى غير ذلك من المدن فى قلين وأسوان وسمنود وقامت المظاهرات فى كفر الشيخ فى ١٦ من مارس ، وتألفت من الطلبة فى البداية ثم شملت الشعب وقامت المظاهرات فى المحلة الكبرى فى ١٥ من مارس مؤلفة من طلبة المدارس وسراة المدينة وعمالها •

وظهرت الثورة فى شبين الكوم مبكرة عما جاورهـا من المدن ، اذ بدأت فى ١١ من مارس ، وتجددت فى الأيام التالية ، وكان قوامها طلبة المدارس ومن انضم اليهم من الأهالى حتى حضرت قوة بريطانيـة مسلحة ومنعت المظاهرات بمعاونة الشرطة وقامت فى منوف مظاهرات وفى تلا مظاهرة فى ١٣ من مارس •

وقد عمت المظاهرات مديريات الدقهليـة وتخللها حوادث اليمة سفكت فيها دماء الأهالى ، ففى المنصورة انطلقت الثورة فى شـكل مظاهرات قام بها طلبة المدارس الثانوية فى ١٤ من مارس وتجددت بعد ذلك •

قامت مظاهرة سلمية فى ١٨ من مارس ولكنها ما لبثت أن تحولت الى مجزرة عندما فاجأها الجنود البريطانيون بنيرانهم •

وبدأت الثورة فى دمياط فى ٢١ من مارس اذ خرجت فى ذلك اليوم دمياط كلها على بكرة أبيها عقب صلاة الجمعة فى مظاهرة عظيمة تهتف بحياة مصر والاستقلال وسعد •

كما ظهـرت بالقـرب من ميت غمر فى ٢٣ من مارس وفى تفهنا الأشراف •

وفى القليوبية ، كان أول عمل ثورى قـام به أهلها مظاهرة ١٤ من مارس فأحرقوا محطة السـكة الحـديدية فيها كما أتلفوا الخط الحديدى فيها وما فى جوارها والأسلاك التلغرافية والتليفونية وخربوا الطريق الزراعى (١) فأرسلت السلطة العسكرية احدى طائراتها فألقت نيرانها على المتظاهرين •

وقد امتدت المظاهرات الى الزقازيق وغيرها فى مديرية الشرقية وهى ان بدت سلمية فقد تميزت بالشدة فى مركز منيا القمح •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ٢٢٥ •

ولقد انتقلت الثورة الى الوجه القبلى وبدت أشد منها فى الوجه البحرى فقد طبعت بالعنف والضراوة فى مواجهة الاحتلال وقواته ٠

هاجم الثوار فى ١٥ من مارس محطتى الرقة والواسطى كما هجموا على القطر التى بها ودمروا المحطتين وأحرقوهما ، ودمرت محطات السكة الحديدية فى بولاق الدكرور والبدرشين والحوامدية وعطل كوبرى قشيشة بين الواسطى وبنى سويف ٠

وفى ١٥ من مارس أيضا قامت مظاهرة من المظاهرات الكبرى فى بنى سويف أغار فيها المتظاهرون على المحكمة وعلى سراى المديرية فأجلتهم عنها قوة من الجنود الهندية ٠

وبدأت المظاهرات فى الفيوم ، واستمرت فى الأيام التالية ، وقد تصدت اليها القوة البريطانية فقتل كثير من الأهالى ٠

ثم جاءت قوة من البدو وهاجمت الجند ، فقابلتهم القوة البريطانية بنيرانها فأصابت من البدو المتظاهرين ٤٠٠ بين قتيل وجريح ٠

ولقد بدأت المظاهرات فى المنيا فى ١٠ من مارس وكانت سلمية ، واستمرت بعد ذلك وتألفت فيها لجنة وطنية للمحافظة على النظام وعلى أرواح الأجانب فيها وانشأت لها فروعا فى المراكز والقرى لصيانة الأمن والمحافظة على الأرواح والمصالح ، وكان عددها ٢٥ من أعيان المدينة والمديرية ٠

وبدأت الحركة الثورية فى أسيوط بمظاهرات سلمية فى ١٠ من مارس والأيام التالية على اثر وصول الأنباء باعتقال سعد زغلول (١) باضراب طلبة المدرسة الثانوية الأميرية ومعهد أسيوط الدينى ومدرسة اخوان ويصا وبقية المدارس وشاركهم الشعب فى المظاهرات كما أضرب المحامون ، وقد أشعل الثوار النيران فى أكوام التبن المكدسة لحساب السلطة العسكرية ، ولما انكمش رجال الادارة وتركوا المدينة عرضة للفوضى مختبئين فى المستشفى الأميرى ، تطوع المحامون للمحافظة على الأمن والفوا من بينهم لجانا للطواف فى الشوارع للمحافظة على الأمن وقد هجم الثوار على مركز الشرطة فى المديرية وأخذوا منه السلاح ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ٠

وهاجموا القوات البريطانية فيها ، ولكنها صدتهم عن مواقعها بعد أن تلقت الامداد .

وكان من أشد حوادث الصعيد هو حادث مهاجمة الثـوار فى ١٨ من مارس القطار القادم من الأقصر الى القاهرة فى ديروط ودير مواس، وكان به بعض الضباط والجنود البريطانيين فقتلهم الثوار وبلغ عددهم ثمانية .

ولقد تفاقمت الحالة فى أسيوط واتخذ الجنود البريطانيون مكانا دفاعيا فيها احتموا به ومعهم النزلاء الأجانب ٠

وفى صباح ٢٣ من مارس هوجم المكان الدفاعى وقبل أن تتمكن الامدادات من الوصول الى المركز الذى كان يحرس الطريق الى المدرسـة تمكن المهاجمون من اختراق النطاق وأطلقوا النيران على الجنود البريطانيين فصدهم الجنود بخسارة جسيمة ٠

وقد وصلت أسيوط فى ٢٤ من مارس طائرتان حربيتان مائيتان فاشتركتا فى أعمال الدفاع وألقتا بعض القنابل على الأهالى ، ولما سارت النجدات الحربية بسرعة من القاهرة الى أسيوط فى بواخر النيل لقيت مقاومة عنيفة ، بين ديروط وأسيوط من جماعات الثوار على ضـفة النيل ، فقد هوجمت ثلاث مرات ، وقد وصلت النجدات أخيرا الى اسيوط فى ٢٥ من مارس فأعادت الحالة الى ما كانت عليها ٠

أما فى جرجا ومراكزها فكانت المظاهرات سلمية ٠

وقد اقتصر الاضطراب بين قنا وأسوان على اتلاف خطوط السكك الحديدية والتلغرافات ٠

انطلقت الثورة فى قوة وفى كل مكان ، تشير الى أصولها الضاربة فى أعماق الاختمار الثورى وقد كانت أشـد تعبيرا فى المدن الثلاث : أسيوط والمنيا ثم زفتى ٠ وقد سلكت المدن الثلاث اتجاها تميز بالخروج على السلطة وكان ذلك أكثر وضوحا فى زفتى ٠

وكانت السلطات العسكرية تغذى الثورة بأسلوبها الجارح العنيف، وكانت تستفز الناس بكل أنواع البطش والارهاب والتحدى والعقاب ٠

وبالرغم مما وجهته الى الثورة من محاولات القمع الصـادرة من الدوريات البريطانية التى كانت تسيرها فصائل متنقلة فى الوجه البحرى

والبواخر النيلية المحملة بالسلاح والذخيرة للوجه القبلى فقد مضت الثورة وصمد الثوار من اجل حرية مصر متكبدين أعظم التضحيات .

وفى ظل اشتداد الثورة اخذ الانجليز وهم يوجهون حملاتهم لقمعها يشعرون بأنهم أمام ثورة شاملة ، ولما كان ذلك يقلق مركزهم السياسى فى مصر وهم يحاولون تثبيت الحماية بانتزاع اعتراف الدول ثم موافقة مصر تطورت سياستهم بما يستجيب لغاياتهم ، وسرعان ما انقلبت سياستهم فأرسلت من باريس الى لندن برقية فى ١٨ من مارس ١٩١٩ تتضمن تغيير السياسة السالفة ، سياسة كرزون ، وقد تضمنت هذه البرقية رغبة فى اعاذة النظام توا وبدون مساومة ثم تاليف حكومة ذات كفاية ، ثم ما لبثت ان رات تحقيقا لذلك ضرورة تعيين شخصية كبيرة لها معرفة بالموقف فى القاهرة ، فوجدت ضالتها فى اللنبى ، وكان ذلك قد وصل باريس فى ١٩ من مارس لحضور مؤتمر السلام بناء على استدعاء الوفد البريطانى هناك ليدلى برأيه فى المسألة المصرية ، وقد عين مندوبا ساميا فى مصر للسيطرة على الثورة ، واعادة القانون والنظام ، متخذا ما يراه مناسبا وضروريا للعمل على تثبيت الحماية واستمرارها ٠

شاءت بريطانيا مواجهة الثورة بالشدة وامعانا منها فى تيئيس المصريين من كل أمل فى اللين والهوادة عينت المارشال اللنبى مندوبا ساميا بعد نشوب الثورة بنحو اسبوع بدلا من السير ونجيت الذى كان من رأيه السماح بسفر الوزيرين المصريين وقد تعمدت تعيينه أيضا ارهابا للمصريين باسم القائد المنتصر فى ميدان فلسطين ، وقد منح السلطة العليا فى جميع الأمور المدنية والعسكرية ٠

وبدأ ذلك عمله باستدعاء كبراء المصريين برجاء انهاء (١) الاضطرابات وطلب اليهم نصح الناس بالهدوء واخماد ثورة مارس ٠

وتكررت النصائح التى أوعز بها الانجليز دون ما جدوى ، ثم لجأ اللنبى الى أعضاء الوفد المصرى فاستدعاهم فى ٢٦ من مارس وطلب اليهم بسط أسباب الشكاية فى تقرير يكتبونه ، فقدموا له تقريرا يتضمن تلخيصا للمظلمة السياسية من بداية اعلان الحماية ، وبعد أيام حان موعد صدور الميزانية وليس فى البلاد وزارة ولا نواب يناقشونها ، وخروجا من هذه الورطة لم يجد اللنبى بدا من اعتمادها باسم السلطة

(1) Wavel : allenby in Egypt P. 43.

العسكرية ، فأصدر بلاغا بذلك فى الأول من ابريل فألهب فى النفوس بهذا التحدى جذوة الغضب ، فعادت موجهات الاضراب من التجـــار باغلاق حوانيتهم واشتدت ثورة الأزهر وكثرت اجتماعاته .

وبعد أن جربت السلطة العســكرية كل وسيلة لم يسعها أن تجرب الوسيلة الباقية التى اقترحها المصريون منذ البداية وهى اطلاق الحرية للوفد المصرى ليسافر حيث شاء فالحجر عليه كان سبب استقالة الوزارة وهو سبب الاحجـام عن تأليف وزارة أخرى كما هو ســبب غليـان النفوس فأذاع اللنبى فى أسابيع من الشهر بلاغا أعلن فيه أنه لم يبق حجر على السفر وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد يكون لهم مطلق الحرية ، وان كلا من « سعد زغلول باشا واسماعيل صدقى وحمد البـاسل ومحمد محمود باشا » يطلقون من الاعتقـال ويكون لهم كذلك حق السفر .

وبهذا كانت الثورة قد بدأت مرحلة جديدة من النضال القومى فى سبيل الاستقلال والحرية .

الفصل السابع

التنظيمات الثورية

انطلقت الثورة تلقائيـــا بغير تنظيم سابق ، وفى غمرة الحماس القومى سيطر الشعب على الموقف بأسره ، وبين المعارك الأولى للثورة أخذ الشعب ينتظم فى شكل تنظيمات ثورية كانت تنشأ تلقائيا فى استجابة لضروريات قومية بقيادة المثقفين ، فتتولى مهام التوجيه والقيادة بمختلف الوسائل الممكنة •

لجان الوفد :

ومع أولى خطوات الوفد لجمع التوكيلات بدأت البذور الأولى لأول تنظيمات ثورية ممثلة فى تلك الجماعات التى كانت تتصدى الصفوف لتنظيم جمع التوقيعات التى كان قوامها لفيف من الأعيـان والتجـــار والمثقفين •

وكان من الطبيعى بعد أن انطلقت الثورة ، أن تمضى هذه الجماعات مع زيادة اشتعال الثورة والشعور القومى فتتزعم الصـــفوف كل فى مكانه من الشعب فى مواجهة الاحتلال وحكومته فتمثل من ثم أعمـــاق الثورة وابعاد رد الفعل فى كل مكان تحل فيه •

ولقد واجهت هذه الجماعات بعد الافراج عن سعد وصحبه وسفر أعضاء الوفد للحاق بركب سعد الى أوروبا ، مرحلة جديدة للثورة ، كان من الطبيعى أن تتطور فى ظلها •

فى هذه المدة ، التى وقعت بين الافراج عن سعد وسفر بقية أفراد الوفد المقيمين بالقاهرة ، تشكلت لجنة الوفد المركزية طبقا للمادة ٢٦ من قانون الوفد لجمع التبرعات لمساعدة الوفد فى باريس وجمع المعلومات عن مصر لاستخدامها فى الخارج للدعاية للقضية المصرية •

ولقد شاءت هذه اللجنة أن تشكل لنفسها لجانا فرعية فى الريف

والمدن لامداد الوفد بالتبرعات المالية اللازمة ولم يكن لها بالضرورة أن تنسى الاعتماد على هذه اللجان الأولى فى أداء مهمتها .

فقد كان من الطبيعي لهذه الجماعات لكى تضمن نجاحها ألايفوتها أن تعتمد على أعضاء هذه الجماعات الأولى فى استكمال وجودها وأداء رسالتها بعد أن اكتسبت كيانا قوميا قياديا محليا فلا تتخلى عنها ، لذلك نرجح انضمامها الى اللجان الجديدة التى شكلتها لجنة الوفد المركزية .

الجهاز السرى للثورة :

لم تمض لجنة الوفد المركزية فى رسالتها طويلا حتى اضطرت لأن تطور مهمتها الأساسية نحو دائرة العمل السياسى .

كان الانجليز – اذ ذاك والوفد فى باريس – يقلقهم تماسك الوحدة القومية التى تلتف حوله فى مصر ، وكان يهمهم تحطيم هذه الوحدة ، ومن ثم غدت الجبهة الداخلية وتماسكها من أخطر المسئوليات التاريخية التى القيت على عاتق هذه اللجنة المركزية فى مصر وعلى سكرتيرها بالذات « عبد الرحمن فهمى » (١) .

وازاء ذلك برزت الحاجة الى تدبير الاتصال بين اللجنة المركزية فى مصر والوفد ليطلع سعد على الموقف فى مصر وتستطيع اللجنة المركزية من ناحية أخرى أن تتلقى توجيهاتها من زعيم الثورة فيما يجب أن يتبع حيال ذلك الموقف .

ولما كان ثمة رقابة وسلطة عسكرية جاء التفكير لاتخاذ ذلك بالاتصال السرى بين الطرفين .

ويروى « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته (٢) :

ان السبب المباشر فى وجود هذا الاتصال تلغراف ورد من سعد فى ١٣ من مايو لرئيس اللجنة المركزية يقول :

---

(١) نشأ هذا الرجل فى بيئة معادية للانجليز . وتخرج من المدرسة الحربية سنة ١٨٨٩ وتقلب فى عدة مناصب كثيرة فى بداية القرن العشرين أبدى فيها كفاية كبيرة كان آخرها وظيفة بديوان الاوقاف التى انتقل بعدها الى المعاش وكان من اوضح صفاته : اعتزازه بكرامته والشدة فى الحق والشعور بالمسئولية لايمانه بحرية بلاده .

(٢) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة سنة ١٩١٩ ، ص ١٤ – ١٥ .

« منذ وصولنا وجدنا جميع الابـواب موصدة فى وجوهنا ، كل الجهود والمساعى لم تؤد الى نتيجة . فى النص التمهيدى لمحادثات الصلح اعترف الألمان بالحماية ! يصلكم خطاب » .

ثم يروى عبد الرحمن فهمى ، كيف حضر اليه قبل نهاية الشهر الأول من سفر الوفد الى باريس ، لفيف من الشخصيات البارزة وكان يلوح على وجوههم الانقباض والتشاؤم فلما سألهم « عبد الرحمن فهمى » عما اصابهم ، ناوله أحدهم التلغراف المذكور وخشى عبد الرحمن فهمى اذاعة مثل هذا التلغراف لما يمكن ان يلحقه من الضرر فحاول تقليل أثره بأن اوهمهم بانه مفتعل وحاول مداراة أثره بكل وسيلة بالعمل على ابقائه سرا خفيا ثم ارسل معاتبا سعدا على هذا وكان من المرجح أن يكون ذلك التلغراف هو الذى دفع « عبد الرحمن فهمى » الى ايجاد طريقة المراسلات السرية بينه وبين « سعد زغلول » وكان لعبد الرحمن فهمى فضله الكبير فى ذلك .

طلب هذا الرجل ممن كانوا يعملون مع سـعد عندما كان مديرا للجامعة المصرية ، أن يعمل كسكرتير خاص لسعد فى باريس واتفق معه على طريق المراسلة ، فسـافر ذلك فى اجازة من عمله ليقوم بالمهمة ، وقد تألفت سكرتارية فنية تقوم على خدمة أغراض هذه الرسائل ، تعمل تحت امرة « عبد الرحمن فهمى » من «أحمد ماهر ومحمد صادق فهمى» وكانت الرسائل ترسل من باريس على صفحات مجلة فرنسية أو انجليزية دون فك أوراق المجلة فى أعلى الصفحات مع فك الخيط الذى يربط ملازمهـا وكانت الرسائل تكتب ثم يعاد ربط المجلة ثم ترســل المجلة ، وكان يراعى أن تكون المجلة علمية مرسلة الى الجامعة ثم يتسلمها سكرتيرها ليحيلها على « عبد الرحمن فهمى » ، فيتولى ذلك مع « أحمد ماهر وصادق فهمى » حلها بكى الصفحات .

وكان « عبد الرحمن فهمى » يرسل رسائله السرية الى ســعد بالطريقة نفسها ولم تكن هذه هى الطرق الوحيدة لارسالها الى ســعد فكثيرا ما كان ذلك الرجل يحتاج الى شخص مسافر ليحملها اليـه فى باريس .

ولما عاد سكرتير سعد الخاص فى سبتمبر ١٩١٩ الى مصر بعـد انتهاء أجازته اختار « عبد الرحمن فهمى » « محمد كامل سليم » ليقوم بهذا العمل ، فسافر وقام بالمهمة نفسها .

ومما هو جدير بالملاحظة أن مسألة الرسائل السرية قد ظلت غير معروفة لأعضاء الوفد أو أعضاء اللجنة المركزية (١) .

وتنقسم هذه المراسلات الى مجموعة تشمل رسائل سعد السرية الى « عبد الرحمن فهمى » وعددها ثلاثون تقريراً من ٢٣ من يونيه عام ١٩١٩ الى ٢٨ من ابريل سنة ١٩٢٠ ، ومجموعة أخرى أرسلها « عبد الرحمن فهمى » الى سعد وعددها ٢٩ تقريرا من ٢٣ من يوليه سنة ١٩١٩ الى مايو سنة ١٩٢٠ .

ولم تقتصر الرسائل على مسألة واحدة ، بل عدة مسائل ، كما كانت رسائل « عبد الرحمن فهمى » تشمل عرضا لأحداث سرية وعلنية فى مصر بما يحيط الوفد فى باريس علما بحقيقة ما يجرى فى مصر ، كما كانت رسائل سعد تتضمن فقط رأى الوفد فى كثير من المسائل لتعلم بها اللجنة المركزية للوفد .

وكان ثمة مجموعة ثالثة من هذه الرسائل كان يرسلها بعض أعضاء الوفد أو « محمد كامل سليم » الى « عبد الرحمن فهمى » ورسائل « أحمد ماهر » الى عمه « عبد الرحمن فهمى » ألقت ضوءا على كثير من المواقف داخل الوفد فى الخارج ، وعلى حوادث أخرى .

ومهما يكن الأمر ، فقد تضمنت هذه الرسائل كلها من القضايا ما كشف أسرار هذه الفترة كما قامت بدور فعال فى الربط بين العمل القومى فى مصر والقيادة الثورية .

ولقد كان من الطبيعى أن يستكمل « عبد الرحمن فهمى » الجهاز السرى بتنظيمات أخرى فى مصر أو يعتمد على تنظيمات قامت فى ظل الثورة ، لتأدية رسالته والاستجابة لاتجاهات زعيم الثورة من باريس فى جمع معلومات وتنفيذ خطط ثورية وغير ذلك مما يستلزمه العمل الثورى القيادى .

فكان « عبد الرحمن فهمى » يتصل بكل مديرية ، وكانت له عيون فى كل ناحية ورجال يبلغونه كل ما حدث ، وكل ما يحدث وكان

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ .

يتلقى التقارير من زعماء البلاد شفاها وكتابة ويقوم بدراستها ثم يبت فيها وكان هو بحق ، بجهازه السرى ، الموجه الفعلي للثورة باتصاله بسعد •

وكان يدير الحركة من غرفة خاصة فى منزل سعد يقابل فيها زواره ومن منزله بشارع قصر العينى •

واذا كان التنظيم السرى برياسة « عبد الرحمن فهمى » يتلقى تعليماته من « سعد زغلول » شخصيا ، فقد كان « أحمد ماهر » يمثل من الحركة السرية العقل المدبر •

مجلس أعلى للاغتيالات :

ويحدثنا « شفيق منصور » أحد أفراد الجهاز السرى عن تكوينه بما يزيد صورة ذلك التنظيم ايضاحا ، فقد جاء فى صفحة ١٢ من تقرير « شفيق منصور » وصف نظام الجهاز السرى عندما انضم اليه من أنه كان يتألف من هيئة المجلس الأعلى للاغتيالات المؤلف من « عبد اللطيف الصوفانى ومصطفى حمدى وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ومحمد شرارة وعبد الرحمن الرافعى » ثم قال :

« ولهذه الهيئة فروع وبعض أصول (قواعد) أعنى أن لكل عضو أن يتصل بشخص واحد ليكون فرعا له وكل شخص تفرع أن يكون (خلية) من اثنين ، يتصلان بشخص واحد وهذا الشخص يتصل باثنين وهكذا بذلك التدرج •

وقد يصح أن يتصل الانسان فى الفرع بشخص واحد فقط ويشترط السرية المتناهية فى معرفة الأصول ، فليس للواحد الذى فى فرعى أن يعرف أحدا من الأصول الذين معى ، الا اذا صرحت الجمعية له بذلك أو وافق العضو المتصل لمصلحة ذات أهمية ، فكل واحد من أعضاء المجلس الأعلى للاغتيالات السابق ذكرهم كان له فرع على هذا الترتيب •

كما أن القانون يقضى بأن للعضو الذى فى اللجنة العاملة أن يتصل بشخص آخر بصفة استشارية أو أكثر •

وكانت الأوامر تصدر من هذه الهيئة العاملة (المجلس الأعلى للاغتيالات) بعد أن يستشير الشخص من يشاء وأى عدد ثان » (١)•

---

(١) صحيفة الاخبار ٤ سبتمبر سنة ١٩٦٣ ص ٤ •

ولقد ظل عبد الرحمن فهمى على رأس الجهاز السرى الى أن قبض عليه فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٢٠ وصدر الحكم عليه بالاعدام ثم خفض الى سجنه ١٥ سنة ٠

وقد تولى رياسة هذا الجهاز من بعده « أحمد ماهر » فلما عفى عن « عبد الرحمن فهمى » بعد ذلك وخرج من السجن واختلف مع سعد فى أول حكومة للوفد اعتزل بعد ذلك السياسة مؤقتا ٠

ولم يكن ثمة تنظيم ثورى فى الجيش فى القاهرة على أنه اذا كان ذلك قد تعذرت سيطرة الانجليز على الجهاز السرى فانه كان قد وفق فى ايجاد تنظيمات فى الجيش المصرى بالسودان وكان لها أثرها الكبير فيما بعد ٠

ويقول جورج لويد :

« ان النشاط المصرى قد تسرب الى السودان منذ عام ١٩٢٢ ، وان المصريين قد أقاموا هناك جمعيات سرية تدار من القاهرة وقد تجلى تأثيرها بالفعل فيما بعد » (١) ٠

الجمعيات السرية :

وكان ثمة بجانب هذا ــ مجموعة من الجمعيات السرية بلغت تسع جمعيات تألفت فى أقل من عام واحد من انفجار ثورة ١٩١٩ تكشف عنها تلك المطبوعات التى طبعتها السلطات على ذمة « قضية عبد الرحمن فهمى » وتشير الى بعضها بعض الصحف المعاصرة ٠

وليس هناك ما يدل تماما على أن هذه الجمعيات كلها كانت تخضع لاشراف الجهاز السرى التابع للجنة الوفد المركزية ، بل كانت مستقلة وأن كان بعضها يجد عونا من رئيس الجهاز السرى ٠

ولقد تألفت بعد هذه المجموعة فى بداية عام ١٩٢١ ، بعد نفى سعد للمرة الثانية ــ جمعية أخرى هى جمعية أولاد عنايت السرية ٠

أما عن هذه الجمعيات السرية التسع فهى : جمعية اليد السوداء : وكان يرأسها لفيف من المثقفين مع عدد من الطلبة ، وكان هدفها اثارة الرأى العام واحداث الائتلاف ، ثم جمع الأموال فى سبيل الحركة (٢) ،

---

(1) Lloyd : Egypt since Cromer vol. 2, P. 118.

(٢) « جريدة الاهرام » عدد ٣ من اغسطس ١٩٢٠ ٠

وكانت هذه الجمعية ترسل رسائل التهديد الى السـياسيين الرجعيين المنحرفين عن مجرى النضال الثورى لمحاولة ردهم الى الخط الأصـيل للثورة أو اسكاتهم فتكتفى شرهم .

وبجانب ذلك كانت لجنة الدفاع الوطنى ، وكان أكثر أعضائهـا من أعضاء الجمعية السابقة ، وكان غرضها تحريض الشعب على ارتكاب الجرائم السياسية ضد السلطات العسكرية البريطانية .

وكانت ثمة لجنة يتزعمها بعض المثقفين كان غرضها كغرض هـذه اللجنة السابقة تقريبا ، من اثارة الرأى العام ، ولكنهـا كانت تتلقى المساعدات المالية من « عبد الرحمن فهمى » .

أما الجمعية الرابعة فهى جمعية المصرى الحر ، وكانت تسـتمد مالها من « عبد الرحمن فهمى » ، ويقول الأستاذ « عبد الرحمن الرافعى »:

« وكان للطلبة جريدة سرية باسم (المصرى الحر » ولها مطبعـة سرية خاصة وكان الناس يتلقفون هـذه النشرات بلهف ، ويتبـادلون الاطلاع عليها ، فعمدت السلطة العسكرية الى طريق الارهاب فى مقاومة هذه الحركة ... » (١) .

وكانت هناك بجانب ذلك جمعية خامسة تسـمى الشعلة ، ثم جمعية سادسة تسمى المدارس العليا ، وكان أغلب أعضاء الجمعية الأخيرة من الطلبة وكانت تقتضى العمل سرا وأن يعمل أعضاؤهـا باصـدار المنشورات والحث على الاضراب ، وكانت تدون بيانا بأسماء التجار الانجليز الذين يراد مقاطعتهم .

وبجانب هذا ، كانت جمعية مجلس العشرة وجمعية الخمسين ثم جمعية الانتقام .

ولقد تألفت الجمعية الاخيرة عقب عودة لجنة ملنر من مصر فى ١٧ يناير عام ١٩٢٠ ، وقد قسمت ثلاثة أقسام : كان القسم الاول يتولى اعداد المستندات والاخبار ، وكان لهذا القسم فروع ، منها فـرع فى الاسكندرية كان يتكون من لفيف من المتعلمين . أما القسم الثانى فكان قسم المسدسات ، والقسم الثالث كان قسم القنابل .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ص ٤٤ .

ولم تكن جمعية الانتقام من جمعيات التنظيم السرى الخاضعة لادارة عبد الرحمن فهمى .

ولم يكن نشاط أعضاء هذه الجمعيات السرية مقصورا على جمعياتهم فقط ، بل كانت أنظمتها تتيح لأن يكون العضو فى الجمعية عضوا فى الوقت نفسه فى جمعيات أخرى ، فكان أعضاء لجنة الدفاع الوطنى مثلا من أعضاء جمعية اليد السوداء ، وكانت جمعية الشعلة لها علاقة بجمعية الانتقام (١) .

ولقد كان لهذه الجمعيات السرية تأثير كبير فى مجرى الثورة ، فقد بسطت سيطرتها على الحياة السياسية وهددت الوزراء وكبار الموظفين وغيرهم .

ولم تكن أعمال أعضائها مقصورة على العمل السرى ، بل كان الموهوبون منهم يسهمون فى الأعمال العلنية كالخطابة مثلا التى تستثير الشعب فى وجه الاحتلال .

وكان من الجمعيات السرية أيضا جمعية « أولاد عنايت » التى تشكلت بعد ذلك بعد نفى سعد للمرة الثانية عام ١٩٢٢ ، فمن نبعة الروح القومى الذى تجلى بالطرق السرية عنيفا ضاريا ، عزم لفيف من المثقفين الشبان الفدائيين محاربة الانجليز باتخاذ الهجوم عليهم فى رابعة النهار كسرا لاستعلائهم واشتدادهم وردعا لما كانوا يقومون به من ظلم أو مساس بقيم المجتمع .

اذ ذاك وضع تصميم انشاء منظمة فدائية سرية تقوم على شكل حلقات خماسية تتفرع من الخلية الرئيسية التى تعد جذعا للشجرة(٢).

ولقد تشكلت الحلقة الرئيسية من خمسة أعضاء لتكون أساسا لعدة فروع ثورية فى مستقبل الايام ، وقد شكلت من لفيف من المثقفين والعمال الثوريين :

ولقد عقدت لجنة الحزب الرئيسية فى منتصف يناير عام ١٩٢٢ اجتماعا لأول مرة فى حديقة النزهة بقصر النيل لوضع نظام معين لهذه الهيئة . .

---

(١) جريدة الاهرام : عدد ٢٨ من يوليه عام ١٩٢٠ .
(٢) عبد الفتاح عنايت : قصة كفاح ، ص ٢٠ .

فلما استقر بهم المقام واتفقت كلمتهم على القيام بحركة عدائية ضد الانجليز قر رأيهم على النظام الآتى :

١ – تتشكل اللجنة الرئيسية من رئيس ، هـذا الرئيس هو الاخلاص وأعضاء يكونون بعضهم كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضا .

٢ – أن تكون هذه اللجنة الرئيسية أساسا لحلقات حماسية يقوم بتكوينها الاعضاء ، كل عضو على حدة ويتصل هذا العضو المؤسس بشخص واحد فيها يثق به تمام الثقة .

٣ – على كل منا نحن أعضاء اللجنة الرئيسية ألا يبيح بسر أعماله الى أكثر من واحد خارج عن اللجنة الرئيسية ، ثم يدبر بطريق غير مباشر وبمقدرته حلقته الفرعية .

٤ – أن كل اثنين يعرف بعضهما بعضا وما زاد عن ذلك يجب الا يعرف الا باسم مستعار .

٥ – يجب ألا تكون هناك مراسلات بيننا وبين البعض الآخر بالكلية دون أى أثر يثبت علاقة عضو من اعضاء اللجنة بعضو آخر .

٦ – يجب أن تصدر الأوامر من اللجنة الرئيسية بأغلبية الآراء وعلى كل عضو منهم أن يباشر تبليغها الى من يثق به تمام الثقة وبطريق غير مباشر فى حلقته الفرعية .

٧ – يجب أن تقوم الهيئة بعدة أعمال دون أن تقع فى ايدى الحكومة والغاصب الأجنبى حتى اذا ما وقعت يوما ما تكون قد قامت بما هـو عليها من الواجب وزيادة .

كان هذا هو نظام اللجنة الرئيسية للمنظمة الفدائية فى عـلاقة أعضائها بعضهم ببعض .

ولقد قرر رأى أعضاء المنظمة جميعا على أن يقوموا بما يأتى :

أولا : تحرير منشورات كتابية تعلن للجمهور أن مصر قد أصبحت « مقبرة لرجال الانجليز » وثانيا : البحث عن السلاح كى يعاونهم على الانتقام من « الأجنبى الغاصب » .

ولم تمض أيام حتى كان السلاح قد بدأ يتوافر ، ومن ثم بدأت هذه الجمعية نشاطها وكان منه مقتل سردار الجيش فيما بعد (١) .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

وبوحى من الشعور القومى كان الطلبة يتجمعون فى تنظيمات لم تكن تابعة للوفد فى المراحل الاولى للثورة ، وكانت تلك تتخذ شكل لجان فكان ثمة لجان لطلبة الأزهر ، والمدارس العليا ، والمدارس الثانوية .

ولقد كانت هذه اللجان تتخذ لها اسم نقابة ، وكانت هذه اللجان أو النقابات تتبع التعليمات التى تصدر من القيادات المنظمة للمظاهرات وكان مقرها غالبا فى الأزهر ، وكانت الصحف تذيع أحيانا أنباء بعض هذه المظاهرات قبل حدوثها (١) .

لجنة الموظفين :

وكان للموظفين تنظيم انبثق أثر تصريح كرزون عن المسألة فى مصر لما انطوى عليه من اتهامهم بالانحياز الى صف الاحتلال والحماية والتنكر للحركة القومية ، ومن ثم كان قد أحرجهم أمام مواطنيهم ففكروا فى درء هذه التهمة .

فلقد قامت قيامة الموظفين ، وكان تنظيم قيامها راجعا الى الطريقة العملية التى دبر بها حركتهم مدير ادارة المجالس الحسبية بالذات ، فقد اجتمع النواب من الموظفين وطرحت عليهم مسألة الاضراب ، فذهب بعضهم إلى القول به الى مالانهاية ، وذهب بعض ثان الى القول به لأجل طويل وقال بعض ثالث بالاضراب ثلاثة أيام فقط ، وكان من أثر عقلية «على ماهر» العملية أن اقنع زملاءه بالأخذ بأضعف التيارات تحقيقا للاجماع من ناحية واقتناعا منه من ناحية اخرى بأن الموظفين اذا سهل خروجهم من دور الحكومة فان عودتهم اليها ستكون من أصعب الامور (٢) ..

ولقد تقرر أن يبدأ الاضراب بعد قبض المرتبات ليكون تحمل الصرف ميسورا ، ولقد تجدد نشاط الموظفين بعد تأليف وزارة رشدى الرابعة ، فألفوا اللجنة التى سبق لهم التفكير فى تأليفها بالاضراب الاول وسميت ، لجنة مندوبى موظفى وزارات الحكومة ومصالحها (٣) .

ولقد جرى انتخابها بوساطة الموظفين ، فكان موظفو كل مصلحة يجتمعون فيها ويختارون مندوبا عنهم ، ومن بين هؤلاء المندوبين تألفت اللجنة فبلغ عدد أفرادها ٣٢ عضوا ، ثم أصبحوا ٥٧ .

---

(١) الاهرام عدد ٨ من ابريل عام ١٩١٩ .

(٢) محمود عزمى : الايام المائة ، ص ١٠ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ص ١٤ .

وكان لهذه اللجنة تأثيرها فى الاضراب الشامل لجميع الموظفين فى عهد وزارة «حسين رشدى» ووعدت فيما بعد بعقد مؤتمر عام يمثل طبقات الأمة لتأييد الموظفين وقد تم ذلك فعلا فانعقد المؤتمر فى الأزهر بما انتهى الى استقالة رشدى .

تنظيمات العمال :

كان العمال — اذ ذاك — قوة شعبية متحركة قوية ، وقد بدات عناصر اليسار ابان ثورة ١٩١٩ نشاطها فى أوساط العمال ولا سيما فى الاسكندرية ولما كانت الثورة ثورة قومية سياسية يتزعمها ، بحكم تنظيم المجتمع الطبقى القائم ، لفيف من قمة هذا المجتمع ، فقد كان من مصلحتها تنظيم العمال فى نقابات تجذبها الى ساحة القيادة الوفدية من أجل مصلحة الوطن ، وتضمن من ثم ، عدم انحراف العمال الى اليسار . بما لايؤلب على الثورة خصومها فى الداخل والخارج .

ونظرا لأن عناصر اليسار كما تقدم قد أخذت بالفعل فى مزاولة نشاطها ابان الثورة فى أوساط العمال فى الاسكندرية ، فقد اتهمت الدوائر الحاكمة البريطانية هذا النشاط اليسارى بأنه نتيجة لعناصر أجنبية وقد ذكر جورج لويد (١) : ان الحزب الاشتراكى الايطالى قد نشط فى مصر نشاطا لايقل عما بذله من النشاط فى ايطاليا .

كان العمال اذن معرضين للانحراف عن العمل القومى ونظرا لان ذلك يسىء الى النضال الثورى لا فى وحدته فحسب بل ويؤلب عليه الخصوم فقد شاء سعد بدافع الحرص عن كل ما يسىء اليها وقد عبر عن ذلك فى ٢٣ من يونيه قال :

« الوفد غير راض عن المنشورات التى تفيد اعتماد المصريين على الالمان وتتضمن الانتصار للبلشفيك فان هذه المنشورات يفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها اتصال بالالمان والحركة البلشفية وهذا يضر بقضيتنا » .

ولم يكن سعد فى ذلك الا معبرا عن حرص وبعد نظر ، هادف الى صيانة الثورة فعلا من تألب الخصوم عليها خارج البلاد ، وكان ينزع الى هذا استقراء من واقع الصراع الدولى نزوعا قوميا .

---

(1) Lloyd : Egypt since Cromer vol. I, P. 353.

ومن نبعة ذلك الحرص أيضا ، اهتم سعد بأن ينفى عن نفسه ارتباطه بحزب العمال من ناحية المبادىء الاجتماعية ، ليحفظ الثورة من أن ينال منها الخصوم فى الخارج بل وابقاء على الوحدة القومية ، وقد جاء فى خطاب «سعد زغلول» لجريدة الجازيت فى ١٩ من مايو عام ١٩٢١ ، رد على اتهام (١) هذه الجريدة ، القائل بأن الوفد متفق مع آراء حزب العمال وجريدة الديلى هيرالد الاجتماعية فقال :

« أدهشنى ماقرأته فى صحيفتكم عن ارتياحى لخطة الديلى هيرالد الاجتماعية ، ولكى أقول لكم ولنوابكم انى لست ممن يهتمون بالمباحثات فى هذه الشئون الاجتماعية ، وانى لاأجهد نفسى فى أمر الكومونية او البلشفية ولاابحث عن أيهما المناسب لحياتنا الاجتماعية ، وليست عندى اية فكرة من هذه الوجهة . وان العلاقة القائمة بين الوفد المصرى والديلى هيرالد علاقة سياسية قائمة على قاعدة الارتياح لآرائها الاجتماعية » .

ولقد كان « عبد الرحمن فهمى » أحد الذين جذبوا الحركة العمالية الى قيادة الثورة ليدعم بها القاعدة الشعبية ويعززها فأصبحت تلك من منابع الثورة فى تنظيماته الثورية ، فقد كتب الى « سعد زغلول » فى ١٨ من اكتوبر سنة ١٩١٩ يوضح له ثمرة الجهود التى بذلت لتعميم النقابات فى جميع انحاء البلاد ويبين له كيف اثمرت حتى تشكلت فى كل قرية نقابة بحيث لم تبق فى مصر حرفة أو صنعة الا كان لها نقابة ، ويقول :

« نعم ان الحكومة لم تعترف بهذه النقابات للآن وليس منظورا ان تعترف بها للظروف الحاضرة ، ولكنها على كل حال مفيدة جدا للحركة الوطنية وهى سلاح قوى لا يستهان به » .

وقد بلغ عدد النقابات عام ١٩٢٢ فى القاهرة ٣٨ نقابة وفى الاسكندرية ٣٣ نقابة ، وفى منطقة القناة ١٨ نقابة ، وكان للعمال منذ أن انطلقت الثورة دورهم الكبير كما رأينا فى الاسهام فى النضال القومى مع سائر أفراد الشعب .

وبفضل ما أفادت القيادة الثورية الحركة العمالية بتنظيمها فى ظل الثورة بما عزز القاعدة الشعبية ، وخط النضال القومى ، فقد جاء التماؤها لهذه القيادة أمرا حماها بالفعل من الانحراف ومن ثم حمى الثورة

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ . ص ٢٣ .

عموما من أن يتألب عليها أعداؤها : الاستعمار فى الخارج وتحالف الرأسمالية والملاك الأعيان وغيرهم فى الداخل .

وقد جاء ظهور اتحاد نقابات العمال لوادى النيل برياسة « عبد الرحمن فهمى » فى مارس عام ١٩٢٤ كرد فعل لحوادث العمال فى الاسكندرية فى الفترة نفسها وهى الحوادث التى كان يعتقد بأن اليسار كان محركا لها .

ولقد كشف « عبد الرحمن فهمى » زعيم الجهاز السرى فى الثورة ، عن الظروف والعوامل المباشرة التى أدت الى ظهور هذا الاتجاه وقال : « كانت فى مصر حتى ذلك الوقت بعض نقابات للعمال ، ولكنها لم تكن منظمة على النحو الذى ينبغى أن تكون عليه ، ففى شهر مارس عام ١٩٢٤ ، أى بعد خروجى من السجن بنحو شهر وبضعة أيام حضر الى بمنزلى نفر من طوائف العمال المختلفة وعلى رأسهم شخص يدعى « محمد أفندى فؤاد » وطلبوا منى على لسان هذا الأفندى أن أرأس نقاباتهم ، وكانوا على ما أذكر مكونين من أربعة طوائف ، فبينت لهم أنى لا أقبل الزعامة على أربع نقابات فقط فان كان ولابد من ذلك فليجمعوا شمل باقى النقابات فى القطر اليهم ، وعندئذ أقبل هذه الزعامة على ما فيها من مشاغل ومتاعب .

ولم تكد تمر أيام حتى سرت الفكرة فى صفوف العمال ، فرحبوا بها وأخذ أعضاء النقابات يتوافدون على جماعات جماعات ، فلما رأيت هذا النشاط من جانب العمال أيقنت بصلاح العمل الذى نحن قادمون عليه وعلى ذلك قبلت زعامتهم .

وانشأت أول اتحاد عام لنقابات العمال ، وكان العمال حتى هذا التاريخ على اختلاف حرفهم وصناعاتهم ، منضمين تحت نقابة واحدة تسمى النقابة العامة ، وكان يديرها جماعة من ذوى المآرب الشخصية ، ولكن بمجرد أن قبلت وضع هذه المهمة على عاتقى عملت من فورى على أن يكون لكل ذوى مهنة واحدة نقابة خاصة بهم تكون تحت الإشراف للاتحاد العام ، وكان لكل نقابة ادارة خاصة بها ورئيس وسكرتير وأعضاء ونظم مستقلة ، ولم يمض وقت طويل حتى انبثقت فى كثير من بلاد القطر نقابات على هذا النحو بلغ عددها فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ أكثر من مائة وعشرين نقابة تضم مائة وخمسين ألف عامل .

وهكذا نظم رئيس الجهاز السرى « العمال » فى نقابات وجعل

للنقابات اتحادا عام ، فدعم بهذا خط النضال وعززه ، وكان بطبيعته يميل الى وحدة الصف .

وقد حاول « عبد الرحمن فهمى » أن يوجه الحركة العمالية فى خطاباته المختلفة بحيث لا تنحرف فى اتجاهاتها ، وكان يود بهذا أن يكسبهم عطف الشعب ، ولا يجعلهم محل نقمة الرأسمالية والملاك الأعيان الزراعيين ومن ورائهم السراى والاحتلال ، وبذا تمضى مصر بوحدة الصف فيها . وقد كانت الرأسمالية ـ اذ ذاك ـ تنظر الى تنظيماتهم بعين الريب والحسد ، ولا جدال فى أن ذلك كان منهجا سليما ، فقد ضمن أمن الثورة الى حد كبير من دسائس خصومها فى البداية :

ولقد أوضح « عبد الرحمن فهمى » لمراسل جريدة الجورنال دى كير الفرض من تأليف النقابات على النحو التالى :

« الشركات تعد النقابات خصما لدودا ، وانى على العكس أرى ان النقابات لا تعمل ضد أصحاب الأموال ، بل هى العلاقة بينهم وبين عمالهم ، والا راحت ضحية سوء الظن بها ، وان من واجبات النقابات أن تهذب نفوس العمال وتطالب بحقوقهم المشروعة لأنها المرجع العادل والكفيل والضامن لحقوق العمال فهم اذا قارنوا حالتهم وحالة أصحاب رءوس الأموال وجدوا أنفسهم أمام قوة تستهتر بحقوقهم وتستبد بقوتهم وتستعبد ارواحهم ، فيتملكهم الحقد ، فاذا توصلت النقابة لتنظيم أمور العمال وتحديد علاقاتهم بأصحاب الأعمال فسيجد هؤلاء أنفسهم ازاء النقابة أمام قوة كافية تستطيع التفاهم بلا تحيز أو تزمت وسيجدونها (النقابة) عونا لهم على الراحة والسلام داخل المصانع وخارجها . والعكس بالعكس اذا لم يكن هناك وازع وموفق فالعامل يستمع الى الاصوات الخبيثة والضارة ..

ولقد اتم « عبد الرحمن فهمى » فى ١٧ من يوليه سنة ١٩٢٤ وضع مشروع قانون الاتحاد العام لنقابات عمال وادى النيل ، وكان ينوى التقدم للبرلمان المصرى لاعتماده رسميا لولا قتل السردار الذى أدى الى اعتقاله اثر مقتله . ولما أفرج عنه لبراءته ووجد أن الخطر سيظل يحدق به ما دام على رأس العمال ، اعتزل الحركة العمالية لاعتلال صحته .

الفصل الثامن

الوفد المصرى ونضاله السياسى
فى أوروبا

كان للوفد قبل انطلاق الثورة، خطة لتحقيق الاستقلال كماذكرنا تقوم على التعلل بالأمل من عرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح ، وكانت الخطة تستلزم ، كما كان متوقعا ، اذا ما سمح للوفد بالسفر ومنى بالاخفاق في ذلك — ان يحاول في الحالات العادية التفاهم مع بريطانيا على لون من المصالحة ، حول نظام الحكم في مصر في اطار الحماية .

ولم يكن الوفد قبل الثورة بهذه الخطة يملك وقتئذ غير أن يسلك ذلك الطريق لتحقيق هدفه ، فقد كانت خطته تنبع من الروح الذي قام عليه تشكيله ويتفق مع طبيعته ، لذلك ناضل نضالا شديدا لتنفيذها بمحاولة السفر الى أوروبا ، يحدوه الأمل ويدفعه الرجاء لتنفيذ الخطة بعرض القضية على مؤتمر الصلح ، فلما بلغ ذلك النضال حد التصادم بينه وبين الانجليز بما انتهى الى نفى سعد الى مالطة ، كان لزاما على الوفد أن يستجيب لهذا التحدى بمزيد من العزم فمضى مصرا على أداء رسالته ، فلما انطلقت الثورة ازداد اصرارا وتمسكا بالمطالب القومية ، ولكن كان بقاؤه يستلزم بالضرورة المرونة لكى يستطيع المضى برسالته .

أصبح الشعب سيد الموقف كله فى ظل الثورة ، وأصبح الوفد والانجليز خصمين لاسبيل بينهما للتفاهم ، فكان متوقعا اذن ألا تبقى خطة الوفد السالفة فتتطور .

كان لابد من أن يتطور لتصبح أقدر على الاستجابة للتحدى والى تطور الظروف فى ظل الثورة ، كان الوضع الطبيعى لسيرالأمور ، وقد أصبح الوفد فى مركز قيادة الثورة ، اذا ما أفرج عن سعد وصحبه ومنح الوفد حرية العمل السياسى ، ألا يصر الوفد على خطته السابقة ، ولا فى بعض تفصيلاتها ، فلا يتمسك حتى بالسفر لعرض القضية على مؤتمر الصلح فيبقى الوفد بين الشعب الثائر ليقود ثورته ، ولم يكن ثمة — اذ ذاك — من حرج عليه أمام الشعب ، اذا ما فعل ذلك برغم أنه كان قد ارتبط أمامه برغبته فى حل القضايا وعرضها أمام مؤتمر الصلح، فضلا

عما فى ذلك من روح ثورية يرحب بها الشعب الثائر فلا يجد فى طلبه مجالا للوم هذا فضلا عن ان الوفد وقتئذ لم يكن بعد قد واجه اخفاقا يلام عليه . أو يؤاخذ عليه بعد . ولكن الى أى مدى كان استعداد الوفد لأن يسلك هذا السبيل فى ظل الثورة ؟ لقد كان ذلك متوقفا على مدى ايمانه بالعمل الثورى حتى لا يجد فى ذلك ترددا ، فالى أى مدى كان نصيبه من ذلك ؟

كان الوفد يؤمن بمبدأ المصالحة التى قامت عليه خطته من قبل . ولكن نظرا لأن بناءه لم يكن كله من معدن واحد، اذ لم يكن كله على قدر واحد فى ذلك من حيث درجة الايمان فكان متوقعا أن يختلف فى درجة النظرة للعمل الثورى فاذا كان الايمان بالعمل الثورى لدى سواد الوفد متعذرا لم يكن التجاوب معه مستبعدا بل مرجحا بين أكبر العناصر قدرا من ذلك الايمان بالعمل الثورى .

كانت الاكثرية منذ انطلاق الثورة تؤمن بمبدأ المصالحة كأسلوب لحل القضية المصرية ، على أساس من السلبية المسالمة ، وكانت القلة وعلى رأسها « سعد زغلول » تدين بالمبدأ نفسه ولكن على أساس من ايجابية قوامها ايمان بالكرامة وبالحق والصمود من أجل ذلك والتشدد فى طلبه بما يدعم موقفها ويفرض احترامها على الخصوم ويعزز من ثم ذلك الحق.

وكانت الكثرة اذن لاتؤمن بالعمل الثورى : فمنها من دخل الوفد على تردد وريب من سلامة العاقبة ، ومنها أعضاء كانوا يؤمنون باستحالة الغلبة على بريطانيا ، وكانت القلة أقرب بمبادئها الى المفهوم الثورى فاذا كانت على استعداد وكفاية للسير فى اتجاه الشعب الثائر والترحاب بالثورة فلم تكن الكثرة كأمر طبيعى ، تميل الى ذلك فى الواقع ، ولكنها برغم هذا لم تكن ترغب فى الظاهر أن تنعزل عن الثورة .

لم يكن الوفد كله اذن على استعداد ، لأن يقبل الوضع الطبيعى عقب انطلاق الثورة كما كانت تتطلبه تلك من زعامتها لأنه لم يكن هيئة ثورية ، ولكنه كان على قدر من الاستعداد للتجاوب والترحاب مع العمل الثورى كما تجلى فى القلة وعلى رأسها سعد ، ولو كان سائر الوفد فى مستوى ذلك القدر من الشعور المتجاوب مع الثورة ، كما تجلى من هذه القلة ، لكان الموقف أقرب الى الحل بل وكان على الاقل مأمون العاقبة فى البداية والنهاية .

على أن ذلك الشعور حتى لو توافر بين الوفد فى بداية الثورة، فانه

لم يكن يفيد فى ترجيح قبول الوضع الطبيعى ، من الاحجام عن السفر والبقاء فى مصر عقب الافراج عن سعد مباشرة ، فلم يكن من طبيعة هذا الوفد أن يتحول من أسلوبه التقليدى السابق دفعة واحدة . فمع توافر ذلك الشعور بين الصفوة القيادية لم يحل ذلك دون مضيها وسائر أعضاء الوفد للسفر حيث مؤتمر الصلح .

كان هناك اذن عقب الافراج عن سعد وصحبه عامل أقوى مسيطر بين الوفد كان متغلغلا يستلهم وجوده من بعض مبادىء سياسية التفاهم والأمل والرجاء فى مؤتمر الصلح ويستمد قوته من الروح التى خلقها الافراج عن سعد وصحبه ، اذا ألقى ذلك الافراج فى روع الناس اعتقادا بأن بريطانيا قد سلمت ، حتى لم يعد الا أن يسافر الوفد لباريس لتحقيق الغاية من المؤتمر » ، وقد سيطرت الرغبة للسفر الى مؤتمر الصلح على القلوب وغدت تشعر فى ظلها بمزيد من الأمن والرجاء .

فمع أن سعدا كان لا يجفل عن العمل الثورى فقد كان لايزال يرى فى عرض القضية أمام مؤتمر الصلح طريقا يأخذه الأمل فى سلوكه والرجاء من وراء تلبية الدعوة الولسنية ولا يستبعد تحقيقها ، فأقل ما يحق له أن يرجو ألا تنقلب مبادىء ولسن عونا للأقوياء على الضعفاء وعقبة فى وجه المطالبين بالحقوق ، ولكنه لم يكن يرى بايجابية فى ذلك فى ظل الثورة فاذا لم يتحقق لا هذا ولا ذاك كان موقفه أمام الثورة . أقرب انجذابا اليها واذ ذاك لا يجد عناء فى التجاوب مع العمل الثورى .

وكان سائر الأعضاء يجفلون عموما من الثورة ، وكان طبيعيا أن يتعللوا اذن بالأمل والرجاء فى مؤتمر الصلح ولكنهم نظرا لانهم لم يكونوا فى كل ذلك على درجة واحدة كان متوقعا عند الخذلان أن يختلفوا فى الدرجة أيضا من حيث متابعة الثورة .

فمن هؤلاء فريق كان لا يؤمن بالثورة ، ولكنه كان لا يرى بأسا عند الخذلان فى مؤتمر الصلح امام العامل الشعبى فى مشايعة الثورة مضطرا ولو فى الظاهر عسى أن يجد فى ظلها حلا ، وخشية العزلة ونقمة الشعب حتى يتجلى الموقف .

ومن هؤلاء من كان قد دخل الوفد عن ريب فى القدرة على مواجهة بريطانيا ، وكان هؤلاء يعتقدون ان مؤتمر الصلح انما هو كل شىء وكل ما كانوا يطمعون فيه فى بساطة أن تخشى بريطانيا بعض المعارضة أو

المنافسة من بعض الدول فى المؤتمر ، فيستجيب الى بعض المطالب المصرية فلا بدع اذن الا نتوقع منهؤلاء غير العزلة عند الخذلان .

كان عرض القضية على مؤتمر الصلح يمثل العامل المسيطر على أعضاء الوفد عقب الافراج عن سعد وصحبه ، فمع انطلاق الثورة وانفساح المجال نحو مزيد من العمل السياسى بما يتيح الفرص لتغيير وجهة الوفد لم يثنه ذلك عن عزمه فى تفضيل السفر على البقاء بين الثورة فى مصر وان كان ذلك كله كان له مداه أمام العامل الثورى كما شرحنا .

وسيطر التعلل بالرجـــاء والأمل بالمؤتمر على كل العوامل ، فلم يحاول الوفد دراسة الموقف ، فاذا كان الأمل قد قاده والرجاء ، فلم يكن الوقت ليسمح بهذه الدراسة ، لذلك مضى الوفد ليشهد مصير مسعاه بالاخفاق ، وعلى يد بريطانيا فى ساحة مؤتمر الصلح .

ولم يكن الموقف كما انساق اليه الوفد ليحل بهذه البساطة التى سعى اليها ، فقد كان ذلك قد هيىء على نحو لا يجد فيه مأربا ، فلم تكن بريطانيا لتفرج عن سعد وصحبه الا بعد أن أخذت تطمئن على أن الموقف الدولى قد أصبح فى جانبها ، من الموافقة على ابقاء الحماية ، فقد اتخذت عدتها فى مؤتمر الصلح كى ترفض مطالب مصر ، لذلك لم تر بريطانيا فى الافراج عن سعد وصـــحبه ، ولا فى التصريح للوفد ولمن يشاء من المصريين بالسفر الى مؤتمر الصلح أى ضرر يلحق أهدافها السياســية بقدر ما يمهد ذلك لتعزيزها فى مصر .

كان من السهل على انجلترا اذ ذاك أن تحصل على اعتراف الدول ببقاء حمايتها على مصر وسط الصراع حول المطامع الاستعمارية فى مؤتمر باريس ، ولم يكن فى وسع ولسن مثلا أن يرفض ذلك ، لأنه كان اذ ذاك فى حاجة الى مساعدة بريطانيا لتقف بجانبه فى وجه مطامع فرنسا فى أوروبا ، وكان اليابانيون يطالبون ببعض المطـــامع فى الشرق الأقصى ، ونظرا لأن ولسن كان يزداد انعزالا فى المؤتمر فقد عارض أطماع ايطاليا فى فيومى مما نجم عنه انسحاب الوفد الايطالى من المؤتمر وعودته الى بلاده .

ولقد كان فى استطاعة بريطانيا أن تقنع ولسن بالاعتراف بالحماية البريطانية على مصر بأن تدخل فى روعه أنها تعتزم منح المصريين قسطا من الاستقلال الداخلى وأن المصريين يســـيئون فهم دعوته ويستخدمون

العنف للحصول على مطالبهم وغير ذلك مما يشبوه الثورة لديه ويستثير النقمة عليها .

فباسم الأمن وكراهية العنف وبعد الوعد بمنح المصريين قسطا آخر من الاستقلال الداخلي ــ ظفرت بريطانيا فعلا باعتراف الولايات المتحدة الأميركية بالحماية البريطانية على مصر ، فما كاد الوفد يصل الى مرسيليا حتى كانت الولايات المتحدة قد اعترفت بالحماية البريطانية على مصر فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل بعد وصول الوفد بيوم واحد !

ظفرت بريطانيـــا بذلك الاعتراف ، وكان باكورة انتصـــاراتها السياسية على الوفد والقضية المصرية ، وقد بادرت الى اذاعته فى مصر وأوروبا لتصدم به الوفد عند وصوله لتزعزع ثقته وأمله وتحرج مركزه بين مواطنيه !

كان من الطبيعى ، أن تتعرض سياسة التعلل بالآمال فى مؤتمر الصلح الى هزات تجد تجاوبا من الوفد ترده الى كثير من الواقعية .

كان التعلل بالأمل والرجاء فى مؤتمر الصلح من قبل يمثل عاملا مسيطرا دفع الوفد لحل القضية بالسفر حيث مؤتمر الصلح ، فماذا بقي بعد ظهور طلائع الخذلان فى الواقع المرير . ؟

لم يعد لدى الوفد غير العودة الى مصر الثائرة ، ولكن كانت النظرة الى هذه العودة تختلف بين أعضـــاء الوفد من حيث الدافع من العـودة بدافع الشعور بخيبة الامل والاستعداد لمكاشفة الشعب بالواقع بمايشير الى التهيؤ لاتخاذ الموقف السلبى الذى كان قد تجـلى بين كثرة لا تؤمن بالعمل الثورى وبين العودة بدافع الامل لنقل مركز المعركة فى ايجابية لقيادة الثورة فى مصر الثائرة ، وكان ذلك يتجلى بين قلة على رأســها « سعد زغلول » ، ولو كان الوفد بمقدار حرارة سعد واستعداده مع القليلين معه للتجاوب مع العمل الثورى لغدت العودة عاملا مفضلا آمنا بعد مواجهة الخذلان فى طليعته لانه كان يمثـــل ــ اذ ذاك ــ عودة الى الساحة الطبيعية للنضال الثورى . ولكن كيف تكون الحال والوفـد بوضعه فى أوروبا يختلف فى النظرة الى العمل الثورى ؟

كان الأمر فى هذه اللحظة بلا جدال فى حاجة الى تدبر ودراســة لاتخاذ خطة جديدة للعمل السياسى وتحديد مكانتها .

وبدأ التحفز للعودة الى ساحة الثورة فى ايجابيــة تتجلى بين أكثر

عناصر الوفد تجاوبا مع النضال الثورى ، فتجلى على يد سعد بارزا وكان من الطبيعى أن يبدأ مع هذا تدبير الخطة الجديدة فبدا لسعد أول وهلة أن العمل فى أوروبا لايجدى وأن العمل فى مصر أجدى وألزم (١) ٠

وكان ذلك منطقا يليق بالاستجابة للنضـــال الثورى فمقاومة من الانجليز فى مصر أمر خطير وأعضل من مقاومتهـــم فى أوروبا وألزم لمنح الثورة طاقات وتنظيمات أرقى فى الوقت الذى كان قـــد لمس فيه وقع الصدفة فى نفوس الكثيرين من زملائه ٠

ولم يلبث سعد وأصحابه أن أعادوا النظر فى الأمر كله بما انتهى الى خطة وسط ٠

كان العمل فى مصر أولى وأصوب ولا سيما أن بريطانيا كانت قد اختارت دخول المعركة مع الثورة فى مصر ذاتها ، ولكن ألا تعد عودة الوفد بعد أن بلغ أوروبا فى نظر الشعب خيبة أليمة لها عواقبها ؟

ولكن اذا كانت الأمة قد أودعت الوفد ثقتها فلم يكن متوقعا أن يكون شعورها بهذا عميقا وخطيرا اذ لم يكن سفر الوفد الا احدى وسائل معالجة القضية فاذا أخفق فما عليه الا أن يهيىء وسيلة أخرى ، وطالما كان ذلك الوفد فى طريق النضال الثورى فهو موضع ثقة الأمة ورضائها فى بداية الثورة ٠

والحق أن العودة لم تكن بالغة السوء ، ولكن كانت الخطورة التى كان مرجحا ان تحدثها هى أن تستطيع الدسائس استغلال تلك العـــودة بما يغرس بذور التفرقة !

على أن ذلك مع وضع الوفد ، وطبيعته ونظرة سواده الأعظم نحو الفكرة القومية كان أخطر ، فقد كان من المرجح أن تكون العودة سبيلا لظهور تيارات رجعية تنبعث من الوفد ذاته لتبث سمومها بين الشعب داعية للمصالحة ! فتتخذ بريطانيا ذلك متنفسا تستغله وتلحق بالوفد والثورة ضربات أخرى بما يسىء الى العلاقة بين القاعدة والقيادة ٠ وتهدد الثورة ٠

وكان البقاء فى أوروبا له ميزاته ، فقد تنفع الدعاية الاوروبية فى

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٧٠ ٠

اثارة المسألة المصرية بما يمثل لونا من الضغط على بريطانيا ويقوى مركز القضية فاذا لم تسلم فلاأقل من أنها لا تغالى فاذا جاء تحقيق الرجاء من الحكومات فذاك خير والا فمن الشعوب ، فهنـــاك الشـــعوب الاوروبية والشعب الامريكي ، ولكن البقاء مع ميزاته له مساويه وهو البعد عن مركز قيادة الثورة والموالاة المباشرة لها .

لم تسلم العودة الى مصر من نقائص ، ولم يسلم البقاء فى أوروبا من نقائص ، فلا كانت الخطة الأولى معقولة كلها ولا كانت الاخرى ، كان الامر يستلزم اذن خطة تجمع من فضائل الاثنتين .

لم يكن يمنع البقاء فى أوروبا تركيز العمل فى مصر والاعتماد عليه فى الدعاية الاوروبية ، فلم لا يتخذ خطة جديدة للعمل السياسى ؟

بهذه الخطة وجه سعد همه للأخذ بها على الفور فشاء تركيز العمل فى مصر مع البقاء فى أوروبا يدير منها معركة الثورة .

آثر الوفد اذن متابعة السفر الى باريس ليستقر فيها على مقربة من مؤتمر الصلح يعالج الأمر ما استطاع ، وهو بعد فى ريب من أن يكون هذا المؤتمر موضع رجائه ، فأخذ ينصرف تفكيره مع قيادة الثورة ، الى الدعاية لمصر وقضيتها حيثما وجد لهذه الدعاية سبيلا .

وحينما نزل أعضاء الوفد باريس ازدادوا اقتناعا بأن الدعاية غاية يستطيعونها لأنهم وجدوا وفودا غيرهم اتت من بلاد كان الاجنبى يحكمها كمصر ، ظنت ان حق تقرير المصير لا ريب فى الحصول عليه ، فسبقتهم الى باريس فأتت على مقربة من المؤتمر تبعث اليه بالمذكرات عن خقها بالاستقلال دون جدوى ولما حذا الوفد المصرى حذو هؤلاء فى البـــداية انتهى الى النتيجة نفسها .

رأى الوفد تنسيق الأعمال ، وتنظيمها فشاء أن يؤلف ثلاث لجان : الاولى للشئون المالية ، وقد انتخب لها رئيسا ، وأمين الصندوق « على سوارى وعبد اللطيف المكباتي » والثانية للنشر وكان اعضـــاؤها هم : « اسماعيل صدقى وعبد العزيز فهمى ، والدكتور حافظ عفيفى ، وويصا واصف » والثالثة كانت خاصة بالحفلات وكان اعضاؤها : « اســـماعيل صدقى وحسين واصف وجورج خياط » .

ولقد نيطت أعمال السكرتارية بمصطفى النحاس فكان واجبه أن

يدون كل ما يحدث فى الجلســات من مناقشــات وقرارات وقد تولى السكرتارية العامة « محمد بدر » وكانت مهمتها تنفيذ قرارات الوفد (١)٠

وانتخب الوفد بعض الفرنسيين للآلة الكاتبة والترجمــة ٠ وكان الوفد يفيد ممن يحتاج اليهم من العمــال من الوفد الامريكى كلما قضت كثرة الاعمال بذلك ، كما كان يستخدم الطلبة المصريين المقيمين بباريس فقد تطوع هؤلاء بعد وصوله لأداء كل ما يكلفون القيام به وكانت سكرتارية الوفد أشبه بهيئة تنفيذية ٠

ولقد كان فى طليعة أعمال الوفد أن كتب الى ولسن يطلب مقابلته لعرض القضية المصرية ، فعمد سعد الى زيارة رؤساء وفود الدول العظمى فى مؤتمر الصلح وترك لكل منهم بطاقته ٠

وأخذ يتصـــل بالصحف عن طريق الاحاديث ، فنشرت له جريدة الاكسلسيور (٢) صورة رئيس الوفد وحديثه مع البتى باريزيان التى نشرته مصدرا بصورته ، وكذلك نشرت جريدة الايكودى بارى حديثا آخر له وكانت تلك من الصحف الكبرى ، ونشرت جريدة الأومانتيه حديثا لرئيس الوفد فى عامودين مع تصديره بصورته ، وكذلك نشرت الصحف الايطالية أحاديث لمراسليها ٠

وكانت مهمة الوفد شاقة فى جو دولى كانت قد أصبحت الكلمة النافذة فيه للانجليز (٣) ٠

ونشط الوفد نشاطا كبيرا ٠

ففى ٢٨ من أبريل شاء أن يرسل طلبا الى مؤتمر الصلح مطالبا أن يسمح له بعرض أقواله وقد أعلن ثقته فى المؤتمر ، فكان فى نظره الهيئة الوحيدة المختصة بحل المسألة المصرية ٠ وقد طالب المؤتمر باسم الشعب المصرى السماح له بتقديم مطالب البلاد طبقا لقواعد الحق والعدالة ، ومع هذا لم يجد الوفد ردا مرضيا على ذلك ٠

وسعى الوفد فى سبر غور الدوائر السياسية المختلفة فكان يقابل كبار القادة والزعماء للاستعانة بهم فى تذليل الصعوبات القائمة أمامه ٠

---

(١) محمود ابو الفتح : مع الوفد المصرى ، ص ١١٨ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧ وما بعدها ٠

ولقد أقام فى ٣ من مايو مأدبة دعا اليها الصحفيين الأمريكيين والانجليز الموجودين فلبى الدعوة عدد من مراسلى الصحف والشركات وبعض المندوبين الصحفيين فى المؤتمر •

كما حضر بعض الضباط الامريكيين من الملحقين بوفد الصلح الأمريكى ، وكذلك بعض السوريين الذين بباريس •

وقد أقيمت المأدبة فى فندق الكونتننتال وهو من أكبر فنادق باريس فأسهم ذلك العمل فى التعريف بمصر الحديثة •

وقد تكلم فى الحفل « سعد زغلول » فأشار الى مصر ومطالبها وآمالها بايجاز ثم تكلم بعده « محمد محمود » وأخذ يعرض قضية بلاده •

واذا كان الوفد قد كرس جهده لكسب الأنصار من الرسميين وغيرهم ، فقد رأى مع هذا استكمالا لذلك أن يقدم لوحة أخرى من الدعاية حمى بها الثورة من نيل الخصوم بتوضيح مهمته وابرازها فى نطاق العمل من أجل الاستقلال ، أو الرد على الاشاعات المغرضة وغير ذلك بما لا يثير عليه الأعداء أو يسد الطريق أمام المتفاوضين •

فقد تحاشى فعلا الاتصال بالأشخاص الذين قد يثير الاتصال بهم الشك حول موقف الوفد ، فلم يتصل « بمحمد فريد » عندما تلقى خطابه فى أوروبا ، وقد كان معروفا بميوله نحو تركيا ، كما حاول عن طريق الصحف تحديد مهمته السياسية مجردة من التعصب ، أو المساس بحقوق أو أطماع الغير •

قال سعد فى حديث له مع جريدة ليكودى بارى :

« ان الحركة الحالية فى مصر ليست حركة دينيــة ، لأن المسلمين والأقباط متظاهرون معا ، وليست هى حركة عداء للأجانب ، ولا هى حركة دعوة الى جامعة عربية ، وان الوفد سبق فأبلغ المؤتمر ، أنه يقبل سلفا جميع القرارات التى تصدر بشأن حياد قناة السويس » •

ونشرت جريدة المورننج بوست تلغراف لرويتر هذا الحديث .

كما نشرت جريدة الديلى تلغراف تلغرافا بهذا المعنى من شركة الاكستشانج التلغرافية قال فيه سعد زغلول علاوة على ما تقدم : «ولا نبغى أن نتحد مع بلاد أخرى مجاورة لنا (١) » •

---

(١) المقطم عدد الخميس ٨ من مايو ١٩١٩ •

ولقد لقى الوفد متاعب جمة فى كسب الأنصار فى الدوائر السياسية الفرنسية ، فقد كان كلما سبر غور أحد الساسة الفرنسيين يلقى عطفا على القضية المصرية ولكنه لا يكاد يطلب عونه الأدبى حتى يعتذر متذرعا باتفاقية عام ١٩٠٤ والعهود التى قطعتها فرنسا لانجلترا (١) .

ولكن هذا لم يحل دون حصول الوفد على أنصار للقضية المصرية من أحرار الفرنسيين مثل أناتول فرانس وغيره .

ولقد نشط الوفد نشاطا ملحوظا عندما علم بما جاء فى معاهدة الصلح مع الألمان من نص كان يسىء الى مركز مصر السياسى .

ففى ٦ من مايو تسلم الألمان شروط الصلح فى قصر التريانون ، وكان المؤتمر قد قرر عدم اعلان المعاهدة الدولية حتى يجيب عنها الألمان ، واكتفى بنشر موجزها ،وكانت شروط الصلح تتضمن وقتئذ اعتراف ألمانيا بالحماية التى أعلنتها بريطانيا على مصر فى ١٨ من ديسمبر عام ١٩١٤ ، ولما بلغ سعدا ما ورد فى هذه المعاهدة نحو مصر ظهر الحزن والاكتئاب عليه وعلى من معه .

لاجدال فى أن الثورة كانت قد خسرت بهذا الاعتراف قوة لو كانت قد توفرت ، لغدت سندا قويا للثورة .

وقد أرسل الوفد الى مؤتمر الصلح احتجاجا فى ١٢ من مايو على البت فى أمر مصر بالصورة المتقدمة ثم أرسل فى ١٦ من مايو تلغرافا الى مجلس الشيوخ الامريكى فى واشنطن جاء فيه ما يأتى :

« ان الشعب المصرى ينظر الى عدالة ممثلى الديمقراطية الامريكية العظمى المكرمين وانصافهم لنيل أمانيه الوطنية فقد أبى مؤتمر الحلفاء والدول المشتركة فيه أن يطبق المبادىء التى دخلت الولايات المتحدة الحرب بغية تحقيقها » (٢) .

ولقد شاء الوفد فى أثناء ذلك أن ينظر فى أمر تعميم النشر واذاعة الدعوة المصرية فى مختلف البلدان ، فطرحت على بساط البحث فكرة ارسال وفد الى انجلترا ، على أن ذلك عموما لم يتم لما واجهه الوفد من عقبات التصريح بالسفر ، ففضل الوفد العدول عن ارسال أحد الى انجلترا مكتفيا بالمصريين المقيمين بها ، وأرسل لهم الأوراق التى تعاونهم فى حركة النشر وأمدهم بما يلزم النفقات .

---

(١) محمود أبو الفتح : مع الوفد المصرى ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ .

ولقد وضعت السلطات البريطانية أمام الوفد عقبات السفر ، فى كل مكان حتى السفر لأمريكا ، فلم يجد فائدة من متابعة السعى وراء ذلك ولا سيما أنه قد فتح أمامه باب جديد فيما يختص بالعمل فى أمريكا وهو تكليف بعض كبار الأمريكيين أنفسهم بالقيام بذلك .

وسلم الحلفاء مندوب النمسا شروط الصلح فى الثانى من يونيه فأرسل الوفد فى السادس من يونيه احتجاجا على المعاهدة النمسوية الى مؤتمر الصلح واحتجاجا آخر الى مجلس الشيوخ الأمريكى ورأى أن يعيد الفكرة فى شأن مقابلة الرئيس ولسن ، فبعث اليه بخطاب ، ولكن الرئيس اعتذر لأنه لا يجد فسحة من الوقت .

غير أنه اذا كان ولسن قد أصم أذنيه عن نداء مصر فان أحرار الأمريكيين قد أعاروها السمع ، فقد تمكن الوفد من معرفة بعض كبارهم وذوى النفوذ فيهم .

وقد زودهم الوفد بجميع المستندات والبيانات اللازمة ودرسوها بدقة ثم أخذوا ينشرون الدعوة لنصرة مصر بين من يثقون بمبادئهم من زملائهم فى مجلس الشيوخ .

كان طبيعيا بعد أن قرر مؤتمر الصلح شروط الصلح بما أيد بقاء الحماية البريطانية على مصر أن تسرع باستغلال ذلك الظرف لاستدراج الوفد للدخول فى مفاوضات علها تستكمل التأييد الدولى بالحصول على اعتراف المصريين بها بايجاد حل للقضية المصرية فى اطار الحماية ، ولم تشأ بريطانيا اغفال الموقف فتقدمت تطرق ذلك بالوساطة (١) يقول محمود أبو الفتح :

« فقد عرض البعض الوساطة بين الوفد والساسة الانجليز ، وليس فى استطاعتى أن أجزم : هل كان هذا العرض بايعاز أولئك الساسة أو بالتطوع ممن أرادوا التوسط ؟ والأول أرجح ، فقد كانت السلطات البريطانية تريد منع الوفد من الاستمرار فى حركته بأية صفة كانت .

وكان الوسيط فى المرة الأولى أحد السوريين المعروفين بباريس ، صباغ بك ، فقد جرت له مفاوضات مع السير ادوارد مالت ، لجمع بلفور وسعد زغلول فى مقابلة خاصة غير رسمية .

---

(١) محمود أبو الفتح : مع الوفد المصرى ، ص ١٥٠ .

وبلغ علمى أنه رئى فى بداية الأمر أن يقابل « الباشا » المستر بلفور ، ما دامت المقابلة مجردة عن كل صفة رسمية وما دام الطلب سيكون الاستقلال التام ، ولكن هذا الرأى استبعد بعد ذلك خشية أن تفسر المقابلة بأنها مفاوضة مع السلطات التى تدعى الحماية فهى تسليم بالحماية ·

وعرض المسيو بلينى أحد تجار الاسكندرية أن يخاطب المسيو فينزيلوس للتوسط بين الوفد والحكومة البريطانية ، ولكن الوفد رفض برغم كل الصدمات التى نزلت به وبرغم الشدائد التى لقيها من ألاعيب السياسة ، رفض الوفد لأنه رأى المفاوضة مع رجال الحكومة البريطانية نقضا للعهد الذى قطعه للأمة قبل سفره وانتهاكا لحرمة التوكيل الذى يحمله » ·

وترد المراسلات السرية بين « سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى » مع هذا بما يزيده ايضاحا ويكشف عن حقيقته ·

يقول « سعد زغلول » :

« قرأنا فى بعض الجرائد انه حصلت فيها مناقشة بشأن توسيط المسيو فينزيلوس بين الوفد ووزير خارجية انجلترا ، وحقيقة هذه المسألة هى أن بعض كبار اليونانيين عرض ان المسيو فينزيلوس يتوسط عند الحكومة الانجليزية فى اعطاء مصر حقوقها ، فطلب مسيو فينزيلوس أن أكتب له كتابا التمس وساطته لاعطاء مصر نظاما موافقا تحت الحماية ، ولما كان هذا مخالفا لمبدأ الوفد ولكرامة الامة التى يمثلها الوفد ولا يتفق مع الاجابة التى أجنبنا بها السير ونجيت عندما طلب منا أن نقدم طلبات بالكتابة فى دائرة الحماية كما تعلمون ، لم نر بدا من الامتناع عن الدخول فى مثل هذه المفاوضة (١) ·

وبهذه المناسبة يحسن أن نخبركم بأن رجلا يدعى «صباغ» كان موظفا عند المرحوم البرنس حسين ويظهر انه مخبر للانجليز فى باريس ، عرض وساطته بيننا وبين المستر بلفور ورغبنى أن أزور هذا الاخير بأن أكتب له ورقة زيارة واطلب فى الوقت نفسه بوساطة سكرتير الوفد مقابلته وذلك عقب أن قرر المؤتمر شروط الصلح التى تضمنت ماتعلمونه فى مسألة مصر وكان هذا عند المقابلة بينه وبين «اسماعيل صدقى باشا وحسن واصف باشا » على غير علم منا ، فلعدم الثقة بهذا الرجل من

---

(١) دكتور محمد انيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٧٠ ·

جهة ولارتيابنا فى هذا الاتفاق وعدم الوقوف على السر فيه ، ولأن طلب مقابلة مثل هذا الوزير عقب قرار مؤتمر الصلح لا يتفق مع طلب الاستقلال التام ، وللمحافظة على مبدأ الوفد وكرامة الأمة قرر الوفد رد هـــذه الوساطة » ٠

ومن هذا الحين غضب « اسماعيل باشا صدقى » وصار يبذل جهده فى عرقلة مساعى الوفد حتى اضــطر الوفد أن يخفى عليه أكثر أعماله خشية أن يذيعها هو ومحمود أبو النصر الذى كان شريكا له فى جميع هذه التصرفات ٠

ولقد حرص الوفد على عهده على التمسك بمبادئه ، ومضى فى رسالته فشاء توسيع نطاق نشاطه بما يعزز القضية المصرية ، ولقــد وردت على الوفد خلال شهر يونيه بيانات ومحاضر رسمية لبعض الفظائع التى وقعت فى البلاد ، فاستخرج الوفد عدة صور على الآلة الكاتبة من بعض شكاوى ومحاضر رسمية وأرسلها الى مؤتمر الصـــلح فى ٢٨ من يونيه مشفوعة ببيــان واف بمــا حوته ، وقد أرسلت الى الهيئات النيابية وكانت هذه الاوراق كلها ٠ مذيلة بصور فوتوغرافية لحــوادث جلد ، وكان من هذه الاوراق عريضة من عمدة العزيزية ومن عمدة البدرشين والتماس من بعض أهالى نزلة الشوبك بالعياط وعدة عرائض ومحــاضر بوليس وتلغرافات أخرى مســـتخرجة من دفاتر بوليس الوايلى عن نحــو ثلاثين من حوادث اعتداءات وسرقات وقتل وشــكاوى أخرى وتقارير ومذكرات عن احداث اعتداءات ارتكبها الانجليز ٠

وكانت معــــاهدة الصلح قد قدمت لمجلس النــواب الفرنسى الذى انتخب لجنة من ستين عضوا لفحص المعاهدة ، وقد أرسل الوفد فى ٦ من يوليه جميع البيانات الخاصة بالقضية المصرية مرفقة بخطاب ثم قدم فى ٢٦ من يوليه مذكرة جديدة لمؤتمر الصلح ، كمـــــا رفع الوفد فداء الى مجلس النواب الفرنسى فى ٣١ من يوليه (١) وكذلك أرسل نداء مماثلا للنداء المتقدم الى البرلمان الايطالى فى ١٤ من أغسطس ٠

على ان الوفد لم يستطع ــ وما كان يواجهه من صعوبة ــ أن يمضى فى رسالته طويلا حتى كان اخفاقه أمام مؤتمر الصلح قد بعث بينه يأسا كشف عن استعداد كامن للتفكك ، ومن ثم التردد فى المضى فى رسالته فى وحدة متماسكة ، ولقد بدأت طلائع ذلك من لفيف كانوا أبعد العناصر ميلا نحو العمل الثورى ، وأكثرهم رهبة من قوة بريطانيا ، بل وامعانا فى

---

(١) محمود أبو الفتح : مع الوفد ، ص ١٦٧ ٠

الأخذ بالمصالحة مع بريطانيا ، ولا سيما بعد الخذلان أمام مؤتمر الصلح محط الرجاء .

فمنذ اعتراف معاهدة فرساى بالحماية البريطانية على مصر بدأ اليأس يدب فى قلوب هؤلاء من أعضاء الوفد ومستشاريه بما دفع بعضهم الى اثارة الانفصال عنه .

« فعزيز منسى » مستشار الوفد قدم استقالته ، وقال فى صراحة : « انتهت مهمة الوفد » « وحسن واصف » أحد أعضاء الوفد ، كان على مثل ذلك الرأى وخرج ثم عاد « على شعراوى » الى مصر ، ولكنه انعزل بعد ذلك عن الوفد وكل نشاط سياسى ، وكان أخطر من خرج من الوفد هما : « اسماعيل صدقى ومحمود أبو النصر » وقد كان خروجهما يعصف بوحدة الوفد .

كان « اسماعيل صدقى » على خلاف مع الوفد كما تبين من قبل ، ماضيا فى بذل جهده لعرقلة مساعيه ، فكان أقرب ميلا للتردد فى التعاون مع الوفد عن زميله محمود أبو النصر .

وما ان منى الوفد بالخذلان أمام مؤتمر الصلح ، حتى كان قد جمعهما اعتقاد ، قطع الامل والرجاء فى متابعة الوفد ، وكان طبيعيا أن يكون صدقى لنقمته على الوفد أكثر استعدادا للسعى الى هذا ، فقد اعتقد الاثنان أن الموقف ، بعد موافقة مؤتمر الصلح على الحماية البريطانية على مصر يحتم على الوفد أن يسعى للتفاهم مع الانجليز ، ولما كانت بريطانيا فى رأيها قد أعلنت عن ايفاد لجنة ملنر بوضع نظام أساسى فى اطار الحماية ، فمن واجب الوفد أن يسعى لمفاوضتها .

على أنه برغم هذا لم تؤثر حركة المتمردين على موقف الوفد فقد سيطر على سائر أعضاء الوفد منذ أن لاحت دلائل الخذلان أمام المؤتمر شعور بالولاء نحو الارادة الثورية وان اختلف ذلك فى مستواه بين الاعضاء على نحو تمثل فى أعلى مراتبه بين القلة .

ولم يكن مصدر هذا الولاء بين الكثرة فى معظمه الجبر والاضطرار أمام انطلاق الثورة ، بقدر ما كان ذلك أيضا راجعا أساسا الى قدر من الاستعداد الكامن للتجاوب مع اتجاه الثورة ، قدرا شحذه الخذلان أمام مؤتمر الصلح فلم يستطع أن يفقدهم الأمل فى ايجاد حل للمسألة المصرية بطرق أخرى .

فقد خرج أعضاء وتمرد آخرون بمحض ارادتهم لا لشىء الا لفقدانهم

الأمل فيما اعتبروه محط رجائهم الوحيد فى حل القضية المصرية وهـــو مؤتمر الصلح ، ثم رفضوا الاستمرار مع الوفد لعدم أى استعداد للتجاوب مع العمل الثورى أصلا .

ولقد استمرت الكثرة اذن على ولائها للثورة فى اطار من ذلك القدر من الاستعداد للتجاوب معها ، ولكنها كانت على موعد مع التمرد على العمل الثورى عندما يتوافر لديها هذا الاستعداد .

كان ذلك قدرا محدودا لم يستغرق بعد استهلاكا ، والثورة لاتزال فى بدايتها لم تثر تطوراتها فيهم النزعات التقليدية .

ولقد كان التشيع لدى هؤلاء الأعضاء نحو الثورة فى البداية أقرب ، لأنه كان لا يزال ابعد من أن يستثير نزعاتهم الطبقية ، أو يتجلى بحيث يبدو ماسا بمصالحهم الذاتية ولا كان قد اســتثار فيهم الحقد الشخصى على سعد وغيره فضلا عما كانوا يحظون به من فئة كانت على قـــدر أمثل من الوعى القومى السياسى وان لم يسم بينهم الى مســتوى العقيـــدة الثورية .

والحق ، أن بقاء الوفد فى الخط الثورى أساسا كان متوقفا على مدى مستوى الاستعداد للتجاوب مع الثورة ، ولما كان ذلك لا يتمثل فى كفاية الا بين القلة وعلى رأسها سعد فقد كانت عصمة الوفد من الانحراف فى استناده على تأييد الشعب ثم فى مثاليته الواقعية .

آثر « اسماعيل صدقى ومحمود ابو النصر » التمرد على الوفد ومضى الوفد مضطلعا برسالته برغم الخذلان أمام مؤتمر الصلح فى غير تراجع ، يحدوه الأمل والرجاء فى المستقبل دون أن يعبأ بتمردهما ، ولم يكن متوقعا بهذا أن يستجيب لهما الوفد لأنهما كانا يطلبان منه أمرا ينقض استعداده وهدفه ، فقد دعواه للخروج عن حدود الوكالة التى كان يستمد منها قوته ، بمفاوضة بريطانيا فى يونيو ، خارجا على المادة الخامسة من قانون الوفد ، ومن ثم كان الطرفان قد اســتحالا خصـــمين لا سبيل بينهما للتفاهم . ولم يعد الا حادث يفجر سورة الغضب بين الجانبين فيكون الانفصال .

ولقد توافر ذلك الحادث حول خلاف الطرفين بشــأن موضـوع نشر فظائع القوات العسكرية البريطانية فى مصر فى حوادث ، الشوبك والعزيزية ولما كانت تفاصـيل هذه الحوادث قد وصــلت كاملة من

« عبد الرحمن فهمى » مدعمة بالصور والمستندات الى الوفد فقد ناقشها الوفد مرات وكان « اسماعيل صدقى ومحمود ابو النصر » يعترضان على النشر ويقول « محمود أبو النصر » : « ... اذا كان نحس الطالع قد قضى على أمتنا التعسة بأن تقف وحدها ازاء تلك الدولة العاتية وجها لوجه وقضى بأن تقف هى موقف القابض على أزمة أمورنا .. فهل من المصلحة وحسن التدبير أن نجاهرهم بالعداء وأن نعمل على توسيع الهوة بيننا وبينهم فى الوقت الذى نرى جيشهم متغلغلا فى أنحاء البلاد ؟ » (١) .

رفض الوفد الأخذ بوجهة النظر هذه ومضى فى خطته ولم يأخذ بسياسة التفاهم مع الانجليز ، ثم نشر الفظائع البريطانية فى مصر على العالم فتخلف « اسماعيل صدقى ومحمود ابو النصر » عن اجتماعات الوفد ففصلهما ومن ثم عادا الى مصر .

مضى الوفد صامدا أمام هذه العاصفة ولم تشغله عن نضاله السياسى فى أوروبا .

ففى الثانى من أغسطس أقام الوفد مأدبة كبيرة اختار لها فندق كلاردج أهم فنادق باريس حضرها لفيف من كبار الكتاب الفرنسيين منهم فكتور مرجريت وبلانشيه وبول برولا وغيرهم ، وقد أرسلت جريدة الطان مندوبا عنها ، وكذلك أرسلت صحف الجرنال والبتى باريزيان ، والديبا ، والبتى جورنال ، والفيجارو والايكو وبارى ميدى وغيرها من المجلات ، كما حضرها عشرات من الصحفيين من أمريكيين وانجليز وايطاليين واسبانيين وغيرهم .

وقد ألقى فى هذا الحفل العظيم « سعد زغلول » خطابا تضمن معانى ضخمة قال فيه :

ان مؤتمر الصلح قد أيد حماية انجلترا على مصر ومع هذا فاننا لا نيأس فان تثبيت المؤتمر للحماية لا قيمة له فى نظر القانون الدولى اذ ينقصه عنصر جوهرى هو موافقتنا ، وهذه لن تنال أبدا ، فان ثقتنا بأنفسنا وباتحاد قلوبنا كلها ونبالة قضيتنا وبساطة برنامجنا وايماننا بروح الحرية فى الديمقراطيات تجعلنا نرجو تحقيق أمنيتنا الوطنية (٢) .

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٣٧ .
(٢) محمود أبو الفتح : مع الوفد ، ص ١٧٣ .

وتزيد المراسلات المصرية بين سعد و « عبد الرحمن فهمي» ايضاحا فيقول سعد فى تقريره رقم ١٣ فى كتابه الى اللجنة المركزية للوفد المؤرخ ٤ من أغسطس سنة ١٩١٩ :

« أقام الوفد ظهر ١٢ من أغسطس الجارى مأدبة بأوتيل جلاريدج دعا اليها كثيرا من أرباب الجرائد الفرنسية والايطالية والامريكية والانجليزية ومن أعضاء مجلس النواب والشيوخ ومن مشاهير الكتاب وأساتذة الجامعات وبعض قدماء الوزراء والنواب والشيوخ وألقى فيها الرئيس خطبة وجيزة وخطب « ويصا واصف » خطابا طويلا وكذلك « محمد باشا محمود » من أعضاء الوفد والمسيو أوجاجنير ثم وزير البحرية سابقا والعضو فى مجلس النواب حاليا والمسيو فكتور ماجريت من أشهر كتاب فرنسا وتلا كلمة من قلم المسيو أناتول فرانس أشهر كتاب فرنسا فى الوقت الحاضر والمستر جيبونز الصحافى الامريكى الشهير والمسيو... ممثل الصحافة الايطالية وكان الحاضرون يزيدون على ١٥٠ مدعوا وكان للخطابات التى ألقيت تأثير عظيم فى السامعين وهتف لها الحضور هتافا عظيما مرات كثيرة ونرسل لكم نص خطبة الرئيس » (١) .

ولقد أرسل الوفد فى ٤ من أغسطس تلغرافا الى المستر هندرسون بصفته رئيس المؤتمر الاشتراكى الدولى بلوسرن منتهزا فرصة انعقاد المؤتمر المتقدم للنظر فى عدة مسائل تهم العالم الاشتراكى ومنها محاولة رفع الظلم الذى نشأ عن التسوية الخرقاء فى مؤتمر الصلح .

ولقد كان لنداء الوفد لمؤتمر لوسرن أثر حسن بالنسبة للقضية المصرية ، فقد فضح السياسة الاستعمارية شر فضيحة ، وأظهر ماأصاب مصر من شرها فى أربعين عاما .

وأرسل الوفد مذكرة مطولة الى مؤتمر لو سرن أيضا عن المسألة المصرية ، وكان من نتائج جهاد الوفد فى فرنسا ارتفاع الاصوات بالدفاع عن مصر فى البرلمان الفرنسى .

ولقد وفق الوفد فى النهاية الى العثور على المستر جوزيف فولك ليتولى الدفاع عن القضية المصرية فى أمريكا وكان هو يمثل فى الولايات المتحدة أعظم مصدر للمسائل الدولية القانونية ، وكان رأيه محترما فى

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٦٦ .

الدوائر السياسية والنيابية ، فقد كان بالفعل . مستشاراً قضائيا لوزارة الخارجية الأمريكية واستقال فى أثناء الحرب ولقد مثل الرجل نظرا لعدالة مطالب مصر وشرعيتها تولى الدفاع عن قضيتها فعمد لذلك الى تنظيم حركة دعاية عن طريق الصحف لاعداد العقول لتلقى القضية المصرية وطرح تفاصيل القضية أمام لجنة الشئون الخارجية .

وحدث أن نشر المستر لندسى الذى كانا قائما بأعمال سفارة بريطانيا فى أمريكا بيانا بخس فيه حق المصريين فى الاستقلال وأنكر عليهم جهودهم فى الحرب فانبرى له المستر فولك بالرد والاقناع .

وازداد صوت مصر وانتشر على ألسنة الخطباء والصحف بما مهد السبيل لمحمد محمود ليسافر لخدمة القضية المصرية فى أمريكا ونقرأ فى التقدير رقم ١٦ من باريس فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩١٩ ما يأتى :

« ان الأخبار التى ترد الينا من أمريكا تفيد أن المسالة المصرية اخذت من عقول الأمريكيين مأخذا عظيما وصادفت كثيرا من ذوى النفوذ الواسع الذين شرعوا فى ترويجها والانتصار لها وان وكيلنا هناك قدم طلبا للجنة الامور الخارجية بمجلس السناتو بالاعتراف باستقلال مصر التام وبان تسمع أقواله أمام اللجنة شفهيا ، وأن هذه اللجنة قررت سماع أقوال الوكيل المذكور كما قررت سماع اقوال غيره من ممثلى بعض الشعوب التى التجأت الى هذا المجلس كاليونانيين والايرلنديين وغيرهم ، وقد نشرت جرائد باريس هذه الاخبار عن مكاتبها وكثير من نواب الامة الفرنسية وجرائدها المهمة وعدنا بالمرافعة عن القضية المصرية فى مجلس النواب وبين أعمدة هذه الجرائد ، وابتدأ بعضها فعلا بالكلام عن مسألتنا وخصوصا جريدة الجورنال (١) .

وكذلك وجدنا من أرباب الوجاهة والنفوذ الانجليز من اخذ على عاتقه الدفاع عن استقلال مصر واذاعة هذا الدفاع بين ذوى المكانة من أبناء جلدته وهو مشغول الآن بذلك وستظهر نتيجة عمله عما قريب ،

وبالاجمال فان حالة القضية المصرية الآن أحسن بكثير من ذى قبل ، والاحوال العمومية بين الدول تساعد كثيرا على ظهورها وبلوغها المحل الذى تستحقه من عناية الرأى العام الأوروبى بها خصوصا متى كانت الأمة المصرية مستمرة على التضامن بين أفرادها والاتحاد بين

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ .

عناصرها وعظيم الثقة بمستقبلها وشديدة الوطأة على الخائنين والمترددين» .

وتتابع التقارير لتروى سير النشاط السياسى فى أمريكا واهتمام رجال السياسة فى امريكا بالقضية واهتمام الجرائد الفرنسية بشئون مصر الى أن يزيد التقرير رقم ١٨ المسألة وضوحا ٠

فيقول سعد موجها الخطاب الى « محمود سليمان » :

« باريس فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٩١٩ ٠

لقد فتح الله أبواب الرجاء فعلا أمام ظلامة مصر فى الرأى العام الاوروبى والامريكى ، وأصبحت القضية المصرية بين أيدى رجال من الامريكان والانجليز والفرنسيين قادرين على أن يستدروا عطف الامم على مصر ٠٠٠ ولا يخفى عليكم النتائج العملية الحسنة التى تترتب على تصريح السناتو الامريكانى بأن معاملة مؤتمر السلام ايانا لا تنطبق مع الاغراض التى من أجلها خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب ، ولا على القواعد التى جعلت أساسا للهدنة والصلح فانكم تعلمون حق العلم بأن حياة مصر فى بقاء المسألة المصرية دولية والبعد كل البعد من أن تكون مسألة داخلية بين بريطانيا العظمى ومصر ٠٠٠ » (١) ٠

ولم يمض الموقف متجمدا دون بارقة أمل ، فقد أعلن وزير الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكى فى أغسطس عام ١٩١٩ بمناسبة عرض معاهدة الصلح أن مصر من الوجهة السياسية ليست تابعة لتركيا ولا بريطانيا ، ويجب أن تكون صاحبة الأمر فى تقرير مصيرها ، وقد انتهت مناقشات مجلس الشيوخ الامريكى حول معاهدة الصلح بعدم ابرامها ، فكان هذا المصير صدمة لهذه المعاهدة اذ افقدها قوة لتخلى أوروبا عن ضمان تنفيذها كما كان كسبا دوليا لمصر فقد كانت هذه المعاهدة تعترف بالحماية البريطانية عليها ٠

وبالرغم من أن ذلك لم يكن من شأنه أن يدفع القضية نحو النجاح لما توالى عليها من صدمات من قبل ـ كان لهذا النبأ وقعه الحسن بين الوفد ٠

على أن هذا كله برغم أنه لم يأت بنتائج ايجابية كان من شأنه أن يزيد بريطانيا امعانا بأن سياسة التجاهل لا تجدى وأنه لابد من تسوية للموقف ٠

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ٠

ومع هذه الانباء التى كان تشيع الثقة فى مصر كان سعد يوجه الثورة كى يبقى على تماسكها الثورى ، وكانت تصله من « عبد الرحمن فهمى » ما يشبع الامل والثقة وما يدعو للصمود والارتفاع لمستوى العامل الشعبى المسيطر اذ ذاك فى مصر .

وكان الوفد حريصا على احاطة اللجنة بكل تفاصيل الأحداث الخارجية للقضية وما يكتب فى الجرائد الانجليزية وغيرها عن مصر واحداثها مع تتبع للتيارات السياسية ، وكانت الأيام تقترب من موعد حضور لجنة ملنر الى مصر . فلما جاءت اللجنة أخذ يتابع أحداثها بالتوجيه .

وبينما كان الوفد يؤدى رسالته السياسية فى أوروبا كانت الثورة فى مصر مستمرة صامدة أمام لجنة ملنر بمقاطعتها بفضل نشاط الجهاز السرى للثورة الذى كان يتلقى أوامره من سعد فى مقامه فى باريس وبالرغم مما بدا من لجنة ملنر فى مصر من اتجاه يقضى بضرورة حضور الوفد الى مصر لمفاوضة اللجنة ، فقد كان الوفد يرفض السفر لمفاوضة هذه اللجنة فى مصر حتى لا يفسر ذلك باعترافه بها وكانت المفاوضة متوقفة على اعتراف ملنر بمبدأ الاستقلال .

كان الجو الدولى يوحى بأن القضية قد أصبحت مسألة ثنائية بين مصر وانجلترا بعد اعتراف المؤتمر والمانيا ومؤتمر الصلح مع النمسا بالحماية كما بينا ، حتى لم يعد أمام الوفد لحل القضية غير الالتجاء الى المفاوضة طالما كانت لا تمس حقوق مصر التى وكل للدفاع عنها .

كان ملنر قد أبدى رغبة فى المفاوضات مع عدلى كما سيجىء بيانه وما لبث أن سافر الى باريس ليعرض آراءه على سعد ، ومن ثم بدأت المفاوضات بين سعد وملنر لتكون نهاية دور الوفد السياسى فى أوروبا وبداية عهد جديد فى مجرى الثورة .

الفصل التاسع

معركة الحماية في مصر
واستمرار الثورة

فرضت بريطانيا الحماية على مصر ، اتصحت عزيمتها ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، على الابقاء عليها وتثبيتها .

وكان ذلك مرهونا كي يتحقق ، أن تصبح الحماية مشروعة ثمرة باعتراف دولى وقبول من الشعب المصرى .

وانبعثت مصر ، وصحت على نداء الحرية للشعوب ، فحاولت التفاهم حول المسألة المصرية فوجدت عنتا من بريطانيا انتهى بتصادم بنفى سعد وصحبه ثم ثورة الشعب على الحماية والاحتلال .

اصبح على بريطانيا لكى تحقق هدفها ان تنجح فى نيل اعتراف الدول بالحماية لتستكمل ذلك بحصولها على موافقة الشعب على الحماية .

وبينما كانت بريطانيا تحاول كسب الدول بجانبها ، رأت تحقيقا للهدف الثانى التفكير فى ارسال لجنة ، ظاهرها التحقيق فى أسباب الثورة ، وباطنها استدراج المعتدلين للتفاهم حول نظام الحكم فى اطار الحماية ، فتنال بهذا موافقة الشعب .

كانت محاولة بريطانيا الاولى ايسر منالا ، فقد كان ذلك من الممكن بفضل نفوذ بريطانيا الكبير فى مؤتمر الصلح ، وبفضل قدرتها على المساومات الدولية الاستعمارية ، ثم بالضغط على الدول الصديقة وغير ذلك من الوسائل ، ولكن لم يكن ثمة سبيل لتحقيق الهدف الآخر ، بما يستكمل مسعى بريطانيا الاول الا بالسيطرة على الثورة حتى ينفتح أمامها السبيل ، فترسل لجنة ملنر لتؤدى أغراضها .

ولم تكن السيطرة على الشعب الثائر امرا سهلا كسهولة سيطرة بريطانيا على المجال الدولى ، فالمصريون — اذ ذاك — سادة الموقف فى الداخل .

فبالرغم من محاولات بريطانيا التى اختلفت بين سياسة الشدة فى البداية وتطورت بعد ذلك الى سياسة اللين الممزوج بالشدة لامتصاص حرارة الثورة ، ولتهيئة الخواطر لقبول الأمر الواقع ، لم

تستطع مواجهة الموقف ، فقد استمرت الثورة ، وان تطورت أساليبها مع تطور سياسة الشدة الى اللين ، نحو المسألة الايجابية ، فقد تجلت الثورة فى وحدة متماسكة فى معركة الحماية بما أفسد على بريطانيا خطتها •

حاولت بريطانيا فى البداية السيطرة على الثورة فأغلظت عليها فى ضراوة ، ولكنها زادت اشتعالا استجابة للتحدى القائم ، فالاسباب التى كانت قد اتبعتها لم تكن قد عولجت وكانت لا تزال قائمة •

كان متوقعا الا تمضى بريطانيا بهذا الوضع صيانة لمصالحها وأهدافها بغير أن تجد حلا تسيطر به على الثورة وتعيد به الهدوء الى مصر ومن ثم تتمكن من تحقيق غرض لجنة ملنر •

ومنذ أن أخذت بريطانيا تطمئن الى الاتجاه الدولى نحو تأييـــدها فى اقرار الحماية على مصر ، أخذت تزيد اهتمامها لاستكمال ذلك ، بالسيطرة على الجبهة الداخلية كما تقدم آنفا •

ونظرا لسابق فشل بريطانيا فى السيطرة على الثورة ، فقد اقتضاها الموقف السير بخطة وسياسة جديدتين من اجل ذلك •

وبريطانيا حينما تريد ان تغير سياستها تغير ممثلها فى البلد الذى تريد أن تغير فيه هذه السياسة ، وبهذا نقلت ونجيت من مصر وأحلت مكانه اللورد اللنبى • ومنحته كل السلطات للتصرف فى الموقف بمـــا يحقق الهدف البريطانى •

كان اللنبى رجلا عسكريا من شانه أن يأمر فيطاع ، فلما جاء مصر وجد نفسه أمام سياسة ضيقة يكتنفها غموض •

فبدلا من أن يحاول اصدار الأوامر معتمدا على قواته فيتلقى منها الطاعة كان عليه ، بعد أن وجد فى ذلك سبيلا لا يحقق الهدف ـ أن يقنع ثم يحاول التوفيق •

ولم تكن له سياسة ، ولكنه كان مرتبطا بسياسة مجلس الوزراء البريطانى وقد استطاع تفسيرها ، وبالتدرج تمكن أن يستخلص لنفسه مبـــادىء خاصــة أرشدته فى مســلكه نحو الثورة بما يحقق الأغراض البريطانية •

كان هدف اللنبى ، فى اطار هدف بلاده ، السيطرة على الثورة واعادة الهدوء ، بما يمهد السبيل لقبول الشعب للحماية ، فشاء بلوغ ذلك ، ولكن مع تغيير فى طبيعة الوسيلة، بعد أن رأى أن القوة ليست وحدها

القادرة على حل المشاكل ، فلم يكد يجرب الاستمرار فى الشدة حتى أيقن بإخفاقها ومن ثم كانت الخطة الجديدة تقوم فى ظاهرها على احترام عواطف الشعب ومحاولة كسب ثقته ، وباطنها استدراجه لقبول الحماية البريطانية ، خطة أساسها المزج بين الشدة واللين .

ومنذ أن أخذ اللنبى يفكر فى الافراج عن سعد وصحبه بعد تدبر الموقف كان يريد التفكير فى تنفيذ هذه الخطة فقد شجعه على ذلك أن بريطانيا منذ بداية شهر أبريل قد وثقت من وقوف المجال الدولى بجانبها، فقد أكدها ذلك الاعتراف من ولسن بالحماية ، وكما سبق أن رأينا ، لم يعد اذن اطلاق الحرية للوفد فى رأى بريطانيا ليسافر حيث شاء ، لم يعد يضر أهدافها فى شىء فهو فى ظاهره محاولة تسترضى العناصر الثورية وتقلل من غليان النفوس بما ينتهى الى حرية الادارة البريطانية فى مصر من ناحية أخرى ، فالحجر عليه كان سبب استقالة الوزارة ، وهو سبب الاحجام عن تأليف وزارة جديدة بل وسبب مباشر لغليان النفوس .

وشاء اللنبى فى بداية الخطة الافراج عن سعد وصحبه فأرسل فى ٣١ من مارس عام ١٩١٩ ينصح باطلاق سراحهم والسماح لهم بالسفر الى أوروبا ، كما أسلفنا ، وقد جاء وقع هذه النصيحة على بريطانيا صدمة كبيرة وتعرض اللنبى من أجلها للنقد الشديد والمعارضة .

ولما كانت بريطانيا مزمعة فى بداية أبريل ارسال لجنة يرأسها ملنر كلجنة تحقيق اقترحت على اللنبى الاعلان عن ذلك كبديل لاقتراحه السابق بالافراج عن سعد وصحبه ، فرفض اللنبى أن ينثنى عن غرضه ، وشاء تأجيلها لأن زيارة اللجنة ، ستكون أجدى فائدة فيما بعد (١) بعد أن يستتب الأمر .

لم تجد بريطانيا مناصا من الاذعان للنبى ، فقد منحته كل السلطات ليتصرف فى الموقف . فأفرجت عن سعد وصحبه ، كما قلنا منذ أن كانت قد بدأت خطة اللنبى الجديدة فى مصر لمحاولة السيطرة على الموقف الداخلى واعادة الهدوء تمهيدا لقبول الأمر الواقع والدخول مع مصر فى صراع حول الحماية .

ولقد بدت بريطانيا بهذا العمل فى ظاهره أمام المصريين ، وكأنها كانت حريصة على احترام الشعور القومى واتباع العلاقات الحسنة بينها !! وشعر الناس بنشوة النصر ، يقول الدكتور « محمد حسين هيكل » :

---

(1) Navel, allenby in Egypt, P. 58—59.

« لم يكد هذا الاعلان يذاع فى العاصمة وفى الاقاليم حتى شعرنا معشر الشباب يومئذ أن السياسة البريطانية أذعنت لما نريد ، فكنا نقابل بعضنا بعضا للتهنئة بهذا الانتصار العظيم » (١) ٠

وأخذت الناس نشوة الأمل حتى داخل الكثيرين منهم الاعتقاد بأن حقهم فى تقرير المصير لم يعد يستدعى عناء أكثر من توجه رجال الوفد للمطالبة به أمام مؤتمر الصلح وقد عدت الأمة ذلك الافراج عن سعد وصحبه نصرا سياسيا بلغته فى ميدان الكفاح ، فتعددت مظاهرات الفرح والابتهاج يومى ٧ ، ٨ من أبريل وكانت المظاهرات فى الثامن من أبريل أعظم شأنا فقد اشتركت فيها طبقات الشعب كلها واهتمت الصحف بافراح الشعب تعبيرا عن شعوره نذكر منها جريدتى الاهرام والمقطم وقد تجلى ذلك الاهتمام على صفحات المقطم تحت عنوان (٢) :

« المظاهرات النظامية الكبرى » وكانت تضم مندوبين عن جميع الطبقات وجوانب الشعب فتقول : « بأنه قد تم الاتفاق بين منظمى المظاهرة والبوليس على سيرها » ٠

وقد نشرت هذه الجريدة مقالا تحت عنوان مظاهرات الفرح والسرور فى العاصمة أمس (٩ من أبريل سنة ١٩١٩) فقالت : انها كانت مظاهرات فرح وسرور ممزوجة بالرقة واللطف ٠ وقد ذكرت فى تلك المقالات مواكب الشعب ، كما اهتمت جريدة الاهرام وغيرها بالامر فنشرت عرضا عن أفراح الشعب ٠

ولقد كان الافراج عن سعد فى نظر الشعب مسحا عن كرامة الشعب بما كان ينظر اليه ، من خلاله ، من احترام وأمل ، ثم تفتحا للرجاء من جديد ، وتنسما للآمال الكبار ، بتحقيق ما كان المصريون يصبون اليه ، كما بدا ذلك الافراج أمام الشعب أيضا انتصارا على عدو مغتصب لحقوقه وأرزاقه جارح لكرامته ، فلا بدع أن يفرح المصريون ،ولامشاحة فى ان ينتهى ذلك كله بالتنفيس عن المشاعر المكبوتة فتخف بهذا حدة ثورة الغضب أمام مزاحمة مشاعر الامل والرجاء فى المستقبل ، فيمتص ذلك كله جزءا من حرارة الثورة وشعبيتها وبهذا تنتهى الثورة الى لون من الهدوء النسبى بعد مرحلة العنف الكبيرة ، فى انتظار ما تفعله القيادة ، بعد أن برزت الى ميدان

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ٩٤ ٠
(٢) المقطم فى ٩ من ابريل عام ١٩١٩ ٠

العمل السياسى ، حرة ولكن بغير أن يكون ذلك سلبيا بل ايجابيا لانه كان ينطوى على غضب كان يتجلى خلال الرماد وحرصا من خوف الفشل .

ولقد أخذ ذلك الشعور يتجلى فى عهد وزارة رشدى الرابعة ، فقد تألفت هذه الوزارة بين هذه الأفراح فى ٩ من أبريل عام ١٩١٩ ، وعلى الجو السياسى كان يبدو هدوء نسبى ، ولكن كان فى باطنه ينطوى كما قلنا على غضب ويتهيأ للتغيير من ذاته ، ولكن بأساليب غير أساليب الشدة التى عهدنا من قبل فلم تمض الا بضعة أيام ، حتى بدا فى الافق بين الموظفين ملامح ذلك الغضب والتحدى للوزارة الجديدة ، فى شخص الاحتلال ، والرغبة فى التمرد على أنظمتها .

كان هؤلاء الموظفون من قبل قد قرروا الاضراب ثلاثة أيام احتجاجا على خطاب كرزون الذى اتهمهم فيه بالانحياز لصف الاحتلال والحماية ، وما أن تألفت وزارة رشدى حتى كانت مشاعرهم قد تبلورت اتجاها آخذا بالمسح عن كرامتهم بمقاومة هذه الوزارة ومن ثم رفعت ثورتهم رأسها فتجددت فيهم روح الاضراب ، فألفوا اللجنة التى سبق التفكير فى تأليفها منذ الاضراب الاول ، فجرى انتخابها بوساطة الموظفين ، وكانت باكورة أعمالها قرارا باضراب جميع الموظفين من ١٢ من أبريل حتى تجاب ثلاثة مطالب : أولها أن تصرح الوزارة بصفة الوفد الرسمية ، وثانيها أن تعلن الوزارة أن تشكيلها لا يفيد الاعتراف بالحماية ، وثالثها الغاء الاحكام العرفية وسحب الجنود البريطانيين المسلحين من الشوارع والبنادر والقرى ، وغير ذلك (١) ، وقد استثنى من قرار الاضراب بعض الموظفين كالاطباء ورجال البوليس وغيرهم .

ولقد حاول رشدى تلافى الموقف بالدعوة للهدوء وعودة الموظفين عبثا فقد دعت اللجنة الى عقد مؤتمر عام يمثل طبقات الأمة ردا على ما قيل من أن اضرابهم لم يصدر عن رغبة عامة ، فاستجابت لهم الأمة ، فأضرب التجار وأصحاب الحرف والمهن الحرة فى ١٦ من أبريل فانعقد المؤتمر العام فعلا بالأزهر ، وحضره مندوبو طوائف المصريين ، وجمع هائل من مختلف الطبقات والموظفين ، فقرر المؤتمر تأييد الموظفين فى اضرابهم ، بل قرروا جميعا الاضراب عن أعمالهم حتى تجاب مطالب الموظفين ، فانقطعت الحركة فى المدينة بسبب الاضراب العام ، فتدخلت السلطة العسكرية وأصدرت اعلانا باعتقال كل من يحرض الموظفين على استمرار الاضراب .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ١٤ .

لم توفق وزارة رشدى لمعالجة مسألة الموظفين ، ولما رأت فى الحركة اتساعا بعد أن تضامن العمال مع الموظفين قدم رشدى استقالته فى ٢١ من أبريل عام ١٩١٩ بدعوى أسباب صحية ، فقبلت ٠

ولم يعد الموظفون الى أعمالهم الا بقرار من لجنتهم وبصفة مستعجلة بدعوى أن الاستقالة قد جاءت ترضية لهم أما فى الحقيقـــة فهى أن ذلك القرار قد جاء عن شعور باتجاه اللنبى لاعداد انذار لهم بالعودة ، وقد أصدر اللنبى فعلا منشورا يوجب على الموظفين العودة والا تعرضوا للفصل فى ٢٢ من أبريل ٠

أخذت الحال تعود الى السكينة فى ترقب للموقف ، فقرر المحامون العودة أواخر ابريل كما عاد عمال الترام فى القاهرة ومصر الجديدة الى أعمالهم أواخر أبريل ٠

وتمضى السلطة البريطانية فلا تمهل ذلك الهدوء الذى أعقب ذلك الانذار ، حتى تشيع فى جوه روح الشك فى الثورة لينساب من الناس فتجد فيه مأربا ٠ ومع بداية ذلك الهدوء شاءت دار الحماية اســتغلال اعتراف الرئيس ولسن بالحماية البريطانية على مصر فى هذا الشهر فى وقت كانت الأمة لا تزال تعلق آمالا كبيرة على مبادئه ، فبادرت الى اذاعته فى بلاغ بتاريخ ٢٢ من أبريل عام ١٩١٩ ، أوردت فيه الكتاب الذى تلقته من معتمد الولايات المتحدة بمصر فى هذا الصدد ٠

على أنه اذا كانت دار الحماية قد قصدت بهذا أن ترى للشعب عـدم جدوى ثورته وتدفعه لقبول الامر الواقع ، فان ذلك ــ وان ترك آثاره بحكم الطبيعة ــ لم يؤثر على تماسك الشعب ولا صموده ، وقد تجلى ذلك فى بقاء البلاد محجمة عن التعاون مع الاحتلال بلا وزارة وفى احجام المستوزرين عن قبول الوزارة حتى يأمنوا الخروج عليها ، وقد اضطر اللنبى علاجا لذلك الى تخويل وكلاء الوزارات سلطة الوزراء ، وتجلى ذلك من ناحية أخرى فى مواقف الطلبة واصرارهم على استمرار الاضراب ٠

كان هؤلاء مضربين طوال شهرى مارس وابريل ، فلما دعاهم اللنبى الى المدارس ابتداء من ٣ من مايو ظلوا على اضرابهم ، فأصدر بلاغا فى ذلك اليوم أنذر فيه باغلاق المدارس اذا لم يعد العدد الكافى لفتحها ، وبرغم هذا ، كان رد الطلبة على هذا البلاغ هو اقامة المظاهرات احتجاجا عليه بدلا من الاذعان له ، ولما لم يعودوا الى مدارسهم فى الموعد المحدود فى البلاغ وهو ٧ من مايو ، أمر باغلاق جميع المدارس حتى موعد استئناف العام الدراسى التالى ، « فانتهز الطلبة هذه الفرصة واستمروا فى اقامة

المظاهرات الكبيرة وتعرض لهم الجنود البريطانيون فأصيب كثيرون ، كما قبض على آخرين » (١) ٠

ولما أعلن عن تعطيل الوزارات وسائر المصالح الحكومية فى يوم الثلاثاء ٦ من مايو سنة ١٩١٩ احتفالا بعيد جلوس ملك بريطانيا اثار ذلك الاعلان غضب الجمهور فعمت المظاهرات نواحى القاهرة فى ٦ من مايو احتجاجا على ذلك ٠

استمرت الثورة ، وعبرت عن ذاتها بمعان كثيرة ،وان تجلت باسلوب مسالم فقد كانت تنطوى على غضب كامن بين جو يخيم عليه سكون نسبى ارتبط فى وجوده بانتظار فرضته الآمال ، تطلعا نحو تحقيقها على مر الوقت ٠

وبدأت الحكومة فعلا تشعر بوجود ذلك السكون النسبى ، فشاءت اصلاح معظم الخطوط الحديدية ، وأخذت السلطات العسكرية تشعر بمزيد من الثقة ، واباحت السفر من القاهرة ومعظم مدن الوجه البحرى ، بدون جوازات سفر كما الغت جوازات السفر ابتداء من ١٠ من مايو ، كما الغتها للسفر للوجه القبلى أيضا ، ابتداء من الاول من يونيه ٠

وعادت جميع فروع البريد للعمل من جديد ، ماعدا الجهات التى لاتقف فيها القطر ٠

ومع هذا الهدوء النسبى ، اخذت تنساب اليه أنباء خذلان مصر أمام مؤتمر الصلح ، فيتردد صداه السيىء بين الشعب ففى ذلك الوقت من شهر مايو ، أعلنت شروط الصلح التى كان الحلفاء قد قرروها وسلمت الى الوفد الألمانى فى مؤتمر فرساى فى ٧ من مايو عام ١٩١٩ ، فجاءت النصوص الخاصة بمصر من المادة ١٤٧ الى المادة ١٥٤ مؤيدة للحماية التى فرضتها بريطانيا على مصر وقد قبلتها المانيا ضمن ما قبلته من شروط الصلح ، وأصبحت جزءا من معاهدة فرساى التى أمضيت فيما بعد فى ٢٨ من يونيه عام ١٩١٩ كما اسلفنا ٠

واذ كان اعتراف المؤتمر بذلك ذا أثر اليم فى نفوس المصريين ، فقد كان كالاعتراف السابق للحماية من الولايات المتحدة ، من شأنه أن يثير الشك فى نفوس الشعب ، من عدم جدوى كسب المجال الدولى بجانب القضية المصرية ٠

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ ٠

واذا كانت خسارة مصر ثمرة سيطرة بريطانيا على الموقف الدولى فقد مكنها من ذلك عدم توافر الجو الدولى فى ذلك الوقت الذى ينظمه رأى عالمى حر،أو مضاد للاستعمار وهو العامل الذى أفقد مصر من ثم القدرة على تلك السيطرة فى المنظمة الدولية مثلا ، فقد كانت حركة التحرر العالمى فى بدايتها والاستعمار لايزال فى شدته مسيطرا والمنظمة الدولية لاتزال ناشئة ٠

كان من الطبيعى أن ينتهى ذلك كله بانتقال المعركة السياسية الى ساحة مصر ٠

وبمقدار ماداخل بريطانيا من شعور الثقة فى المجال الدولى فى اغتباط بما نالته من نصر فى المؤتمر أخذت تشعر بمزيد من الاطمئنان حول مركز الحماية فى مصر ، وقد أخذوا فعلا يشعرون بمزيد من الثقة على الوضع الداخلى من عودة السكينة الى مصر حتى لم يعد غير نقل المعركة السياسية الى الداخل مع عدم الاعتراف بالوفد كممثل للامة والتركيز حول العمل على تثبيت الحماية حتى تستكمل انتصاراتهم فى المجال الدولى عن طريق الحصول على موافقته ٠

ولقد أخذ ذلك الشعور يتجلى فى خطبة ألقاها اللورد كرزون باسم حكومته فى ١٥ من مايو فى مجلس اللوردات عن الحالة فى مصر(١) فقد أقر فعلا بأن الحالة فى مصر قد تحسنت عن ذى قبل ، وان لم تبعث فى رأيه على الرضا وأن النظام قد عاد مع قلاقل متقطعة ، ثم أخذ يشير الى بعض الاحداث التى حدثت كاضراب الموظفين والطلبة وغير ذلك ، ثم تكلم عن اعتراف ولسن بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا والروسيا بها على اثر اعلانها عام ١٩١٤ وما تضمنته معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائها من الاعتراف بها ثم قال :

وعلى ذلك لا يمضى زمن يسير حتى تنال الحماية الاعتراف العام ، وتساءل عن الفائدة التى جناها المصريون من الثورة ، وأنه اذا كان الغرض من هذه الثورة وما صاحبها من الخسارة فى الأرواح والممتلكات انهاء علاقة البريطانيين فى مصر وتحقيق استقلالها فقد قضى عليه بالفشل وأن حكومته لاتنوى مطلقا أن تتخلى عن التبعات التى تحملتها عندما وضعت مهمة حكم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٣٥ ـ ص ٣٦ ٠

مصر على عاتقها وان هـذه التبعات قد تأيدت باعلان الحمـاية البريطانية عليها ، ثم أبدى عطفا « على الأمانى المشروعة فى دائرة الحماية ! » ونوه بما اعتزمته بريطانيا كعلاج للاضطرابات فى مصر من ايفاد لجنة برياسـة ملنر لتحقيق أسباب ذلك ، واقتراح القانون النظامى اللازم فى سـبيل الحكم الذاتى ، وضمان المصالح الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية .

ولم يأت خطاب كرزون مقررا للواقع ، فى كل ما جاء به ، بل كان فى جوهره تعبيرا عن شعور بريطانيا فى ثقة ممزوجة بالتحدى من انها قد حققت قسطا من السيطرة على الثورة بما يعنى فى نظرها تمهيد السبيل الى حد ما ، لنقل المعركة السياسية الى الداخل ، حتى لم يعد الا الاصرار على ارسال لجنة ملنر للعمل مع الشعب رأسا دون الوفد على تثبيت الحماية ، كما كان ايذانا بانتقال المعركة السياسية الى مصر حول الحماية !

ولقد استدرج بريطانيا الى ذلك السلوك موقفها من الثورة فى الخارج والداخل ورغبتها فى استكمال نجاحها فى الخارج .

كان لزاما على بريطانيا أن تستكمل تاييد الموقف الدولى للحماية بالحصول على موافقة المصريين عليها كى تصبح شرعية ولا سيما أن معاهدة الصلح مع تركيا لم تكن قد أبرمت ، فقد كان من المحتمل أن تحتج تركيا بأن مصر لم تقبل الحماية ، فلا يمكن بهذا أن تعترف بها ومن ثم لا يمكن التنازل عن حقوق سيادتها الرسمية لدولة غير مصر اذا كان من الضرورى أن تتنازل عنها . على أن ذلك لم يكن ميسورا انجازه بالرغم مما قطعته بريطانيا من خطوات للسيطرة على الثورة فى الخارج والداخل ، بمجرد ارسال لجنة ظاهرها تحقيق أسباب الثورة وباطنها العمل على الحصول على اعتراف المصريين بالحماية ، ومن ثم تستكمل شرعيتها ، فلم تكن الثورة قد هانت بعد حتى يصبح من السهل أن يوجه اليها ذلك التحدى ، أو انفضت حتى يتلاشى غرضها القومى الأسمى .

لقد كانت الثورة قائمة ، فاذا كانت قد فشلت ، كما قال كرزون فى تحقيق هدفها فى الفترة السابقة ، فلم يكن ذلك الفشل فى حقيقته الا بقدر نجاح بريطانيا فى عزل الثورة دوليا ، ولم يكن معنى العزل الدولى قضاء على الثورة بقدر ما كان ذلك سببا قويا للفشل فى احدى المعارك ، فقد كانت الثورة قائمة وبرغم محاولات استدراج الجبهة الداخلية لقبول الأمر الواقع ظلت الثورة تتمثل قوتها فى تماسك الوحدة القومية والتفافها فى

ولاء حول سعد والوفد .. وكانت تلك حقيقة تاريخية بارزة للعيان فى تلك الأيام .

وعلى ذلك لم ينقض بالزوال الغرض الذى قامت من أجله الثورة بمجرد اخفاقها فى بعض المعارك أو عدم توافر بعض أدوات العمل لانها ظلت قائمة .

كانت مصر لا تزال تمسك زمام الموقف ، فاذا كانت بريطانيا قد شاءت استكمال نجاحها فى المجال الدولى بنقل المعركة السياسية الى الداخل ، للحصول على أغراضها بها ، فلم يكن ذلك يعنى سهولة الطريق بما يمكنها من النجاح .

فقد يشير الهدوء النسبى القائم الى سهولة العمل السياسى ، ولكنه لم يكن فى حقيقته يشير الى سهولة تحقيق ذلك النجاح بالقدر الذى تحقق فى المجال الدولى ، أو على الأقل لم يكن الموقف فى مصر يعنى ضمان الحصول على الاعتراف بالحماية بمجرد ارسال اللجنة والثورة مستمرة والوحدة القومية قائمة . والمصريون سادة الموقف .

ولعل ذلك لم يكن ليغيب عن أذهان الساسة البريطانيين بعد نجاحهم فى نيل الاعتراف الدولى بالحماية البريطانية على مصر ، وهم يصرون على نقل المعركة السياسية الى مصر للحصول على اعتراف المصريين بالحماية دون الوفد ، وكان من الطبيعى أن يكون موضوع الوحدة للجبهة الداخلية موضع اهتمامهم الكبير .

كانت بريطانيا تريد الحصول على اعتراف المصريين بالحماية ولكن بغير طريق الوفد ، لانه أصعب ومن الشعب رأسا لانه فى ظنها أيسر منالا فكان لابد من المضى بسياسة تجاهل الوفد فاذا كان ثمة تماسك حوله ، فسيطرتها على الجبهة الداخلة باسلوبها كفيل بمعالجته .

وكانت بريطانيا قد قطعت خطوات فى مواجهة هذه الجبهة الداخلية لتمهيد الخواطر لقبول الحماية ولم يعد ثمة لاستكمال ذلك الا وزارة تستتبع الخطوات ، وتعيد النظام ، وتمهد الطريق لأعمال لجنة ملنر .

ولقد جاءت خطبة كرزون نذيرا لبداية ونقل المعركة ، ففى اليوم الذى نشرت فيه خطبته فى ٢١ من مايو عام ١٩١٩ بدأت بريطانيا تنفذ ما اعتزمته ، فاستدعت رجلا كان بينه وبين سعد جفاء ، وطلبت منه تشكيل وزارة جديدة ، فألفها بغير برنامج قومى لا يهمها شىء الا دفع الشعب للسكينة والتمهيد لتثبيت الحماية .

ولقد انتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين أعضاء الوفد وشاءت بداية العمل بارسال لجنة ملنر الى مصر فاقل مايرجى منها ، فى نظرها على الأقل أنه اذا لم تنته الى تحقيق الغرض من الحصول على اعتراف المصريين بالحماية، أن توسع رقعة الخلاف بين وحدة الوفد بما ينتهى الى تصدع الوحـــدة القومية ٠

ولقد مضت الاحداث بعكس ما جاء فى حسبان بريطانيا ، فمع بداية التحدى البريطانى أخذت الجبهة الداخلية تتحرك لمواجهة المعركة ، فقد كان من الطبيعى مع بداية خذلان القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح وتسرب أنباء ذلك الخذلان الى مصر ــ أن يزداد اعتقاد المصريين بأن المسألة المصرية لم يبق لها الا أن تحارب على أرض مصر ذاتها وأن قوتها لتحقيق النصر انما هى وحدتها القومية ، ومن ثم بدأ الاهتمام فى الداخل بالحفاظ حول تماسك الجبهة الداخلية ، وما لبث ذلك ــ عقب الاعلان عن ارسال لجنة ملنر الى مصر ، وامضاء معاهدة الصلح بما أيد الحماية البريطـــانية على مصر ــ أن أصبح مسئولية تاريخية ألقيت على عاتق الوفد ، فاضطلع بها الجهاز السرى بقيادة « عبد الرحمن فهمى » خير اضطلاع ٠

وأخذ الطرفان يلتقيان فى معركة الحماية فى صراع سافر فى ظاهره منذ أن تولى « محمد سعيد » رياسة الوزارة ؛ وفى باطنه كان نضالا ثوريا يدعمه الجهاز السرى بالشدة والضراوة للحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية بجميع الوسائل ٠

خرج الشعب بعـــد أن تالفت الوزارة يرد على تحـدى بريطانيا بالاحتجـاج على تأليف هـــذه الوزارة(١) ويمضى فى تعبيره عن أهدافه بما يثبت استمرار الثورة بعد ذلك ، وكان أروع تعبيرا فى مقاومته للجنة ملنر بما دفع بريطانيـا الى أن تشعر بقوة الثورة وبقوة تماسك الجبهـة الداخلية ، وبفشل سياستها بتجاهل الوفد بما يدفعهـا لان تتراجع عن غرورها ودعواها وتقترب من الأمانى المصرية ٠

كانت مهمة هذه الوزارة الأولى : اعادة السكينة والنظام فى مصر ، فوجه سعيد جهده كله فى ذلك ، فمضى بسياسة كان ظاهرها كسب ثقة الشعب وباطنها دفعه الى الرضا بالواقع ، فحاول شغل الشعب عن الكفاح السياسى بالاهتمام بالمسائل الجزئية الخاصة بزيادة أجور الموظفين والافراج عن بعض المعتقلين ، لتهدئة الخواطر ، فنجح فى ذلك نجاحا كان موضع تقدير اللنبى ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٣٩ وما بعدها ٠

ولقد كان من نتائج امضاء معاهدة الصلح ونجاح الوزارة في التعجيل باعادة السكينة أن تساهلت السلطات العسكرية وأذعنت لاقناعه بتحويل قضايا الوطن من المحاكم العسكرية الى المحاكم الأهلية باستثناء حوادث الاعتداء على أفراد القوات البريطانية ، وان جاء ايقاف المحاكم العسكرية مؤقتا ، كما استجاب اللنبى لطلب الوزارة الافراج عن بعض المعتقلين السياسيين كما ألغيت الرقابة على الصحف .

على ان ذلك ما لبث أن تكشف مغزاه أمام الشعب فعرف باطنه من انه لم يكن مقصودا لذاته ، بل كان مقصودا لشغل الشعب عن الكفاح السياسى ، فكان الناس يستريبون نيات رئيس الوزراء حتى نقم عليه أحد الطلاب قبول الوزارة وتهيئة الخواطر للرضا بالواقع ، فثار عليه ورماه بقنبلة فى ٢ من سبتمبر ١٩١٩ لم تصبه ، ولكنها هزت أركان الوزارة .

على أن اللنبى مالبث أن أدرك مباشرة حقيقة ضراوة المقاومة من تماسك الجبهة الداخلية وذلك عندما علم الشعب بارسال لجنة ملنر ، فسرعان ما هاجت الخواطر فتواصى المصريون بمقاطعتها .

دور الجهاز السرى :

ولقد ظهر دور الجهاز السرى ، والشعب يواجه معركة الحماية ، فى مؤازرته وشد أزره وحمايته ضد الدسائس والخصوم التى شاء الاحتلال الاستناد عليها فى هذه المعركة السياسية ، والحفاظ على الخط الثورى عموما متماسكا قويا .

حاولت بريطانيا تيسير السبيل للجنة ، فاستندت فى ذلك على الرجعية .

فنظرا لان الحكومة المصرية كانت قد فقدت صفتها الرسمية منذ سقوط وزارة رشدى فقد كانت وزارة « محمد سعيد » وزارة ادارية لذلك كان على بريطانيا وهى لا تعترف بالوفد أن تقيم من العناصر الرجعية حزبا سياسيا يتولى التفاهم مع لجنة ملنر عندما تحضر .

ولقد تشكل ذلك فيما عرف بالتكتل الارستقراطى وكان قوامه ، أساسا ، الارستقراطية الزراعية المعادية للثورة ، فقد أنشأت تلك لنفسها خلال ثورة ١٩١٩ نادى الاعيان . فلما قرب مجىء اللجنة المذكورة نشطت هذه العناصر الرجعية فألفت « الحزب الحر المستقل » واتخذ الحزب له من

« المنبر » جريدة رسمية وبدأت الكتابة من نوفمبر عام ١٩١٩ فى سلسلة من المقالات تشرح فيها برنامج هذا الحزب وتهاجم القوميين الثائرين ·

وقد تصدى الجهاز السرى للثورة بقيادة « عبد الرحمن فهمى » لضرب هذا التكتل الارستقراطى فتراه يشرح أسلوبه فى ذلك حيث يقول :

« لما عزمت الحكومة الانجليزية على ارسال لجنة ملنر للتحقيق فى أسباب الاضطرابات بمصر رأت السلطة الانجليزية أن تعمل على تأليف حزب جديد يدعى الحزب الحر المستقل وكانت مهمة هذا الحزب أن يقابل لجنة ملنر ويتفاوض معها فى القضية الوطنية ، فرأيت أنه لو تم تأليف هذا الحزب لكان أكبر الضربات القاضية على الوفد المصرى وعلى قضية البلاد فعملت بكل ما أتانى الله من همة وقدرة على تقويض أركان هذا الحزب قبل تمام تكوينه بأن بدأت بتكليف الكثير من أعوانى الوطنيين بالاندماج فى هذا الحزب ليأتونى بأخباره وقراراته أولا فأولا »(١) ·· حتى أمكن اقناع الجميع بأن مثل هذا الحزب يضر قضية البلاد ضررا بليغا » ·

وبهذا قضى على هذا الحزب ، وفى أواخر عام ١٩١٩ كان قد أنجز مهمته وكتب الى سعد فى ٧ من يناير عام ١٩٢٠ يقول :

« يسرنى أن أعلن سيادتكم بأن كل الاجراءات التى اتخذت للقضاء على الحزب المستقل نجحت نجاحا باهرا ولا يزال العمل جاريا لهدم ما بقى من أسسه وجدرانه ! » ·

ولقد نشط الجهاز السرى بعد ذلك لتدبير الأمر فى مقاطعة اللجنة ·

ولم يكن الوفد فى معزل عن هذه الفكرة ، وتروى لنا المراسلات السرية بين « سعد وعبد الرحمن فهمى » قصة المقاطعة (٢) ، فعندما قررت بريطانيا ايفاد لجنة ملنر الى مصر ، لتحقيق أسباب الاضطرابات ، ورد خطاب من سعد يقول :

« لابد أن تكونوا قد عرفتم أن الحكومة الانجليزية قررت ارسال لجنة الى مصر لتحقيق سبب الاضطرابات وأنه خوفا من أن يتقابل معها نفر من المستضعفين الذين لا يؤمنون بمبادىء الوفد أرجوكم العمل على تشكيل لجنة من أناس معروفين ، ومتفقين مع الوفد فى مبادئه كى يتكلم مع اللجنة المذكورة باسم الوفد » ·

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٥٢ ·
(٢) المرجع السابق ص ٤١ ·

ولقد رأى « عبد الرحمن فهمى » أن أصلح من يقوم برياسة هـذه اللجنة هو عدلى يكن لما له من الاحترام لدى الانجليز والمصريين على السواء ، غير أن « عدلى » لم يقبل الاضطلاع بذلك .

وبعد انصرافه من عنده ، جالت بخاطره فكرة ، فتساءل : لماذا نشغل أنفسنا بتحضير لجنة لمقابلة لجنة ملنر ما دامت هذه اللجنة تتخطى وفد الأمة ؟ ولماذا لا تقاطع كل مصر هذه اللجنة كما قاطعت هى الوفد بتخطيه والحضور الى مصر ؟

ثم كتب « عبد الرحمن فهمى » الى سعد عن مقابلاته مع عدلى ، ثم أعقب ذلك فكرة المقاطعة ، فصادف ذلك قبول الوفد وارتياحه ، فجاء فى تقرير الوفد المؤرخ فى ٢٥ من يوليو سنة ١٩١٩ :

« لقد استحسن الوفد رأيكم السابق تعريفنا به فيما يختص بلجنة التحقيق التى قد تحضر وهو عدم ابداء طلبات لها مطلقا والتمسك بالوفد » ثم عاد سعد فى تقريره فى ٢٨ من أغسطس عام ١٩١٩ يكرر المعنى نفسه .

وبهذا تكون فكرة المقاطعة قد نشأت أولا من « عبد الرحمن فهمى » وأن « سعد » قد وافق عليها .

ولقد أعدت العدة لمواجهة اللجنة سرا .

استعداد الحكومة لاستقبال اللجنة :

وبينما كان الجهاز السرى للثورة يتهيأ لاستقبال اللجنة بالمقاطعة والحفاظ على الخط الثورى سليما كانت الحكومة تستعد لاستقبالها .

وصدرت الأوامر فى أوائل سبتمبر عام ١٩١٩ الى مصالح الحكومة ودواوينها لاعداد التقارير والبيانات والاحصاءات اللازمة التى ينتظر أن تطلع عليها اللجنة عند وصولها الى مصر .

وأعلن رسميا فى ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٩ فى لندن تأليف اللجنة برياسة ملنر وزير المستعمرات ولفيف من العليمين بشئون مصر المدنية والحربية .

موقف الشعب :

ولم يكن الشعب ليرضى بموقف الحكومة ولا بمجيء اللجنة وقد تجلى ذلك منذ انشائها فيما أبداه من مشاعر السخط على تأليفهـــــا فقامت مظاهرات الاحتجاج فى القاهرة والاسكندرية منذ أوائل أكتوبر سنة ١٩١٩ وجرت بالاسكندرية مظاهرة عنيفة فى ٢٤ من أكتوبر والأيام التالية (١) أعلانا للاحتجاج عن تأليف اللجنة وقوبلت المظاهرات بالعنف البالغ ، كما حاولت الحكومة فض هذه المظاهرات بمختلف الوسائل ، وما لبث الموقف أن تفتق من هذا الهياج عن بلاغ صادر من دار الحماية عن قدوم لجنة ملنر ، وذلك فى مساء ١٤ من نوفمبر ١٩١٩ ، وحددت مهمتها بأنها ستقوم باقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية ، وقد رد الحزب الوطنى على البلاغ فى بيان الى الأمة أعلن فيه سياسة عدم المفاوضة مع المحتلين وردت لجنة الوفد المركزية ببيان أذاعته فى ١٦ من نوفمبر عام ١٩١٩ احتجاجا على صدور ذلك البلاغ ، وعدته مخالفا للمبادىء التى أعلنها الحلفاء وللمبادىء التى جعلت أساسا للهدنة والصلح وارادة الشعب المصرى الذى يعرف وحده مصير بلاده .

وعلى اثر صدور بلاغ دار الحماية ، قامت المظاهرات فى العاصمة منذ ١٥ من نوفمبر واشتدت فى اليوم التالى ، وانتهت الى خسائر فى الأرواح ثمرة الاصطدام بالقوات الانجليزية .

وحدثت فى الاسكندرية مظاهرات فى ١٥ من نوفمبر اثر اطـلاع الجماهير على بلاغ دار الحماية انتهت بتصادم قوى بينهـا وبين البوليس والجيش البريطانى ، كما انتقلت المظاهرات الى بعض الأقاليم مثل طنطا والمنصورة وشبين الكوم وغيرها ..

وبلغ تطور الأحداث غايته ولم يدم الوفاق بين الوزارة واللنبى ، فقد اختلفا فى مسألة لجنة ملنر بما انتهى الى استقالته .

كان اللنبى يرى أن امتعاض الشعب من قدوم اللجنة سبب كاف لتعجيل قدومها وأن اقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لا حساب لها مقدمة صالحة لقدوم اللجنة ، فاكراه الناس لا بأس به لديه .

شاء سعيد ارجاء ارسال اللجنة انتظارا للفراغ من عقد الصلح مع الدولة العثمانية ، تتنازل فيه عن حقها فى السيادة لبريطانيا ، ومن ثم تطعن الثورة فى الصميم ، فأبى الغرور البريطانى فى شخص اللنبى أن

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

يرضى بذلك الاتهام بالضعف أمام ضجة المقـاطعة ، وقد دفعه للتعجيل ما علمه من بوادر التفكك الذى أصـاب أعضـاء الوفد فى باريس فشاء الاسراع فى استدراج العناصر المعتدلة لمزيد من الانشقاق .

وازاء ذلك الخلاف لم ير « محمد سعيد » بدا من الاستقالة بعد نشر بلاغ دار الحماية عن مهمة لجنة ملنر واشتداد المظـاهرات ، رفـع كتاب استقالته فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩١٩ .

ونشطت السلطات البريطانية فى هذه اللحظة الحرجة التى كانت مصر تجمع فيهـا على مقاطعة لجنة ملنر ـ نشطت للتمهيد لمقدم اللجنـة والعمل على نجاح أهدافها فشاء اللنبى محاولة ضرب الوحدة القومية فى تماسـك المسلمين مع الاقبـاط ، فعمـد الى تكليف أحد الاقباط وهو يوسف وهبة بتأليف الوزارة فالفها فى ٢١ من نوفمبر عام ١٩١٩ بغـير برنامج قومى ، ولكن عبثا حاولت هذه السلطـات بلوغ أهدافهـا أمام تماسك الشعب .

واذ كان رئيس الوزراة قبطيا ، فقد أعلن الاقبـاط ـ اذ ذاك ـ استياءهم منه وسخطهم عليه ولما عمدت السـلطات العسـكرية أن توجه نشاطها لدعم مركز الوزارة بمناسبة قرب قدوم لجنة ملنر ، جاء رد الجهاز السرى عليها فى هذا وذاك ردا قويا فوت عليها أغراضـها فى ذلك ، وما كانت تستهدفه من ضرب الوحدة القومية .

فقد حدث أن استدعى اللنبى قبل تأليف الوزارة «محمود سليمان» رئيس اللجنة المركزية للوفد « وابراهيم باشا سعيد » وكيلهـا وطلب اليهما مغادرة القاهرة الى بلديهما مع بقـاء « عبد الرحمن فهمى » تحت المراقبة فى القاهرة . ولما لم يذعن الاولان رحلتهما السلطات العسكرية كما رحلت « على ماهر » الى الاقصر واعتقلت غير هؤلاء من زعمـاء الحركة فى الازهر .

وقـد رد « عبد الرحمن فهمى » على ذلك ردا فـوت على بريطانيا أغراضها اذ جمع اللجنة المركزية وعين «مرقس حنا» عضو اللجنة وكيلا لها ورئيسا بالنيابة ، ثم كتب الى سعد فى ٣ من ديسمبر عـام ١٩١٩ يشرح فكرته من وراء ذلك فيقول : « اعتقل صاحب السـعادة « محمود سليمان باشا وابراهيم باشا سعيد » (١) فخلا بذلك محلا الرئيس ووكيله، ونظرا لاننا فهمنا من سياق الحديث أن السلطة المتصرفة فى شئون مصر

---

(١) دكتور محمد انيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٥٠ .

مع الملتفين حولها أرادت اسناد مركز الرئاسة الى « يوسف وهبة باشا » معللين النفس بأن يكون هذا سببا من أسباب القـــلاقل بين عنصرى الامة الاصليين ، أجمعنا كلمتنا على اختيار قبطى يستند اليه مركز الوكيـــل ليترأس على اللجنة مدة ابعاد « محمود باشا وابراهيم باشا » رادين بذلك كيد المتسلطين الى نحرهم ! » •

كما أسرع « عبد الرحمن فهمي » الى اتخاذ الكنيسة المرقسية مركزا من مراكز الثورة فكتب الى سعد زغلول يقول :

« لما علمت بأن الامة القبطية الكريمة استاءت جدا من قبول «يوسف وهبه باشا» رياسة الوزارة فى هذه الظروف الحرجة وانهـــا تخشى أن يسبب هذا نفورا بينها وبين الامة الاسلامية استصحبت ستة من اخوانى أعضاء الوفد واللجنة توجهنا الى الكنيسة يوم الاحد ٢٣ من نوفمبر الماضى وأبدينا لهم مشاركتنا لهم فى تألمهم من قبول «يوسف وهبة» لمركزه الجديد وأكدت لهم ان هذا لا يمكن بأية حال أن يسبب أى نفور فى علاقاتنا لانه اذا كان وجد من بينهم خائن قبل الوزارة فى هذه الظروف الحرجة ، فقد وجد بيننا سبعة بجواره من المسلمين (يقصد أعضاء الوزارة) ••• »•

حضور اللجنة :

ولقد وصلت اللجنة مصر فى ٧ من ديسمبر ممثلة لجميع الاحزاب الانجليزية ومؤلفة من رجال مشهود لهم بمعرفة الشئون المصرية السياسية تحت رياسة ملنر وزير المستعمرات البريطانية •

وكانت بريطانيـــا تأمل فى عهد وزارة « يوســـف وهبة » أن تقابل اللجنة بالترحاب ، ولكنها ما كادت تستقر حتى أحست انها فى حصار لا يجد له منفذا الى لقاء •

فقد قابلها الشعب بامتعاض ، كما كان متوقعا ، وانتشرت الاضرابات احتجاجا على قدومها (١) •

عاد الطلبة فاضربوا من ٨ من ديسمبر من جديد وهجروا معاهدهم احتجاجا على قدوم اللجنة ، ثم قام الطلبة والجمهور فى اليوم التالى بمظاهرات عدة فى ضواحى القاهرة ، ثم تعددت المظاهرات فى الايام التالية ، كما انهالت الاحتجاجات على اللجنة من كل ناحية من مختلف الجهات !

---

(١) « عبد الرحمن الرافعى » ثورة ١٩١٩ ، ص ١١٤ ومابعدها •

وقامت المظاهرات فى الاسكندريه وكثير من العواصم احتجاجا على اللجنة واجتمع المحامون وقرروا الاضراب اسبوعا من ١٧ من ديسمبر احتجاجا على قدوم اللجنة • وحذا حذوهم المحامون الشرعيون كما احتج الموظفون •

ثم وقع حادث أليم ولكنه غذى الثورة ، وهو عدوان الجنود الانجليز على الازهر فى ١١ من ديسمبر ١٩١٩ •

وتفصيل ذلك ، ان مظاهرة قامت فى صبيحة ١١ من ديسمبر من طلبة الازهر وغيرهم ، فلما قطعت فى مسيرها شوطا ، أدركها الجنود الانجليز بالسيارات ، فهاجموها فتفرق المتظاهرون وعادوا الى ميدان الازهر ، ودخل كثير منهم الى المسجد يحتمون به ، فدخل وراءهم الجنود الانجليز بنعالهم وأسلحتهم واعتدوا على كل من صادفهم •

احتج العلماء على الحادث وبعثوا باحتجاجهم الى السلطان ورئيس الوزراء واللنبى • حرك ذلك الحادث العلماء للجهر برأيهم فى الموقف السياسى عامة ، فوضعوا بيانا أعربوا فيه عن ان الحل الوحيد للاضطراب السائد فى البلاد ، هو أن تفى الدولة الانجليزية بوعودها وتعترف للبلاد بالاستقلال التام ، وبهذا شاركوا الامة فى معظم مطالبها السياسية •

ولقد ساعد هذا الحادث على تنفيذ الخطة التى كانت موضع اهتمام من الجهاز الثورى السرى لتنظيم حركة مقاطعة اللجنة •

ولقد كان طبيعيا أن تتجه الثورة لحماية نفسها ابقاء على الوحدة القومية ، الى استخدام أسلوب الاغتيالات السياسية ، ترهب به أعداءها والمنقسمين من الخونة ، ألم يفهم من قبل أن كل من يتولى رياسة الوزارة فى ظل الحماية يعد خائنا لبلاده ؟

وليس فى الخطابات السرية ولا فى مذكرات « سعد زغلول » مايدل على أن سعدا هو الموعز بهذه الخطة ، لكننا لا نجد مع هذا فى تعليمات سعد السرية كلمة واحدة عن رأيه ، انه لا يوافق على هذه الاغتيالات ، ونحن نميل الى القول بأن سعدا كان يرحب بهذه الاغتيالات ولا يحرض عليها •

ولم يمهل الجهاز السرى « يوسف وهبة » رئيس الوزراء حتى اضطر فى النهاية للاستقالة وأرسل « عبد الرحمن فهمى » الى سعد فى ٢٣ من دسمبر يخبره بأن : « ألقى طالب «قبطى» من طلبة الطب قنبلتين يوم

١٥ من ديسمبر الجارى على رئيس الوزراء ، ولكنه أخطأه ، وضبط ذلك الشاب وهو متقد حمية ووطنية وفى غاية الجرأة » (١) .

ولم يمهل ذلك الجهاز السرى الوزارات التى تحارب الثورة فأخذ ينشط فى تهديدها ، فاذا لم تستقل بالتهديد فلا أقل من أن تمعن فى التسليم لبريطانيا كما أخذ الجهاز السرى ينظم حلقة من الاعمال لحصار هذه اللجنة حصارا شديدا ، ويحدثنا «عبد الرحمن فهمى» عن الاسلوب الذى اتبعه فى هذه المحاصرة :

« لما استقر بلجنة ملنر المقام أخذت تستدعى كل من آنست فيه الميل الى الانجليز فخشيت أن تستند اللجنة الى أقوال أولئك الخارجين على رأى الامة ، ولذلك عمدت الى طريقة مبتكرة تذهب بمجهودات اللجنة سدى وتكون وسيلة فى الوقت نفسه الى الدعاية لنشر المقاطعة بين البلاد ، وذلك اننى بثثت العيــون والارصاد فى جميع المسالك التى تؤدى الى فنــدق سميراميس مركز اللجنة وقد تزيوا بأزياء مختلفــة ، فكان منهم العاجز والمتسول ، وبائع الفــول ، واللب والسجائر . وقد اعطيت كلا منهــم ما يسهل عليه كتابة أسماء القاصدين الى فندق سميراميس والراجعين منه مع ذكر وقت مرورهم ، وخصصت أناسا آخرين يمرون على الأولين من وقت لآخر ، ليجمعوا منهم الاوراق التى كتبوها ، وبذلك أستطيع معرفة الذين خرجوا على رأينا ، بمقابلة اللجنة فأرسل اليهم الوفود لتســتعلم منهم عن سبب ذهابهم الى اللجنة وعما دار بينهم وبينها من الحديث ، وكان لكل وفد رئيس وســكرتير ، فبينما يوجه الرئيس الســؤال الى أحد الاعيان ، ويجيب الآخر عنه ، كان السكرتير يكتب السؤال وجوابه .

وعلى الرغم من ان البداهة تجعل الانسان يرجح أن هؤلاء المختارين لمقابلة اللجنة ربما كانوا يجاوبونها بما يتفق مع ما يريدونه منهم فانهم جميعا كانوا يجيبون الوفود أجوبة صريحة تفيض وطنية ، وايمانا بحب الوطن كقولهم : انهم لا يريدون غير الاستقلال التــام لمصر والسودان . وانهم يوكلون عنهم الوفد برياسة «سعد زغلول باشا» ، وبعد أن يجيب كل منهم بهذه الاجوبة ويدونها السكرتير كنت أطلب نشر هذه الاسئلة ، وأجوبتها أولا فأولا على الامة لتكون درسا عمليا يتعلم منه القاصى والدانى من أبناء البــلاد ما يجب عليه قوله عندما يسأله أحد عن الاضــطرابات والثورة وأسبابها » .

---

(١) دكتور محمد انيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٥١ .

شاءت اللجنة علاج الموقف بالاناة ، بعد أن رأت أن مقاطعة الامة لها قد أصبحت محكمة بشكل ينم عن اعراضها عن الاتصال بها عن قرب أو بعد ، فأصدر ملنر بلاغا عن مهمته فى ٢٩ من ديسمبر ١٩١٩ قال :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من حقوقها التى كانت لها الى الآن ولا أساس على الاطلاق لهذا الاعتقاد ، فان اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى لأجل التوفيق بين أمانى الامة المصرية والمصالح الخاصة التى لبريطانيا العظمى فى مصر مع المحافظة على الحقوق المشروعة التى لجميع الاجانب القاطنين فى البلاد .

« ويمكن على يقين من أنه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودى يزيل أسباب الاحتكاك ويمكن الامة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شئون البلاد وفى ظل أنظمة حكم ذاتى «Self Governing Institutions».

وتنفيذا لهذه المهمة تقرر اللجنة أن تقف على كل الآراء سواء صدرت من هيئات نيابية أو أشخاص يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم . ويمكن ابداء كل رأى بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة فى تقييد حدود المناقشة ، كما انه لا داعى لان يخشى كل فرد أن يعد مقابلة اللجنة تنازلا منه عن معتقداته فانه لا يعد تنازلا عن معتقداته بمفاوضة اللجنة ، الا كما تعد هى متنازلة بسماعها ، وبغير الصراحة التامة فى المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم والوصول الى الاتفاق(١) .

ولقد اتخذ سعد قرارا نشر فى بلاغ بعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها قال فيه ما نصه :

« يحاول الاقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدونكم ضعفا فلا تنخدعوا اذا وعدوكم ، ولا تخافوا اذا هددوكم واثبتوا على التمسك بحقكم فى الاستقلال التام ، فهو أمضى سلاح فى أيديكم وأقوى حجة لكم ، فان لم تفعلوا — وليس فى قوة ايمانكم العظمى مايجعل احتمالا لذلك — خذلتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم ، وأنكرتم حاضركم ومددتم للرق أعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزلتم بأمتكم ذلا لا يرفعه عنها عز ، وان تفعلوا كما هو أكبر ظنى فى عظيم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

اخلاصكم ومتين اتحادكم وقوة وطنيتكم ، فقد استبقيتم لانفسكم قوة الحق وأعددتم لتصرفكم قوة العدل فلا تذلوا وان قهرتم ، ولا تخشوا وأن ظلمتم ... ((١) .

ولقد وصل ذلك البيان القاهرة ونشر في صحفها في منتصف يناير ، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعلنت بلاغا في معناه عقب صدور البيان المتقدم من لجنة ملنر ، فتعاقبت على اثره صدور البلاغات المختلفة في هذا المعنى من الحزب الوطني ومن الأمراء .

واذا كان حادث الازهر ، كما شرحنا سالفا ، من الاحداث التي اسهمت في عزل لجنة ملنر ، فقد كان البيان الذى أصدره ستة من أمراء مصر وقتئذ في ٣ من يناير ١٩٢٠ بصدد ذلك ذا أثر كبير في تغذية الروح الحماسي ، فقد طالب هؤلاء فيه باستقلال مصر استقلالا غير مشروط معلنين تضامنهم مع الامة في أمانيها وآمالها(٢) ، كما أرسلوا الى ملنر خطابا بهذا المعنى نفسه في اليوم نفسه .

وبالرغم من خلو بيان الامراء من أية اشارة الى وكالة الوفد لمصر فقد كان وهو يحاول منافسته في بيانه بما يشبه التعجيز ، له تأثيره الكبير في اذكاء روح الحماس في النفوس ، لانه كان يشير الى تضامن الشعب كله من أجل حرية مصر ، وقد جاء بيانهم في شكله العام بمثابة اتهام فؤاد بالخيانة .

وجدت لجنة ملنر بهذا أن لا رجاء في الاتفاق بينها وبين الامة على قاعدة بيانها ، لان الامة لم تكن تجد مصلحتها في تجاهل وفدها النائب عنها في قضيتها .

ولقد امتدت موجة الحصار الى وزارة «يوسف وهبة» التي كانت قد قبلت الحكم في ظل الحماية البريطانية ، فاستهدفت لاعتداءات عدة على حياة أعضائها . فبعد الاعتداء على رئيسها ، كما مر بنا من قبل ، اعتدى على وزير الاشغال في ١٨ من يناير سنة ١٩٢٠ ، وعلى وزير الزراعة في ٢٢ من فبراير ، وبعد ذلك اعتدى على وزير الاوقاف ، وكانت بواعث العدوان بواعث سياسية كلها .

وأجمعت الامة على المقاطعة اجماعا منظما محكما ، ومع هذا الاجماع

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٩٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

وقف « حسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت » من هذا الاجماع موقفا حياديا فلم يغضبوا اللجنة ولا أغضبوا الوفد ، وكتبوا فى ٧ من يناير خطابا الى سعد اقترحوا عليه العودة هو وأصحابه الى القاهرة لمفاوضة ملنر ، فلما أجاب الوفد بامتناع ذلك ، لان بيان ملنر يحصر الغرض فى المفاوضة فى الحكم الذاتى ، أجابوه بتفسيرهم كلمة الحكم الذاتى وقالوا :ان ملنر لا يرى مانعا من دخول الوفد المفاوضة على أساس الاستقلال التام ، وان كان هو لا يستطيع الجهر بهذا الاساس ٠

ولقد بسط سعد تفصيل رأيه فى بيان رد به على التقرير الذى جاء من لجنة الوفد المركزية مع على ماهر ويقول فيه فى ٢١ من يناير سنة ١٩٢٠ :

« اننا لم نجد فى بلاغ ملنر شيئا يخالف التصريحات السابقة عليه الا خلوه من لفظ الحماية وحسن أسلوبه ، أما فى الجوهر فقد وجدناه متفقا معها تمام الاتفاق اذ هو مثلها يعد مصر تابعة لانجلترا ولجنة ملنر لجنة تحقيق ٠٠ موقف المصريين منها موقف المجيب من المستجوب ! وغاية ايمانها الوصول الى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى ونحن لا نعترف بشىء من ذلك فلا تبعية لانجلترا علينا ، ولا نعترف لهذه اللجنة بسلطة التحقيق فى بلادنا ، والغاية التى نسعى اليها هى التمتع بجميع حقنا فى الاستقلال التام ٠٠٠ (١) » ٠

رفض سعد العودة ولم يكن فى وسع الوزراء أن يفاوضوا اللجنة بمعزل عن اجماع الامة وموقف الوفد فى باريس ولجنته المركزية فى القاهرة والا خسرت الجانبين ، ولم يخطر على بال الوفد أو بعض أعضائه العودة الا اذا كان الغرض من العودة الوصول الى عقد معاهدة تضمن استقلال مصر التام ٠

ولم يكن سعد يرفض المفاوضة اذا جرت فى أوروبا لانها لا تكون هناك بمثابة تحقيق تجريه الدولة المتبرعة فى بلاد رعاياها فضلا عما فيها من اعتراف اللجنة بوكالة الوفد عن مصر وهى تجهل نصوص هذا التوكيل ٠

يقول سعد فى تقرير مبدأ المفاوضة ، من رسالة له الى «عبد الرحمن فهمى » فى ٥ من فبراير سنة ١٩٢٠ (٢) :

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٢٩٣ ٠

(٢) دكتور محمد انيس : دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٩٢ ــ ٩٣ ٠

« ان لجنة ملنر تعينت لان تكون لجنة تحقيق ٠٠٠ أما قبولنا للمفاوضة معها بعد ذلك فهو بناء على ما اشترطناه من أن تعلن انها لجنة مفاوضة يعنى لجنة نائبة عن حكومتها فى أن تنحاز مع أمة ، فالمفاوضة معها بهذه الصفة لا ضرر فيها مادامت تعترف بذلك ومادامت العبرة بما يتم عليه الاتفاق ، فان تم على استقلال مصر التام كان بها ، والا انقطعت المفاوضة من غير أن نكون أضعنا حقا أو فائدة ، ومن جهة أخرى فان مسألة مصر اما أن تحل بالتقاضى أو بالتراضى ٠

أما بالتقاضى فلا يكون حلها الا بطريقة دولية أى بمعرفة جميع الدول ذات الشأن بوساطة قومسيون يتعين لهذه الغاية بوساطة عصبة الامم ٠

وأما بالتراضى فلا يكون ذلك الا بالمفاوضة بين انجلترا ومصر ، والمفاوضة لا تكون بين شعب وشعب بل بين نواب ونواب ، فاذا انتدبت انجلترا نوابا عنها كلجنة ملنر للمفاوضة ، ثم ان الأمة المصرية انتدبت عنها نوابا كالوفد المصرى لان يتفاوض الاثنان للوصول الى اتفاق يرضاه الطرفان فلا ضرر فى ذلك مطلقا ، بل يكون من المتعين قبولهم ، نعم ان الاتفاق بين ضعيف وقوى عرضة للانحلال ، ولكن يمكن أن يعرض هذا الاتفاق بعد تمامه على عصبة الامم لتسجيله فيها ، وعلى الدول الاعتراف به ٠٠٠ » ٠

قبل سعد مبدأ المفاوضة على الوجه السالف ، ولكن هل كان يرى لزاما أن يتولاها الوفد ، أو كان ثمة وسيلة أخرى ؟ وقد دارت مناقشة بين عدلى وسعد فى تفسير العبارة الانجليزية وما احتوته بالاشارة الى الانظمة الدستورية ومن خلال ذلك تجلى السبيل للمفاوضات ٠

شاء سعد جس النبض ومعرفة النيات عن صدور الدستور ، فأعرب عن شكوكه فى كتاب الحادى عشر من فبراير المرسل الى عدلى من باريس ، فلم يأخذ بالتفسير كما جاء فى حديث ملنر مع الوزراء ، ولكنه شاء بهذا الافادة من مجاراة ملنر والوزراء على تفسيرهم بأن يمهد به لاقامة الحياة النيابية والحكم الدستورى ٠

ويقول سعد نتيجة لذلك فى خطاب الحادى عشر من فبراير الى عدلى : قال سعد فى خطابه المتقدم(١) :

« ولا أخفى عليكم ان فكرة هذا النظام خطرت أول الامر ببالنا على

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ ٠

انها الوسيلة القانونية لحل المسألة ، لذلك نحن نوافق كل الموافقة عليها بل « ونحبذها » والطريق المثلى للوصول الى هذه الغاية فى رأينا هى أن يبدأ بتأليف وزارة من غير أعضاء الوفد موثوق بها ويكون البروجرام الذى تعلنه هذه الوزارة هو وضع ذلك النظام ثم المفاوضة مع الحكومة الانجليزية بغرض الوصول الى وضع اتفـــاق يضمن اســتقلال مصر التام ومصالح انجلترا الخصوصية ، ثم عرض ما تنتهى المفاوضة اليه على الهيئة النيابية التى تتألف بموجب ذلك النظام للتصديق ، ومن ثم تشكل الوزارة على هذا النـــحو ، فاذا أعلنت برنامجها على هذه الصيغة أو بما فى معناها لا نتردد نحن وزملاؤنا فى العودة الى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الامة ، والسعى فى أن ننتخب أعضاء فى تلك الهيئة ... » .

ولقد كانت هذه طريقة مثلى لحل الموقف اذا حسنت النيات . ولقد أجاب عدلى سعدا بخطاب فى ٢٥ من فبراير قال فيه :

« نعم اننا على رأيكم من ان وجود هيئة وزارية تعمـل على تحقيق الامانى القومية وتثق بها الامة فى ذلك من أهم الامور ... ولكننا نرى أيضا انه لا يصح أن تستأثر هذه الهيئة بالمفاوضة وحدها وبوضع النظام الدستورى للبلاد ، بل يجب أن يكون هذا بالاشتراك مع الوفد وطريقة العمـل فى ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى للوصول الى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح الانجليزية والاجنبية ووضع مشروع نظام دستورى للبلاد ، ثم تعهد المفاوضة لهيئة تضم بعضا من أعضاء الوزارة وبعضا من أعضاء الوفد » .

تجلى الموقف السياسى فى صراحة بين سعد وعدلى ولجنة ملنر :

كان سعد يرى حلا لا مغالطة فيه ، يترك للوزارة ما هو لهم ويبقى للزعامة ما هو لها ، فلتفاوض اذن الوزارة الصـــديقة ، الانجليز ، متى ضمنت سلامة المفاوضة وعرض النتيجة على الامة .

وكانت سياسة عدلى تقوم على خطة الانتفاع بنفوذ سعد ثم الاحتراس منه ، أو اشراك الوفد فى المسئولية خشية رقابته وتعقيبه .

ولقد حسنوا لسعد أن يعود الى مصر، ويرضى بالمفاوضة وأن يشترك بلفيف من أعضـــاء الوفد فى هذه المفـــاوضة ليدخلوه فى التبعية وهم قابضون على زمام الحكم .

ولقد أرسل «علي ماهر» الى «عبد الرحمن فهمي» في ٢٥ من فبراير سنة ١٩٢٠ يقول(١) :

« لا نزال في انتظار اجابة عن اقتراح وضع على أساس البلاغ الصادر من ملنر ، وهو انه يريد أن يتعاقد مع حكومة دستورية اذا طلب منه ألا يمانع في تأليف وزارة على أساس الاستقلال التام لتضع دستورا للبلاد وتؤسس به الجمعية الوطنية على شريطة أن الوفد لا يكون فيها لان المفاوضة حتى في أوروبا مع وجود حكومة بيدها الامر في البلاد وهي على غير مذهب الامة والوفد مستحيلة ... » .

أما ملنر فلم يستحسن مسألة الوزارة التي سبق أن دار عليها الكلام من قبل ، عندما فاتحه عدلي فيها ، فالفكرة عنده لا بأس بها ، ولكنه كان لا يرى من المصلحة تغيير الوزارة في ذلك الوقت ، عندئذ قال عدلي : انه لم يبق سوى حل واحد وهو أن يتفاوض مع الوفد .

ويقول سعد في كتابه من باريس الى « عبد الرحمن فهمي » في ٦ من ابريل سنة ١٩٢٠ (٢) استكمالا لهذا كله :

« انه قبل قيام اللورد ملنر من مصر تكلم مع « عدلي باشا » بشأن المفاوضة بلندن وانها تكون بوساطة لجنة مؤلفة منه ومن بعض أصدقائه وبعض أعضاء الوفد ، وطلب منه أن يرسل جوابا اليه بما يتم الاتفاق عليه بيني وبينه في هذا الخصوص وهو (أي عدلي باشا) سيحضر الى هنا قريبا ويتكلم معنا في هذا الموضوع الذي لم نبد له رأيا فيه ... » .

ثم طلب سعد حضور من يرغب من أعضاء الوفد الى باريس للاشتراك في هذه المكالمة .

وحول هذا التاريخ ختمت لجنة ملنر أعمالها في مصر فأصدرت في السادس من شهر مارس ١٩٢٠ بيانا رسميا قالت فيه :

انها أنجزت بحوثها وأجلت الباقي الى أن تجتمع في لندن لتضع تقريرها ، ثم عاد رئيسها في نهاية هذا الشهر الى بلاده بعد أن وضع يده على حقائق كبيرة .

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٢٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

ونجحت الثورة فى القضاء على التحدى البريطانى فى معركة الحماية مما أفسد عليها خططها •

ولم تتوقف الثورة فى مسيرها ، وقف الجهـــاز السرى حتى بعد انتصـارها فى معركة الحمـــاية ، يرد عنها كيد الخصـوم من الرجعية والدسائس والموالين للاحتلال وكان دوره فى الحفاظ على الخط الثورى دورا قويا حمى مجراها الرئيسى من العبث حتى دخلت الثورة المفاوضات متماسكة •

يقول « عبد الرحمن فهمى » فى كتابه الى سعد زغلول فى ٢٨ من ابريل سنة ١٩٢٠ : (١)

« بعد أن أراحنا الله من نادى الاعيان أولا ، ثم حزب الاحرار ثانيا عاد « محمد ابراهيم هلال » الى عمل صحيفة سماها صـــحيفة الاتحاد الوطنية ظاهرها حلو وهو الدعوة الى الاتحاد والقيام بالسعى الى استقلال مصر بالطرق المشروعة ، ولكن باطنها السم الزعاف حيث ان أساس عملها الداخلى هو الطعن فى الوفد والتشهير به وتوكيل وفد آخر برياسة «محمد سعيد باشا» ومن معه من أقطاب الدساسين • ولقد ادخلت فى هذه الجمعية أكثر من شخص لامكان الوقوف على أسرارها وأعمالها حتى تأتينا النقود ولله الحمد ها هى ذى وصلت فســتحارب محاربة نلحقها بالحزب الحر المستقل ، ان لم يكن بأكبر من هذا فاطمئنوا ••• » •

مضت الثورة متماسكة ، حتى بداية عهدها بالمفاوضات ، ومن ثم بدأت فى ظلها مرحلة جديدة فى مجرى التطور القومى فى حياة الثورة •

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٢١٣ •

الفصل العاشر

الثورة وشكل الحكم

في مواجهة أسرة "محمد علي"

انطلقت الثورة هادفة أساسا لتحقيق الاستقلال التام ، ولكنها نحت في أثناء المسير اتجاها انبثق من الايمان بسيادة الأمة بين طليعة من المثقفين وعلى رأسهم «سعد زغلول» استثاره موقف أسرة «محمد على» من الثورة ، تستهدف فى مواجهتها بلورة ارادة الامة السياسية لاقامة نظام من الحكم المصرى الصرف يقوم فى تنظيمه وشكله بالانتخاب العام بما يدعم الاتجاه القومى ويستكمله •

ومن نبعة ايمان سعد بسيادة الامة انبثق ذلك الاتجاه ، وقد مكنته الثورة وموقف أسرة «محمد على» من التعبير عنه تعبيرا ايجابيا يسمو الى مستوى العمل الثورى ، ومن نبعة ذلك الايمان لم يكن يرى سلطانا يعلو على ارادتها ولا ولاء يوجب الطاعة الا الولاء لارادتها ، وعلى ذلك فلا طاعة الا لمن اختارتهم ليمثلوها أو تمارس بهم سلطاتها ، ولا سلطة الا اذا كانت ثمرة هذه الارادة •

فاذا كانت الامة قد اختارت الوفد من أجل قيـادة النضال القومى فتلك كانت ارادتها ، فاذا كانت الامة قد انطلقت بالثورة بما سما بهذا التنظيم الى مستوى القيادة الثورية فقد أصبح التشدد فى الولاء للوفد من مستلزمات الولاء للامة والثورة يقتضى دعما للثورة وحمايتها وانكار كل تنظيم لا يكون مصدره ارادة الامة وعده غير شرعى لا تجب طاعته •

واذا كانت الامة قد ثارت من أجل الاستقلال فاحترام ارادتها يقتضى من الوفد بوصفه الممثل الوحيد للامة سلوكا ايجـــابيا فى مواجهة أسرة « محمد على » لاستكمال ذلك عند تحقيقه ، بالعمل على اقامة نظام من الحكم المصرى الحر يستلهم وجوده وشكله من ارادة الامة ، فاذا كان ذلك متعذرا قبل تحقيق الاستقلال فلا أقل من أن يتخذ ذلك فى ظل الثـورة شكل النضال من أجل حمايتها ضد العناصر الخارجة على ارادتها ، وضد تمادى كل سلطة غير شرعية ، بما يصون خط النضال الثورى ، فاذا ما تحقق

الاستقلال كانت ارادة الأمة هى الحكم فمنها يكون نظام الحكم ، وطبقا لمشيئتها يتحدد شكله •

ولقد نهض سعد على رأس الوفد من نبعة ايمـانه بسيادة الامة ، لا يعرف غير الوفد ممثلا للأمة ، ويشعر بواجب العمل على دعـم الاتجاه القومى الثورى حتى تقول الامة كلمتها فى مواجهة أسرة «محمد على» عند تحقيق الاستقلال •

وكان سعد ينظر للطامعين فى سلطات السيادة ، والثورة لاتزال فى مشرقها من أفراد أسرة « محمد على » نظرة الخوف على الثورة فى اتجاهها القومى ، وكان هؤلاء بين : طامع بالاستئثار بالسلطة وبين باحث وراء سلطة ضائعة أو فى سلطة لاحقة •

واذا كانت الثورة قد مكنت سعدا من التعبير عن اتجاهه الكامن فى ايمانه بسيادة الأمة فقد زاد تلك النزعة استثارة موقف هؤلاء من سلطات السيادة ، وموقف الطمع على حساب الاتجاه القومى ، بما نمى فى سعد روح التحدى للنظام القائم فى ولائه لارادة الأمة •

بدأ سعد يشعر بهذه الروح ، فى خطورة هذه الأسرة وعلى رأسها السلطان « أحمد فؤاد » على الاتجاه القومى منذ أن قبـل استقالة وزارة رشدى كما أسلفنا سابقا ، فقد كانت هذه بداية التحدى للاتجاه القومى فى اطار الاتجاه البريطانى الاستعمارى •

ولقد بدأ ذلك الشعور يتجلى ازاء احمـــد فؤاد اثر قبول استقالة حسين رشدى فى الكتاب الذى رفعه الوفد الى السلطان ، فقد احتوى ذلك على عتاب شديد بل على اعتراض قوى على قبول استقالة الوزارة ، وعد الوفد ذلك القبول من « أحمد فؤاد » معاونة لبريطانيا فى اذلال الشعب •

فلما انطلقت الثورة وجعلت من سعد قائدا وزعيما ، ومكنته بظروفها من التعبير عن اتجاهه السياسى الحر تحول هذا الشعور الهادىء الى لون ثائر صريح يعلى ارادة الأمة على كل سلطان جار على هذه الارادة ، فلم يعد سعد هؤلاء الطامعين وعلى رأسهم « أحمد فؤاد » الا خارجين على ارادة الأمة ، طامعين فى ســــلطان ، وأن ليس ثمة نظـــام شرعى الا اذا قام على اختيار الشعب فاذا لم تتح الفرصة له للتعبير عن ذلك فلا أقل من الحفاظ على الخط الثورى بمطاردة هذه العناصر حتى تقول الأمة كلمتها فى شكل الحكم فى النهاية •

وبدأ سعد يعبر عن شـــعور البرم والتحدى ازاء السلطان « أحمد

فؤاد » وذلك بعد انطلاق الثورة وهو في منفاه في مالطة ، فتراه يعلق على ما سمعه ـ اذ ذاك ـ من انفجار الثورة فيقول في ٢ من ابريل عام ١٩١٩ : ان أخبار المظاهرات ملأت قلبه (١) سرورا وابتهاجا ويقول :

« نعم ٠٠ مازج هذا السرور كثير من الأسف على النفوس التى أزهقت ، والمدن التى أحرقت ، ولكن أى مجد قام بعد هذه الضحايا ؟

« زعم بعض رجال السياسة فى مجلس العموم أننا هددنا السلطان وعطلنا تشكيل الوزارة ، ولكن سياستهم الخرقاء هى التى ترتب عليها هذا التعطيل لأنهم منعونا من السفر لابداء مطالب قومنا .

« والكتاب الذى أرسلته للسلطان لاشىء فيه من التهديد ، بل هو مملوء بالاحترام لشخصه والحرص على مقامه ٠

« فان كان يعد رفع رغبات الأمة الى سلطانها تهديد له فنعم هذا التهديد ، ومن الفخر الكبير ان نتحمل مسئوليته أمام أية سلطة شرعية.

« ومهما كانت طبيعة الحوادث التى حصلت فى مصر بعد قيامنا فانها جاءت قارعة شديدة فوق ما كان يقدر المقدرون ٠٠٠ » ٠

أخذ سعد يعبر عن رأيه ويجاهر به من نبعة ايمانه بسيادة الأمة ، ولم يكن لها غير النظام الذى يبلور ارادتها ، ومع تطور الثورة أخذ يفصح عن هذا الرأى .

بلغ سعدا ظهور اتجاه الجمهور بين صفوة مصر الثائرة ، وكان من الطبيعى أن ينمى ذلك من تحديه للأسرة المالكة ويبرز اتجاهه ، ومن ثم لم يرضه ، بعد ذلك ، الا أن يعمل فى اتجـاه يستكمل به الاستقلال اذا ما تحقق ، فلا يكون ثمة نظام للحكم فى ظل الاستقلال الا ما يبلور ارادة الأمة السياسية شكلا وموضوعا ٠

ويكتب سعد فى اليوم الذى عبر فيه عن أثر انطلاق الثورة فى نفسه عن الجمهورية لأول مرة فيقول :

« ومما يدهش القارىء ماروته جريدة التيمس ، من أنه نودى فى الزقازيق بأنها جمهورية !

« فهل تبدلت الأمة المصرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضت بعد

---

(١) الاخبار فى ١٩٦٣/٨/١١ ٠

سفرنا من البلاد ، أو أن القوم يكثرون فى الحديث ويبالغون فى شأنها بغية الوصول الى غرض يرمون اليه ؟ » .

وقد أخذت فكرة شكل الحكم ونظامه تنال من اهتمام «سعد زغلول» وتنضج وهو فى باريس (١) ، فقد كان يرى — اذ ذاك — أن مصر هى التى تختار نوع الحكم بعد الاستقلال ، وكانت اثارة هذه المسألة بين أعضاء الوفد مسألة حساسة بلا جدال .

ولقد نشرت رويتر أوائل يناير عام ١٩٢٠ عن (٢) جميع الصحف العالمية أخبارا جاء نصها : « صرحت جريدة التيمس بأن لديها وثائق تثبت أن قلب السلطنة المصرية سيكون من أول نتائج انتصار المتطرفين فى مصر » .

وبالرغم من أن هذه الصحيفة لم تنشر هذه الوثائق ، فقد كانت الدلائل — اذ ذاك — تشير الى وجود ذلك الاتجاه بين الوفد ، وكان ذلك يثير قلقا بين أعضاء الوفد . وكان « سعد زغلول » وهو يمضى فى اتجاهه مؤمنا به يجد ما يغذيه كرها فى فؤاد ونظام الحكم ، وقد تلقى وهو فى باريس فى ١٧ من مارس ١٩٢٠ من « عبد الرحمن فهمى » رسالة تنم عن عدم استعداد فؤاد للتجاوب مع الثورة فى أهدافها القومية ، وانه كان يحمل دعوة تخاذل خطيرة فيقول :

« استدعى « شفيق باشا » وزير الأشغال الآن « محمود بك فايد » الذى كان موظفا بالرى من مدة ، وألح علية كثيرا فى أن يقبل أن يكون عضوا باللجنة الانجليزية التى استدعيت لبحث مشروعات خزانات ورى السودان ، وبعد الحاح طويل عليه من الوزير بلا جدوى قاده لمقابلة رئيس الوزراء ، وهذا بذل كل ما فى وسعه لاقناعه بالقبول ، فلم يفلح ، فأخذه بعد ذلك وزير الأشغال وقدمه للسلطان الذى ألح عليه كثيرا بالقبول فكان جوابه للسلطان : انه لا يمكنه قبول مثل هذا العمل قبل أن يستطلع رأى الامة . ولما كرر هذه الجملة أكثر من مرة أمام السلطان قال له : أين الرأى العام الذى تريد أخذ رأيه ؟ فقال له : هو يتشخص فى نوابه وهو الوفد ولجنته المركزية ، فاجاب السلطان قائلا :

دول طالبين الاستقلال التام والانجليز والآمة العظيمة الكبيرة دى كيف

(١ ، ٢) الاخبار في ١٩٦٣/٨/١١ .

أنها تخرج من هنا واحنا خمسين فى المائة من حقنا أو حتى ٤٥ فى المائة منه كفاية فلا تضيع علينا هذه الفرصة يا محمود بك واقبل !؟ » .

فرفض ذلك فى النهاية.(١) .

وبينما كان سعد يروج الفكرة بين أعضاء الوفد فى باريس كان العمل يجرى سرا من أجلها فى مصر ، وهو يأخذ صورة المقاومة الموجهة ضد أفراد الأسرة المالكة بما يصون خط الثورة الأصيل حتى يحين الوقت للجهر بالدعوة الجديدة .

وفى الرسائل السرية ما يكشف حقا عن حقيقة ذلك النضال ضد دسائس أسرة « محمد على » بل وعدم الاعتراف بسلطانهم ولا مركز السلطنة ذاتها .

لم يكن صلاح الثورة أو فسادها يهم أسرة « محمد على » الا بقدر ما يرد منها من خلال مصالحهم الذاتية ، وعلى رأسهم — اذ ذاك — السلطان فؤاد ، ولكن كانت ثمة حركة واعية تتمثل بين لفيف من أفرادها شاءت أن تمضى مع الثورة ، لاكرها فى الانجليز بقدر ماكان الدافع الرغبة فى فرض الوصاية على الثورة بما يحقق طموحا فى زعامتها ، كان قد ضاع على يد الوفد من قبل ، ويمنع اتهاما قد يوجه من الظهور بمظهر العزلة عن الحركة الشعبية ، وكان على رأس هؤلاء « عمر طوسون » .

لم يكن متوقعا ، بعد أن حيل بين عمر طوسون ، وزعامته للحركة القومية منذ البداية أن يقتنع الرجل الطامع فى الصدارة ، بالقدر الذى وقف عنده من ذلك . بل يمضى فى اتجاهه بكبريائه الجريح ، والنقمة تملأ قلبه على الوفد دون اعتراف بالهزيمة ، فلا يجد مخرجا للتعبير عن ذلك غير أن يحاول فى الظاهر ، بعد انطلاق الثورة أن يجاريها فى امعان ليوارى بذلك الهزيمة ويكسب به ثقة الجماهير ، فيحاول من ثم فرض الوصاية على الثورة بما يرضى كبرياءه الجريح ثم يتخذ المغالاة والتصدى من ناحية أخرى ، سبيلا لاحراج الوفد والنيل منه .

كان من الممكن « لعمر طوسون » أن يكون ركنا مفيدا للثورة لمكانته وثرائه وما أوتى من قدر من الوعى القومى ، ولكنه ضل الطريق الى حد كبير ، فلم يكتف بالمغالاة بالتشيع للحركة على رأس لفيف من أفراد أسرته ، دون اعتراف بالوفد ولكنه حاربه بنفوذه وماله .

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ١٩١٩ ، ص ٢٠١ .

وبالرغم من أن حركة الأمراء وعلى رأسها « عمر طوسون » ، كانت في ظاهرها ذات أثر في تغذية الشعور القومي وتعبئته الى حد ما ، فقد كانت في باطنها خطرا ، كان جديرا باثارة قلق زعيم الثورة ورئيس الوفد على كيان الثورة من العبث بمشيئة الأمة في شخص الوفد •

شاء « عمر طوسون » مجاراة الثورة ولكن في اسراف من أجل مزاحمة الوفد ، وذلك في تصدره للاحداث وللجماهير بمختلف الوسائل في الازمات التي كانت تمر بالثورة ، وقد بدأ بهذا النشاط وكأنه هيئة سياسية مستقلة ، تعمل بجانب الوفد غير موكلة من احد ، ولا تعترف بالوفد في تحد واضح •

وقد نشط في عدة نداءات فلم يبد ثمة ذكر للوفد ولا لوكالته فيما أصدره من نداءات ففي ٣ من يناير ١٩٢٠ وجه نداء الى المصريين باعلان مشاركة الأمراء الأمة في أمانيها ومقاصدها وتضامنهم مع الأمة في المطالبة بحقوقها الشرعية دون ذكر للوفد (١) •

ولا جاء ذكر ذلك في الرد على بلاغ اللنبي الصادر في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٩ حيث يقول : « اننا لا نصر على الموافقة التامة على جميع مطالب الأمة المصرية فقط ، بل ننضم اليها ليكون منا جسم واحد للمطالبة بحقوق وطننا والتمسك بالاستقلال التام لمصر » (٢) •

وتصدر البيانات كلها من الأمراء فتبدو كأنها هيئة مستقلة لا تعترف بالوفد بقدر ما تعنى بمزاحمته في اطار العمل القومي !

ولم يكتف عمر طوسون بهذا ، فبينما كان قد نفض يده من معاونة الوفد ، كان ينفق المال لمحاربته ، وفي مواجهة الجماهير لم يكتف بالبيانات السياسية بل تصدى لها في مواقف أخرى بغية كسبهم مما تجلى في بيانه الى الامة ، لمعاونة الجمعية الخيرية الاسلامية دون أن يكون فيها لا عضوا ولا مشتركا ثم دعوته الثانية الى الامة لمعاونة الجمعية القبطية بالاكتتاب والتبرع •

ويتجلى التحدي في مزاحمة الوفد على صورة أخرى في البيان الذي أصدره ستة من الأمراء وعلى رأسهم « عمر طوسون » في ٣ من يناير سنة ١٩٢٠ عند حضور لجنة ملنر في مصر فيما بدا منه من غلو محرج

---

(١) عمر طوسون : كلمات في سبيل مصر ، ص ٨ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٩ •

فيما طالبوا به ، فقد أعلنوا فيه أنهم يطالبون باستقلال مصر استقلالا تاما بدون قيد ولا شرط كما أرسلوا الى ملنر خطابا بهذا المعنى .

وبقدر ماكان ذلك البيان فى شكله العام ذا أثر فى اثارة الروح القومى على نحو أظهر التضامن بين الشعب والامراء ، فانه لم يستطع مواراة ماكان ينطوى عليه من رغبة فى تحدى الوفد فيما تجلى من اصطناع الغلو والتصعيب بين طرفى الاتفاق اذ ذاك ، وقد مضى بذلك الغلو حدا بدا منه ذلك البيان مخالفا لاتجاه السلطان الضالع مع الاحتلال ، وامعانا منهم فى سبيل الظهور بمظهر التضامن مع الثورة ، جاء بيانهم بمثابة حكم بخيانة ذلك السلطان !

واذا كان لكل الحق فى التعبير عن شعوره القومى بما يعزز خط النضال الثورى الموحد ، فقد كان ذلك مصدرا يقلق سعدا من حركة الامراء أنها وهى تصدر منهم تتعدى معنى أداء الواجب الوطنى فى ذلك الى أغراض أخرى ، ونظرا لان الشيء الواضح الذى كان يثير قلق الوفد هو خلو البيان من الاشارة الى الوفد كما أسلفنا ، أرسل سعد الى « عبد الرحمن فهمى » فى ٢٧ من يناير عام ١٩٢٠ رسالة عبر بها عن قلقه وغضبه من ذلك قال (١) :

« سرنا أن ظهر الآن من علياء الشأن فى الميدان بعد أن بقوا فى الخفاء كثيرا من الزمان ، بل بعد أن عاكس الحركة بعضهم بأقواله وأمواله أظهرنا سرورنا بدخولهم فيما أرسلناه لكم ونشرتموه فى الجرائد ، ولكنا وجدنا تصريحهم خاليا من ذكر الوفد .. ان الأمة أجمعت أمرها قبل دخولهم ، على طلب الاستقلال التام وسارت فى الطريق شوطا بعيدا بدونهم كأنهم لم يكونوا موجودين ، فهل أنتم مراقبون لهذه الأحوال ، واقفون على أسرارها ... ان الرياسة لا تهمنى فى شيء ولكن يهمنى أن تبقى الامة وهذ الروح التى أدهشت العالم بجلالها وكمالها وأن تبقى الحركة حركة قومية ترمى الى تحرير البلاد من ربقة الاستبعاد وان تتمتع بالحرية الحقيقية ... ! » .

واجتهد « عبد الرحمن فهمى » فى فهم الموقف حتى ألم بجوانبه فوضع يده على تكتل معاد للوفد يتشكل من « محمد سعيد » والأمير والحزب الوطنى يستخدم أموال عمر طوسون وان « محمد سعيد » بصدد توجيه ضربة للوفد بدعوى قبوله للمفاوضة قبل اعلان انجلترا الاستقلال التام.

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٤٦ .

ولقد أرسل « عبد الرحمن فهمى » الى « سعد زغلول » فى ١٨ من فبراير عام ١٩٢٠ تقريرا عما حدث فقال :

« كنا مراقبين من قبل حركات وسكنات « سعيد باشا » فأعددنا له العدة منتظرين أن يبدأ حملاته التى بعثها فى طى الخفاء مع بعض رجال الحزب الوطنى وجريدة الأهالى ، وبمجرد أن ظهر بجريدة الأهالى مبدأ هذه الحملة ، أرسلنا جنودنا الى مدينة الاسكندرية بعد أن سهلنا لهم الطريق وحملوا عليه حملة صادقة عقب صلاة الجمعة فى جميع مساجد الاسكندرية الشهيرة ... » .

ويقول : « أما الحزب الوطنى وبتفسير أصح زعانف الحزب الوطنى الذين يريدون الشوشرة على أعمال الوفد واستأجروا لذلك جريدة المحروسة ، فها نحن أولاء نستعد للقضاء عليهم أيضا عندما يبدو منهم ما يستحق ذلك فكونوا مطمئنين من هذه الجهة (١) .. » .

لم يكن « عمر طوسون » اذن مخلصا ومتجاوبا للفكرة القومية لذاتها ، ولا كان غيره من أفراد أسرته مخلصا ، فلم يكن عجبا أن يبدو أحد أعضاء الامراء الستة حول هذه الايام التى أصدروا فيها بياناتهم بوجه آخر ليرضى الاحتلال بعد أن جارى الحركة القومية لأنه لم يكن ولا كان غيره على درجة من الايمان بالقومية ، وهو كمال الدين ، فقد شاء ذلك أن يجمع مبلغا لاقامة تذكار لكتشنر ، فجمعت مبالغ كبيرة بقصد صنع تذكار لكتشنر ، وتولت جمع هذه المبالغ لجنة برياسة كمال الدين ، وقد جمعت كالاموال الاميرية ، اذ كانت قد كلفت الصيارفة تحصيلها من المولين حيث توزعت على كل فدان وذلك كما جاء فى التقرير السادس بين سعد وبين اللجنة المركزية للوفد فى ٥ من فبراير عام ١٩٢٠ ويتساءل سعد : « هل يمكن تحويل هذه المبالغ للوفد ويكفى أن اللجنة التى تولت تحصيلها تكرر ذلك فى اجتماع يعقد لهذه الغاية ؟ » .

كان الوفد في حاجة للعون المالى عموما من مثل ذلك المال المنزوف من دماء الشعب لمعاونته على أداء رسالته ولكن الوفد لم يكن فى حسبان الساعين وراء جمع ذلك المال ، وكان فى حاجة للعون المالى من عمر طوسون ، ولكن ذلك كان يقف من الوفد من ناحية المساعدات المالية

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .

موقف التحدى ، فهو لا يقبض يده عن عونه فقط بل يتخذ من المال سبيلا لمحاربته لأنه خصم ومن المال أيضا سبيلا لمزاحمته بين الجماهير فى محاولته معاونة الجمعيات الخيرية .

ويسأل سعد فى تقريره الخامس عشر فى ١١ من ابريل سنة ١٩٢٠ عن غاية عمر طوسون (١) فيقول :

« قرأنا فى الحال أن البرنس « عمر طوسون » يتبرع بمبلغ خمسمائة جنيه (الحقيقة خمسة آلاف) للجمعية الخيرية الاسلامية ويوجه للأمة نداء أن تنهض لمساعدة هذه الجمعية ولكن البرنس عمر يعد بعيدا عن هذه الجمعية ، ولم يكن من مؤسسيها وربما لم يكن من المشتركين فيها ، فما الذى وجه التفاته اليها ، وحمله على أن يجود بذلك المبلغ الطائل ؟ هل له غاية تعلمونها ، أو عليكم أن تعرفوها ؟ وأرجو أن تكونوا وقفتم على مصدر الحركة للخديو عباس وعلى القائمين بها ، وأملى أن تبذلوا همتكم فى القضاء عليها · فلا شىء يشوه حركتها ويعطل سير قضيتنا أكثر من أن ينتسب اليها عامل أجنبى ، أو عامل ذو سلطان سابق أو طامع فى سلطان لاحق » ·

ولقد رد عليه « عبد الرحمن فهمى » فى ١٤ من أبريل سنة ١٩٢٠ قائلا : ان اخوانه زاروه فى الرحمانية فقال لهم فى صراحة : « انه ليس لديه ثقة فى نتيجة أعمال الوفد » ومن هذا يتبين الرأى القائل باشتراكه مع سعيد وبأنه المورد الثانى الذى يدر عليه المال .

وبقدر ماكان سعد يشعر بتحدى « عمر طوسون » لارادة الأمة فى تحديه للوفد ، ونظرا لأنه لم يكن يستبعد تعيينه بدلا من السلطان فؤاد لنفوذه ، فيسىء باقترابه من هذا المركز ، الى الاتجاه القومى اساءة مباشرة الى سيادة الأمة ، فقد كتب فى رسالته الى « عبد الرحمن فهمى » يطلب منه تدبر الموقف ، يقول سعد فى رسالته :

« ان الأفكار الانجليزية لا يبعد أن تكون متجهة الى تعيين الأمير « عمر طوسون » خلفا للسلطان فؤاد وذلك بسبب ميل الأمة اليه ونفوذه فيها ، وما له من الأعوان بين رجالها فيمكنه أن يجعل الأمة تقبل النظام الذى يريدونه موضوعا لمصر على مبادىء بعيدة عن الاستقلال التام فى الباطن قريبة منه فى الظاهر !

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ١٠٦ ·

« وفى ظنى أنه يمكن محاربة هذا المشروع بالنشرات السرية التى تحذر الاقتراب من هذا المركز الا بارادة الأمة وبناء على انتخابها بعد الحصول على استقلالها التام وان كل قبول لهذا المركز بسلطة الانجليز مهما كان اسم هذه السلطة يعد خيانة للأمة ثم حذره أن يطوى هذه الفكرة طى الكتمان (١) ٠

ومع ذلك ، فلم يكن هذا هو كل نشاط أسرة « محمد على » لعرقلة الحركة القومية فقد كتب « عبد الرحمن فهمى » فى الثانى من ابريل الى « سعد زغلول » :

« انه قد ظهرت فى الأيام الأخيرة حركة غريبة جدا وهى الهتاف للخديو عباس وبالبحث علمنا أن من بين المشجعين عليها الحزب الوطنى ولا أعلم : هل كانت يد الانجليز هى المحركة من بعيد لهذه الحركة المضادة لمصلحتنا العامة ؟ فنرجو التعجيل بتوفير المبالغ اللازمة للأعمال السرية » ٠

ثم عاد يكتب الى سعد فى ٢٨ من ابريل عام ١٩٢١ قائلا :

« وبحثت عن سبب المناداة بحياة عباس فوجدت انها دسيسة آتية من «سعيد باشا» باتفاقه مع أعضاء الحزب الوطنى فحاربتها محاربة شديدة الى أن زال أثرها (٢) » ٠

وكان السلطان فؤاد كأفراد أسرته يحقد على الثورة ، ولكن فى تحد ، وكان أخطرهم تحديا لها لأنه كان يمارس بحكم مركزه سلطات من السهل استخدامها لتسىء الى الصالح العام ٠

وكان الشعب قد بدأ يدرك موقف فؤاد من الثورة ، فكانت له مواقف تنم عن اعلانه عدم الثقة به ، فقد حدث أن أعدت وزارة الاوقاف يوم الجمعة ١٦ من مارس سنة ١٩٢٠ الموافق عيد ميلاد فؤاد صيغة جديدة لخطبة الجمعة بهذه المناسبة ووزعتها على خطباء المساجد لقراءتها فى ذلك اليوم ، فما ان سمعها الجمهور ، وكانت بأسلوب مختلف عما سبقتها من الخطب فى المساجد ، حتى هاج ونادى بهتافات عدائية ضد السلطان وأنزل بعض المصلين الخطباء من منابرهم !

---

(١) الاخبار ١١/٨/١٩٦٣ ٠

(٢) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٤٨ ٠

ولقد أوجب السخط الذى قام به المصلون تغيير خطبة الجمعة .

ويوضح « عبد الرحمن فهمى » فى رسالته الى سعد فى الثانى من ابريل سنة ١٩٢٠ ذلك الامر فيقول :

« أعلن عن تشريفات عامة لتقديم التهنئة للسلطان يوم الجمعة ١٦ من مارس وهو يوم عيد ميلاده ، ولكن لم يحضرها الا النزر القليل بل القليل جدا ، لأن أقاليم برمتهــا لم يحضر منهــا الا مديرها وأقاليم لم يحضر مع مديرها الا ما يعد على أصابع اليد الواحدة أو اليدين ، ولم يحضر هذه التشريفة من رجال الجمعية التشريعية الا أربعة مع « مظلوم باشا» وهم : « مرقس سميكة ويوسف قطاوى وخالد لطفى وحسن باشا توفيق » وكلهم من المعينين من قبل الحكومة وكان الاستياء الشديد والقلق العظيم ظاهرين على محيا السلطان ، وقامت مظاهرات كبيرة حول السراى تنادى بسقوط السـلطان تارة وبسـقوط الوزارة تارة أخرى (١) .

وبينما كان سعد يوجه الجهاز السرى من باريس لمقـاومة دسائس أسرة « محمد على » وموقفها المزرى من الثورة ، الحائق على الوفد حتى تحين الفرصة لتقول الأمة كلمتها فى شكل الحكم ــ كانت فكرة شكل هذا الحكم تشغل بال سعد فى باريس ، بما يحقق لمصر حكما مصريا صرفا ودستورا حرا يكون ثمرة ارادة الأمة .

ومع انتقال هذه الآراء من باريس الى السلطان فؤاد كانت المعركة بين الثـورة وأسرة « محمد على » تتطور لتتركز حول شكل الحكم بين سعد والانجليز على مسرح المفاوضات .

كانت أراء سعد وأحاديثه تصل الى فؤاد عن اتجـاهه السـياسى الجديد فى نظام الحكم المزمع اقامته بعد الاستقلال وكان قلقا من تلك الاخبار التى كانت تأتيه عن ذلك الاتجاه الذى كان يتزعمه سعد (٢) .

يقول الدكتور يوسف ناس : انه لما تبع الوفد الى باريس طلب منه فى الحاح أن يكتب للسراى من باريس واطلاعها على ما هو جار فى الوفد ، وقد كانت الأنباء تأتى الى السلطان مفصلة وكان هذا السلطان منزعجا

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٢) دكتور يوسف نحاس : ذكريات سعد وعلى ماهر ورفاقه فى ثورة ١٩١٩ ، ص ٥٩ .

ـ اذ ذاك ـ من محاولة سعد اثارة مسـألة العرش وأنه كان يحس بتسليم رأسه للمتطرفين .

ولقد استطاعت بريطانيا ـ اذ ذاك ـ بوصـفها الدولة الحامية الضامنة لحقوق فؤاد فى العرش أن تتحقق من الاتجاه ، ثم ما لبث الامر أن تجلى فى وضوح أكثر بين مفاوضات « سعد ـ ملنر » ، كما كشفت عنه مذكرات سعد زغلول ، فيقول سعد فى مذكراته فى ٧ من يونيو :

« فى هذا اليوم حصلت هذه الزيارة الخصوصية فاستقبلنا اللورد استقبالا حسنا ، وبعد تناول الكلام فى السفر وما فيه من راحة ومشقة دار الكلام فى موضوع المسألة المصرية ... وخلاصته أن فى مصر نظاما ما موجودا وأنتم تريدون أن تغيروه فجأة فما النظـام الذى تريدون أن تضعوه مكانه ؟

قلت : أنا أريد نظاما دستوريا تكون فيه الحكومة المصرية صرفة مؤلفة من برلمان ووزارة مسئولة وحاكم .

فقال : أفلا تخشى حصول اضطرابات اذا حصل هذا التغيير فجأة فيحدث فى مصر ما حدث فى غيرها من البلاد الشرقية كالترك مثلا ؟ » .

ثم كتب سعد يقول: ان الوزير ملنر قال له: يهمنا جدا أن تكون مصر هادئة منتظمة متقدمة حتى لا يحدث فى مملكتنا أقل اضطراب فيها وأننا نخشى كثيرا حدوث الاضطرابات فيها عند تغيير نظـام فيها فجـأة ، وكذلك نخشى أن يعتدى الغير عليها كالطليان واليونان وغيرهما (١) .

اتضح اتجاه سعد فبدا ساعيا لاستكمال تحرير مصر بايجاد النظام الذى يبلور ارادة الأمة السياسية ، ومن نبعة ايمانه بهذا الاتجاه ، لم يكن يعترف بالسلطان فؤاد لأنه لم يعتل العرش بناء على ارادة الأمة منذ ان كان يمثل أثرا من آثار الحماية .

أما السلطان ، فقد كان من ناحيته يشعر بانزعاج لاتجاه سعد وموقفه على رأس الوفد لمعارضة الانجليز منفردا ، وكان طبيعيـا أن يتجلى ذلك الشعور منه تعبيرا بمقاومة الموقف .

ولما اتجهت بريطانيا الى مفاوضة الوفد ، علم ذلك السلطان بذلك فتميز غيظا وانزعج أشد انزعاج ازاء ذلك الموقف .

---

(١) الاخبار فى ١٩٦٣/٨/١٣ .

ولقد وضح « عبد الرحمن فهمى » فى رسالته فى شهر مايو عام ١٩٢٠ الى « سعد زغلول » فى باريس فقال :

« السلطان يتميز غيظا من اتجاه مفاوضة الانجليز للوفد بدون أن يلتفت أحد اليه وهو يعمل على السعى فى ايجاد حزب بالبلد ينادى بتوكيله وانابته فى المفاوضة .. هذه الفكرة هى التى دعت الى تغيير الوزارة ، فيقولون ان «نسيم باشا» تعهد للسلطان ببذل الجهد لتحقيق هـــذه الغاية ، ونحن لانخشى نتيجة هذه الدسيسة الجديدة والحكومة مهمـا تذرعت بوسائل الوعود والوعيد فلن يمكنها أن تصـل الى نتيجة تفخر بها ، ولكن على كل حال لاشك أن هذا المظهر الجديد اذا قدر ووصـل الى شىء ولو تافه من النجـــاح فانه يظهر الأمة بمظهر الانقســام ، لذلك سنتخذ احتياطات فوق العادة » (١) .

وتبدأ المفاوضات فيصل فى أثنائها الى لندن فجأة «واصف غالى» وقد كتب سعد يقول (٢) :

« حضر أمس « واصف بك غالى » وأكد أن الحالة حسنة فى مصر ، ولكن هناك دسائس تبث من ناحية السراى وغيرها لعرقلة أعمال الوفد» .

ويزداد الموقف ايضاحا من مراجعة مذكرات سعد فهو يكتب تحت عنوان (٧ منه) أى ٧ من يوليو يقول :

« حضر مستر ولرند (مندوب اللورد ملنر) الساعة السادسة مساء واخبرنى بأن اللورد ملنر كان قد أرسل تلغرافا الى اللورد اللنبى (المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ٣٠ من يونيو) جوابا عن أسئلته المتكررة عن سير المفاوضات ، وأطلعنى على هذا التلغراف بالانجليزية ، وترجمه بمساعدة «محمد محمود باشا» .

وجاء فى التلغراف :

الغرض الذى نرمى اليه هو عقد محالفة بين بريطانيا ومصر تضمن انجلترا بها استقلال مصر وسلامة كيانهـا بصـفة كونهـا مملكة ملكية ودستورية .

وجاء فى التلغراف :

كل معاهدة من هذا القبيل ستأخذ شكل محالفة من خلال الملك

(١ ، ٢) الاخبار فى ١٩٦٣/٨/١٣

والسلطان ويصير من الضرورى تدخل السلطان عند انتهاء المفاوضات بمجرد تحقيق اللجنة من أن « زغلول وزملاءه » يؤيدون هذه المعاهدة ولم يحصل الكلام فى جميع المحادثات التى جرت على مركز السلطان ولا على قانون الوراثة • وكان المتفق عليه فى أول الامر أن هذه المحادثات لاتكون الا جسا للنبض ثم اذا أخذت شكلا ، كما هو المنتظر ، يكون من الضرورى تجاوز هذا الدور الرسمى مع مندوبين رسميين يتعينون من الحكومة المصرية لوضع مشروع معاهدة تعرض على الجمعية التشريعية •

ويلزم أن يكون تعيين هؤلاء المندوبين بوساطة السلطان الذى يحل المكان الأول فى المفاوضات •

ومن البديهى أن « زغلول » وواحدا أو اثنين من زملائه « وعدلى يكن» (باشا) الذى كان لوجوده تأثير حسن معتدل يلزم أن يكونوا من ضمنهم •

ولاشك أن السلطان يريد أن يعين من له ثقة بهم مثل «مظلوم باشا» ومن المهم أن يكون هؤلاء من الذين يعطفون على السياسة المتبعة الآن ، فليتكلم المندوب السامى حالا مع السلطان ويعرض عليه الحالة الموجودة الآن ويقنعه بانه لم يكن فى نية حكومة جلالة الملك فى أى وقت أن تصل الى حل وراء ظهره ، وهناك بالطبع تفاصيل كثيرة يمكن حلها عند الوصول الى وضع المعاهدة •

وكتب سعد فى مذكراته يقول . (١)

« فاعترضت اعتراضا شديدا على ما تضمنه هذا التلغراف وقلت لمستر ولرند اذا كان اللورد ملنر أطلعنى عليه قبل ارساله كان غير مضمونه اذا لم يكن أطلعنى عليه فلم يكن لى من حق فى نقده ، أما وقد أرسله الى فقد حق لى الاعتراض عليه ، اننا لم نقبل ولن نقبل أية تسوية تقتضى أية مراقبة لانجلترا على مصر لا باطنة ولا ظاهرة ويعتبر الشعور الذى قام به اللورد ملنر مجردا عن كل أساس ، ثم اننا لا نقبل بأية حال بقاء عسكرى واحد من جيش الاحتلال كما لانقبل وضع نظام خاص للبوليس • وكذلك نرفض أن نتفاوض بأمر السلطان بالاشتراك مع أى انسان كان بل لانقبل هذا السلطان ! » •

بدا سعد بهذا قويا فى موقفه ، فى رفضه أية تسوية تقضى بفرض

---

(١) الاخبار في ١٩٦٣/٨/١٣ •

مراقبة بريطانيا على مصر وقد جاهر سعد برأيه فى عدم اعترافه بالسلطان ، احتراما لارادة الأمة فى شخص الوفد ، لذلك لم يقبل أن ينتدب مع زملائه من ذلك السلطان لأنه والوفد منتدبان من سلطة تعلوه وهى ارادة الأمة وفى ذلك الكفاية ، ولكن وقفت انجلترا تظاهر السلطان فاذا كان ذلك قد تولى العرش ثمرة مشيئتها فلا أقل من ضمان مركزه طالما كانت ترجو من ورائه خدمة الأغراض البريطانية لذلك لم تشأ ابعاده .

كان سعد وهو يتقدم بهذا الاتجاه فى مواجهة أسرة «محمد على» يستمد قوته من تأييد الشعب له وثقته به ، لا من تضامن الوفد فلم تكن مبادىء الثورة بحق تتمثل فى الوفد بقدر ماكانت تتمثل فى سعد والجهاز السرى ، ولم يكن متوقعا أن يجد سعد من يؤيده من بين الوفد لأنه وجد فيهم من أبدى انزعاجا وتخوفا من ذلك الاتجاه .

واذ يتجمد الموضوع على مائدة المفاوضات فلم يكن ذلك معناه انه انقضى لان المفاوضات على الاقل لم تنته الى نتيجة ما تمس مصير السيادة المصرية ، فقد بقى سعد على عهده مؤمنا بسيادة الامة مؤمنا بحقها فى اختيار نظام الحكم وشكله وهو يرى فى الوفد خير ما يمثلها ويرى فى السلطان وأسرته مغتصبين لسلطاتها الشرعية .

وقد تجلى ذلك فى الفترة السابقة على مفاوضات عدلى — كرزون عندما عاد سعد من أوروبا ، فاستقبلته مصر استقبال الفاتحين فلما جاء دور الكلام عن وفد المفاوضات شاء توجيهها بارادة الامة فتشبث أن يكون لرئيس الامة رياسة وفد المفاوضات ، دون اعتبار لمركز السلطان ، ولما رفض عدلى اجابته أخذ يخطب قائلا عبارته المشهورة : ان جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ! .

ولم يكن سعد فى زعامته لفكرته السياسية الشعبية فى نظام الحكم وشكله ، طامعا فى أن يكون له ملك (١) مصر بقدر ما كان ذلك استجابة لمبدأ سياسى ، كان يدين به ايمانا بعد أن مكنته الثورة من التعبير عنه .

على أنه اذا كان دأبه الولاء المطلق لهذه العقيدة فلم يكن لينثنى عن طاعة الأمة فى أرادتها لو شاءت انتخابه رئيسا للدولة .

ولقد كان سعد جديرا بل على حق ، فى زعامته لهذا الاتجاه الهادف لاقامة حكومة مصرية صرفة قائمة على الانتخاب الحر ، ولكن لم تواته

---

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

الظروف المناسبة ، فبرغم أنه كان يطرق ذلك طرقا خفيفا ضيقا فانه كان فى اثارته له حتى على هذا النحو كان يثير انزعاجا ، وكان ينقصه المزيد من الحرص فى تخير الوقت الذى يجب أن يثار فيه .

أثار سعد ذلك المبدأ وهو يستمد قوته من ثورة الشعب ، ولكن ذلك لم يكن كل شىء لضمان النجاح فى مسألة كهذه . والاحتلال لايزال مسيطرا .

فاذا كانت المناداة بالاستقلال تجمع حولها الشعب ليكون من وحدته قوة لضمان تحقيقه فقد كانت المناداة بتغيير شكل الحكم نيلا فى مواجهة أسرة « محمد على » برغم مساندة الشعب من شأنها ان تثير ازعاجا لمن بيدهم السلطة من السلطان وأفراد أسرته والموالين لهم ، فى تخوفهم من سيطرة الاتجاه الشعبى ، وكان هؤلاء يمثلون فى الوفد سواده الاعظم ، وفى مصر طبقة كبرى من الملاك الاعيان والرأسماليين لانه بهذا يكون قد طرق طرقا مباشرا مصالح فئة كانت لاتزال تسيطر على المجتمع اقتصاديا وسياسيا فلا يتوقع الا أن تنشق تلك على الثورة وهى بعد فى مشرقها .

حقيقة كان من الممكن مواجهة الموقف بالاكتفاء بتأييد سواد الشعب، ولكن ذلك لم يكن يصلح والاحتلال قائم ، لأنه بهذا يستغرق قوته فى غير ما هو واجب استغراقه من أجل المبدأ القومى ومن ثم يكون الشعب عرضة لان ينال منه المستعمر بأقل الضربات ما يصيبه بالفشل .

فبالرغم من تحرز سعد عن الافصاح جهارا بالدعوة لمبدئه ، فقد تركت آثارها السيئة بين أعضاء الوفد اذ انبعثت الصعوبات التى واجهتها الفكرة من تحالف السلطان مع الانجليز واستجابة هؤلاء له فى اطار خدمة أغراضهم حتى لقى الاتجاه الشعبى السياسى مصرعه ، ولكن بعد أن ترك جرحه دون تضميد فأضمر السلطان حقدا للوفد تجلى فيما بعد ، كما انتقدت الرجعية موقف سعد فى باريس فى اتجاهه السياسى الذى تزعمته سبيلا للتنكيل بالوفد واثارة الرأى عليه بما أسهم فيما بعد فى افساد الحياة السياسية على حساب الشعب .

لقد سبق ذلك الاتجاه زمنه وظروفه ، فخذلته هذه الظروف وكان الافضل لسعد أن يقود كل نشاط يجور على سلطات الامة وارادتها بما يمكنها من الابقاء الى خط النضال الثورى الموحد حتى اذا ما تحقق الاستقلال كان السبيل الى تمكين الامة من التعبير عن ارادتها السياسية الحرة ، قد تهيأ ليكون الضمان لنجاحه جلاء بريطانيا عن مصر .

الفصل الحادي عشر

مفاوضات سعد - ملنر

والانقسام بين قيادة الثورة

فشلت محاولات بريطانيا ، أمام صمود الامة من أجل حقوقها في اللقاء مع مصر حول تنظيم الحماية ، ولم تجد مناصا من تغيير خطتها باللقاء مع مصر في مفاوضات حول اقرار الاستقلال التام .

ونظرا لان الوفد من قبل كان ينطوى على بذور الانقسام الكامن فقد جاءت هذه المفاوضات سبيلا كشف عنها ، بل ومكنها من التعبير بما أصاب قيادة الثورة بالانقسام .

لم يكن ثمة بد من المفاوضات وقد كان الجانبان مهيأين لقبولها حسما للخلاف بين البلدين وصيانة لمصالحهما .

كانت بريطانيا تبحث عن مخرج ولاتطمئن على بقاء ذلك الموقف متجمدا وعلى نحو يسيء الى مصالحها ، ونظرا لان ملنر كان قد أدرك وهو في مصر أن الوفد لايأبى التساهل والتنازل في سبيل الاتفاق وأنه لايأبى الخروج بالقضية عن وضعها الطبيعي وهو الجلاء ولكن في حدود توكيل الامة فقد تفتحت أمامها آمال السعي لحل الموقف بالمفاوضات .

وكان الوفد من جانبه يحاول ذلك وفي تلهف ولا عجب فقد بدأ يداخله احساس بضرورة ايجاد حل للقضية بعد أن طال أمدها دون ما حل والموقف الدولي يتجه سريعا لمساندة بريطانيا حتى لم يعد غير التفاهم الثنائي بين الطرفين ، والخلاف بين الوفد قد بدأ يتجلى ، فاذا كان لابد من الخلاف فخير أن يكون ذلك بعد المفاوضة على الأقل ليكون الخلاف على أمور مذكورة تشف عما وراءها من نيات يسهل الدفاع عنها اذن لابأس من المفاوضة .

كان السبيل لحسم الموقف اذن هو المفاوضات وقد غدت لدى الطرفين ضرورة سياسية .

وكان لا بد من تمهيد للقاء حول المفاوضات ، وما هي الا أيام حتى وصل الى باريس المستر هيرستأحد زملاء ملنر لدعوة الوفد الى الاجتماع باللجنة في لندن فقابل ذلك سعدا في مايو عام ١٩٢٠ ودعا الوفد الى مفاوضة اللجنة في لندن .

فارسل سعد الى « محمود سليمان » تلغرافا يقول فيه :

« دعت لجنة ملنر بوساطة أحد أعضائها المستر هيرست الوفد المصرى الى التوجه الى لندن للمناقشة معها فى القواعد التى تكون أساسا لاتفاق بين مصر وبريطانيا العظمى ، ورأى الوفد من المستحسن قبل أن يقصد لندن بكامل أعضائه أن يندب « محمد محمود باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى بك ماهر » ليتيقنوا استعداد بريطانيا العظمى، نحو أمانى المصريين الخاصة بالاستقلال التام » (١) ٠

وذهب ثلاثتهم الى لندن فأظهر ملنر استعداده للمفاوضة مع الوفد بدون قيد ولا شرط وأنه اذا اقتنعت انجلترا بضمان مصالحها الخاصة فانها سرعان ما تعمل على الاعتراف لمصر باستقلالها التام ، فأرسل الثلاثة الى الوفد نتيجة مقابلتهم فاستقر رأى الوفد على قبول دعوته ٠

وصل الوفد الى لندن يوم ٥ من يونيه عام ١٩٢٠ وأخذ يتهيأ لمواجهة المفاوضات ، فأخذ يتعرف على أحرار الرأى السياسى والكتاب فى لندن ويحاول ايضاح وجهات النظر المصرية ، وقد أقام حفلة بعد بداية المفاوضات فى أواخر يونيه فى فندق كارلتون خطب فيها سعد خطابا قويا (٢) ٠

ولقد تمت أول مقابلة بين الوفد وملنر يوم ٧ يونيو ، وبدأت المفاوضات بين الوفد المصرى ولجنة ملنر ، وقد مثلت بين الجانبين مواجهة حقيقة لمشكلات الاتفاق بين الطرفين ، بدأ كل بصيغة ، ثم استحالت تلك الى نصوص :

رأى الجانب المصرى : « أن تعترف انجلترا باستقلال مصر التام، على أن تمنح مصر انجلترا الضمانات المعقولة لمصالحها » ٠

ورأى الجانب الانجليزى : « أن تحل محل العلاقة القائمة على الحماية علاقة تقوم على معاهدة وعلى تحالف وأن تستقل مصر ولكن يكون لانجلترا مركز خاص » ٠

---

(١) دكتور محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص ٢٤٧ ٠
(٢) الاهرام في ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠ ٠

وتحولت الصيغ والرغبات الى نصوص فبدت الصيغة الانجليزية في موادها ، وظهر للمصريين أن مشروع الانجليز كان ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحماية وتعزيزها • من أخذ اقرار من الأمة المصرية نفسها بتصحيح مركز الانجليز ازاءها كما أخذوا اجماعا أو شبه اجماع من الدول بتصحيح مركزهم في مصر والسودان •

واجتمع الطرفان في لندن ودارت المحادثات بين الوفد واللجنة في أوقات تخللتها فترات كثيرة فاستمرت المحادثات الى أواسط شهر أغسطس •

وقد ضمت بعض الجلسات الهيئتين بحضور عدلى ، كانت تحال النقط التي تصعب المناقشة فيها من وقت الى آخر على لجان فرعية مؤلفة من أفراد قليلين ، ولقد دارت المناقشة حول استخلاص شيء يتفق عليه من مشروعين كان أحدهما مشروعا انجليزيا والآخر مصريا وانتهت الى مشروع قال ملنر : ان الطرفين ارتاحا اليه ان كثيرا أو قليلا •

ولقد جاء في المشروع المصرى : (١)

المادة الأولى منه : تعترف بريطانيا العظمى باستقلال مصر وتنتهى الحماية والاحتلال العسكرى وبذلك تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية وتكون دولة ملكية ذات نظام دستورى •

٢ ـ تجلى بريطانيا جنودها عن مصر في ظرف ••• من تاريخ العمل بهذه المعاهدة •

٣ ـ عند استعمال الحكومة المصرية حقها في الاستغناء عن خدمة الموظفين الانجليز تلتزم حسان معاملتهم •

٤ ـ تخفيفا لمضار الامتيازات الأجنبية الى حين الغائها ، تقبل مصر أن الحقوق التي تستعملها الدول الآن بمقتضى هذه الامتيازات يكون لبريطانيا استعمالها باسمها بالكيفية الآتية : الزيادات والتعديلات على لائحة ترتيب للمحاكم المختلطة لا تحصل الا بموافقة انجلترا وجميع القوانين التي لا تنفذ الآن في حق الأجانب أصحاب الامتيازات الا بموافقة الدول أو بقرار بالموافقة صادر من الهيئة التشريعية لمحكمة الاستئناف المختلطة أو من الجمعية العمومية بهذه المحكمة تصير نافذة عليهم بمقتضى دكريتو يصدر وينشر لهذا الغرض ، ما لم تحصل معارضة من انجلترا

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٦٦ ـ ٧٣ •

تبلغ لوزير الخارجيـة المصرى فى ظرف ... من تاريخ النشر بالجريدة الرسمية ٠

ولا تصح هـذه المعارضة ، الا اذا كان معنـاها أن القـانون يشمل أحكاما لا نظير لها فى شريعة من شرائع الدول ذوات الامتيازات ، ان كان قانونا ماليا ٠

ان الضريبة التى يأمر بها لا مساواة فى المعاملة بشأنها بين المصريين والاجانب ، وفى حالة حصول خلاف بين الحـكومتين فى صحة مبنى هذه المعارضة فلمصر رفع الامر الى عصبة الامم لتفصل فيه ٠

٥ ـ فى حالة الغـاء المحاكم القنصلية واحالة محـاكمة الاجانب على مايقع منهم من الجنايات والجنح الى المحاكم المختلطة ، تقبل مصر أن يعين أحد رجال القانون من الشعب الانجليزى فى وظيفة النائب العمومى لدى المحاكم المختلطة ٠

٦ ـ تقرر الحكومة البريطانية انها مستعدة بالاشتراك مع الحـكومة المصرية بعد مضى خمس عشرة سـنة فى مسـألة ازالة المساس الحـاصل بسيادة مصر على سكان بلادها بسبب ما للاجانب من الامتياز فى التشريع والقضاء ، وتحتفظ مصر لنفسها بالحق فى رفع هذه المســالة ، ان اقتضت الحال الى عصبة الامم بعد الميعاد المذكور .

٧ ـ فى حالة الغـاء قومسيون صـندوق الدين العمومى فان مصر تعين موظفا ساميا تختاره انجلترا ، يكون له ما للقومسيون المذكور الآن من الاختصاصات ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية فى جميع ما ترغب تكليفه به من الاستفسارات والمهمات المالية ٠

٨ ـ لانجلترا ـان رأت لزوما ـ أن تنشىء على مصروفاتها بالشاطىء الآسيوى لقناة السويس منطقـة عسكرية للمساعدة على صـد ما عساه يحصل من الهجمات الاجنبية على هذه القناة وتحديد منطقة هـذه النقطة يحصل بعد بمعرفة لجنـة مكونة من خبراء عسـكريين من الطرفين بعدد متساو ، ومن المتفق عليه أن انشاء هذه المنطقة لا يعطى لانجلترا أى حق فى التدخل فى أمور مصر ، ولا يخل أدنى اخلال مما لمصر من حقوق السيادة على تلك المنطقة التى تبقى خاضعة لسلطة مصر ، ومتبعة فيها قوانينهاكما لا يمس بالسلطة المخولة لمصر باتفاقية الآستانة المحررة فى اكتوبر سنة ١٨٨٨ الخاصة بحرية الملاحة فى قناة السويس وبعد مضى عشر سنين من تاريخ العمل بهذه المعاهدة يبحث المتعــاقدان الأمر ، لمعرفة ما اذا كان

استبقاء هذه النقطة لم يعد له لزوم ، وما اذا لم يكن ممكنا أن يترك لمصر وحدها العناية بالمحافظة على القناة ، وفى حالة الخـــلاف يرفع الأمر الى عصبة الامم ٠

٩ ـ فى حالة ما ترى مصر التى لها حق التمثيل السياسى ألا تعين نائبا مصريا عنها لدى أى بلد من البلاد تعهد بالمصالح المصرية فى هذا البلد الى نائب انجلترا ، وهو يتـولى الدفاع عن تلك المصـــالح وفق آراء وزير الخارجية المصرى ٠

١٠ ـ يوافق بمقتضى هذا على عقد محـالفة دفاعية بينهمـا للاغراض الآتية :

(أ) تتعهد انجلترا بالاشتراك فى الدفاع عن الأراضى المصرية ضد كل تعد من جانب أية دولة ٠

(ب) وعند حصول تعد على المملكة البريطانية من جانب أية دولة أوروبية ولو لم تكن سلامة القطر المصرى ذاته فى خطر مباشر ، فان مصر تتعهد بأن تقوم داخل بلادها لانجلترا بجميع ما تحتـــاج اليه حربيا من تسهيل سبل المواصلات وأعمال النقل ، وشروط أداء هذه المعونة تتحدد بعد اتفاق خاص ٠

١١ ـ تتعهد مصر فوق ذلك بألا تعقد أية محالفة مع أية دولة أخرى بدون الاتفاق مقدما مع انجلترا ٠

١٢ ـ هذه المحالفة معقودة لمدة ثلاثين سنة وفى نهـايتها يمكن الطرفين أن ينظرا فى أمر تجديدها ٠

١٣ ـ مسألة السودان تكون موضوع اتفاق خاص ٠

١٤ ـ كل ما كان مخالفا لهذه الشروط من الاحكام المتعلقة بمصر الواردة بجميع المعاهدات الأخرى يكون ملغى ولا عمل له ٠

١٥ ـ تودع هذه المعاهدات سكرتارية جمعيـة الأمم لتسجل بها ، وتقرر انجلترا أنهـا عن نفسها قابلة من الآن دخول مصر بهـذه الجمعية بوصفها دولة حرة مستقلة ٠

١٦ ـ يعمل بهذه المعاهدة بمجرد تناول التصديق عليها من المتعاقدين ويحصل التصديق فيمـا يتعلق بمصر بناء على قرار بالاعتماد صادر من الجمعية الوطنية التى تدعى لتقرير الدستور المصرى الجديد ٠

هذا هو المشروع المصرى •

أما عن مشروع التسوية الذى وصفه ملنر بأن الفريقين ارتاحا اليه ان قليلا أو كثيرا فهو على الوجه الآتى :

مشروع ملنر ١٨ من أغسطس سنة ١٩٢٠ :

١ ـ لكى يبنى استقلال مصر على أســاس متين دائم ينبغى تحديد العلاقة بينها وبين انجلترا تحديدا دقيقا كما ينبغى أيضا تعديل الامتيازات الاجنبية وجعلها أقل ضررا بمصالح البلاد •

٢ ـ ولا يمكن تحقيق الغرض بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الأول بين ممثلى الحكومتين الانجليزية والمصرية وتحصل للغرض «الثانى» بين ممثلى الحكومة الانجليزية وحكومات الدول ذوات الامتيازات •

وهذه المفاوضات ترمى الى الوصول الى اتفــاقات مبنية على القواعد الآتية :

٣ ـ القاعدة الأولى : تعقد معاهدة بين مصر وانجلترا تعترف انجلترا بموجبها باستقلال مصر ، كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيــابية ، وتمنح مصر انجلترا الحقوق التى تلزم صيانة مصالحها الخاصة ، ولتمكنها من تقديم الضمانات التى يجب أن تعطاها الدول الاجنبية لتحقيق تخلف تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات •

القاعدة الثانية : تبرم بموجب هذه المعاهدة نفســها محالفة بين انجلترا ومصر تتعهد بمقتضــاها انجلترا أن تعضــد مصر فى الدفاع عن سلامة أرضها • وتتعهد مصر بأنهــا فى حالة الحرب حتى ولو يكن هناك مساس بسلامة أرضها ـ تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التى فى وسعها الى انجلترا ومن ضمنها استعمال مالها من الموانى وميادين الطيران ووسائل المواصلات للأغراض الحربية •

القاعدة الثالثة : تشمل المعاهدة أحكاما للأغراض الآتية :

١ ـ تتمتع مصر بحق التمثيل فى البلاد الاجنبية ، وعند عدم وجود ممثل مصرى تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل الانجليزى ؛

وتتعهد مصر بألا تتخذ مع البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لانجلترا •

وتتعهد مصر بألا تعقد مع أية دولة أجنبية أى اتفاق ضار بالمصالح الانجليزية .

٢ ـ تمنح مصر انجلترا حق ابقاء قوة عسكرية فى الاراضى المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية وتعين المعاهدة المكان الذى تعسكر فيه هذه القوة ، وتسوى ما تستتبعه من المسائل التى تحتاج الى التسوية ، ولا يعد وجود هذه القوة بأى وجه احتلالا عسكريا للبلاد ، كما أنه لايمس حقوق حكومة مصر .

٣ ـ تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشارا ماليا ، يعهد اليه فى الوقت اللازم بالاختصاصات التى لأعضاء صندوق الدين الآن ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته فى جميع المسائل الأخرى التى قد ترغب فى استشارته لها .

٤ ـ تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الاتصال بالوزير وتجب احاطته علما بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له مساس بالاجانب ويكون أيضا تحت اشراف الحكومة المصرية لاستشارته فى أى أمر مرتبط بتأييد القانون والنظام العام .

٥ ـ (وله صيغتان) :

الأولى :

نظرا لما فى النية من نقل الحقوق التى تستعملها الى الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة الانجليزية تعترف مصر بحق انجلترا فى التدخل بوساطة ممثلها فى مصر لتمنع أن يطبق على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد انجلترا بالا تستعمل هذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون مجحفا بالأجانب .

الأخرى :

نظرا لما فى النية من نقل الحقوق التى تستعملها الى الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة الانجليزية تتعهد انجلترا كما فى الصيغة الاولى من جانبها بالا تستعمل هذا الحق الا فى حالة القوانين التى تتضمن تمييزا مجحفا بالأجانب فى مادة فرض الضرائب أولا يتفق مع مبادىء التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات .

٦ ــ نظرا للعلاقات الخاصة التى تنشأ عن المحالفة يمنح الممثل الانجليزى مركزا استثنائيا فى مصر وتخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين ·

٧ ــ يجوز انهاء خدمة الضباط والموظفين الاداريين من الانجليز والاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية فى أى وقت خلال سنتين بعد العمل بالمعاهدة ، وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذى يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالى ·

وفى حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظيف الحالية بغير مساس ·

القاعدة الرابعة : تعرض المعاهدة على جمعية تأسيسية ولكن لايعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ المراسيم المعدلة لنظام المحاكم المختلطة ·

القاعدة الخامسة : يعهد الى الجمعية التاسيسية فى وضع قانون نظامى جديد لمصر ويتضمن هذا القانون النظامى أحكاما تقضى بجعل الوزراء مسئولين أمام الهيئة التشريعية ويقضى أيضا باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الاجانب ·

القاعدة السادسة : تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين انجلترا والدول المختلفة ونواب الامتيازات ، وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية ، لكى يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية (ومنه التشريع الذى يفرض الضرائب) على جميع الاجانب فى مصر ·

القاعدة السابعة : تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة الانجليزية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة بمقتضى نظام الامتيازات وتشمل أيضا أحكاما تقضى بما يأتى :

١ ــ لا يسوغ العمل على التمييز المجحف برعايا أية دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ، ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بالمعاملة التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون ·

٢ ـ يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب : فيتمتع الأولاد الذين يولدون فى مصر لأجنبى بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم مصريين ٠

٣ ـ تخول مصر موظفى قنصليات الدول الأجنبية النظام الذى يتمتع به القناصل الأجانب فى انجلترا ٠

٤ ـ المعاهدات والاتفاقات الحالية التى اشتركت مصر فى التعاقد عليها فى مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول ، أما فى المسائل التى ينالها مساس من جراء ابطال المحاكم القنصلية فتقبل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن ، مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين وكذلك المعاهدات التى لها صبغة سياسية سواء أكانت معقودة بين أطراف عدة أم من طرفين كاتفاقات التحكم ، والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب ٠ وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفا فيها ٠

٥ ـ تضمن حرية ابقاء المدارس وتعلم لغة الدول الأجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذهالمدراس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوروبية بمصر ٠

٦ ـ تضمن أيضا حرية ابقاء أو انشاء معاهد دينية وخيرية كالمستشفيات ٠٠٠ الخ وتنص المعاهدات أيضا على التغييرات اللازمة فى صندوق الدين وعلى ابعاد العنصر الدولى من مجلس الصحة فى الاسكندرية ٠

٧ ـ التشريع الذى تستلزمه الاتفاقات السابقة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الاجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة وفى الوقت عينه يصدر مرسوم باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادراية والقضائية التى اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة ٠

٨ ـ تقضى المراسيم المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتخويل هذه المحاكم كل الاختصاص الذى كان مخولا الى الآن للمحاكم القنصلية الأجنبية ، ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس ٠

٩ ـ بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها فى الثالثة تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الأجنبية ، وتعضد الطلب الذى تقدمه مصر للدخول عضوا فى جمعية الامم ٠

ويضاف الى هذا المشروع تكملة له ذلك أن اللورد ملنر قرر في كتاب « لعدلى يكن » تاريخه ١٨ من أغسطس ١٩٢٠ ما يأتى :

« ان موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه قط نحن « وزغلول باشا » وأصحابه خارج بالكلية عن دائرة الاتفاق المعقود لمصر ٠٠ على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية فى ايراد الماء الذى يصل اليها مارا فى السودان ، ونحن عازمون أن نقترح اقتراحا من شأنه أن يزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك الايراد لحاجتها الحالية والمستقبلة ٠٠ » ٠

ولما بلغت المناقشات الى ذلك الحد اقترح المصريون وقف البحث والمناقشة الى حين ، ريثما يزور مصر بعض أعضاء الوفد ليعرضوا للناس ماهية التسوية ، فاذا أحسن الشعب ملقاهم ، كما كانوا يرجون ، كان ذلك توكيلا منهم يسوغ للوفد بعد رجوع رسله أن يتكفل بتأييد الاقتراحات بلا قيد ولا شرط ٠

استصوب سعد هذه الفكرة ، ولكنه لم يشأ أن يسافر بنفسه ليتولى المهمة بعض أعضاء الوفد ٠

وكان طبيعيا أن يرضى ملنر ورفاقه بهذه الفكرة ففى استطاعته بهذه المناقشة التى تدور رحاها فى مصر أن يسبر غور الرأى العام فيلمس الواقع من قوة المعتدلين والمتطرفين عله يجد فى ذلك مخرجا لتسوية المسألة ، لذلك رفعت للوفد عن طريق عدلى القواعد السالفة المتضمنة نتيجة المناقشات بين الطرفين وهى ليست اتفاقا بينهما ، بل هو رسم لسياسة قصد بها تسوية المسألة المصرية لمصلحة بريطانيا ومصر ٠

استشارة الأمة :

ولقد عهد الوفد لأربعة من أعضائه هم : «محمد محمود وعبد اللطيف المكباتى وأحمد لطفى السيد وعلى ماهر » بالسفر لمصر ليعرضوا على الأمة مشروع التسوية الملنرية على أن ينضم اليهم ثلاثة من زملائهم بمصر وهم : « مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وويصا واصف » ثم أرسل سعد(١) بيانا فى ٢٢ من أغسطس ١٩٢٠ شرح فيه الموضوع للأمة والمطلوب منها تبين فيه أن المشروع المعروض وضعته لجنة ملنر بعد أن رفض الوفد

---

(١) الاهرام في ٦ من سبتمبر ١٩٢٠ ٠

مشروع اللجنة الأولى ، وبعد أن رفضت اللجنة المشروع المصرى ، وصرح ملنر عند البحث فى المشروع النهائى أنه غير قابل للمناقشة فى الاساسات التى بنى عليها وانه يلزم اما أخـذه كله أو تركه كله ، لأنه تضـمن فى اعتباره أقصى ما يمكن لانجلترا الاتفاق مع مصر عليه .

ويقول سعد فى بيانه :

« ولكنا وجدناه مع ذلك معلقا بتنفيذه على غير ارادتنا وغير واف بمطالبنا فلم يسعنا قبوله لخروجه عن حدود توكيلنا واظهرنا للجنة ملنر عدم رضائنا به ، غير انه نظرا لاشتماله على منافع لا يستهان بها وتغير الظروف التى حصل التوكيل فيها وعدم العلم بما قد يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، رأى اخواننا معنا حرصا على كل فائدة ، واستبقاء لكل فرصة ، الا يبتوا فيه رسميا ، بما يقتضيهم توكيلهم قبل عرضـــه عليكم أنتم ، نواب الأمة المسئولين فاذا رفضتم أعلن الوفد رسميا رفضه، واذا قبلتم دخلت المسألة فى دورها النهائى ، ووضعت معاهدة على القواعد التى تضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظـام دستورى للبلاد (١) » .

لم يكن سعد بهذا من رأى المشروع الذى قرر عرضه على الامة لانه كان مشروعا ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحماية وتقريرها ، فقد كان فيه من خصـائص الحمـاية ومميزاتهـا الشيء الكثير ، كالقوة العسكرية والتدخل فى التشريع للأجانب والتدخل فى الشئون المالية وغير ذلك ، ولم يكن اخوانه يرون فيـه رأيه ، ولم يرد سـعد أن يظهر الخلاف بينه وبينهم حرصا على الوحدة التى كانت تكمن فيها قوتهم .

ومهما كان رأى زملائه لتبرير عرض المشروع على الأمة فقد جاء فى باب الحماية لاشتماله على كثير من مميزاتهـا وقد أقنعهم بصـحة آرائهم أسباب قامت عندهم من : تغيير الظروف وعدم وجود السند النصير فى الخارج وانفراد انجلترا بالعزة والسلطان وعدم قدرة الامة على المضى فى نضالها ، ويقول سعد فى خطابه الى أعضاء الوفد الثلاثة فى مصر بعد أن صارحهم برأيه فى المشروع .

« .. انى أعترف بأهمية هذه الأسباب ، ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية الى استقلال ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضـنا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

لمقاومته وقمنا للمطالبة ببطلانه وما ضحت به الأمة فى سبيل النفور منه والقضاء عليه من دماء الكثير من أبنائها (١) » .

واكتفى سعد بمصارحة الأعضاء الثلاثة ليكونوا فى مستوى واحد من المسئولية معهم فى عرض المشروع ، واذا كان سعد يحرص على عدم الخلاف بينه وبين زملائه ، فقد خشى مصارحة الأمة حفاظا على الوحدة وخشية امتداد الانقسام الذى كان قد بدأ بين الوفد .

وعرض المشروع على الأمة ، ولم يكن أعضاء الوفد شارحين لقواعد المشروع فحسب بل محبذين ومؤيدين لها فى مجموعها ، وقد بحثه الأمراء والهيئات غير أن فريقا ـ وخاصة الحزب الوطنى ـ رفضه بتاتا ورأى آخرون تحبيذه ، ولكن كان الاتجاه العام مع هذا ينحو نحو الاخذ بقبوله ان عدل على أساس من تحفظات كان أهمها الغاء الحماية صراحة وحذف النص الذى يقضى بتخويل بريطانيا الحقوق اللازمة لضمان مصالحها الخاصة اكتفاء بالحقوق المثبتة بطريقة الحصر فى مشروع المعاهدة وحذف الشرط المتعلق بتنفيذ المعاهدة مع قبول الدول انتقال حقوقها الامتيازية الى بريطانيا . واضافة النص على عرض مشروعات تعديل النظام القضائى المختلط على الهيئات النيابية المصرية واقرارها وعلى دخول مصر بصفة طرف متعاقد فى الاتفاقات المراد اجراؤها مع الدول بشأن حقوقها الامتيازية ، وحذف النص الخاص بتعيين موظف بريطانى لوزارة الحقانية اكتفاء بوجود نائب عمومى انجليزى لدى تلك المحاكم ، وحذف النص الخاص باستشارة المستشار المالى ، وقصر الاتفاقات التى لا يمكن مصر عقدها مع الدول متى كان فيها اضرار بالمصالح الانجليزية على المعاهدات السياسية المحضة (٢) بحيث تبقى لمصر الحرية فى عقد جميع الاتفاقات التجارية والاقتصادية وغيرها بدون أدنى تقييد ، وحل مسألة السودان على أساس ضمان مياه النيل اللازمة لرى أرض مصر المزروعة الآن وأراضيها القابلة للاصلاح والزراعة ، وعلى أساس أولوية مصر فى أخذ المياه عند عدم كفايتها للقطرين ، وعلى أساس تمتع مصر فعلا بحقوق سيادتها فى السودان والغاء كل حكم فى المعاهدة مقيد لاستقلال مصر . بمجرد زوال الاسباب الداعية لذلك التقييد .

وعاد أعضاء الوفد من القاهرة ، فدعا ملنر الوفد الى لندن للنظر فى

---

(١) الرجيع السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٧٧ .

نتيجة الاستفتاء ،وسافر عدلى وتبعه سعد اليها فى ٢١ من أكتوبر ١٩٢١ ثم بعده ثلاثة من زملائه ثم لحق بهؤلاء فى النهاية سائر أعضاء الوفد .

ولقد تبين من خلال المقابلات الأولى لملنر أنه كان يرفض البحث فى التحفظات ، وكان يرى قبول المشروع كله أو رفضه كله مع معارضته بشدة فى تضمين المعاهدة نصا يقرر الغاء الحماية ، وبالرغم من أن مصر لم تكن تكسب بهذا المشروع بقدر ما تكسب بريطانيا من تحقيق غرضها وهو تصحيح مركزها فى وادى النيل ، فقد اختلف الاعضاء بين قبوله ورفضه ، وسرعان ما خلع المشروع على بذور الانشقاق الكامنة بين الوفد القدرة على التعبير عن وجودها بما كشفت عن حقيقتها تعبيرا بل ومكنها من الظهور فى شكل انقسام بين الوفد .

كانت كثرة الوفد لا تؤمن بالثورة كما سبق أن ذكرنا ، ومن ثم لم تكن تؤمن بالتطرف ، واذا كانوا قد حاولوا مجاراة الثورة فقد كان استعدادهم لذلك محدودا لا يلبث أن ينفد فلا يجدون القدرة على متابعتها بأى سبب .

فى ذلك الوقت كانت الأحداث قد استنفدت استعدادهم وغلبت صبرهم لمجاراة الثورة وعاودهم تقليدهم القديم وهو المصالحة ، أخذ شىء بترك شىء ، بحجة أن الثورة فى رأيهم كانت قد فترت .

ولم يتهيأ لهم التعبير عن مبادئهم الا بعد التقائهم مع عدلى وتعثر المفاوضات .

ومع هذا الاعتقاد الذى كان يتزايد كل يوم بين هذه الكثرة من بينهم من بداية العمل ، وفقا لمبادئهم التقوا مع عدلى فى باريس ثم أخذوا يتطلعون اليه بين أحداث المفاوضات بما نمى ذلك الاعتقاد وهيأهم من فرص التعبير عنه .

رأوا فى عدلى غير ما رأوا فى سعد ، كان الأول ينزل على آرائهم فى تجاوب معها لاتفاق بينهم فى النظرة نحو الفكرة القومية ، وكان سعد يأبى النزول ، لأنه كان يرى فى مبادئهم خروجا عن العمل الثورى ومن ثم عن توكيل الأمة له ، ومن هنا لم يكن يتفق معهم تماما فى مستوى النظرة القومية ومداها ، ومنذ أن أخذ عدلى يتجاوب مع آرائهم كان يكسب ثقتهم من اتفاقه فى التجاوب معهم من هذه الزاوية ، وكان هؤلاء من ناحيتهم يجدون فيه ، وهم يتجاوبون معه ، نجما يلمع بين سمائهم وأملا

يتطلعون اليه وهو يحظى ـ اذ ذاك ـ من بريطانيا بالتقدير لاعتداله وكانوا يتطلعون الى زعيم يأملون على يديه التعبير عن مبادئهم فى الوقت الذى كانوا يجدون فى سعد زعيما جماهيريا يستثير حسدهم ونقمتهم عليه لتشيعه للعمل الثورى الذى كانت تأباه طبيعتهم وينفر منه وضعهم الاجتماعى ، لذلك بقدر ما كانوا يبتعدون عن سعد كانوا يتقربون الى عدلى تجاوبا وتطلعا وأملا ، ولهذا فما ان تعثرت المفاوضات بسبب التحفظات حتى بدأت هذه الكثرة فى تطلعها الى عدلى تختلف مع القلة وعلى رأسها سعد •

وقفت الكثرة من سعد موقف الخلاف فى الرأى لتمسكه بالغاء الحماية فعلا ورسميا ، ولقد كان لعدلى خطة يترتب على اتباعها تأييد الحماية وكان لها وزنها بين المنقسمين فأخذوا يؤيدونه ، كما بدا ذلك ينظم صفوفهم برأيه فيمثل بينهم نواة يلتفون حولها ويتبلورون استعدادا للمجاهرة بآرائهم •

ولما لم تجد هذه الكثرة الظروف المناسبة للمجاهرة بآرائها فى صراحة ، مضت مكرهة فى تأييد سعد فى موقفه من اللجنة الملنرية فى تطلع الى عدلى فى انتظار تطور كانت بوادره تتجلى على يديه ، ووقفت القلة تؤيد سعدا عن ايمان ، ومن ثم فشل المشروع وفشلت معه المفاوضات ومن هنا عجزت بريطانيا أن تلتقى مع مصر حول اتفاق يصحح مركزها فى وادى النيل ليصبح مشروعا ، ولكن كانت معالم الطريق ، فيما تجلى بين الوفد من انقسام فى الرأى ، قد اتضحت أمام بريطانيا لتسلك سبيلها نحو غايتها عن طريق هؤلاء المعتدلين المنقسمين بعد أن عثرت على الرجل الذى رأت فيه القدرة على أن ينظمهم فى مواجهة الثورة ، ومن أجل تحقيق أهدافها فى اتفاق جديد ، وهو عدلى يكن •

وغادر الوفد لندن فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٢٠ ووصل باريس ومن هناك أرسل سعد الى مصر نداء دعا فيه الأمة الى الاتحاد والتضحية والايمان بالنفس وعدالة القضية •

وما كاد الوفد يعود الى باريس حتى تجلى ذلك الانقسام جهارا بين المنقسمين وسعد حتى تعذر الاتفاق وأخذ هؤلاء يتشددون فى احراج سعد بما كان يثير سخطه •

ولقد وصف سعد ذلك الموقف العجيب ـ بعد أن اعتزم المخالفون له فى الرأى ، ترك باريس والعودة الى القاهرة ـ فى كتابين احدهما فى ١٨

من يناير ١٩٢١ والآخر فى آخر يناير عام ١٩٢١ ، وذلك قبل سفر المنقسمين الى مصر •

جاء فى الكتاب الاول :

« •• بودى أن اخبرك بأن الخلاف اشتد فى الوفد اشتدادا تعذر تلافيه مع ما بذلت من جهد وما وسعت من صدر وما ضيعت من حق وضحيت من شعور ، ونقطة الخلاف الأخيرة فى أن المخالفين يريدون تأييد عدلى فى خطته واريد القضاء عليها لأنها تضر كل الضرر بالبلاد ولا يترتب على اتباعها الا تأييد الحماية وضياع الاستقلال ، وقد عزم المخالفون على العودة بعد أن أعياهم الجهد فى حملى على اعلان الثقة بعدلى ، ذلك لكى يقوموا هم بهذا التأييد ان مكنتهم احوال الامة •• أما أنا فثابت فى موقفى مصر على البقاء فيه ولو تخلى عنى جميع قومى لأنه خير لى أن يتخلوا عنى من أن اخونهم بالجرى على خطة اراها مضرة كل الضرر بهم •• » (١)•

وجاء الكتاب الآخر اصرح من هذا ، يقول :

« اغتر المخالفون بعددهم واعمتهم كثرتهم فشمخت أنوفهم واستطالوا على وحدتنا فقسموها ، وعلى حقنا فهضموه فنقضوا فى اجتماع خاص بهم ، ما كان قد قرره الوفد فى اجتماع عام باشتراكهم ، رفضوا مبلغا اذنا بصرفه ، وصرفوا مبالغ لم يؤذن بها ، وابوا أن يسلموا أمانة الصندوق لمن عيناه من غيرهم •• قرروا عودتهم بدون علمنا واخبروا اللجنة المركزية من عندهم ، وأعلنوا بذلك البلاد انقسامنا وخلافهم » •

وقد تسربت أنباء الخلاف الى مجالس القاهرة ، واخذ أنصار عدلى — الذى نظم الخلاف الجديد وتزعم النزعة المعتدلة دون اعتراف بالنزعة الثورية العنائية — يروجون لفكرتهم فى حذر وتكتم تمهيدا لقيام وزارة مقبلة ، ومقابلة الأمة اياها بالتأييد والتفاؤل ، وعلم الخاصة والعامة أن الوفد لم يكن على رأى واحد فى مسألة التحفظات ولا على خطة واحدة فى موضوع المفاوضات الرسمية •

---

(١) ا . محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٣٤٠ •

ولقد ساعدت الحوادث سعدا فازداد مخالفوه احجاما وحذرا من الظهور ، مع شعورهم بنفوذه ، فكان ملنر قد استقال فى يناير عام ١٩٢١ وحل محله رجل استعمارى وهو تشرشل فأدخل مصر فى دائرة الامبراطورية البريطانية فى أحد تصريحاته ، ولما ثار المصريون رأى المعتدلون انكار هذه السياسة التى كان يظن فى مصر أن بريطانيا تعتمد عليهم فى تنفيذها وترويض الشعب المصرى على قبولها ، فكتب د حسين رشدى وعدلى ، وبضعة من رؤساء الوزارات والوزراء احتجاجا على تشرشل وأعلنوا فيه أنهم يرون حلا للمسألة المصرية أن يكون ذلك باتفاق ترضاه الامة على أساس محالفة لاتدع مجالا للشك فى استقلال مصر .

ومهما يكن الامر ، فقد انتصرت الثورة لانها لم تمكن انجلترا من تحقيق أهدافها ، وان لم تحقق هى أهدافها ، ولكن كان استمرار انتصارها، بعد ذلك كى تحقق هذه الاهداف ، مرتبطا فى الابقاء على وحدتها متماسكة فقد كانت كل قوتها تكمن فى هذه الوحدة لذلك كان الحفاظ عليها فى ذلك الوقت يعد مسئولية تاريخية كبرى كان على الوفد أن يرعاها بالتدبير الكافى حتى لا يتمكن الخصوم من النيل منها فتسرع ــ بعد ما منيت بالانقسام ــ الى الانحدار والتصدع السريع .

ولقد كان هذا فى ذلك الوقت ممكنا ، بأن يحاول الوفد اعادة دراسة الموقف كله فى نظرة مثالية نحو المستقبل .

كانت الثورة مقبلة ، بعد ظهور الانقسام ، على مواجهة الدسائس وهجوم الرجعية المنقسمة عليها ، ومن ثم كانت فى حاجة الى قوة تساندها وتحميها من التصدع ، ترد كيد الكائدين وتردع المرتدين وتردهم الى صف النضال الثورى وعلى الاقل ترهبهم بما يكفى الثورة شرا يصيب الوحدة القومية ، ويأتى على يديهم .

كان من الأفضل أن تكون تلك القوة قوة مسلحة ، فقد ثبت تاريخيا أن نجاح الثورات يتوقف على التوفيق بالسيطرة على قوة مسلحة تقف بجانبها ، ولكن تلك القوة لم تكن ميسورة ولا متيسرة من بين الجيش المصرى لسيطرة الانجليز عليه ، والثورة اذا كانت قد استطاعت ان تبث

خلاياها الثورية بين جيش مصر فى السودان فان ذلك فى مصر كان يتطلب صبرا واصرارا وحرصا كبيرا يستلزم المزيد من الوقت ٠

على انه اذا كان ذلك قد تعذر فى جيش مصر فقد كان من الممكن تعويضه بتوفير هذه القوة بتجديد عناصر الوفد بالدماء الشابة واعادة تنظيم ودعم الجهاز السرى ، بعناصر من الشباب المغامرين ومد خلاياه بين ثنايا الريف ومده بما يلزمه من وسائل تمكنه من الوقوف بجانب الثورة فى مواجهة المرتدين المنشقين من الرجعية وأذناب الانجليز ٠

ولكن مما يؤسف له أن ذلك لم يحدث ، فلم يتطور الوفد فى مرونة مع تطور الأحداث بالقدر الذى كان يسمو ومستوى المسئولية ، بل جمد بتنظيماته السابقة على الانقسام ٠ لضعف عن تحمل الأعباء ومواجهة الخصوم ، ومن ثم كان متوقعا أن يسهل على الرجعية وهى تتأهب ـ اذ ذاك ـ لتلتف حول عدلى أن تتمكن من مناهضة الثورة ، وتتمكن بريطانيا من النيل من الثورة من مواقع هذه الرجعية ، بما يجعل الانقسام تصدعا وانحدارا ٠

الفصل الثانى عشر

الثورة فى مواجهة الرجعية
وبداية التصدع

دخلت الثورة فى معارك مع بريطانيا كانت صراعا من أجل تغلب أهداف أحد الطرفين على الآخر .

كان هدف الثورة ـ كما علمنا سابقا ـ الاستقلال التام ، وكان هدف بريطانيا يمثل النقيض من ذلك ، من الرغبة فى الابقـــاء على وجودها السياسى على أساس اعتراف المصريين ليصبح مركزها الســياسى مركزا مشروعا .

ولقد ثبتت الثورة من أجل حقوقها تسعى بكل ما استطاعت للقضاء على هدف بريطانيا ، فانتصرت عليها برغم ما ووجهت من شدة وضراوة منذ أن اتخذ ذلك الهدف البريطانى صورة الرغبة فى البقاء ، فى شــكل الحماية ، ومنذ أن شاءت هذه الرغبة بعد ذلك اثبات وجودها بالمفاوضات فى شكل استقلال مشروط فى مفاوضات (سعد ـ ملنر) .

وكان لابد للثورة من أن تمضى فى معاركها حتى تحقق أهدافهـــا فالاسباب التى ابتغتها لاتزال قائمة ، ولكن اذا كان لها أن تمضى فلم يكن لبريطانيا أن تسكت حتى تصل الى ما كانت تبغيه من تصحيح مركزها السياسى فى مصر كى يصبح شرعيا ، وكان متوقعا أن تواجه الثورة مزيدا من المعارك ، ولقد بدأت الثورة تواجه فى أعقاب اخفاق المفاضات مرحلة جديدة فى حياتها تميزت بصراع لم تكن عناصره قوة الاحتلال وحدها بل كان هناك عنصر جديد وهو الاحتلال فى صورة الرجعية .

كان سر انتصار الثورة من قبل يكمن فى قوة تماسكها ، ولم يكن ثمة سبيل اذن لبريطانيا لبلوغ أهدافها ـ بعد أن جربت من أجلها كل وسائل الشدة واللين فلم تنفع ـ الا بالتغلب على ذلك التماسك أولا وقبل كل اعتبار .

ومنذ أن بدأت الثورة تعانى فى قيادتها انقســاما على يد المعتدلين وهى تواجه مفاوضات (سعد ـ ملنر) كانت قد بدأت تفقد تمسكها ومن ثم

قوتها ، وبهذا كان السبيل قد تهيأ أمام بريطانيا للتغلب على ذلك التماسك اذا ما وفقت فى تأكيد التعاون بينها وبين الزعماء المصريين المعتدلين وان لم يكن متوقعا أن يكون انتصارها عليها مضمون العاقبة فى أول جولة .

ولقد بدأت الثورة فعلا ـ عقب اخفاق المفاوضات وظهور الانقسام بين القيادة الثورية ـ تواجه بريطانيا فى شكل اتجاه رجعى ينظمه المعتدلون من الرجعيين عموما .

حاولت بريطانيا التعاون مع لفيف من الرجعيين علها تستدرج العناصر المعتدلة الرابضة فى خط القيادة الثورية بجانبها لتثب من مواقعهم على خط الثورة الاصيل ، بما يعزز أهدافها ، فوقفت لها الثورة بالمرصاد تقاوم ذلك الاتجاه ، ولكن كان هؤلاء قد انشقوا فاذا بالانقسام يتحول الى تصدع ، وما لبثت الثورة أن واجهت تحالفا بين هذه العناصر الرجعية المنشقة والسراى والاستعمار البريطانى ، وما كادت تدخل مع هذه الرجعية المتحالفة فى معركة لتردها الى خط النضال الثورى الموحد حتى انتصرت فى القضاء على أهداف الرجعية والاستعمار ، ولكن كان التصدع فى القمة قد امتد الى القاعدة الشعبية فوضع الثورة فى مشارف الانحدار !

ولقد بدأت الثورة مرحلة جديدة خطيرة منذ أن اخذت تواجه بريطانيا فى شكل هذا الاتجاه الرجعى .

ولقد بدأ ذلك منذ محاولاتها كسب العناصر المعتدلة تنفيذا لخطتها التى تبنتها فى أعقاب اخفاق المفاوضات واستدراجها بالاقتناع ، لقبول التسوية الملنرية فى جوهرها عن طريق مفاوضات رسمية .

واذ يعد ذلك الطريق بالنسبة لبريطانيا آكد السبل وأقصرها لبلوغ هدفها فانه لم يكن من اليسير تنفيذه والثورة تعانى انقساما فى صفوف قيادتها .

كان المعتدلون من العناصر الوفدية يتشيعون للثورة ولكن ليس عن ايمان وفى تحين الفرصة للعمل مستقلين ، كما قلنا سابقا ، فلما نفد صبرهم والتقوا مع عدلى على وفاق من حيث النظرة نحو الثورة ، كاتجاه تنفر منه طبيعتهم ولا يستجيب لطبيعتهم كاتجاه جماهيرى صاعد ، أخذوا يرنون اليه بعين ملؤها الامل فى المستقبل ويتطلعون اليه كى ينظم جمعهم .

ولما كانت السياسة البريطانية ـ اذ ذاك ـ قد عثرت على ذلك الرجل على مسرح مفاوضات (سعد ـ ملنر) كاقدر رجل ترضى به ، فى استطاعته أن يتعاون معهافيما قام به من وساطة بين لجنة ملنر والوفد ومابذله من جهد فى أثناء مباحثات الهيئتين للتوفيق بينهما ، فانها كانت ، من ثم ، قد عثرت على النواة التى أخذ المعتدلون يزدادون التفافا حولها وتطلعا ، عندما رشحته الاوساط الانجليزية ليكون زعيم مصر ومن ثم كان السبيل آكد السبل قد تهيأ لبريطانيا لتحقيق أهدافها على أساس القضاء على التماسك القومى .

ولقد كانت بريطانيا قد بنت خطتها للمرحلة التالية لمباحثات لجنة ملنر على فكرتين : فكرة ابدال الحماية بنظام آخر تقبله مصر ثم فكرة اقناع الزعماء المصريين بقبول التسوية الملنرية فى خطوطها الرئيسية عن طريق مفاوضات رسمية .

وبدأت بريطانيا تمهد السبيل ، لدخول هذه المرحلة التالية لاخفاق مفاوضات (سعد ـ ملنر) لتحقيق أهدافها .

وبدأت الحكومة الانجليزية فاعلنت السلطان فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢١ قرارها الآتى نصه :

« ان حكومة جلالة الملك ـ بعد درس الاقتراحات التى اقترحها اللورد ملنر ـ استنتجت أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى مصر فيها تجاه بريطانيا العظمى ، ومع أن حكومة جلالته لم تتوصل بعد الى قرارات نهائية فيما يختص باقتراحات اللورد ملنر ، فانها ترغب الشروع فى تبادل الآراء فى هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان للوصول ـ اذا أمكن ـ الى أن تستبدل بالحماية علاقة تضمن المصالح الخصوصية التى لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الاجنبية وتطابق الامانى المشروعة لمصر والشعب المصرى (١) » .

واذ يعتبر ذلك كسبا لمصر كحجة فى طريق النضال الثورى ، تؤازرها فى سيرها نحو غايتها فقد كان تمهيدا لمرحلة ما بعد المفاوضات .

طلبت بريطانيا من السلطان تعيين وفد توطئة للمفاوضات من جديد ولما لم يكن أمام بريطانيا غير المعتدلين وعلى رأسهم عدلى فقد كان معناه

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٨٤ .

بداية تنفيذ خطتها باستدراج هؤلاء للعمل بهم على تحقيق غايتها من خلال الاستجابة لمستلزمات طبقتهم لتأتى بهم على آخر الثورة ٠

وبدأ الحديث فى أوســـاط مصر السياسية (١) عن تولى الوزارة للمفاوضة ، وهل من الخير استدعاء سعد للحضور ليشترك فى المشــورة برأى الى أن ينتهى الامر الى حل المسألة فى ذلك بالتشاور مع أعضاء الوفد الذين جاءوا اليها والساسة المقيمين بها ، وانتهى الامر الى عدم اشتراك الوفد فى الوزارة لان توليه الوزارة لا يسمح له بالمساومة فليكن اذن المساوم من جانب آخر غير الوفد ، وكان الخلاف الذى بدأ بين أعضاء الوفد يجعل اشتراكهم فى المفاوضة أمرا غير ميسور ٠

واتجه الرأى الى تأليف وزارة برياسة احمد مظلوم ، وقد كان من قبل رئيسا للجمعية التشريعية ، وزارة تتولى القيام بالمفاوضــــات ولكن حوربت الفكرة فى مهدها ، فكان أعضاء الوفد الذين جاءوا الى مصر ممن حاربوها ، وكان اتجـــاههم الى أن يؤلف عدلى الوزارة ويتـــولى هذه المفاوضات ٠

ولقد اتفق جماعة من الشبان ، وذهبوا الى عدلى وقابلوه ورغبوا له الوزارة واقنعوه بقبولها فرضى بذلك ٠

ولما كان عدلى كرشدى يشعر بأن عليه واجبا يؤديه ليخلص مصر مما ورطها فيه ، من الحماية فقد قبل الوزارة ، فما ان قبل السلطان استقالة وزارة نسيم فى ١٦ من مارس ١٩٢٠ حتى عهد فى اليوم ذاته الى « عدلى يكن » بتأليف الوزارة الجديدة وقد ضمن عدلى جوابه برنامج وزارته ، فأعلن أنها ستجعل نصب عينيها ـ فى المفاوضات الرسمية ـ ان تصل الى اتفاق لا يجعل مجالا للشك فى استقلال مصر وانها ستدعو الوفد المصرى للاشتراك فيها ، وان الامة سيكون لها على لسان ممثليها فى جمعية وطنية القول الفصل فى هذا الاتفاق ، وان هذه الجمعية ستكون أيضا جمعيـــة تأسيسية تضع الدستور ، وستكون الانتخابات لها حرة بحيث تمثل رأى الامة تمثيلا صحيحا ، ووعد بالعمل على رفع الاحكام العســـكرية والغاء الرقابة على الصحف وبالامتناع عن احداث كل تغيير جوهرى قبل تنفيذ النظام النيابى الجديد (٢) ٠

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١١٥ ٠
(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ٠

وبدا على الوزارة فى ظاهرها أنها فاتحة خير ، فقد قوبلت بابتهاج الامة واغتباطها ، ولكنها كانت فى حقيقتها بداية مرحلة خطيرة فى حياة الثورة ، هى مرحلة التصدع والانحدار .

كانت الوزارة فى ظاهرها محاولة لحل القضية المصرية ، ولكن على طريقة أعضائها من الرجعية التى تمثلت بين أعضائها من الحاقدين على الثورة ، والناقمين على الوفد ، والآخذين بأنصاف الحلول فى معالجة هذه القضية المصرية ، لذلك لم تكن فى حقيقتها التى تكشفت عنها اتجاهات رئيسها واعضائها وظروف تشكيلها ، الا محاولة لاستدراج العناصر المعتدلة وتجميعها فى ظل زعامة جديدة ، وأداة عقد عليها هؤلاء الآمال الكبار فى التعبير عن ميولهم والسير بمبدأ المصالحة الى مداه ، كما كانت الوزارة املا كانت تسعى اليه بريطانيا فى شخص عدلى وقدرته على أن ينظم فى ظل وزارته كل المعتدلين فتصل بهم الى أهدافها فى تمكنها من الثورة .

ولم يكن هذا أو ذاك يشير فى حقيقته الى شىء ، أكثر من اشارته الى وجود اتجاه ايجابى صاعد معاد للثورة ، كعمل جماهيرى متطرف ، قوامه الرجعية وذلك الاستعمار فى شكل هذه الرجعية المتطلعة الى السيطرة والعودة بالثورة الى الوراء « حركة أعيان » .

ولقد بدأت هذه المرحلة الجديدة من عمر الثورة لمواجهة ذلك الاتجاه الرجعى فى جو سياسى تبدو فى ظاهره محاولات التفاهم حول أسلوب المفاوضة . ولكن لم يكن متوقعا أن يستمر ذلك دون تصادم مع الثورة تصادما يجمع الرجعية حول الوزارة ، فينتهى الى التحام بين الثورة وبين هذه الرجعية التى تقف منها بريطانيا والسراى موقف السند العظيم .

عودة سعد الى مصر :

أرسل عدلى اثر تشكيل الوزارة بطريق البرق نبأ تأليفه وزارته وبرنامجها ، ودعا الوفد الى الاشتراك فى المفاوضات الرسمية ، فجاء الرد من سعد تلغرافيا فى ١٩ من مارس بعزمه على العودة الى مصر ، فوصل الاسكندرية فى ١٤ من أبريل .

وانتظمت مصر كلها فى ركب سعد موكبا واحدا للحفاوة به ، من شاطىء البحر حتى وصل الى القاهرة ، وأحس الشعب فى ذاته بقوة

فانبعث بها الى حيث تتلاقى أفواجه وتزخر امواجه • وكان سعد هو بلا جدال عنوان تلك القوة ، كان استقباله فى الاسكندرية يوما مشهودا ، فلما استقل القطار الى القاهرة لاحقته جموع الشعب على طول الطريق • وفى القاهرة كان اللقاء عظيما حارا ، فما ان لاح فى سيارته حتى استقبلته القاهرة ، وكانت مصر فى موكبه فى احتفال كبير •

وعاد سعد كما ذكرنا ، واستهل جهوده فى مصر شاكرا الأمة على ثقتها وحفاوتها ثم قال :

« اننا لم نعد الا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ، ونشد أزرنا باتحادهم المتين •• ونتـــأكد من أن الاشتراك فى المفاوضـــات الرسمية الذى دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادىء التى وضعتها الامة ، وعاهدناها على احترامها ، ومع الخطة التى رسمتها وتعهدنا بمتابعتها ولا شيء أحب الى قلوبنا من ان نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لان تسترشد بارادة الامة ، وعاملة على تحقيق غايتها السياسية (١) » •

ونظرا لأن الوفد كان على طريق ومبدأ يخالف طريق الوزارة ومبدأها كان لابد أن يختلفا فى السير معا الا اذا اتفقا على خطة •

كان سعد يريد المفاوضة فى اطار المبادىء التى يراها كممثل للامة وكان عدلى يريد المفاوضة بوفد رسمى تضطلع به الوزارة •

ولم يكن الاتفاق حول خطة ميسورا بين الوفد واتجاه عدلى الذى يبلور اتجاه المعتدلين فى نزعتهم والحاقدين على الثورة والناقمين عليها فى اطار الاتجاه البريطانى •

لذلك سرعان ما تجلى الخـلاف عندما بحثت شروط المفـاوضة بين الوفد والوزارة ، وتأليف الوفد الرسمى الذى يتولاه ، فما ان كثر اللغط حول الموقف حتى صرح سعد بأن الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شيء من شروط العمل المشترك بينهما ، ثم ذكر الشروط التى يجب أن يتضمنها المرسوم القاضى بتشكيل وفد المفاوضات وهى :

أولا : الوصول الى الغاء الحماية الغاء تاما صريحا بمعنى الغاء الحماية التى فرضت على مصر فى ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ •

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٣٥٨ •

ثانيا : الاعتراف باستقلال مصر استقلالا تاما ودوليا عاما سواء في الداخل والخارج مع مراعاة ارادة الامة التى ابدتها فى التحفظــات التى قدمها الوفد للجنة ملنر ٠

ثالثا : الغاء الاحكام العرفية والرقابة على الصحف قبل الدخول فى المفاوضات ٠

رابعا : تكون غالبية المفوضين الرسميين للوفد ، وان تكون رياسة المفاوضات من الوفد ٠

وقد كان ذلك أساسا سليما بلا جدال ، كمنهج يســير عليه وفد المفاوضات ولا سيما بعد أن أخذ الاتجاه الرجعى يرفع رأسه بعد ظهور الانقسام بين الوفد ويتطلع أملا الى وزارة عدلى ٠

ولكن اذا كان ذلك أساسا سليما لانه يتفق مع ارادة الامة ، فهل كان ذلك يرضى بريطانيا والرجعية فى شــخص هذه الوزارة ؟ وعلام كان الانقسام اذن ؟ ولم كان ذلك التغيير الوزارى ؟

وبدأ الخلاف ، فأشيع أن الوزارة تأبى الســـماح بالشرط الاخير وفقا للتقاليد المصطلح عليها فى المفاوضات الدولية التى يلزم أن يتولاها رئيس الحكومة ٠

كانت تريد وفدا رسميا يكون لها رياسته وكثرة أعضائه ولا يكون فيه من الوفد الا قلة معروفة ٠

ولم يكن من واجب سعد ـ اذ ذاك كزعيم للثورة ـ الا أن يعمل واتجاه الثورة الاصيل فاذا كان الانجليز لم ينصروا عدلى ويحموا قيام وزارته الا لانهم يرجون أن يقبل منهم ما ليس يقبله سعد نفسه ، فقد كان من غير الواجب أن يعمل سعد لتذليل الطريق لهذا الاتجاه الهادف للقضاء على الثورة ٠

ولم يكن سعد يطلب رياسة المفاوضات لينازع « عدلى » فى الوزارة، بل كان يطلبها ضمانا للتبعــة التى تصــدى لها وتحملها واضطلع بهــا ولا سيما بعد أن أخذت الرجعية ترفع رأسها ضد الثورة ٠

وانحصر الخلاف أيضا فى الاحكام العرفية والرقابة الصحفية فلم

يكن لبقائها فى مصر الا اكراه المعارضين على قبول ما لا يقبلونه أو اكراههم على السكوت ٠

وبدأت القطيعة وبدأت الثورة تواجه المارقين عليها وأخذ لعاب المعتدلين يسيل أمام موقف الوزارة الجديدة ويتهيئون فى ظله للعمل مع عدلى منفصلين ، ثم ازداد الاتجاه المناقض للاتجاه الشورى الجماهيرى بما كشف بوضوح معالم الطريق لبريطانيا كى تحقق أغراضها ٠

ذهب سعد يخطب فى حفل أقيم لتكريمه فى ضاحية شبرا ، وكان عدلى قد أدلى بحديث نشرته الاهرام فى صباح ٢٥ من أبريل أصر فيه على أن تكون الرياسة له بوصف كونه رئيس الحكومة وأنه سيسير فى المفاوضة ولو لم يتم الاتفاق مع سعد ٠

خطب سعد فى ٢٥ من أبريل ردا على ذلك التحدى الموجه ضده بعد أن أدرك أن وزارة عدلى لا توافق على شروطه ٠

قال سعد ردا على دعوى التقاليد بأنها تقضى بأن تكون الرياسة لرئيس الحكومة ، فرد بأنها دعوى باطلة ، اذا صحت فى أوربا ، فلا يصح ذلك فى مصر مطلقا بالنسبة للمهمة السياسية التى نحن بصددها ، فان مصر ليست بلدا دستوريا فوزارته لا ينتخبها الشعب ، بل هى معينة من طرف الحاكم ، فلا يمكنها أن تدعى انها وزارة دستورية نائبة عن الأمة ثم بين أن السلطان انما يمثل سلطة الحماية المضروبة على المصريين ٠

ثم استطرد قائلا : انه ليس لرئيس الوزارة أن يدعى أنه يدير سياسة مصر الخارجية ليكون له المبرر للرياسة فى مأمورية سياسية تتعلق بمستقبل الأمة وقال :

« ورئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية يسقط ويرتفع باشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه أن يكون بازاء رئيسه وزير خارجية انجلترا حرا فى الكلام لأنه مدين له بمركزه ، فاذا طلبنا الرياسة فانا أطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة لا تهاب شيئا مطلقا فى المطالبة بحقوقها وهى قوة الأمة » ٠

وهكذا كشف سعد للجماهير حقيقة موقف الوزارة وحقيقة موقف من اختارته الأمة وكيلا عنها لينير السبيل ويكشف عن الخديعة ، ثم أعلن فى هذه الخطبة عدم ثقته بالوزارة ٠

اختلفت الوزارة مع الوفد فى شروطه وما كان لها أن تختلف لتنفرد بالمفاوضة كى لا تزيد الانقسام الداخلى ، وكان واجبا على عدلى أن يستقيل، فلا يتشبث بالوزارة ورياسة المفاوضات احتراما لارادة الأمة ، وقد كان ذلك هو المنطق السياسى السليم احتراما لارادة الأمة •

ولكن هل جاءت وزارة عدلى لتسلم للثوريين ما يأباه المعتدلون ، وعدلى زعيم المعتدلين ؟ حقا لقد غلبتها طبيعتها والغرض الذى جاءت من أجله !

وصمــدت وزارة عدلى على رأس المعتــدلين ، ووقف سعد على رأس الاتجاه الثورى فى ثقة أصلب عودا وأقوى حجة فى الحق يستمد قوته من تأييد الشعب له •

وقد وقف المعتدلون يساندون الوزارة فى اتجاهها ، ووقف الاحتلال يستجيب لرغباتها بما يمكنها من البقاء ، وأخذ الموقف يتطور فى تماد نحو التطرف ، فيجذب اليه العناصر المعتدلة من الوفد فتجد تلك فرصــتها للتعبير عن موقفها جهارا ضد الثورة فى شخص الوفد ، فيأخذ الانقسام بين الوفد فى التحول نحو التصدع •

وأثير الموقف بين الهيئة الوفدية فى ٢٨ من ابريل عام ١٩١٩ فعرض عليها أمر الاشتراك فى المفاوضة وكان طبيعيا ومعظم هذه الهيئة من المعتدلين الذين لا يعترفون بالعمل الثورى ، أن يتجــاوبوا مع موقف الوزارة ، فرأت أغلبية الأعضاء عدم اشتراك الوفد فى المفاوضة ، بل وعدم محاربة الوزارة ، ولما كان ذلك الاتجاه لا يمثل الاتجاه الثورى الأصيل الذى يبلور ارادة الأمة القومية السياسية منذ البداية ، ونظرا لأنه كان انحرافا بالثورة الى ما يؤدى بها الى الانحدار • أبى سعد الا أن يثبت مع الثورة ، فصمم على رأيه وعلى اعلان عدم الثقة بالوزارة القائمة •

ثبتت الثورة حفاظا على مبادئها أمام اتجاه المعتدلين الرجعيين الذى بدت به الوزارة ، ولكنها لم تكد تصمد حتى أخذ ذلك الاتجاه يجذب اليه العناصر المتقسمة بين الوفد من المعتدلين ، فاذا بها أمام ذلك الاتجــاه فى شكل تحالف رجعى يستهدف فى باطنه تحوير الثورة الى حركة أعيان !

كان متوقعا فى ظل وزارة عدلى ألا يظل المعتدلون فى الوفد فى البقاء فى خط النضال الثورى وبغير أن تجذبهم هذه الوزارة تهيئوا للعمل مستقلين ، فقد وجدوا فى ظلها سبيلا يتيح لهم التعبير عن مبادئهم القومية

القائمة على المصالحة ، والعمل وفقا لمستلزمات طبقتهم لمواجهة العمل الجماهيرى ، ولقد أخذ ذلك يتجلى مع صمود سعد فى تعبيره عن الآراء الثورية فى مواجهة اتجاه وزارة عدلى ، فأخذ الانقسام بين صفوف الوفد كما مثله المعتدلون يتحول الى تصدع !

استقال من الوفد(١) على شعراوى ، وكتب خمسة آخرون من أعضاء الوفد يعترضون على سعد فى عدم اكتراثه لرأى أغلبية الأعضاء ، وهم : « محمد محمود وحمد الباسل وأحمد لطفى السيد ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى » .

ولم تكن العلة هى عدم اكتراث سعد لحكم الأغلبية بقدر ما كان ذلك فى أعماقه لدى هؤلاء رغبة ، كانت تجيش فى الأعماق كما ذكرنا ، نفورا من الثورة والرغبة فى العمل مستقلين عن الوفد بما يستجيب لأهوائهم علما بأن ما كانوا يطالبون به سعدا ان هو الا الرغبة لتصفية الثورة رغبة فى اذعانه لارادة الرجعية ، والانصراف عن الثورة .

ولم يكن رأى الأغلبية هنا فى حقيقته واجب الاحترام طالما كان منحرفا عن ارادة الأمة ، كما تبلورت فى اتجاهات سعد ، فلا تثريب عليه ولا لوم أو مسئولية فى مخالفته لرأى منحرف عن حقيقة الارادة الثورية ، ولو كان الوفد مجلسا نيابيا وسلكت أغلبيته ذلك السلوك خروجا عن اتجاه الأمة لجاز حله والرجوع اليها بطريق الاستفتاء .

وتمسك سعد بموقفه كاتجاه يمثل ارادة الأمة القومية ، فى مواجهة عدلى وهو يتمسك بمبادئه التى يجتمع فى ظلها الرجعيون متساندين مع الاتجاه البريطانى وموقف السراى !

ومع هذا التمسك ومن نبعة النيات الدفينة ضد الثورة والوفد ، امتد الانشقاق بين الوفد حتى صار تصدعا .

انشق الوفد مرة أخرى أمام اصرار سعد بعدم الاذعان لرأى الأغلبية ، فطلع الوفد على الأمة بمنشور فى ٢٩ من أبريل باعتبار هؤلاء منفصلين عن الوفد ، وان الوفد ماض فى سبيله ، فانضم الى المنشقين من أعضاء الوفد لفيف آخر وهم من كبار التجار الماليين مثل « عبد الخالق مدكور وحافظ عفيفى بك وعبد العزيز فهمى » ثم استقال جورج خياط من الوفد فى يونيه فاعتبرهم الوفد جميعا منفصلين .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، ص ١٠ .

وبقى مع سعد من أعضاء الوفد « مصطفى النحاس وواصف بطرس غالى وسينوت حنا وويصا واصف » ثم على ماهر ٠

وقف سعد صامدا بالاتجاه الثورى فى مواجهة الرجعية مع هذه القلة من أعضاء الوفد يستمد قوته من تأييد الأمة ، وثقتها الكبرى كقائد وزعيم، وامتد التصدع من الوفد الى صفوف الأمة ، فأخذت المعركة تنتقل الى القاعدة الشعبية تعبر عن ذاتها بمختلف الوسائل فى مظاهرات فى الشوارع بين المدن وبين الصحف والاجتماعات وبالخطب ومختلف الاحاديث ٠

ونهضت الثورة فى مواجهة الرجعية عموما كما مثلتها الوزارة لخروجها عن ارادة الأمة وتحديها ، فحدثت ثمة مظاهرات عدائية للحكومة فى طنطا فى ٢٩ من أبريل عام ١٩٢١ ، تعرضت لها قوات الشرطة ، ولما عجزت عن تفريقهم لكثرة عددهم أطلقت عليهم النيران فأصابت الكثير من المتظاهرين ، حتى بلغ عدد الجرحى ٤٠ جريحا الأمر الذى زاد من حرج الوزارة ، ولصقت بها تهمة حكم الشعب بالقوة ، وعبثا حاول عدلى تبرئة ساحته منها فقد تركت آثارها عميقة بين الشعب ٠

وكان من الممكن حقا ــ بعد أن أخذ الخلاف يحدث آثاره العميقة فى وحدة الأمة ــ أن يتدارك الموقف فيرجح الاعتبار القومى ، فقد كانت المصلحة القومية تقتضى من عدلى ألا يدخل المفاوضات ويترك الأمر للأمة لا الى جمعية وطنية منتخبة لتحسم الخلاف كما جاء فى اقتراح « عمر طوسون » اذ ذاك فى ٣٠ من أبريل ١٩٢١ فقد كان ذلك منه حلا ينطوى على لون من التحدى للوفد ووكالته عن الأمة كما كان دأب «عمر طوسون» ازاء الوفد ٠ ولو كان اجراء الانتخابات أمرا ميسورا ما تحولت الامة عن انتخاب الوفد وعلى رأسه سعد ، قائدا وزعيما ولقد قامت ثمة محاولات أخرى بجانب محاولة « عمر طوسون » كعلاج سياسى يخفف من حدة هذه الاحوال ويعيد الطمأنينة الى النفوس بما يبقى على الوحدة القومية ٠

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى ذلك :

« تحدثت فى هذا الأمر الى بعض أصدقائى الشبان فى الحزب الديمقراطى وكان لصديقى « محمود عزمى » صلة خاصة « بعدلى باشا » فلما قلبت معه وجوه الرأى اتجهنا الى أن استقالة الوزارة وتكليف سعد بتأليف وزارة جديدة قد يعالج الموقف ، وعاد الى عزمى فى اليوم التالى لحديثنا يخبرنى بأنه طالع به «عدلى باشا» بحضور « ثروت باشا وصدقى

باشا ». فرأى الرجلان معارضة أساسها أن قبوله ذلك معناه ترك حكم البلاد فى أيدى الغوغاء وأنه اذا لم تتمكن الحكومة من القضاء على الفوضى وأفلت الزمام من يدها كانت الطامة الكبرى » (١) .

فهل كان ذلك المنحى يغلب الاتجاه القومى أو أنه جاء ردا ينطوى على حقد على الوفد ونقمة على الثورة كاتجاه جماهيرى ؟

ولقد لعب المنشقون عن الوفد دورا فى ابعاد عدلى عن لقائه مع الوفد وسعد حول تعاون أو تفاهم ، فوقفوا بجانبه استجابة لما فطروا عليه وزينوا له البقاء والاصرار على مقاومة الوفد حتى تحول موقفه منه الى موقف التحدى .

فجاء موقف عدلى من الوفد والثورة ، غلوا وتحديا لارادة الشعب فأى السبيلين كان أفضل : الوصول الى الاستقرار واعادة السكينة بتولى سعد الحكومة وقيامه بالمفاوضة أو الاستمرار فى استثارة الشعب بما يشغله عن قضية بلاده ، ثم لا يعرف أحد ما يكون من أثر ذلك كله فى مصير البلاد ؟

ولكنه الكبرياء والحقد على الوفد وعلى رئيسه والخوف من الثورة كل أولئك قد أدى دوره فى اخفاء ما يجب أن يكون .

كيف يرضى كبرياء الوزارة بالنزول على حكم الثورة ؟ فالنزول على حكمها لا يرضى به الا المغلوبون ! وكيف يتحقق ذلك والحكومة قادرة على البطش بالثورة بكل الوسائل والتخلص منها كاتجاه جماهيرى ؟ ثم ألا يعد ذلك فى نظر الحاقدين تسليما بتحكم فرد واحد !؟

لم يجد عدلى على رأس وزارته اذن مفرا من أن يمضى فى مقاومة الثورة على النحو الذى ذكرناه مؤثرا ذلك على التسليم لها ولزعامتها .

وظل الخلاف بين سعد والوزارة عنيفا أشد العنف قرابة شهرين ، انقسمت الأمة فى اثنائهما الى سعديين وعدليين . وبالرغم من أن الوزارة قد وجدت من تأييد العناصر المنشقة والسراى ماأمكنها من الوقوف أمام الوفد والثورة ، فقد صمدت الثورة أمام الاتجاه الرجعى بالرغم من محاولات السلطات العسكرية التخفيف من الحملات ضدها ، كتقرير رفع الرقابة عن الصحف ابتداء من ١٥ من مايو سنة ١٩٢١ ، واعلانها عن مواصلة السعى لرفع الاحكام العرفية ، ومع هذا حملت عليها صحف الوفد وعلى المنشقين

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١٢٢ .

حملات شديدة ، وزاد ذلك شدة محاولة الوزارة احالة بعض الموظفين الى مجالس تاديبية لمحاكمتهم على تكريمهم لسعد فأساءت الوزارة لنفسها •

ولقد وجدت الثورة زادا زاد جذوتها اشتعالا فى مواجهة الرجعية فى محاولة الوزارة تحديها ، بالتمهيد للاضطلاع بمهمة المفاوضات غير مكترثة بمعارضة الوفد ، ذلك أنها أخـذت تستكتب النـاس عرائض التأييد مستخدمة رجال الادارة فى جمع التوقيعات من الاعيان وغيرهم ،ثم صدر مرسوم بتشكيل الوفد الرسمى فى ١٩ من مايو برياسة عدلى ومن لفيف من الحاقدين على الوفد والآخذين بانصاف الحلول فى معالجة القضية المصرية وهم : « حسين رشدى واسماعيل صدقى ومحمد شفيق وأحمد طلعت ويوسف سليمان » وكان « عبد الحميد بدوى » السكرتير العـام للوفد الرسمي وقد اختار الوفد لهيئته مستشارين وموظفى سكرتاريته من نخبة من الشبان البارزين •

وقد قرر عدلى فى الكتاب الذى رفعه للسلطان بمناسـبة تأليف الوفد الرسمى الأغراض التى سيلتزمها المفاوضون على وجه لا يخرج عن برنامج الوزارة فأثبت أن الغرض الرئيسى هو : (١)

الوصول الى الاعتراف بمصر مسـتقلة فى الداخل والخارج والغاء الحماية صراحة ، وأثبت حرص المفاوضين على تحقيق تحفظات الأمة على مشروع ملنر دون أن يكون الوفد مقيدا في المناقشات بذلك المشروع ، ثم أضاف ان هذه المبادىء تتفق تمام الاتفاق مع مرمى الوفد المصرى ، وأعلن أسفه لعدم اشتراك الوفد المصرى فى المفاوضات •

وما ان علمت الجماهير بتأليف ذلك الوفد الرسـمى دون اشـتراك الوفد حتى زادت المظاهرات عنفا فى القاهرة والاسكندرية وفى كثير من المدن ، واتخذت طابع العداء لكل من خالف سعدا فى رأيه وانتقل الاختلاف فى الرأى الى التحريض ضد الخصوم السياسيين وازدادت المظاهرات عنفا فى الاسكندرية ،وتحولت الى اضطرابات بين المصريين والاجانب حتى تدخل الجيش والشرطة لقمعها •

ولما انحرفت المظاهرات عن معناها نشر سعد نداء فى ٢٤ من مايو حث فيه الشعب على حسن معاملة الأجانب ونشر فى اليوم التالى نداء آخر بوقف المظاهرات اتقاء لما يثيره أهل الفتنة فيها من الأعمال واكتفاء بما أظهرته الأمة •

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٨٩ •

وكان لحوادث الاسكندرية وقعها السيىء فى انجلترا ، فقد صرح اذ ذاك تشرشل وزير المستعمرات بأنه لا يرى أن الوقت قد حان لبريطانيا لأن تجلو عن مصر خوفا على حيـاة الجاليات الاجنبية ، فكان ذلك نذيرا بفشل المفاوضات المزمع اجراؤها •

وبالرغم مما بذله عدلى على رأس الاتجاه الرجعى من محـــاولات للســـيطرة على الاتجـــاه الثورى الجمـــاهيرى فقد ظل مسيطرا قويا وان انتهى ذلك الصراع بتصدع وحدة الأمة •

ولقد استطاعت مصر الثورة بصمودها وتصميماتها أمام الاتجـــاه الرجعى أن تثير الصعوبات أمام الوزارة وتحيطها بالحرج وتثير قلقا أمام بريطانيا حول نجاح المفاوضات، فلم يكن ليخفى على الانجليز وهم يراقبون تطور الموقف ، موقف الشعب من تقرير ذلك النجاح ، وأن معاهدة يمضيها عدلى قلما تظفر – والوفد لايزال مسيطرا من الامة – بالموافقة ، وكان متوقعا من ذلك الجو العاطف الثائر أن تشعر هذه الوزارة بالحرج وأنها أمام مأزق كبير ! •

كان الخروج من ذلك المأزق عسيرا أمامها بغير اجراء المفاوضات ، ولم يكن عجيبا أن تصر على ذلك ، فهى اذا استقالت عد ذلك هزيمة واعترافا لسعد بالغلبة ، ولكنها اذا استقالت بعد الفشل فى المفاوضة فقد يجمع ذلك بين الخروج من المأزق ودحض ماقد ترمى به من التساهل والتفريط ، لأنها رفضت المعاهدة التى رفضها سعد ، ولربما كان الانجليز يطلبون تسويغ مركزهم بشكل يبدو شرعيا بمعاهدة توقعها الحكومة لها مظاهر التأييد القومى كائنا ماكان حظها من تأييد الوفد ، وعندئذ تستطيع الوزارة أن تسخر أعداءها لجمع التوقيعات لتأييدها ويستطيع أنصارها من المنشقين وغيرهم من المعاونة على جمع هذه التوقيعات لتتم بهذا وكالة الوزارة •

صممت الوزارة اذن على المفاوضة ولم تتردد فى انجاز ذلك بدون اشـتراك الوفد ، وسافر الوفد الرسمى الى لنــدن فى الأول من يونيه سنة ١٩٢١ لمفاوضة المسئولين ، فانصرفت جموعها فى مصر بعد ســفر ذلك الوفد الرســمى الى تزييف الثقة بالوزارة ونزع الثقة من سعد ، وتكفل بهذا وزير الداخلية اذ ذاك « عبد الخالق ثروت » •

وقد غالى ثروت فى جمع العرائض والتوقيعات لأنه ظن أن بريطانيا

تريد بالفعل مسوغا لاتفاقها كيفما كان ذلك الاتفاق ، وحاول سعد مقابلة الخطة بما ينقضها ، فسعى فى استقدام لجنة من نواب البرلمان الانجليزى الاحرار لزيارة مصر والتعرف على حقيقة الموقف فيها وحقيقة مشـــاعر المصريين ، فحضرت اللجنة وطافت ببعض الاقاليم وكانت ضربة للوزارة .

ومن وسائل سعد أيضا فى مقابلة الخطة رحلته النيلية التى قام بها اذ ذاك من القاهرة الى أسوان .

وبالرغم من أن الادارة الانجليزية المصرية قد استباحت كل ما عندها من أساليب القسوة والشدة فى محاربته ، فمنعت سعدا من النزول الى اسيوط ، فقد كان الشعب ينتظم فى ركبه ويهتف بحياة زعيمه أينما حل وسار ، ولم يسع سعدا بعد أن اضطر للعودة الى القاهرة الا أن يرفع الأمر الى السلطان يشكو له دون الوزارة .

ولم يكن متوقعا مع اشتداد الثورة ضد الوزارة وأذنابها أن ينجح عدلى فى المفاوضات ، لم يكد عدلى يستقر حتى ازداد شعورا بالمأزق الحرج الذى واجهه اذ لم يجد استعدادا تاما مبنيا على الثقة والاطمئنان لمفاوضته ، فقد كانت مقاومة الثورة لوزارته مقاومة اضاعت كل أمل لبريطانيا لاتمام أى اتفاق ، وقد تجلى ذلك من تقابل عدلى بلويد جـــورج رئيس الوزارة فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٢١ فبعد حديث فى موضوع حماية المواصلات البريطانية قال : انه شديد الحرص على الوصول الى اتفاق لأنه يثق فى رغبة عدلى فى التفاهم . وانه لمن دواعى الفخر الارتباط بصـــداقة مصر العريقة ، لكن من الصعب الوصول الى حـــل مرض للطرفين نظرا للحالة النفسية السائدة بين الوزارة ومجلس العموم ، فان الهياج الذى يحدثه سعد يزعجهم وهم لا يرضون بحال أن يطأطئوا الرءوس أمام سعد !

فأجاب عدلى بأن سعدا يناهض الوزارة المصرية ، ولكن لايعلن عداء لانجلترا ، فقال لويد جورج : ان سعدا بعمله على احباط مساعى الوفد الرسمى يعطل الاتفاق وانه (لويد جورج) يعجب كيف لم تتخذ ضده اجراءات مشددة بمناسبة الفتن التى أحدثتها زيارته للصعيد ؟ وكيف لم ينف عن مصر ؟

فقال عدلى : ان اتخاذ التدابير الشديدة ضده قد تحدث اضطرابا عاما فى مصر ، ثم تساءل عن مصير هذه المفاوضات ، فقال لويد جورج : انه يعز عليه ان يعود الوفد الرسمى الى مصر من غير نتيجة ، ولكن لا يمكن

فى الظروف الحاضرة الوصول الى اتفاق مقبول بين الطرفين مادام سعد يسلك طريق التهييج ويستولى الخوف على الوزارة الانجليزية مما يحصل فى مصر لهذا فهو يتساءل : هل يحسن وقف المفاوضات على أن تستأنف حين تصــــبح مصر اكثر هدوءا ؟ فقال عدلى : انه لا يوافق على تأجيل المفاوضات الآن خصوصا اذا أريد بذلك التأجيل التمكن من نفى ســـعد لتستأنف المفاوضات بعد نفيه ! ..

وعند انتهاء الحديث كانت آخر كلمة للمستر لويد جورج : انه يجب التخلص من سعد !

تبين عدلى من خلال حديثه مع رئيس الوزارة أن هناك خاطرا يشغل بال المستر لويد جورج، ولذلك طلب أن يلتقى بالمستر لندسى ليجلو كل غموض وينفى كل شــــبهة (١) ولقد التقى به فى ٤ من نوفمبر وصرح للمستر لندسى بالتصريح التالى ، وطلب اليه أن ينقله عنه للورد كرزون وهو :

« ان الفكرة التى ألم بها المستر لويد جورج هى أنه ــ وان كان يثق بأن الاتفاق ممكن من جانبى وجانبه ــ يرى أن الهياج الذى احدثه زغلول فى مصر يدعو الرأى العام هنا الى القلق والحذر ، ومن شأنه أن يجعل البرلمان الانجليزى لا يطمئن الى بلد نفوذ زعمائه يتوجه الى مثل ذلك الشغب والهياج ، وذلك يحمله على الرفض بحيث يصبح الاتفاق متعذرا، وقد تساءل : هل يحسن تأجيل المفاوضات الى وقت يسود فيه الهدوء وتكون الأحوال أكثر ملاءمة وأدعى للثقة والاطمئنان مما هى عليه الآن ؟ كما أنه لم يخف دهشــــــته من ترك زغلول حرا فى احـــداثه الفتن والاضطرابات ، والذى أرجوه ، هو أن يعرف أنى لن أقبل التأجيل ولن أوافق عليه كحل للمســــألة المصرية . وأن ليس للوزارة الانجليزية أن تضن على فى تسهيل هذا الحل عليها ، فاذا كانت قد عقدت النية عليه ، وأرادت المضى فيه فلا يسعنى الا أن أعده جوابا غير مرض وان أعلن أنه فيما يتعلق بى قد أنتهت المفاوضات على غير اتفاق » .

ولقد عز على بريطانيا أن يعـود عدلى بغير نتيجة ، فقدمت اليــه مشروعا لم يجد منه عدلى ما يحقق الغاية التى سافر من أجلها .

سير المفاوضات :

ولقد تبين سير هذه المفاوضات من ذلك القرار الوافى الذى رفعه

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ١٠٤ .

عدلى الى السلطان بتاريخ ٨ من ديسمبر ١٩٢١ بعد عودة الوفد ، وقد جاء فيه :

انه بعد الاحاديث التمهيدية (١) رأى أن يطلب من اللورد كرزون أن يحدد أولا الضمانات الواجبة لصالح انجلترا والاجانب عموما ليعرف المتفاوضون مبلغ اتفاقها مع معنى الاستقلال • فان كانت لا تنافيه قبلوها وان كانت تنافيه رفضـوها ، وكان المفهوم انهم اذا وصلوا الى اتفـاق حول الضمانات كانت نتيجة ذلك الاتفاق وضع معاهدة باستقلال مصر والغاء الحماية دوليا وتثبيت تلك الضمانات ، وعلى هذا جرت المناقشة حول مسائل القوة العسكرية الانجليزية فى مصر وتمثيل مصر السياسى والموظفين الانجليز بين وزارتى الماليـة والحقـانية والامتيازات باعتبارها المسائل التى ترتبط بمعنى الضمانة •

وفى العاشر من نوفمبر سـلم كرزون « عدلى » مشروع الحـكومة الانجليزية ورأى الوفد الرسمى أنه لا يحقق الغاية التى سافر من أجلها للمفاوضة فقرر الا يسترسل فيها اكثر من ذلك ، أما أهم مواد المشروع فهى على الوجه الآتى (٢) :

أولا : انهاء الحماية :

١ ـ ترفع الحكومة البريطانية الحماية فى مقابل ابرام هذه المعاهدة وتعترف بمصر من الآن دولة ذات سيادة فى ظل حكومة دستورية ••

ثانيا : العلاقات الخارجية :

٢ ـ الشئون الخارجيـة تتولاها وزارة الخارجية ويقـوم على هذه الوزارة وزيرها •

٣ ـ يمثل الحكومة البريطانية فى مصر مندوب سام يكون له فى كل وقت ـ وبسبب تبعاته الخاصة ـ مركز استثنائى ، ويكون له التقدم على ممثلى الدول الاخرى •

٤ ـ يمثل الحكومة المصرية فى لندن ـ وفى أية عاصـمة أخرى ترى الحكومة المصرية أن المصـالح المصرية فيها قد تسـتدعى هذا التمثيل ـ معتمدون سياسيون يكون لهم لقب الوزير ورتبته •

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ٩٠ •
(٢) المرجع السابق من ص ٩٤ ـ ١٠٠ •

٥ ـ نظرا لما التزمته الحكومة البريطانية فى التعهدات فى مصر وعلى الخصوص ما كان فيها متعلقا بالدول الاجنبية يجب أن يكون بين وزارة الخارجية المصرية والمندوب السامى البريطانى أوثق العلاقات ويقدم هذا المندوب للحكومة المصرية كل مساعدة ممكنة فى المعاملات والمفاوضات السياسية ٠

٦ ـ لا يجوز أن تباشر الحكومة المصرية أى اتفاق سياسى مع دولة أجنبية ، دون أن تستطلع رأى الحكومة البريطانية ، ويكون هذا الاستطلاع بطريق المندوب السامى البريطانى ٠

٧ ـ للحكومة المصرية حق تعيين قناصل يمثلونها فى الخارج على حسب ما تقتضيه مصالحها ٠

٨ ـ فى الجهات التى لا يكون لمصر فيها ممثلون سياسيون أو قناصل مصريون ، يضع ممثلو الحكومة البريطانية أنفسهم تحت تصرف الحكومة المصرية فيما يتعلق بالادارة العامة للشئون السياسية وبالحماية القنصلية للمصالح المصرية ، ويقدم لها المندوبون كل مافى مقدورهم من المساعدة ٠

٩ ـ تستمر الحكومة البريطانية فى تولى المفاوضة مع الدول ذوات الامتيازات لالغاء الامتيازات الحالية ، وتقبل مصر أن يضطلع المندوب السامى بنفسه حماية المصالح المشروعة للأجانب فى مصر ، وتتداول الحكومة البريطانية مع الحكومة المصرية قبل البت فى هذه المفاوضات رسميا ٠

ثالثا : الاحكام الخاصة بالمسائل العسكرية :

١٠ ـ تتعهد الحكومة البريطانية بمساعدة مصر فى الدفاع عن مصالحها الحيوية وعن سلامة أراضيها ٠

وللقيام بهذا التعهد وتوفير حماية المواصلات الامبراطورية البريطانية تكون للقوات البريطانية حرية المرور فى مصر ، ويكون لها ٠٠٠٠

رابعا : استخدام الموظفين أو الضباط الأجانب :

١١ ـ بالنظر للتبعات الخاصة التى تضطلع بها الحكومة البريطانية وبالنظر للحالة القائمة فى الجيش المصرى والمصالح العمومية ، تتعهد الحكومة المصرية بألا تعين ضباطا أو موظفين أجانب فى أية مصلحة من هذه المصالح بدون موافقة المندوب السامى البريطانى ٠

خامسا : الادارة المالية :

١٢ ـ تعين الحكومة المصرية ـ بعد مفاوضة للحكومة البريطانية ـ مندوبا ماليا توكل اليه الحقوق التى يتولاها أعضاء صندوق الدين ، ويكون هذا المندوب مسئولا بوجه أخص عند دفع المصروفات المالية فى مواعيدها :

(أ) المبالغ المخصصة لميزانية المحاكم المحلية ٠

(ب) جميع المعاشات والمستحقات السنوية الأخرى لمن كان فى المعاش من الموظفين الأجانب أو لورثتهم ٠

(جـ) ميزانيتى المندوبين المالى والقضائى والموظفين التابعين لهما ٠

١٣ ـ لأجل أن يقوم المندوب المالى بأعماله كما ينبغى له ، يجب ان يطلع اطلاعا تاما على جميع الأمور فى اختصاص وزارة المالية ٠ ويكون له فى كل وقت حق الدخول على رئيس مجلس الوزارة المالية .

١٤ ـ لا يجوز للحكومة المصرية عقد قرض خارجى أو تخصيص ايرادات مصلحة عمومية لوفاء دين بدون موافقة المندوب المالى ٠

سادسا : الادارة القضائية :

١٥ ـ تعين الحكومة المصرية ، بالاتفاق مع الحكومة البريطانية ، مندوبا قضائيا يناط به ، نظرا للتعهدات التى أخذت الحكومة البريطانية نفسها بها ، القيام بمراقبة تنفيذ القانون فى جميع المسائل التى تمس الأجانب ٠

١٦ ـ لأجل أن يقوم المندوب القضائى بأعماله كما ينبغى له ، يجب أن يطلع اطلاعا تاما على جميع الامور التى تمس الاجانب وتكون من اختصاص وزارتى الحقانية والداخلية ويكون له فى كل وقت حق الدخول على وزيرى الحقانية والداخلية .

سابعا : السودان :

١٧ ـ حيث ان رقى السودان فى هدوء وسكينة ، ضرورى ، لامن مصر ولحفظ مئونتها من المياه ، تتعهد مصر بأن تستمر فى أن تقدم لحكومة السودان المساعدات الحربية التى كانت تقوم بها فى الماضى ، أو أن تقدم بدلا من ذلك لتلك الحكومة اعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق مع الحكومتين ، وتكون كل القوات المصرية فى السودان تحت أمر الحاكم العام ، وعدا

ذلك تتعهد الحكومة البريطانية بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل ، وقد تقرر من أجل ذلك ألا تقام أعمال رى جديدة على النيل أو روافده فى جنوبى وادى حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء يمثل أحدهم مصر والثانى السودان والثالث أوغندا •

وقد تلا ذلك المواد : الثامنة وكانت خاصة بقروض الجزية ، والتاسعة باعتزال الموظفين والتعويض المستحق لهم ثم العاشرة عن حماية الاقليات •

ولم يكن هذا المشروع عموما مشروعا منصفا ، بل سادته نزعة الرغبة فى السيطرة على مصر سياسيا وماليا وحربيا لخدمة أغراض بريطانيا والاجانب على السواء ، والاحكام الخاصة بالمسائل العسكرية لم تكن الا الاحتلال بعينه ، الذى يقضى بالسيادة الخارجية والداخلية على السواء •

أما عن العلاقات الخارجية ، فقد أقر أحقية مبدأ التمثيل ، ولكن القيود التى فرضت عليه كثيرة بحيث تجعل منه أمرا غير مجد ، ولا ننسى مامنحه المشروع للمندوب المالى والقضائى من حقوق تشل سلطة الحكومة والتشريع ، بل والسيادة الداخلية كما كانت نصوص السودان مجحفة !

لم ير عدلى ضرورة من الاسترسال فى المفاوضات أكثر مما كان وعاد الى مصر ليعرض تقريره عنها أمام السلطان ، وبذلك انتصرت الثورة فى مواجهة الرجعية المتحالفة مع الاستعمار وفشل الاتجاه الرجعى ، كما نظمته بريطانيا فى وزارة عدلى من أجل الحصول على اعتراف مصر بمركزها فيها •

وبقيت الثورة وان كانت قد منيت بالتصدع الكبير ، ولكن لم تجد بريطانيا محيصا من أن تواجهها سافرة كى تتمكن من بلوغ أهدافها عن طريق الرجعية بمختلف ألوان التآمر •

الفصل الثالث عشر

الثورة فى مواجهة التآمر

بين نفى سعد وتصريح ٢٨ فبراير

نجحت الثورة فى مواجهة الاتجاه البريطانى الآخذ صورة الرجعية بما أفسد على ذلك التحالف بين الاتجاهين خططهما وأهدافهما .

وبالرغم من ان الثورة كانت قد خرجت على معركة الرجعية متصدعة الوحدة فقد ظلت باقية ، وكان لها أن تمضى بقوة الاندفاع الأول حتى تحقق كل أهدافها القومية .

ظل العامل الشعبى القومى قويا ، كما تزعمه سعد برغم هذا التصدع وفقدانه الكثير من عناصره ، يثير قلق بريطانيا ويعرض مراميها السياسية للتهديد والخطر .

ولم يكن معنى انتصار الثورة فى مواجهة ذلك الاتجاه البريطانى فى المفاوضات الاخيرة ، تسليم بريطانيا بمطالب مصر ، بل كان معناه زيادة شعورها بالسخط ازاء عامل يصر على تهديد مصالحها فى اصراره على ابراز الحق القومى كاملا ، وكان من الطبيعى كرد فعل لذلك ــ منذ أن تلقت على يد العامل الشعبى الفشل فى الوصول الى حل فى المفاوضات الاخيرة ، واتضاح رؤية الطريق نحو أهدافها على أساس التعاون مع المعتدلين ــ أن تتخذ من الخطوات الايجابية ما يمكنها من الخروج من المأزق الذى أوقعها فيه الفشل فى المفاوضات وذلك لضمان التعاون مع المعتدلين .

كان أمام بريطانيا لمواجهة فشل المفاوضات خطتان ، الاولى : ترتيب حالة مؤقتة على قواعد مشروع كرزون والاخرى من اقتراح عدلى وهى : تنفيذ الاحكام التى تضمن ذلك المشروع الاعتراف بها من المصريين وتأجيل ما اختلف فيه الطرفان الى أن يتم الاتفاق عليه .

وسواء أخذت بريطانيا بالاولى أو بالاخرى . فقد كانت ــ اذ ذاك ــ ترى استحالة انجاز ما تستهدفه والثورة بزعامة سعد ، تسيطر على مصر ، بما يفقدها معاونة ذوى النفوذ من المصريين لتنفيذ خطتها ، لذلك كان لابد لها من أجل أهدافها مواجهة الثورة بعزل سعد على رأس المتطرفين ، عن

السياسة ، والتشدد مع سائر المتطرفين ثم ضمان معاونة ذوى النفوذ من المصريين على تحقيق غاياتها مع المعتدلين ·

ولقد بدت هذه النية واضحة من خلال مفاوضات عدلى ـ كرزون ، كما أسلفنا القول · فقد كان لويد جورج ـ اذ ذاك ـ يعجبّ : لم لم تتخذ مصر الاجراءات المشددة ضد المتطرفين بدعوى قيامهم بالفتنة التى قامت من زيارة سعد للصعيد !؟ وكان يعتقد انه مادام « سعد زغلول » يسلك طريق الثورة وأعضاء الوزارة الانجليزية يتولاهم الخوف والقلق ممايحصل فى مصر ، فالظروف الحاضرة اذ ذاك لا تصلح للوصول الى اتفاق مع عدلى زعيم المعتدلين .

كانت النية اذن منتهية بالعزم على مواجهة الثورة بخطة تشلها عن العمل ، وتفسح المجال لاستكمال معاونة بريطانيا مع المعتدلين للخروج من ذلك المـأزق ، حتى تستطيع تصحيح مركزها السـياسى فى وادى النيل .

ولقد خطر للمستر لويد جورج قبل أن يقطع عدلى المفاوضات ، أن يؤجلها الى وقت تكون فيه الاحوال فى مصر قد هدأت ، بابعـاد زغلول عن الحياة السياسية ، وبهذا الهـدوء يتمكن الفريقان من الوصـول الى تسوية يقبلانها فرفض عدلى ذلك .

لم تكن بريطانيا تعول فقط على ابعاد سـعد ونفيه كى تستطيع الوصول الى غايتها ، فكانت ترى أنها فى حاجة الى معاونة رجـال من ذوى النفوذ أمثال عدلى ليكون الغرض من الابعاد مثمرا .

وقبل أن يتخذ اللنبى الاجراءات الخاصة بابعاد سعد عن الحيـاة السياسية ، وقبل أن يدخل فى أحاديث مع فريق من الزعماء المصريين ، كلفته حكومته أن يرفع تبليغا منها للسلطان يوم ٣ من ديسمبر ١٩٢١ قبل وصول عدلى للاسكندرية عائداً من مهمته .

ولقد جاء ذلك التبليغ وثيقة سقيمة تبدى أسف بريطانيا على عدم قبول الوفد الرسمى للمقترحات البريطانية (١) مع تمسك بريطانيا بالأساس الذى بنيت عليه الاقتراحات ، وهو أن تتولى بريطانيا بنفسها توفير الضمانات الكافية لمصالحها حتى يحين الوقت الذى تصبح ضمانات مصر ذاتها للمصالح البريطانية بحيث تطمئن لها وتعتمد عليها .

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ١٠٧ .

ولقد كان الجو بعد عودة عدلى وفشل المفاوضات ينبىء بأنه سيكون جوا سياسيا مكفهرا مليئا بالتهديد والوعيد . ولقد عبرت بريطانيا عن طريق اللنبى عن ذلك فى خطاب وجهته الى السلطان قالت فيه :

انها تعتبر اقتراحاتها هذه سخية فى جوهرها واسعة النطاق فى نتائجها ثم خلصت من ذلك الى الوقيعة بين السلطان والمتطرفين فقالت:

هناك علامات على أنه لايبعد على المتطرفين فى الحركة الوطنية أن يزجوا بمصر ثانية فى الهوة التى لم يطل العهد عليها(١) .

ويعنى ذلك الحركة العرابية . وقالت عن السياسة التى تتبعها فى الحاضر انها « لايمكنها تنفيذ اقتراحاتهـا بدون رضـاء الامة المصرية واشتراكها ، ولكن حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التى كانت لديها على الدوام ، وهي العمل على انماء مواهب المصريين وزيادة عدد الموظفين منهم فى كل نوع ولاسيما الفروع الادارية التى كثر فيها عـدد الموظفين الاوروبيين .

ثم خلصت من ذلك الى التهديد من جديد للمتطرفين فقالت :

« اذا كان الشعب المصرى يستسلم الى أمانيه الوطنية ، فمهما كانت هذه الأمانى صحيحة ومشروعة فى ذاتها ودون أن يكترث اكتراثا كافيا للحقائق التى تستحكم فى الحياة الدولية ، فان تقدمها فى سبيل تحقيق تصميمه الأسمى لا يصيبه التأخر فقط ، بل يتعرض للخطر تعرضا تاما ، اذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شـأن ما على الامم من الواجبات ، ومعظم مالهـا من الحقوق ، وأن الزعمـاء المتطرفين الذين يدعون الى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها ، وهم بما كان لهم من الاثر فى مجرى الحوادث قد تحدوا — مرة بعد مرة — الدول الاجنبية فى مصالحها ، وأثاروا مخاوفها ، وكذلك عملوا فى الأسابيع الأخيرة على التأثير فى سير المفاوضات بنداءات مبهمة استثاروا بها العـامة . وان حكومة جلالة الملك لاتعتبر أنها تخدم مصالح مصر بتساهلها ازاء تهييج من هذا القبيل ، ولن يكون لمصر أن تسير فى سبيل الرقى الا متى أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة مايكفل منع هذا التهييج ، لأن العالم يتألم الآن من جهـات عـدة من الاندفاع فى نوع الوطنية المتعصبة ، وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع بشكل شديد سواء فى مصر أو فى غيرها » .

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٣٧٥ .

وكان اللنبى يسيطر على فكره عاملان :

أحدهما : اعتقاده أن نفوذ بلاده يتوقف على سيادتها البحرية فى البحر المتوسط وطالما احتفظت بهذه السيادة فلا ضير من أن تتساهل مع مصر تساهلا معقولا .

والآخر : ضرورة الوصول الى مخرج من الأزمة التى أحدثها اخفاق الوفد الرسمى والتبليغ البريطانى واستقالة عدلى (١) .

وكان هذا المخرج هو التهديد بنفى سعد وضمان التعاون مع ذوى النفوذ من المصريين !

ومهما يكن الأمر ، فقد استعدت بريطانيا بهذا للتنكيل بالمتطرفين تمهيدا لسيطرة الرجعيين على الثورة فى محاولة للوصول بهم الى مخرج من الأزمة التى حدثت من اخفاق الوفد الرسمى فى المفاوضات ، وكان على رأس المصريين المتطرفين سعد زغلول ، على أن ذلك اذا كان سهلا لدى بريطانيا فقد كان متوقعا أن تكون آثاره سيئة على الموقف ، ولما سمع ذلك الزعيم الكبير ذلك قال :

« أيهددوننا بنصب المشانق ، ليكن ، نحن مستعدون » ولم يسعه الا أن نشر نداء ناشد فيه الامة التمسك بالاتحاد والعمل على نزع الشهوات الدنيئة منها وكذلك الاحقاد ، كما نادى بالتجرد من الهوى فلايطيب العيش للمصريين حتى يطلق الوطن السجين ، ويتمتع باستقلاله التام ، ولم يعتبر ثمة خصما للمصريين الا الذين أرادوا احتلال مصر .

وختم نداءه بقوله : « انكم أنبل الوارثين لأقدم مدينة فى العالم ، وقد خلقتم لتعيشوا أحرارا أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول دوما عنكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم ، فنشق اذن بقلوب كلها اطمئنان ونفوس ملؤها استئثار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

نهض اللنبى بتنفيذ اجراءاته فى ٢٢ من ديسمبر فوجه بلسان مستشار الداخلية الى سعد تعليمات تحظر عليه طبقا للأحكام العرفية الخطابة فى الناس أو شهود اجتماع عام أو الكتابة فى الصحافة أو القيام بأى عمل من الاعمال السياسية ، وعليه أن يغادر القاهرة ليقيم فى منزله فى الريف تحت مراقبة المدير ، وماهى الا ساعات حتى عاد اليه

---

(١) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ١٠٨ .

الرد (١) عن طريق مستشار الداخلية جاء فيه : انه تسلم خطابه ثم قال :

« . . . وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتي ، اذ ليس هناك مايبرره! وبما اني موكل من قبل الامة للسعي في استقلالها فليس لغيرها سلطة تخليني عن القيام بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى في مركزي مخلصا لواجبي وللقوة أن تفعل ما تشاء أفرادا وجماعات .. ! » .

وانتشر الخبر في أحياء القاهرة فماجت بالحركة ، وغدت عبارة سعد تعبر على الثبات في الجهاد ، فكانت الجموع تتلاقى في غير اتفاق سابق متجهة الى بيت الامة ، وكان سعد - اذ ذاك - يتوقع نفيه للمرة الثانية ولكنه كان يؤكد ايمانه بتغلب الحق على الباطل .

ولقد شاء اللنبي بهذا أن يوقع اليأس في قلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاء القوم في عالم السياسة المصرية بابعاد المتطرفين الثوريين عن المسرح كله ليستطيع في غيابهم التعاون مع الرجعيين من أجل أهداف الطرفين على اساس اتمام التآمر على الثورة .

كان اللنبي قد أرسل تقريره الى كرزون بابعاد سعد وشركائه ويقول : ان سيلان أوفق مكان لانها معروفة في الاذهان باعتقال عرابي وذلك من شأنه أن يحدث بين الشعب تأثيرا عظيما ، فأرسل كرزون الى اللنبي في ٢٣ من ديسمبر رسالة يعلن فيها موافقته على ابعاد سعد وأنصاره الى سيلان في أول فرصة كاقتراحه له في تلغرافه .

ونفي سعد ولجأت السلطات العسكرية الى عزل سائر المتطرفين عن الميدان السياسي .

تلك كانت بداية المؤامرة التي اضطلعت بها بريطانيا لتخلص البلاد من الثورة فتعلن الرجعية التعاون معها ، وتتمكن هي من ثم من ايجاد حل يصحح مركزها في وادي النيل على أساس اعتراف المصريين !

على أنه اذا كانت قد شاءت بنفي سعد وعزل المتطرفين عن السياسة ، اخماد الثورة ، فقد أسرفت في سوء فهم الموقف وتقديره .

فما ان علمت مصر بنفي سعد للمرة الثانية مع صحبه حتى تجددت ثورتها تجددا ان لم يبد بالروح التي اعقبت النفي الاول فقد بدا بشكل أثبت به فشل خطة اللنبي بما عرض المصالح البريطانية في مصر لمزيد من الخطر .

---

(١) عباس محمود العقاد . سعد زغلول ، ص ٣٨٢ .

عادت نزعة توحيد الصفوف من جديد ، وأخذت هذه العناصر تستعد لمنازلة الاحتلال والمنشقين عن وحدة العمل الثورى .

دعا «أمين الرافعى» الى توحيد الصفوف والاتحاد والتضامن والاتفاق والتصافح (١) بروح قومية سمحة ، وكان من أثر ذلك أن عاد الى الوفد المنشقون عليه ، بعد أن جرفهم الشعور العام ، « محمد محمود وعبد العزيز فهمى ، وحمد الباسل ، وأحمد لطفى السيد ، وحافظ عفيفى ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة ، وجورج خياط » .

وقد انضم هؤلاء الى من بقى مع سعد ولم يعتقلوا وهم : «واصف بطرس غالى وويصا واصف وعلى ماهر» ولقد أجتمع هؤلاء فى بيت الامة فى ١٨ من ديسمبر ، وأصدروا بيانا أعلنوا أنهم أجمعوا كلمتهم ووحدوا جهودهم كى يسلكوا سبل العمل الذى بدءوه من ثلاث سنوات ثم دعوا الامة الى العمل من أجل الاستقلال .

وقد ضم الوفد الى أعضائه فى يناير وفبراير عام ١٩٢٢ « على الشمسى ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى ، ومرقص حنا ، وعبد القادر الجمال» ولم يدم ذلك طويلا فقد بدا الوفد(٢) فى ظاهره وكأنه قد استعاد وحدته ، ورأب ما كان قد أصابه من تصدع ، ولكنه كان ينطوى على انشقاق شاءه الاختلاف فى المذهب والمنهج ، وعمقته جروح الانشقاق ، فلم يكن متوقعا أن تبقى وحدة الوفد فيعود كما كان ، بل يعود ثانيا الى ما ارتضاه المنشقون من وضع شاءوا به مغالبة الثورة صراعا طبقيا يتخذ صورة السياسة .

كان هؤلاء قد عادوا الى الوفد على غير ايمان عندما استهواهم الموقف ورضوا بذلك ولكن فى تصميم على ألا يبقوا مع الوفد طويلا بعد أن عرفوا طريقهم من قبل ، لذلك كان متوقعا أن ينصرم عقدهم من جديد ، وسرعان ما استقال الواحد تلو الآخر(٣) :

استقال «عبد العزيز فهمى» فى يناير عام ١٩٢٢ بدون ذكر أسباب وتبعه « لطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى وحافظ عفيفى » ، انفصلوا عن الوفد بحجة واهية هى وقوع خلاف على

---

(١) الاخبار فى ٢٥ من ديسمبر عام ١٩٢١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة ، ص ٣٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

اختيار الاعضاء الجدد الذين انضموا الى الوفد ، فقد رأوا ان ضمهم يقصد منه تغليب جانب الأعضاء الذين بقوا مع سعد بعد وقوع الانقسام الأول ، وان الباعث على ذلك هو الشك فى اخلاص المنفصلين ، ولا جدال فى أنهم لو كانوا حقا مخلصين فى عودتهم للوفد والعمل وفقا لمبادئه ما أثاروا تلك الحجة الواهية .

والحقيقة ، هى أنهم كانوا قد عرفوا السياسة التى رسمت للمستقبل، وهى سياسة حزب عدلى وسياسة اللنبى ، فرجعوا الى تأييد هذه السياسة .

ولقد حاولت العناصر الثورية فى الوفد أن ترتفع لمستوى المسئولية ولكن بغير الأساليب الثورية ، التى تتلاءم مع تطور الموقف كله ، فلم تحاول اعادة تنظيم صفوفها ، بما يجدد حيوية الثورة لمواجهة السياسة البريطانية الجديدة ، بما يتلاءم وعمق الوجهة . ولكن عمد الوفد الى الطرق السلمية وان كانت ايجابية ذات أثر فعال : فأصدر قرارا فى ٢٣ من يناير عام ١٩٢٢ بتنظيم المقاومة السلمية وجعلها نوعين : الأولى هى عدم التعاون مع الانجليز فى معاملات الأفراد ومع الحكومة ومصالحها ، وقد شملت تلك المقاطعة مقاطعة البنوك الانجليزية ومقاطعة السفن وشركات التأمين الانجليزية ، وكذلك مقاطعة التجارة الانجليزية ، ورئى لتنفيذ المقاطعة ، وعدم التعاون ، تشكيل لجنة مركزية فى القاهرة ولجان مثلها فى الاسكندرية، وفى كل عاصمة من عواصم المديريات وكل لجنة مركزية تشكل بموجبها لجانا فرعية فى الأقسام والمراكز وغيرها ، وتكون مهمة هذه اللجان تدبير وسائل المقاطعة وعدم التعاون ، والقيام بكل ما يتعلق بذلك من نشر الدعوة والارشاد .

لم يكن متوقعا ــ والثورة ترفع رايتها من جديد ، والاحتلال ساهر على عزلها ــ أن يمهلها ذلك دون أن يواجهها بالشدة فما كاد الاحتلال يشعر بهذه الحركة حتى أسرعت السلطات البريطانية فى تشتيت ذلك التنظيم الهادف الى تجميع العناصر المتطرفة ضد الاحتلال ، حتى لا يضيع عليه فرصة فى العمل مع المعتدلين : اعتقلت السلطات العسكرية فى ٢٥ من يناير الأعضاء الذين وقعوا على قرار الوفد بالمقاطعة السلبية وعطلت الصحف التى نشرت خبرها .

وبالرغم من ذلك ، لم تسلم العناصر الثورية بما انتهى اليه الموقف، فعادت عناصر الوفد الأخرى للتجمع ، وتألفت هيئة وفدية جديدة ، فأصدرت نداء الى الأمة تطلب منها الاستمرار فى الجهاد ، ولما أفرجت

السلطات الانجليزية فى ٢٧ من يناير عام ١٩٢٢ ، عن أعضـاء الوفد المعتقلين انضم هؤلاء الى زملائهم ومضى الجميع فى طريق النضال قدما فى مواجهة الاحتلال .

وبالرغم من اشتداد الاحتلال على التجدد الثورى لم يتوقف بل نحا جانب منه نحوا شديدا ارهابيا ، بتنظيم سرى يعمل فى الخفاء على نحو لم يكن للوفد أية سيطرة عليه أو توجيه ، بل انبعث ذلك تلقـائيا تنظمه العناصر من الشباب المثقفين والعمال مع سير الثورة فى مواجهة الاحتلال عقب نفى سعد وتجدد بقوتها نشاط الثورة وتحميها وتساندها ، تخيف المنشقين والموالين للانجليز وترهب بنشاطها التسلط الانجليزى فى كل مكان ، وتنزل من هيبة الاحتلال فى أعين المصريين ، وهى جمعية « أولاد عنايت (١) »وكان لتجدد الثورة آثارها فبينما كانت الدلائل تشير بفشل خطة اللنبى الجديدة ــ كفشله فى سابق خططه الهـادفة للسيطرة على الثورة ــ كان يداخله شعور بالغ للخروج من هذا الموقف ، بعد أن تبين أن استكمال الخطة التى بدأت بنفى سعد ، لا يمكن أن تتم بالاستمرار فى الشدة بل بالتفاهم لكى تكون ثمارها فعالة أقدر على البقاء ، اذا ما أدت لتمكين المصريين من التعاون على انجازها .

كان الخروج من هذا المأزق ، يستلزم توفير العناصر المعتدلة التى تفضل التعاون مع بريطانيا حول اتفاق ، ولكن اذا كانت بريطانيا تدرك مدى حاجتها لمن يعاونها فقد كان لا بد أن تقتنع هى بأسس التعاون .

ومع مواجهة اللنبى للثورة فى غيبة سعد ، كان اللقاء بينه وبين العناصر الرجعية حول ايجاد اتفاق بين الطرفين ، ولقد جاء أساس ذلك فكرة ألقاها «عدلى يكن» مع كرزون فى الجلسات الختامية للمفاوضات عندما أخذ يشعر باتجاه المفاوضات نحو الفشل ، وخلاصتها : ان انجلترا كانت قد أعلنت رسميا بأن الحماية علامة غير مرضية بين انجلترا ومصر ، وأن الاولى مستعدة للتسليم بجانب من المطالب المصرية ، وأن هذا الجانب مع ذلك لا يرضى المصريين ولا يصلح أساسا لمعاهدة ، فلماذا لا تقوم بريطانيا من ناحيتها بأن تسلم لمصر الحقوق التى أبدى كرزون اسـتعداد دولته للتسليم بها ، ثم تغلق أبواب الخلاف بين الدولتين على ما هو قائم عليه لمفاوضات مقبلة ، لعل عملا كهذا تدلل به بريطانيا على حسن نياتها نحو مصر من شأنه أن يصفى الجو السياسى الى حد ما بين الدولتين ، ويمهد الطريق من ثم لاقامة تفاهم أوسع نطاقا ؟

---

(١) أنظر الفصل السابع من هذا الكتاب .

انتقلت الفكرة الى مصر عندما عاد عدلى اليها اثر فشل المفاوضات منذ أن ألقاها فأبلغها عند مجيئه الى مصر للسلطان ، ولثروت ، ولما كان « اسماعيل صدقى » عضوا فى وفد عدلى فقد كان على علم بها ، فتحدث ثروت الى اللنبى وأقنعه بهذه الفكرة ، وأقنع اللنبى المستشارين البريطانيين فى حكومة مصر وأبلغوا وزارة الخارجية رأيهم واقتناعهم من جمودها(١) .

وكان يعترى اللنبى حيرة مصـحوبة بلهفة لايجـاد اتفاق يسوى العلاقات بين البلدين ، وكان المسئولون فى بريطانيا لا يرون ـ اذ ذاك ـ مانعا من الترحاب بأى طريق الى اتفاق يضمن لهم مصالحهم اذا ما اقتنعوا بها ، ومع الاتجاه نحو التعـاون مع الرجعيين لم يجـد اللنبى مانعا من الوصول الى الهدف البريطانى بعد أن جربت بلاده كل وسيلة عن طريق آخر غير المعتدلين ، عن طريق سعد نفسه .

ولكن كيف ؟

كان سعد فى هذه الأيام لا يزال فى عدن فى طريقه الى المنفى فلم لا تحاول التقدم اليه بدعوة جادة لحل القضية عن طريقه شخصيا ؟ ولا بأس أن تنطوى على وجه ذى خطة ماكرة ! .

تطرق بابه لتعرض عليه أسمى مركز فى البلاد وهو ولاية عرش مصر ! ألم ينادِ بخلع السلطان ؟ انها بهذا تكشف عن دخائل نفسـه لعلها تجد منها منفذا تنفذ منه اليـه . فان قبل المبدأ قبولا مطلقا وجد اللنبى نفسه أمام طريقين :

اما أن يقبل ذلك ، واما أن يستغل ذلك القبول ، فيسعى لتحطيمه سياسيا أمام مواطنيه بتهمة السعى وراء المطامع الشخصية ، وكان مرجحا أن يسلك اللنبى الطريق الأول لأنه كان هو الساعى لايجاد حل للمسألة المصرية من أقصر طريق للحل .

أما اذا قبل المبدأ مشروطا ، واختلف فى التفصيل فعندئذ تجـد بريطانيـا مايدعـوها لولوج الطريق الآخر فتنزل من هيبته بين مواطنيه وتوقع بينه وبين الأسرة المالكة وتقضى عليه سياسيا ، وتدع مصر فى خلاف

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١٢٨ .

يشتت وحدة الامة ويمزقها ، فهى اذن بهذا العرض كنت ستجد بهذا القبول ، سواء كان مطلقا أو مشروطا طريقا لحل القضية اما بالاتفاق أو بالعثور على أدوات التحطيم الفعالة فى قوة فتكسب فى الحالتين ، ويكون الغرم على الشعب .

فان رفض سعد هذا وذاك ، فلا خسران على بريطانيا ، أليست بسبيل البحث عن مخرج ينقذها من المأزق الذى كانت قد تورطت فيه بنفى سعد وصحبه ؟ فما عليها ازاء ذلك الا أن تعنى باجراءات نفيه ، وتبحث عن طريق آخر يدنيها من مآربها .

وفى عدن حاول اللنبى بالوساطة ، القيام فعلا بهذه التجربة الجديدة كسابق تجاربه فى مواجهة الثورة فى شخص « سعد زغلول » من أجل المطامع البريطانية فى وادى النيل .

نزل سعد وأصحابه فى قلعة عدن فلم يلبثوا قليلا حتى جاءهم رسول من مصر ، وهو موظف سورى كبير كان يعمل فى دار الحماية ، فاستأذن فى لقاء سعد على انفراد ، وخرج معه فى مركبة للاستراضة ، وافتتح معه حديثا وجيزا عن المفاوضات والحلول المعروضة ، ثم فاجاه بكلمة مقتضبة لا علاقة لها بحديثه السابق قائلا : ستكون ملكا على مصر فدهش سعد لهذه المفاجأة وأجابه فى حدة واستغراب : « مالنا بهذا ؟ وما شأنى أنا بالملك ؟ أنا لست الا واحدا من الرعايا » فلما عاد الرجل الى تكرار الكلمة وأنصت اليها قال للرجل : « اننى أفضل أن أكون فردا من أفراد أمة مستقلة على أن أكون ملكا لبـــلاد مستعبدة فى ظل حماية أجنبية» (١) .

ويؤيد ذلك سعد فى مذكراته بما يزيده ايضاحا فيقول (٢) :

« جبل طارق ــ يوم الثلاثاء ٢٥ من ديسمبر ١٩٢٢ .

ذكرت اليـــوم أمام حرمى وصاحبتها فهيمة ثابت قصة يعقـوب الذى قابلنا فى عدن وركب معى فى الأتومبيل وتكلم فى شئون مصر ولمح لى بقرب العودة وزوال الشدة وانى أصير ملك مصر ! فقلت له : انى

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤٠٥ .

(٢) أخبار اليوم ١٩٦٣/٨/١٠ (ص ٤) .

لا ابحث عن وظيفة ولا ابغى الا استقلال بلادى ، وأما السودان فانه لازم لمصر ولا يمكنها الاستغناء عنه .

فقالت فهيمة : ان (اللورد) اللنبى ، أشار فى كلامه مع وأحد السيدات الى هذه المقابلة بقوله : اننا رغبنا فى الاتفاق معه هنا وفى عدن فلم يقبل . وقالت حرمى : انه قال لهذا الوفد : اننا لا نعرف ماذا يريده ولم يقبل الاتفاق معنا » .

رفض سعد قبول عرش مصر رفضا مطلقا ، فلم يكن سعد المؤمن بسيادة الامة ، يقبل الولاء لغير مصر الحرة .

وفشل اللنبى فى بلوغ أهدافه فى ايجاد مخرج للازمة التى احدثها اخفاق الوفد الرسمى فى المفاوضات ، عن طريق سعد ، وهو لا يزال فى عدن ، ومن ثم لم يعد متوقعا للوصول الى ذلك المخرج الا بالنجاح فى التعاون مع الرجعية .

وبدأ فى تنفيذ الخطة وعاد اللقاء بين بريطانيا والعناصر الرجعية بعد أن وجدت بريطانيا استعدادا للمقاومة ، فمضى على أساس الاستمرار فى التعاون مع هذه العناصر ، فاذا كان ثمة بقاء للثورة فى غيبة سعد وصحبه فليس غير التآمر مع هؤلاء على حقوق الامة اجدى لكى يجبر باقى العناصر الثورية المتطرفة على الاعتدال .

وبينما كان سعد فى طريقه الى منفاه كان هؤلاء يضعون خيوط المؤامرة بما يحقق مطامعهم ..

وحول ذلك الوقت ، أوائل عام ١٩٢٢ كان اللنبى قد وثق فى مدى تعاون الرجعية ، يقول المارشال ويفل فى ترجمته للنبى(١) :

انه فى الاسبوع الاخير من ديسمبر عام ١٩٢١ والأول من شهر يناير عام ١٩٢٢ تحقق اللنبى بوساطة أحد معاونيه من الشروط التى يستطيع الحزب المعتدل بزعامة عدلى وثروت ، أن يقبلوا تاليف الوزارة ، اذا ما قبلت شروطهم ، وفى ١٢ من يناير سنة ١٩٢٢ تم الاتفاق بين اللنبى وثروت على صيغة يقبلها الطرفان ، المصرى والبريطانى وأعد ثروت كشفا بأسماء الرجال الذين قبلوا مبادئه فى الوزارة واعتبر اللنبى الاسماء مرضية .

---

(1) Wavel : Allenby in Egypt P. 69.

كان مركز الوزارة منذ استقالة عدلى قد ظل شاغرا أكثر من شهرين وكان المستوزرون قد احجموا عن تاليف الوزارة بعد التبليغ البريطانى فى ٣ من ديسمبر لما أثاره من السخط العام ، ولقد فوتح « عبد الخالق ثروت » فى مهمة تاليف الوزارة ، فاشترط لقبولها شروطا تكشف عن مدى استعداده للتعاون مع الخطة البريطانية :

١ ـ عدم قبول مشروع كرزون والمذكرة التفسيرية الملحقة به (التبليغ البريطانى المؤرخ فى ٣ من ديسمبر) .

٢ ـ تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء .

٣ ـ اعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل .

٤ ـ انشاء برلمان من هيئتين (مجلس نواب ومجلس شيوخ) تكون له السلطة التامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة امامه .

٥ ـ اطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة .

٦ ـ لايكون للمستشارين فى الوزارة الا رأى استشارى وأن يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

٧ ـ حذف وظائف المستشارين ماعدا مستشار المالية ومستشار الحقانية فانهما يظلان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة .

٨ ـ أن يستبدل بالموظفين الاجانب موظفون مصريون ، وأخذ العدة من الآن ، وتعيين وكلاء مصريين للوزارات (المالية والصحة والزراعة والاشغال والمواصلات والخارجية) .

٩ ـ رفع الاحكام العسكرية والسعى من جانب الوزارة اعتمادا على حسن موقف الامة فى سحب كل ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الاحكام العرفية بما فى ذلك من فك اعتقال المستقلين واعادة المبعدين .

١٠ ـ الدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان مع الحكومة الانجليزية بوساطة هيئة يعتمدها البرلمان للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد من الضمانات لانجلترا والأجانب ولحل مسألة السودان بشرط الا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط فيما جاء فى مشروع كرزون ويكون القول الفصل فى ذلك للأمة الممثلة فى برلمانها .

١١ ــ يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحكومة الانجليزية (١) .

بهذا عبر ثروت عن اتجاهاته السياسية ، بما يمثل محور تعبير الرجعية ، ولقد هاجم الوفد تلك الشروط فى الثانى من فبراير عام ١٩٢٢ واتهمها باغفال اهم المطالب المصرية وعلى رأسها الجلاء فلم يرد ذكره مطلقا لا فى الشروط المحققة فورا ، ولا فى المسائل المؤجلة للمفاوضة .

وكان لابد من اقناع المسئولين فى لندن بما استقر عليه اللنبى من مشروع كان موضع الخلاف بين المندوب السامى وحكومته ينحصر فى ان الحكومة كانت على استعداد لأن تلغى الحماية بموافقة البرلمان وتعترف باستقلال مصر بشرط أن يقبل المصريون شروطا تتعلق بضمان المصالح البريطانية ، وكان اللنبى يرى الغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ، وان تعلن فى الوقت نفسه احتفاظها بحرية العمل فى بعض الشئون وفقا لما تقتضى مصالحها حتى قيام التسوية .

واعترضت بريطانيا على ذلك ، ورد اللنبى بأن تفوق دولته لا يتوقف على الحماية بل على قوتها البحرية والعسكرية (٢) المرابطة فى مصر ، فاذا ما ابلغت بريطانيا احتفاظها بموقفها فلا خطر اذن بالاعتراف لمصر بالاستقلال عندئذ يمكن من ثم للساسة المصريين التعاون مع المندوب السامى .

ووجد اللنبى معارضة فى لندن وطال الأخذ والرد ولكن ما لبثت بريطانيا أن سلمت فى النهاية بمقترحاته .

وما عاد اللنبى الى مصر حتى اعلن التصريح المعروف« بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ » وعلى اثر اعلانه تألفت وزارة عبد الخالق ثروت فى الاول من مارس .

ولقد اعترفت بريطانيا فى التصريح بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع احتفاظها ــ بصورة مطلقة ــ بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة تبقى الحال فى شأنها ، كما كانت من قبل وهى : الدفاع عن مصر ، وحماية الاجانب، وحماية الاقليات ، والسودان .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى اعقاب الثورة ، ص ٤٠ .

(2) Wavel : Allenby in Egypt P. 70.

من رسالة اللنبى الى وزارة الخارجية البريطانية فى الثانى من فبراير سنة ١٩٢٢ .

ولقد جاء ذلك التصريح بعد اعتقال الزعماء ونفيهم ثمرة لتحالف الرجعية وعلى رأسها ثروت مع الاحتلال ، خيانة (كبرى) لوحـدة النضال الثورى ، واستكمالا لسابق التآمر على الثورة بنفى زعيمها فلم يأت التصريح فقط انتقاما من قدر العمل الثورى ، وبداية لرجعة الثورة الى حركة الاعيان ، بل جاء مساسا بحقوق الامة برغم ماجاء به من مميزات سلمت بها بريطانيا .

على أنه بالرغم من هـذا ، فقـد نقل ذلك التصريح مع تواضـعه مركز مصر السياسى القومى ، خطوات الى الامام ، وكان من الممكن الافادة منه فى كسب المزيد من الجولات الموفقة لاستكمال ما كسبته الامة ، ولكن نظرا لأنه قد وجد بين أمة منيت بالانقسام ، ولما كان التصريح بطبيعته يسترضى المعتدلين والرجعيين وبما يثير الثوريين • كان متوقعا أن تشهد مصر فى ظله مرحلة من الصراع السياسى المضطرب فى ظل الاحتلال •

استثار التصريح العنـاصر الثورية والرجعية ، فانقسـمت الامة الى معسكرين : سعديين وعدليين ، وجذب عناصرهما الى صراع فى البداية حول المبدأ ، وكان سعد فى المنفى ، فما جاءت الانباء برأيه فى استنكار التصريح واعتباره نكبة وطنية حتى بلغ الانقسام أشده ونشطت الصحف بما يزيد من حدته وما لبث الصراع أن تحول فى النهاية الى صراع حول نظام الحكم الداخلى فى ظل الاستقلال ، ومن ثم كان التصريح بداية سيطرة الرجعية وتراجع الوفد ومن ثم تحور النضـال القومى الى نضال سياسى يتناول القضية بمبادىء الرجعية ، من المصالحة : أخذ شىء بترك شىء •

الفصل الرابع عشر

تصفية الثورة

بين سيطرة الرجعية وتراجع الوفد

مهد السبيل لسيطرة الرجعية وكان نجاح الرجعيــة فى السيطرة بمبادئها وضمان الحكم على أســاس قواعد النظام الجديد ــ معناه تصفية الثورة •

ولم يكن نجاح الرجعية فى ذلك سهلا ميسورا ، ولا كان متوقعا أن يكون فى ذلك مطلقا ، لأنه كان مرتبطا فى قدره ومقدار نجاحه بتراجع الوفد عن مواقع النضال الثورى ، فبمقدار تراجع الوفد تكون ســيطرة الرجعية ومن ثم تصفية الثورة ونجاح الاتجاه البريطانى :

ولقد مكنت بريطانيا الرجعية فى غيبة سعد وصحبه فى المنفى من الوقوف على أقدامها ، واستجابت تلك للهدف البريطانى فى استجابتها لاهدافها فجدت تستكمل عهــدها بوزارة « عبد الخالق ثروت » بالعمــل الدائب على ارساء سيطرتها على الثورة بما يمكنها من أهدافها •

كانت الخطة التى كان يتبعها ثروت وأصدقاؤه من المنشقين عن الوفد من المــلاك الاعيــان والرأسماليين ويطمعون الى جريان الامور فى مجراها الى الغاية المنشودة هى تنفيــذ ذلك الاتفاق بينهم وبين الانجليز وضمان الحكم على القواعد الدستورية فى غيبة سعد وأصحابه فىالمنفى والمعتقلات، وكان منالممكن تقرير المبادىء التى تلائم هؤلاء على أساس اقرار المسئولين بالوزارة والاعتراف بالأمة وحدها مصــدر السلطات ، فلا تحصر فى يد الملك كى تضمن الخطة الدســتورية فى ذلك المجرى ، وكان من الممــكن بجانب هذا ــ وثروت فى الحكم ــ أن يجرى مع الذى يحسنه وجرى عليه فى جمع التوقيعات فينزل هو وأصدقاؤه من شيعة عدلى من الملاك الاعيان المنشقين عن الوفد الى ميدان الانتخابات فاذا ما انتخبوا ومثلوا كثرة كان الدستور وما جاء فيه ضامنا بالاستئثار بالسلطة والسيطرة الى زمن طويل ومن ثم تتحقق الغاية •

مضت وزارة ثروت وهــذه الخطة فبدأت تهيىء الســبيل للاهداف المرســومة ، فالفت فى ٣ من أبريل ســنة ١٩٢٢ لجنــة لوضع مشروع

الدستور وقانون الانتخابات برياسة حسين رشدى سميت بلجنة الثلاثين، فقد كان قوامها ثلاثين عضوا من كبار رجال القانون ، ولم يشترك بها الوفد ولا الحزب الوطنى ، فقد كان الوفد يرى أنه اذا كان لابد من وضع دستور فلا أقل من أن تضعه جمعية تأسيسية منتخبة .

ولم يكن الطريق أمام ثروت سهلا ولا كان معبدا لتسهل مهمته ، بل كان مليئا بالعقبات ، فلم تكن وزارته وليدة ارادة الامة أو فى اتجاه الرأى العام وكان طبيعيا أن يبدو بوزارته بغيضا لدى أغلبية الشعب ، وقد زاد فى بغض الشعب لها أنه ألفها امتدادا للأغراض البريطانية فى الوقت الذى كان سعد ورفاقه فى طريقهم الى المنفى ، لذلك كان متوقعا أن تجد الوزارة وهى تمضى فى ارساء نواة النظام الجديد عقبات كبيرة .

كانت الوزارة قادرة على مواجهة العناصر الثورية ، ولكن ليس بالقدر الكافى لارجاعهم عن مواقفهم الثورية ، لكنها كانت على كل حال قادرة على اسكاتهم ولو بمعاونة السلطات البريطانية ، بقدر ما كانت هذه العناصر قادرة من ناحيتها على مقاومتها وازعاجها .

كان من خصومها السراى ، وكانت هذه تمثل الرجعية فى أسوأ صورها كان يهمها أن تنجح فى مواجهة العناصر الثورية الا أنها ما كانت تريد بها أن تنزع حقا تريد أن تناله عن طريق الدستور .

وعلى ذلك كان طريق الوزارة الى ارساء قواعد النظام الجديد صعبا .

وبدأت الوزارة حياتها ، فاذا بالعناصر الثورية تواجهها بما أحرج مركزها بمختلف ألوان الاغتيالات السياسية لكبار الموظفين والجنود الانجليز بما أثار ازعاج حكومة بريطانيا واحتجاجها .

وبرغم ما اتخذته وزارة ثروت من تدابير خاصة لمواجهة ذلك لاكتشاف الجناة ، وما بذلته من زيادة عدد القوات الاوروبية فى الشرطة لكي يتيسر لها زيادة عدد الدوريات ، فقد مضت الاغتيالات فى سبيلها .

وشاءت الوزارة مواجهة عناصر التيار الثورى امعانا منها فى السيطرة على الموقف ، فاضطهدتها بمختلف ألوان التعسف بمصادرة الاجتماعات وتعطيل بعض الجرائد: كالأهالى فى مايو عام ١٩٢٢ والامة لمدة ثلاثة أشهر من ٦ من يوليو عام ١٩٢٢ والاهرام ثلاثة أيام وغير ذلك .

ولقد حاولت السلطـــات البريطانية معـاونة الوزارة الثبات أمام العناصر الثورية والتنكيل بها ، ولكنها كانت بعملها قد أحرجت الوزارة أمام الشعب بما زاده استثارة ، عندما عمدت السلطة العسكرية البريطانية الى اعتقال أعضاء الوفد فى ٢٥ من يوليو وتقديمهم للمحاكمة بتهمة ارتكاب جريمة يعاقب عليها بنص المادة ١٥١ عقوبات مصرى - بطبعهم ونشرهم حوالى ١٨ من يونيه سنة ١٩٢٢ منشورا يعرض للكراهية والاحتقار حكومة مصر وانهم اعدوا في ١٨ من يوليو منشورا موضوعه اثارة الكراهية ضد نظام الحكومة الحاضر ، وسجنوا بثكنات قصر النيل وأقيمت عليهم الدعوى العمومية أمام محكمة عسكرية بريطانية فى ٩ من أغسطس ، في تناقض مع عهد الاستقلال وكان موقف المتهمين فى هذه القضية موقفا مشرفاً ، ولما قضت المحكمة عليهم بالاعدام أبدلته القيادة البريطانية العامة بالحبس سبع سنوات مع غرامة ، ثم أفرج عنهم فيما بعد ٠

واعتقلت السلطة العسكرية لفيفا آخر من الوفديين وكان بينهم « عبد الرحمن فهمى ومحمود النقراشى » ولما سكتت الوزارة عن هذا يعد ذلك ادانة لها ٠

على أنه بالرغم من هذا لم تستطع الوزارة مع السلطات العسكرية القضاء على العناصر الثورية بالشدة أو اسكاتها لتتمكن الوزارة فى هدوء من ارساء قواعد النظام الجديد ، فسرعان ما نهضت تلك العناصر تجدد كيانها فتألفت هيئة جديدة للوفد ٠

حزب جديد :

وبينما كانت ترسى قواعد النظام الجديد لتضمن على أساسه الحكم على القواعد الدستورية بما يمكنها من الاتفاق بينها وبين الانجليز ، شاءت الوزارة استعمال ذلك لبلورة الاتجاه الرجعى فى حزب جديد مستظلا بسلطانها يحمل عنها الرسالة اذا ما استقالت وتمكن به الرجعية من البقاء فى السلطة اذا ما نجحت وبذا تضمن الاستمرار فى العمل فى ظل المبادىء الرجعية ٠

كان ثمة اتجاه رجعى قوامه المعتدلون منذ كان يتجلى بين صفوف الوفد من بداية الثورة ، انقساما وتصدعا فاتجاها للعمل فى استقلال عن الوفد وفق مبادىء ترجع الثورة كحركة قومية الى حركة اعيان ٠

لم يجد هؤلاء فرصة للتعبير عن نشاطهم، صراعا طبيعيا يتخذ صورة السياسة • فظلوا يتحينون الفرصة كما سبق ان رأينا •

ولما اخذ عدلى ينظم عقد هؤلاء المعتدلين كانوا قد ادركوا الفرصة لتحقيق آمالهم بعد أن رأوا فيه الزعيم الذى يصلح لأن ينظم عقدهم وما ان تم التآمر على الثورة بنفي سعد « وتصريح ٢٨ فبراير » حتى كانت الفرصة قد سنحت ، ومن ثم أخذ الاتجاه يجد ما يبرر ابرازه فى ذلك التصريح ولم يكن الا اختيار الوقت للتنفيذ ، فلما فرغت لجنة وضع الدستور من عملها وأصبحت مصر على أبواب الحياة البرلمانية لم يعد ثمة اختيار لقيام التكتل فى شكل حزب جديد بل وجدوا فى ذلك امرا لامناص من القيام به لمواجهة العهد الجديد للتهيؤ لنقل السلطة اليهم والتمكن من ثم من تنفيذ ما اتفقوا عليه •

فما أن اتجهت النية للتكتل حتى وجدت معاونة من الوزارة القائمة وقد توالت اجتماعات المؤسسين فى منزل عدلى بالاسكندرية لاختيار اسم للحزب الجديد حتى انتهوا بتسميته : حزب الاحرار الدستوريين •

يقول رئيسه عدلى ، فى أول خطاب عن برنامج ذلك الحزب (١) :

« ••• قد يكون فى نظر بعض اصحابنا اننا قد تأخرنا فى القيام بهذا الواجب الوطنى ، اذ أن بعضكم طالما صارحنا منذ بضعة أشهر بأن حالة وطننا السياسية تقتضى –الا فى الظروف غير المناسبة– تأليف حزب سياسى حر يستطيع أن يؤدى للبلاد خدمة حقيقية ، اما ولجنة الدستور قد فرغت من عملها واصبحنا على باب الحياة البرلمانية فلم نعد مختارين فى انتخاب أنسب الاوقات لتأليف حزبنا بل لابد لنا من اقتحام كل عقبة » •

ولقد اتخذ الحزب الجديد جريدة تتكلم باسمه وهى جريدة السياسة ورأس تحريرها الدكتور « محمد حسين هيكل » ، كما أعد الاشخاص الذين ينضمون الى لجنة الدستور اعضاء فى الحزب ، واتفق على أن يكون من بينهم « مدحت يكن ومحمد محمود وحسن عبد الرازق » وجماعة من الشبان أمثال الدكتور « حافظ عفيفى » رئيس جمعية مصر المستقلة «وشوقى بك أباظة ، وأحمد بك عبد الغفار» وأمثالهم من مديريات مختلفة عرفوا بنشاطهم فى مديرياتهم وتأييدهم «لعدلى باشا» وكان كثيرون منهم

(١) العدد الاول من جريدة السياسة فى ٣٠ من اكتوبر ١٩٢٢ •

أعضاء فى الحزب الديمقراطى أو فى جمعية مصر المستقلة التى أنشئت فى أثناء مفاوضات «عدلى باشا» مع لورد كرزون وكانت تؤيده فى موقفه من هذه المفاوضات(١) .

ومع أن لطفى السيد لم يكن من أعضاء الحزب لأنه كان قد عاد الى وظيفته مديرا لدار الكتب منذ كان وثيق الصلة بعدلى ومن يؤلفون الحزب، وكان هو الذى يحرر خطاب الافتتاح الذى يلقيه عدلى ، وكان من رأيه ان ينضم الى عضوية الحزب كل من : « عبد الخالق ثروت » رئيس الوزارة « واسماعيل صدقى » وزير المالية لانهما كانا يد عدلى اليمنى خلال المفاوضات فكان أولهما نائب رئيس الوزارة بمصر فى أثناء غياب عدلى ورشدى والآخر عضوا فى هذه المفاوضات ، وكان « لطفى السيد » يستهدف من ذلك أن تكون الوزارة القائمة وزارة حزبية يؤيدها الحزب فاذا استقالت أفاد الحزب من كفاية هذين الرجلين بنوع خاص فعارض « محمد محمود » ذلك بكل قوته ولم يعارضه فى الاجتماعات التى عقدت بمنزل عدلى وحضرها لفيف من أعضاء الحزب ومن لجنة وضع الدستور وبنى معارضته على عدم استطاعة التعاون مع صدقى خاصة .

واذ يمثل حزب الوفد من قبل امتدادا متطورا فى مرحلة متقدمة لحزب الامة فقد جاء الحزب الجديد بمثابة الرجعة الى هذا الحزب الاول فى منهجه فى العمل السياسى ونظام تشكيله من العناصر ذات « المصالح الحقيقية » وهو يأخذ صورة العهد الجديد ، بل كانت ظروف هذه الرجعية التى اتخذت شكل حزب الاحرار الدستوريين كظروف نشأة حزب الامة الى حد كبير (٢) .

كان فى مقدمة مبادىء الحزب الجديد استقلال مصر ، بعد الخطوة التى خطتها « بتصريح ٢٨ فبراير » وصدور الدستور ، وكانت مبادىء الحزب فى مواجهة وحدة النضال الثورى دعوة لتصفية الثورة والتفريط فى الحقوق القومية بالرضا وبانصاف الحلول، وقد رأوا أن صدور الدستور وتمتع الامة بحقوقها الدستورية هو المقدمة الجوهرية لحل المسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا ، مع نبذ سياسة الاستثارة والتهديد التى لم يعد منها

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١٤٤ .
(٢) أنظر التمهيد من هذا الكتاب .

فائدة ، كما رأوا ان لا بد من انتهاج سياسة تعتمد على الدبلوماسية أكثر من اعتمادها على الاثارة •

وكانت أسس المبادىء الاقتصادية والاجتماعية التى تناولها خطاب الافتتاح تشكلها النظرية الفردية القائمـــة على أساس احترام تام لحرية الفرد والحرية التجارية التى تقوم على سياسة الباب المفتوح ، ولكن كان ذلك يتجلى من خلال طبيعة التكوين الاجتماعى للحزب والمصالح الطبقية •

تجلى الاتجاه الرجعى أخيرا فى صورة الحزب الجديد هادفا لبعث مبادىء الرجعية من أجـل ضمان الحكم فى ظـل الدستور وقد جاء هذا الحزب ــ اذ ذاك ــ خيـــانة صريحة لوحدة النضـــال الثورى القـــومى واستكمالا لذلك التآمر على الثورة وحقوق الأمة •

حاولت وزارة ثروت وهى تنظم الاتجاه الرجعى السيطرة على الموقف بكل الوسائل بمطاردة العناصر الثورية وحاولت اســتكمال اتجاههــا بالتهيؤ لمواجهة الموقف فى حالة النجاح فى مهمتها الدستورية ولاستمرار العمل فى حالة الفشل فى معاونتها على تشكيل حزب الاحرار الدستوريين ولم يكن نجاحهــا وهى تجسد مبــادىء الرجعيــة فى السيطرة يكمن فى نجاحها فى مطاردة العناصر الثورية بقدر ما كان نجاحها من أجل ذلك مرتبطا باقامة الحزب الجديد ، فبرغم فشلها فى اقامة قواعد الدستور بما يضمن لها السيطرة على الحكم فقد ضمنت بهـــذا الحزب ، عندما انتهى أمرها بالفشل بالاستقالة ، من استمرار العمل من أجل السيطرة ، فى ظل قواعد الدستور وتمكين الرجعية من البلاد •

ولقد فشلت الوزارة فعلا فى صياغة الدستور كما كانت تشاء فلم تجد ازاءه محيصا من الاستقالة ، ولم يكن فشلها فى النواحى الدستورية راجعا فقط لمعاداة العناصر المتطرفة ، ولكن كان ناجما من معاداة الملك وحرص على حقوقه ودعم لها ثم الانجليز فى حرصهم على صيانة حقوقهم الاستعمارية فى السودان •

ولقد وجدت الوزارة مقاومة شديدة من فؤاد والانجليز حول وضع الدستور كما كانت تريده الخطة ــ التى كان ثروت ينوى هو وأصدقاؤه تنفيذها كسبيل يدنيهم من غاياتهم ليتمكنوا من ثم تنفيذ الاتفاق بينهم وبين الانجليز ، وهى ضمان الحكم على القواعد الدستورية فى غيبة سعد •

وضمانا لذلك قررت فى مواد الدستور المبادىء التى تلائم أهدافها

وأنصارها ، وتنحصر في المسئولية الوزارية وأن الامة مصدر السلطات مع عدم حصر السلطة في يد الملك وقد شايعهم في هذه المبادىء الديمقراطية المؤمنون بها من أعضاء اللجنة المخلصين ، وبهذا استعاد الدستور من حيطة الوزارة واخلاص المخلصين ٠

ولكن الوزارة لم تجد طريقها ، مع ذلك ، سهلا فقد عارضها الملك ومضى معها في صراع حول الاستئثار بالسلطة ، فلم يعجب « فؤاد » ماسلكته فيما يتعلق بالمسئولية الوزارية ، ومبدأ مصدر السلطات فقد أراد أن تسأل الوزارة أمامه ٠

وكما اختلف الملك فؤاد حول الدستور مع الوزارة اختلف الانجليز معها ايضا حول الصيغة التي وردت في مشروع الدستور عن السودان ٠

ولقد تناول الخلاف بين ثروت والانجليز نصين من نصوص مشروع الدستور احدهما خاص بلقب الملك أن يكون « ملك مصر والسودان » والآخر ما جاء في المشروع من ان الدستور تجرى أحكامه في مصر أما السودان فتقرر فيه نظام الحكم بقانون خاص (١) ٠

وقد رأى الانجليز أن النصين معارضين مع احتفاظهم في « تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ » بمسألة السودان فطلبوا حذف النصين وأن يكون لقب الملك : ملك مصر ، فلما استشار ثروت أصدقاءه من الأحرار الدستوريين رأوا ابقاء النص كما هو في المشروع عندئذ كان الموقف قد تحرج أكثر امام الوزارة على نحو كان لابد من أن ينتهي بالاستقالة٠

ولقد كان مركز الوزارة حرجا بنشاط الجمعية السرية « لأولاد عنايت » في هجومها على الانجليز بمختلف الوان القتل السياسى كما وجهت كفاحا مسلحا ضد حزب الاحرار الدستوريين هز أركانه وهو لايزال يعد في بداية الطريق ، ففي اجتماع الحزب مساء ١٧ من نوفمبر عام ١٩٢٢ وبعد تاليفه بتسعة عشر يوما ، تقدم رجال هذه المنظمة السرية الى ذلك الاجتماع وقتلوا رئيس الحزب باعتباره خائنا لوحدة النضال القومى ولكنهم أخطئوا فقتلوا « حسين عبد الرازق » « واسماعيل زهدى » ، وفر الجناة دون أن يعرف منهم أحد(٢) ٠

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، ص ١٥٥ ٠
(٢) عبد الفتاح عنايت : قصة حياتى ، ص ٩٩ ٠

وكما روع العدوان جوانب الحزب ، هز أركان الوزارة ،وكان متوقعا أن يؤجل الخلاف القائم بينها وبين القصر والانجليز ، ولكن سرعان ماشعر ثروت بالحرج وعدم القدرة على الاستمرار والعمل فقد استقال في ٣٠ من نوفمبر عام ١٩٢٢ فقبلت ، وتالفت وزارة جديدة برياسة « محمد توفيق نسيم » .

اخفقت وزارة ثروت في مهمتها ، ولكنها ابقت فى خط النضال الرجعى قاعدة تعززه وتحمل عن ثروت رسالة وزارته وهو حزب الاحرار الدستوريين ، وتكافح من أجل استكمال استصدار الدستور الجديد بما يحقق ضمان الحكم والسيطرة على مقاليد الامور في مصر .

كانت مهمة وزارة نسيم تصحيح مشروع الدستور الذى وضعته لجنة الدستور بشكل يخرجه عن الأساس الذى بنى عليه : من أن الأمة مصدر السلطات ولقد جاءت الوزارة الجديدة نضالا داخل الاتجاه الرجعى العام فى أسوأ صوره وذلك للعمل على ضمان الحكم فى جانب الملك ، على أساس قواعد الدستور على نحو يضمن تحقيق أهدافها ، لذلك كان متوقعا أن تختلف الرجعية فيما بينها على متن السيطرة على السلطة وحمايتها مستقبلا ، فنجد العناصر الثورية خصما جديدا ينزل الميدان وان لم تكن الوزارة الجديدة لديها فى مستوى كراهيتها للاحرار الدستوريين .

كان غرض الوزارة الجديدة تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك فى المسئولية الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ .

ولم تكن وزارة توفيق نسيم صديقة للاحرار الدستوريين وان كانت فى اتجاههم الرجعى الهادف الى تصفية الثورة فى ظل « تصريح ٢٨ فبراير » .

ولم يكن « توفيق نسيم » خصما لسعد ولا للوفد ، وان كان على خلاف فى النظرة للفكرة القومية لذلك كان متوقعا أن يكون موضع التهليل لأنه كان قد ابتعد عن المسرح السياسى ابان الخلاف بين عدلى وسعد أواخر ابريل عام ١٩٢١ فانه لم يكن لينجو من معارضة الوفد .

اختلف الأحرار الدستوريون مع الوفديين فى استقبال الوزارة الجديدة فاستقبلها الاحرار الدستوريون بأمل أن تعمل على الاسراع فى اصدار الدستور متضمنا نصوص لجنة الدستور فى مشروعها وفى مقدمتها نصوص السودان .

أما الوفد فقد استقبلها بالتهليل لا حبا فى « توفيق نسيم » ، ولكن كرها فى « عبد الخالق ثروت » ·

وكانت وسيلة هـذه الوزارة التقرب من الوفد واسترضاءه بما يجعله يسكت عن التعديل المنشود فلا يعترض الانجليز على موافقة الملك والشعب على المبادىء الدستورية التى يستقر عليها القرار (١) ·

بيد أن هذا التقرب الى الوفد وأكثر منه لم ينفع وزارة نسيم طويلا فى تهيئة الجو لتعديل الدستور ، فلم تكن هذه الوزارة قد قامت بشىء فيما يتعلق بالمنفيين والمعتقلين ، وقد أذاع الوفد المصرى بيانا فى العشرين من يناير جاء فيه :

« مازالت الوزارة ملتزمة خطة الصمت ومازالت مصالح البلاد معطلة فلا مثلت مصر فى مؤتمر لوزان تمثيلا شعبيا ، ولا ألغيت الاحكام العرفية ، ولا احترمت حق الأمة فى أن يكون الدستور وليد ارادتها ولا عاد الوكلاء المنفيون ولا أطلق سراح الزعماء المسجونين » (٢) ·

واذا كان رأى الأكثرية انها لم تؤخذ أساليب التراخى التى اتبعتها وزارة نسيم فقد أخذ الحزب الجديد يعمل على مقاومتها فى صحافته ويمضى فى اشاعة القضاء على القيم القومية فى دعوته للاخذ بالاسلوب السياسى الدستورى لحل القضية ، لا بالثورة ، ولكن بالاعتماد على الدبلوماسية وغير ذلك مما نادى به حزب الاحرار الدستوريين ، ولم يكن يمثل الا دعوة للتفريط فى حقوق مصر ·

ظلت وزارة نسيم حوالى شهرين دون أن تعمل شيئا فى المطالب القومية ثم استقالت فى ٥ فبراير ١٩٢٣ لعدم قدرتها على الاستمرار فى البقاء بالحكم ، وقد سلمت فى آخر عهدها بمطالب البريطانية فى شأن الدستور ·

واتجهت الأنظار الى عدلى لاستئناف الخطة التى اقتضبت على ثروت من قبل فخوطب بصفة شبه رسمية ، فى تأليف الوزارة الجديدة ورأى ذلك ، قبل أن يؤلفها ، أن يوجه الاحرار الدستوريون دعوة الى الاتحاد

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤٢١ ·
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ ·

لتتفق الامة على الدستور وعلى الحياة النيـابية فنشرت جريدة السياسة دعوة الحزب وكررت نشرها ٠

كانت الدعوة فى شكلها تبدو وكأنها منطقية ولكنها اذ تصدر عن حزب الأحرار الدستوريين كانت دعـوة فى اطار مبـادئه تنحو لتصفية الثورة وقبول الامر الواقع والقضاء من ثم على الوفد ٠

ولقد واجه عدلى مصاعب جمة فى أعقاب استقالة « توفيق نسيم » حالت دون تشكيله الوزارة منها أحداث الاغتيالات التى اكفهر بها الجو السياسى أمامه ، ومعاداة الوفد والقصر وكذلك الجرائد السياسية أمام ترشيحه وصعوبة اصلاح الخطأ الذى وقعت فيه الوزارة النسيمية فاعتذر عن عدم تأليف الوزارة ٠

ولقد تألفت الوزارة الجديدة فى ١٥ من مارس عام ١٩٢٣ برياسة «يحيى ابراهيم» (١) بغير برنامج كوزارة نسيم أيضا ، وقد بدأ « يحيى ابراهيم » عمله بأن أدلى بحديث قال فيه : انه معتمد فى أداء مهمته على مساعدة المندوب السامى ، وقد سلـكت الوزارة مسلك الوزارة السابقة فشاءت اعادة النظر فى نصوص المشروع الدستورى ٠

صدور الدستور وطبيعته :

نزلت الوزارة الجـديدة على حكم الانجليز فيما يتعلق بنصوص السـودان ، وقد اضطرت تحت ضغط الاحداث الى اصدار الدستور ، وصدر ذلك فى ١١ من ابريل عام ١٩٢٣ على أن يبدأ تنفيذه يوم أن ينعقد البرلمان ٠

ولقد جاء الدستور الجديد استردادا لحقوق الشعب الاساسية التى كان قد سلبها الاحتلال من قبل فاذا كانت الامة المصرية نفسها قد سبق أن قررت مالها من الحقوق العامة بدستورها الذى أقره مجلس نوابها عام ١٨٨٢ والذى كان أساسه الديمقراطية وارادة الامة وكان الاحتـلال قد قضى على ما اكتسبته البلاد من الحقوق السياسية العـامة فألغى النظام البرلمانى الصحيح الذى كان قائما وأقام مكانه نظام اللورد دوفرين العديم الاختصاص والسلطات فانه من الثابت حقا ان انجلترا كانت هى التى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة ، ص ٩٩ ٠

ألغت الدستور ، وانما هي التي أعادت الدستور فان كان لابد من «اعتبار» الدستور المصرى منحة فهو من جهة الواقع منحة من انجلترا، أما من ناحية القانون فان انجلترا لم تكن تملك حق المنح لأنها لا تملك الحق فى ذلك ، ولم يكن مركزها فى البلاد سوى مركز غاصب غير شرعى لا يعترف القانون له بأى حق ٠

على ان انجلترا اذا كانت قد اضطرت تحت تأثير الظروف الى أن تخضع لارادة الامة ولم تعارض فى اصدار الدستور فانها لم تمنح البلاد شيئا ، ان البلاد هى التى استردت ماكان لها من الحقوق قبل الاحتلال ٠

وعلى ذلك فان اصدار هذا الدستور ليس سوى استرداد لحقوق الشعب الاساسية ، كما قلنا ، ويتضح من هذه النتيجة ان الدستور المصرى لا يدخل تحت أنواع الدساتير المعروفة ، وانما كان نوعا خاصا نظرا لمركز مصر السياسى الشاذ ، وللظروف التى أدت الى اصداره ٠

وقد جاء اصدار الدستور دعوة الى الانصراف الى ما تقتضيه الحياة الجديدة من واجبات ، وبداية تطور جديد فى مجرى النضال القومى ٠

وبدا صدر الدستور ، فى ظاهره انتصارا للرجعية فيما بذلته من مجهود للسيطرة على الحكم فى غيبة سعد ، ولكنه كان فى حقيقته مخيبا لآمالهم لاستكمال خطواتهم لضمان الحكم فى ظل قواعده ٠

كان انصار الرجعية فى غيبة سعد ينطلقون نحو الانفراد بالحكم فى ظل الدستور لاستدراج المتطرفين لقبول الأمر الواقع ، ولكن الموقف فى حقيقته لم يكن بهذه البساطة ، فلم يكن صدور الدستور بالنسبة لهم انتصارا مطلقا بحيث يستطيع تحقيق هذه الآمال ، بل كان انتصارهم باستصداره هو بقدر شل المتطرفين عن العمل بحرية ، فى المجال السياسى ، لذلك كان تحقيق آمال الرجعية مرتبطا فى نجاحه تماما بموقف الوفد من حيث الموافقة أو غير الموافقة على التصريح وما صدر فى ظله من دستور ٠

كان من المتوقع اذن ، اذا ماحاول عدلى النزول الى ساحة الانتخابات وسعد لا يزال وصحبه فى المنفى والسجون والمعتقلات لا يعترفون بالنظام الجديد ، أن يقاومها الشعب بشدة ، فبالرغم من أن ذلك الشعب قد منى بالتصدع على يد تحالف الاستعمار مع الرجعية ، وبدا فى ظاهره ميالا للهدوء ، فلم يكن ذلك يعنى التسليم ، فقد ظل ذلك الشعب فى باطنه مؤمنا بحريته ومحافظا على ولائه لسعد وللوفد ولاء قائما على الثقة والاعجاب والتقدير والحب ثم الطاعة ، ومن ثم قادرا على التعبير عن ولائه

لزعيمه وللوفد بوسائله وفى حدود طاقته ، ومن ثم كان قادرا بوحى من هذه الثقة بزعيمه على مواجهة هذه الانتخابات لو حدثت فى غيبة سعد وصحبه وبقاء رغبتهم فى الاعتراض على النظام الجديد ، وذلك بالمقاطعة ولم يكن عهده فى مواجهة مفاوضات (عدلى ـ كرزون) ببعيد وان كان حاضره ينم عن انحدار نسبى .

بهـذا كانت سيطرة الرجعية على الموقف فى غيبة سعد فى ظـل الدستور مرهونة برضا الوفد عن العهد الجديد ونظامه ودستوره . على ان تراضى الوفد بتراجعــه لا يؤدى بالضرورة الى ســيطرة الرجعية على السلطة والوفد لا يزال مستندا على تأييد قاعدة شعبية عريضة بل كان متوقعا حتى فى ظل التراجع أن تجوز الرجعية فى ذلك فترة انتقال تكون السلطة فى يد الوفد وهو يتولاها على أساس الدستور الجديد .

لذلك كان انتصار الرجعية فيما استهدفه الاتجاه البريطانى بصدور الدستور انتصارا مقيدا بموقف الوفد ، وكان طريقها القــوي لتحقيق النجاح الكبير فى السيطرة وتصفية الثورة هو تراجع الوفد بقبوله الامر الواقع .

ولكن هل كان الوفد على استعداد لقبول الامر الواقع فى ظل النظام الجديد المتطور ؟

لم يكن كل أعضاء الوفد ميالين لمعارضة تصريح ٢٨ فبراير ، فكان « على ماهر » يرى وجوب الافادة بهذا التصريح عن طريق وضع اليد عليه واستمرار المطـــالبة بتحقيق ما لم يتحقق من الآمال القومية حتى تكون المطالبة(١) بها أقوى ، وكان ينظر الى ظروف التصريح نظرته الى المواقع الحربية التى تتخلى عنهـا فرق الجيش المتحـاربة عن مكان فيتحتم على الفريق الآخر احتلال هذا المكان ، ولقد اختلف فى هذا مع بعض أعضاء الوفد فانقسموا قسمين : أربعة يؤيدون رأيه ، وخمسة يعارضونه .

كان ثمة استعداد اذن بين الوفد لقبول الامر الواقع ، وان لم يكن استعدادا مسيطرا ، ولكنه كان فى قدرته التأثير على سائر الاعضاء .

ولقد كان الموقف مرتبطا فى حله بالافراج عن سعد وصحبه ليتسنى له دراسة الموقف .

---

(١) محمود عزمى : الأيام المائة ، ص ٢٢ .

وكان الافراج عن سعد مرهونا بموافقة اللورد اللنبى فهو الذى قد أمر بالقبض عليه وصحبه ، لخطة شاء تنفيذها ٠

ولقد حدث من الاسباب ما مهد السبيل لذلك : وكان على رأسها الاسباب الصحية ، فقد كانت تلك من أقوى الاسباب التى حملت بريطانيا على الافراج عنه بعد أن ساءت صحته فى المنفى ٠

وكان فى النية الافراج عنه عقب ذلك لولا معارضة اللنبى فى هذا الافراج وتوعده بالاستقالة اذا تم الافراج عنه ٠

على أن الاسباب لم تكن هى كل البواعث التى دفعت بريطانيا الى الشروع فى اطلاق سراحه ، بل كان فى مقدمة الاسباب الاخرى اقتناع بريطانيا باخفاق خطة اللنبى فى المقاصد التى كان يرمى اليها باعتقاله(١) ونتيجة ذلك فيما تجلى من سوء العلاقات بين المصريين والانجليز بشكل بلغ من الحرج مبلغا كبيرا كما رأينا من تعاقب أعمال العنف والاعتداءات والاحتجاجات فى مصر التى أريد بها أن تكون مستقلة فى استقرار كما كان هدف التصريح السابق ٠

ولقد تيقنت بريطانيا هذه النتيجة ، فلم تجد فائدة من الغلو والتمادى فى ابعاد سعد وصحبه عن مصر ولا سيما بعد أن اعتراه الكلال وأرسيت قواعد التفاهم وغدا المصريون يتلمسون طلب الافراج عن سعد وصحبه ، اذ ذاك زادت بريطانيا شعورا بأن نجاح كل سياسة فى مصر مستحيل مع بقاء هذه الحال أو بقاء سعد وصحبه فى المنفى ٠

والواقع ان بقاء سعد وصحبه فى المنفى لم يكن يفيد السياسة البريطانية ، بل كان متوقعا أن يعرضها للخطر كما قلنا ، فلو حاولت تنفيذ الدستور فى غيبته لتعرضت البلاد للثورة والاضطرابات والانقسامات فى ظله ، فضلا على انه من المسائل الظاهرة أن الدستور قد أصبح بعد صدوره وسيلة فعالة لاستدراج الوفد لقبول الامر الواقع ٠

ومضت الأحداث بما مهد للافراج عن سعد ، وما كاد قانون التضمينات يصدر ليصحح الاجراءات التى وقعت فى ظل الاحكام العرفية ويعفى السلطة القائمة بها من كل مسئولية عنها ، حتى ألغيت الأحكام العرفية اذ لم يعد لها من وجود والانتخابات على الابواب ٠

فاذا كانت الاحكام العرفية قد ألغيت فقد زالت الظروف التى نفى

---

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤٢٨ ٠

فيها سعد وبمقتضاها ، وقد اقترب موعد الانتخابات ، فقد أصبح لا مفر من الافراج عنه وعودته وصحبه لمصر ٠

وأفرج عن سعد ليواجه الموقف الذى كانت الرجعية قد قطعت منه شوطا كبيرا فى محاولات دعم سيطرتها عليه وتتطلع مصر كلها عند عودته نحو موقفه من النظام الجديد فلا تملك غير الانتظار ٠

ثم توالى الافراج عن المعتقلين فى مصر فأفرج أولا عن أعضاء الوفد المعتقلين بقصر النيل ، وفى ١٤ من مايو عن المعتقلين فى فبراير وهم « حمد الباسل » وأصحابه ، وفى آخر مايو عن المنفيين الى سيشل ، ثم نشرت الحكومة المصرية بلاغا فى العشرين من شهر يوليو صرحت فيه بامكان عودة المبعدين ومنهم سعد لانه كان الى ما قبل صدور قانون التضمينات ممنوعا من العودة الى بلاده ٠

وصل سعد مصر فى ١٧ من سبتمبر من جبل طارق وبرغم ان استقباله من الجماهير لم يكن على مستوى ما قوبل به من استقبال ، عند رجوعه من نفيه الاول ، فقد كان ذلك حارا جعل الاحرار الدستوريين يفكرون طويلا فى تأثير ذلك على مجرى الانتخابات ، يقول هيكل فى مذكراته(١) :

« لقد كنا الى ذلك اليوم نقدر أننا سنحصل على أغلبية فى مجلس النواب الاول ، ولكن استقبال سعد كان حارا الى حد جعلنا نفكر فى الامر من جديد ، ولم يقف تفكيرنا عند هذا الاستقبال فقد أحيط سعد بعد عودته بهالة من جلال امتزج فيها الخيال بالواقع ٠٠٠ » ٠

ولقد أذعنت للوفد جماعات غير قليلة من المنفيين الذين التمسوا الانضمام الى الوفد والانضواء الى لواء سعد ، ولكن كان موقف الاحرار كما هو ، برغم ما كان ينتابهم من شك ممزوج باليقين من كسب المعركة الانتخابية فقد مضوا فى مواجهة المعركة وهم مؤمنون بأنهم على حق !

ودخلت جميع الاحزاب الانتخابات ، ولم يقف الوفد أمام أمر واقع مرير ٠ كان نجاح الرجعية فى أهدافها متوقفا بلا جدال على تراجع الوفد وقبوله الامر الواقع ، ولما كان قبول الوفد لذلك يمثل مسئولية خطيرة أمام التاريخ كان الامر لذلك يستلزم التدبر ٠ وبالرغم من أن الموقف

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١٦٩ ٠

منذ عودة سعد وبداية الانتخابات كان وقتا قصيرا فقد كان ذلك كافيا لان يسمح للوفد بأن يقطع فيه برأيه وقراره التاريخى فى قبـول الامر الواقع أو رفضه ، فقد كانت معالم الطريق واضحة على نحو يسهل على الوفد اتخاذ قراره حول الموقف ٠

ولقد كان ذلك الواقع ملهمـا بحق لقرار الوفد ، فمن ذلك الواقع المرير استلهم سعد قراره متأثرا به فى اطار مبادئه بماحدد موقف الوفد فشاء منه واقعا مثاليا ٠

كان الواقع يتمثل أمام الوفد وزعيمه تدهورا فى الثورة وانحدارا فى عزم الأمة على الصمود ٠

كانت قوة الثورة بعد أن أخفق الوفد فى جعل القضية دوليةتكمن فى سلامة الوحدة القومية وهى ـ وان كان سـعد قد شهد من قبل بداية تصدعها ـ قد غدت من بعد ماثلة أمامه تعانى تصدعا عميقـا ممتدا الى صميم الشعب ٠ ومع التصدع كانت روح الشعب الثورية تنحدر ٠

كان الشعب قد تحمل الكثير من التضحيات ، والعنف والشدة وقد سلبت منه امكانيات كبيرة وكان ذلك فى ظل الارهاب من شأنه أن يفقده الكثير من القدرة على الاستجابة للكثير من المعانى الثورية ٠

فاذا كان للشعب أن يمضى بالثورة بعد هـذا حتى تتحقق أهدافه فلم يكن متوقعا أن يمضى بالقوة والحرارة الأوليين وهو فى الداخل يعانى ثمرة التصدع والنقص فى الامكانيات ويواجه دسائس ومسئوليات وعناصر ذلك التصدع ونشـاطها الرجعى بما يشتت القـدرات عن مضيها لتجد هدفها ، فاذا كان متوقعا أن يكون فى هذا أقرب ميلا الى الواقعية منه الى الثورة فقد كانت تلك الأدوات والعناصر الجديدة التى نجمت عن التصدع بنشاطها تشكل عبئا يزيده ارهاقا بما يدفعه الى مزيد من الواقعية ٠

كان هذا الروح يمثل حقيقة تاريخية عند عودة سعد من منفاه فهل كان له أن يستمر فىدعوة الشعب للمضى بالثورة ليحمل المزيد من التبعات بما لا يتلاءم مع ما أصبح للشعب من قدرات ؟

لقد كان الشعب لا يزال على ولائه لزعيم الوفد ولاء كان ينطوى على الثقة الكبرى والاعجاب والتقدير والطاعة ، فـكان متوقعا اذا دعاه سعد للمضى بالثورة الا يملك غير الطاعة فيمضى ٠٠ ولكنه فى الحقيقة لايكاد يمضى طويلا حتى يتحسس جوانب نفسه فلا يجد الا كلالا وارهاقا لايمكنه من المضى

بغير الطرق السلمية بل والسلبية فى كثير من الاحيان حتى يجد سبيلا يجدد نشاطه •

فهل كان ذلك الواقع ليغيب عن ذهن سعد وصحبه ؟

كان الواقع عند « سعد زغلول » له وزنه واعتبـاره دائما ولكن على طريقته فى محاولته لأن يجعل منه واقعا مثاليا ومن ثم لم يكن ليدعو ذلك الشعب المرهق ليتابع الثورة لأنه كان يعرف مصير دعوته ، فاذا كان قد استبعد قيامه بالثورة فى البداية لأنه كان فى تطوره شـعبا مرهقا مكبلا بالاغلال فمضى بالطرق السلمية يجعل من الواقع السياسى واقعا مثاليا فهل كان ذلك الواقع المرير الذى انتهى اليـــه فى قدرته أن يوفر له من الحوافز ما يجعله يمضى بالثورة مطمئنا ، وهو العزوف عن مطالبة الشعب بما لا يستطيع ؟

لقد سبق لسعد أن اعترف قبل نفيه الثانى بأهمية عدم قدرة الامة على متابعة المعارضة والمقاومة وذلك عند حديثه عن مشروع معـــــاهدة (سعد ــ ملنر) واذا كان غير راغب ــ اذ ذاك برغم هذا ــ فى أن يدفع مصر لكى ترضى بما نهضت لمقاومته ، وقامت للمطالبة ببطلانه ، فقد كانت هذه لا تزال قوية لان ثورتها كانت(١) قوية ولم تتصـدع والمطالب القومية لم يتحقق منها شىء !

فهل كان من الطبيعى ، وقدرة الأمة قد زادت انحدارا بعـد عودته والشعب قد حقق قدرا من مطالبه أن يستمر فى دعوته الشعب لمتـــابعة الثورة ؟

فلم يكن الحاضر بعد أن تردى وتصدع قادرا على أن يجذبه ليرضى بقبول ما انتهى اليـه التطور التـاريخى من واقع سـياسى حقق فى ظل « تصريح ٢٨ فبراير » طرفا من المزايا القومية فيما نهضت الامة للمطالبة به فاذا كان ذلك أبعـد من أن يحقق للأمة استقلالها التـام فلا بأس أمام الضرورة من المضى فى الجهاد فى استجابة لمثاليته ولـكن من حيث انتهى الموقف •

لم يكن لدى سعد من قوة تستحث استعداده للنضال الثورى غير الوحدة القومية ، وقد تصدعت وحل محلها واقع مرير ، ولم يكن المضى بالثورة مع هذا الا أقرب الى لغة الثوريين المغامرين ، ولم يكن سعد من هؤلاء يسبح فى مثالية مطلقة بل كان مثاليا واقعيا •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ١٦٨ •

في ذلك الجو الذى كانت الواقعية تشيع بين أرجائه كان للواقع وزنه أمام سعد الزعيم الشيخ الذى كان يعانى آلام النفى والمرض ، وذلك فى ترجيح ميل سعد نحو الواقع بما يدفعه لان يتردد كثيرا فى المضى بمطالبة الشعب ــ بوصفه القائد ــ للمضى فى ثورته .

ولكن الى أين ؟ كان لا بد من مزيد من الاقناع ، كانت جميع الاحزاب قد عقدت النية ألا تتجاوب مع الواقع بدخولها الانتخابات حتى ماكان منها متكرا للمفاوضات والمعاهدات مع بريطانيا ! فعلام العزلة السياسية للوفد اذن فى مقاطعة الانتخابات ؟ وما المانع من أن ينزل ساحة الانتخابات فى ظل الدستور لخدمة بلاده دون اعتراف بالتصريح المذكور ؟

كان دخول الانتخابات يمنع عن الوفد استمرار مؤامرات الخصوم ويمنع عن الامة غلو هذه الرجعية فى بسط سلطانها وتوطيد أركانها . كان الواقع ، بقدر ما كان قويا فى جذب الوفد لتقريره كان يفرض على الوفد واجبا قوميا يدعوه لان يؤديه .

ولقد شاء سعد أن يكون منطقيا فى النهاية ومع تجاوبه مع ذلك الواقع ومع طبيعته ، فيما كان يستلزمه من واجب ، فقد شاءه واقعا مثاليا .

قرر سعد النزول الى ساحة الانتخابات بكبرياء قومى ، لكن كان لديه ما يرجح قبوله الامر الواقع ، فمنذ أن قبل النزول الى الانتخابات بدأت معه مقدمات التراجع والاعتراف بالواقع ، فكان متوقعا له أن تستدرجه نتيجة الانتخابات ، والواقع المرير ماثل أمامه الى الولوج الى قلب هذا الميدان لمعالجة المسألة المصرية من خلال علاجه لذلك الواقع .

واذا كان نجاح الرجعية معقودا على تراجع الوفد فانها لم تستطع برغم ذلك ، الاستيلاء على السلطة وان كان ذلك بداية لنجاحها فلم يكن ضمانه ليتم الا بمؤامرة جديدة .

ودارت معركة الانتخابات بنزاهة فى ظل وزارة « يحيى ابراهيم » وبينما كان مرشحو الحزب الوطنى يعتمدون على مبادئهم وماضيهم كان مرشحو الاحرار الدستوريين يعتمدون على عصبياتهم العائلية ومقدرتهم الشخصية وبرغم هذا ، فلم يكن هذا وذاك مجديا لكسب المعركة أمام سيطرة الوفد بشخصية زعيمه على الامة ، فقد جدد الشعب ثقته بالوفد ففاز الوفد على سائر الاحزاب الاخرى ، ونال ٩٠٪ من مقاعد النواب .

ولم ينجـــح من مرشحى الحزب الوطنى الا « عبد اللطيف المـــكباتى وعبد الرحمن الرافعي وعبد الحميد سعيد وعبد العزيز الصوفانى » ٠

ومع ما بذله الاحرار الدستوريون فى هذه الانتخـابات من القيام بمجهود فى كسب الاغلبية فقد تبددت أحلامهم وضاعت آمالهم وكان وقع ذلك كالصاعقة على نفوسهم حتى فكر بعضهم فى الاستقالة فلم ينجح منهم سوى «محمد محمود ومحمود عبد الرازق وعبد الله أبو حسن وعبد الجليل أبو سمرة وعبد الحليم وتوفيق اسماعيل » وفاز مرشح الوفد على رئيس الوزراء نفسه فى دائرته الانتخابية !

واذ كان فوز الوفد أمرا متوقعا فقـد كان له دلالته الكبرى وتأثيره على تطور الاحداث ٠

ولم يكن تأييد الوفد من الشعب فى حقيقته الجوهرية يشير الى شيء أكثر من اشارته أولا وقبل كل اعتبار الى اعلان تجديده الثقة به وولائه له أما الى أى السبيل فقد كان ذلك أمرا متروكا بنـاء على ذلك لاختيار سعد على رأس الوفد ٠

ولكن كما كان تأييد الشعب للوفد فضلا على دلالته على ثقته به ، يفصح عن معالم الطريق الجديد فقد كان الامر يقتضى فى النظام الدستورى أن يتولى رئاسة الوزارة زعيم الاغلبية التى اختارها الشعب فى انتخابات حرة احتراما لارادة الامة ٠

أما سـعد فقد بدا مترددا بين القبـول والرفض طيلة الايام التى انقضت من بدء المعركة الانتخابية الى ظهور نتائجها ، وعرضت على بساط البحث والمناظرة مسألة قبول سعد الوزارة هل يقبلها أو يدعها لآخر من أنصاره أو من غير حزبه ممن يثق به ويقتصر هو على زعامة الحركة القومية؟

تردد سعد بين الرأيين ولم يعلن أيهما يرجحه ويعمل به ؟

وكان بعض خاصته يرى أن يتنحى عن رياسة الوزارة لانه ــ ولو أن الاوضاع الدستورية تجعل الحكم حقا للأغلبية ــ هناك حالة تعترض هذه الاوضاع وهى وجود الاحتلال الاجنبى فى مصر ، وليس من مصلحة البلاد وهى تجاهد لاجلاء ذلك الاحتلال أن يتولى الحكم زعماء الحركة القومية متمسكين بمبادئهم ، حتى يجلو الاحتلال لان توليهم الوزارة يجعلهم ــ وهم فى الحكم ــ يصطدمون بالاحتلال ويميلون غالبا الى مجاراته بما يضعف روح النضال الثورى ٠

ومنذ أن ظهرت نتيجة الانتخابات الاولى عـام ١٩٢٤ صرح « عمر طوسون » في حديث له بالاهرام (١) : « بأن الحيطة نقضى على سعد بأن يبتعد عن تأليف الوزارة » ولما سئل عن السبب قال : « ان السبب الذى يجعلنى أرى هذا الرأى هو «تصريح ٢٨ فبراير» فان هذا التصريح لم ترض عنه الامة وهو غير معترف به الى الآن ، فتأليف وزارة من نواب الامة ونحن لا نزال فى ظل هذا التصريح يفسر بكونه اعترافا به فهم يودون تسجيله على البلاد بقبول نوابها اياه !

واذ يعترى سعدا تردد بين القبول والتنحي ـ والواقع ماثل أمامه ـ كان لديه ما يرجح قبوله الوزارة ، فلم تعد المسألة بعد عودته من المنفى تحتمل ، كما أسلفنا ، الا أن يكون سـعد منطقيا مع الواقع المرير ، فلا يطالب الشعب بما لم يعد فى استطاعته • اما وقد برز الاتجاه الرجعى ليسيطر على البلاد فقد أصبح أمام واجب قومى لحماية ما بقى من الواقع من الغـلو فى التردى ، فاذا كان قبول سـعد دخول الانتخابات مقدمة للاعتراف بالامر الواقع ، وكانت نتيجة الانتخابات دعوة من الامة للوفد ليتولى السلطة فقد استدرجته هذه النتيجة ليتخذ قراره بقبول الوزارة ، وسرعان ما ظهرت مقدمات ذلك القبول •

فما ان ظهرت نتيجة الانتخابات حتى افصح عن اتجاهه عندما سأله مراسل رويتر عن رأيه فيما يمكن أن يترتب من النتائج على الانتخابات فعبر سـعد عن رأيه قائلا : اذا اتبعت القواعد الدسـتورية وجب على « يحيى ابراهيم باشا » أن يستقيل أمام حقيقتين كبيرتين ، الاولى : ان البلاد أوضحت رأيها بشكل لا يمكن الشك فيه • والاخرى : ان رئيس الوزارة قد هزم في الانتخابات(٢) ، ثم أعرب عن استعداده اذا ما كلفه الملك تشكيل الوزارة ـ لان يعمل عندئذ ما يراه واجبا عليه للامة •

استقال « يحيى ابراهيم » وقبل اعلان قبول استقالته بيومين أقام النواب لسعد مأدبة فى فندق شبرد خطب فيها مظلوم وسعد ، ودعوا فى رجاء أن يقبل سعد الوزارة اذا عرضت عليه ، فنهض سعد وتلا خطابه ولم يشر فيه الى قبولها ولا رفضها ولكن عرض برنامجا وزاريا •

وقبل أن يدعى لتأليف الوزارة تحدث الى النواب الوفديين حديثا بين فيه خطة الوفد فى البرلمان وبين معها ما استقر عليه رأيه من قبول تشكيل الوزارة •

---

(١) الاهرام في ٢٥ من يناير ١٩٢٤ •

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤٣٢ •

وكان قراره فى ذلك خطيرا ، فقد كان بداية تراجع الوفد عن مواقع الثورة بما يمكن الرجعية من السيطرة وتصفية الثورة لتبدو على أثرها محور ما فى شكل النضال السياسى .

ولقد دعى سعد بعد قبول استقالة وزارة « يحيى ابراهيم » الى قصر الملك وبعد نصف ساعة خرج ليتلو على الجماهير المحتشدة فى بيت الامة النص بتكليفه تأليف الوزارة واسناد الرياسة له .

وقد تألفت أول حكومة شعبية برياسة سعد فى ٢٨ من يناير ١٩٢٤ من لفيف قصد من تمثيلهم فى الوزارة محاولة ضم الصفوف .

ومنذ أن نزل سعد الى الواقع ليسمو به كان قد قبل ضمنا ـ وان لم يعترف بالنظام الجديد ـ منهج الرجعية فى معالجة المسألة المصرية الآخذ اذ ذاك ـ بالتجزئة والمصالحة سبيلا لحلها وبهذا عد موقفه تراجعا عن مواقع الثورة ان أفقد الرجعية السلطة فإنها كانت من ثم قد نجحت بذلك التراجع فى ضمان العمل بمبادئها ومن تصفية الثورة فى النهاية ، وقد جاءت وزارة الشعب برياسة الوفد فى حقيقتها من حيث المبدأ أول صدى لمستلزمات النظام الجديد واحدى ثمراته .

كان الاتجاه الرجعى اذن قد تهيأ للسيطرة فعلا منذ أن تراجع الوفد عن مواقع النضال الثورى لحماية الواقع المرير من التردى .

أما عن فقدان هذه الرجعية الحكم والسلطة فى ظل سيطرة الوفد على ذلك فقد كان ذلك عرضا زائلا لا يلبث أن يزول أمام تكتل الرجعية مستندة الى الاستعمار ولا سيما بعد أن أخذت مبادىء الرجعية فى التنفيذ لتصبح أسلوبا للحياة السياسية الجديدة .

وفى ظل النظام الجديد ، أصبح الدستور أداة تجميع للقوى السياسية الهادفة للسيطرة على السلطة وهى الوفد فى أقوى صورها ثم حزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والسراى والانجليز .

ونظرا لأن الوفد كان يتمتع بتأييد الامة قد استأثر بالسلطة من دون هذه القوى بشكل مسيطر ، فقد كان متوقعا أن يكون رد الفعل أن توجه هذه القوى نشاطها السياسى فى تحالف لعزل الوفد وهو خصم قديم ، عن الحياة السياسية بجميع الوسائل .

تبددت آمال حزب الاحرار الدستوريين على صخرة الانتخابات

لضمان الحكم فى ظل القواعد الدستورية كما كانوا يحلمون ، وكـــان هؤلاء يحسون بوقع هذه الصدمة احساسا مريرا ٠

وكان خطر الحزب الوطنى قلة من النـواب ليس فى مقدورها أن تحدث شيئا فى موازين السياسة ٠

والسراى التى أملت أن تسـيطر فى ظل القواعد الدستورية على مقاليد الحكم والسياسة قد صدمت أمام غلبة الوفد فى الانتخـابات ، والانجليز الذين أرادوا اقصاء المتطرفين عن الحياة السياسية يواجهون من جديد بهؤلاء يسيطرون على مقاليد الحكم بما يحد من حريتهم التقليدية فى دعم سيادتهم على حساب حقوق الشعب ، ولم يكن هؤلاء قانعين بالرضا بقبولهم العمل فى ظل مبادىء « تصريح ٢٨ فبراير » ٠

ولم يكن استئثار الوفد دون هذه القوى السياسية كلها هـــو وحده مثار تأليب هذه القوى وتكتلها فى مواجهته ، ولكن ذلك الاستئثار كان يمارسه حزب الاكثرية ، والجماهير فى صلابة لدعم عهد الاستقلال بين الطامعين فيه ٠

كان متوقعا بلا جدال اذن أن تتحرك هذه القوى لمواجهـــة الوفد صراعا حول السلطة ، فتجد الوزارة الجديدة من المتاعب ما يحرجهـا وهى تخرج بالبلاد من عهد الى عهد جديد ، ولكن كيف السـبيل لهذه القـوى والوفد يرتكز على تأييد الامة تأييدا ساحقـا ؟ كان السـبيل خطة تسـتلهم فكرتها من الماضى لاتجد سبيلها للتنفيـذ على يد أقوى القوى السياسية اذ ذاك ٠٠ الانجليز ! ولكن كيف السبيل ؟ ٠

كان سعد من قبل يقف على رأس المتطرفين فى عهد النضال الثورى قويا فى مواجهة هذه القـوى ليفسد على الرجعية نشاطها الطبقى الذى كان يتخذ صورة النضال السياسى من أجل السلطة ، وليفسد على الحزب الوطنى تآمره على الوفد وعلى ارادة الأمة ، وعلى السراى اتجاهاتهـا المضادة للقومية وارادة الامة ٠ والانجليز محاولاتهم تصحيح مركزهم فى وادى النيل على حساب حرية الشعب بمختلف الوسائل ، ولم تتمكن هذه القوى وبالأخص الرجعية من تحقيق مآربها على حساب الوفد والأمة الا فى ظل التآمر البريطانى على الثورة ٠

كان التآمر على الوزارة اذن هو الطريق الوحيد القادر على أن ينزع منها السلطة ومن ثم من الوفد ، لينقلها الى الرجعية وعين الانجليز تلحظهم بالرعاية ، فاذا كان التآمر الأول قد نجح فى القضاء على الوفد زعيما

للنضال الثورى فلم لاتعاد التجربة وما ايسرها للقضاء على الوفد زعيما للنضال السياسى بما يستكمل أغراض التجربة الأولى ؟

بدأ الصراع بين هذه القوى الطامعة فى الحكم على أساس التطويح بالوزارة بلا مبالاة بالنتائج وبين سعد ذلك الشيخ السبعينى فى ظل وزارة الشعب الاولى ، وبرغم آلام المرض والنفى مضى سعد ليلتقى بهؤلاء الخصوم ٠

أعلن سعد عند توليه الحكم أن ذلك لايعنى اعترافا بأية حالة أو حق طلبه من قبل ، ولكن لم يكف ذلك الاعلان فتمثل أنصاره وتشفى خصومه لما طالبهم بالتريث ٠

وبينما كان هؤلاء غير قانعين بالنتيجة التى انتهت بسيطرة الوفد على السلطة ، ناقمين على استئثار من دونهم بالسلطة كان سعد يعتقد أنه لا سبيل مشروعة يسلكها هؤلاء وغيرهم الا الاذعان لهذه النتيجة التى أجمعت عليها الأمة ، ولكن ذلك لم يمنع خصومه من النيل منه فلما لج هؤلاء فى الخصومة الى حد الاسراف بما أحرج مركز الوزارة واجههم بالشدة ، فتأزمت بين الوزارة والسراى العلاقات ، وكان بين الطرفين أزمة عدم ثقة مستحكمة ٠

فاذا كانت الوزارة قد استأثرت بالسلطة من دون السراى فقد جاءت على خلاف ما كانت تبتغيه فيما كانت تسير عليه فى مفهوم الوزارات السابقة ، فلما حاولت السراى الاحتفاظ بشىء من السلطة استمسك سعد بالرأى السليم من أن الملك لا يباشر سلطة الا بوزارته وانه غير مسئول فاذا ما حدث اختلاف حل بالاحتكام الى الشعب ، فاذا كان ثمة ازمة عدم ثقة كانت تتجلى من قبل بين الطرفين فقد كان هذا كفيلا باذكائها اشتعالا واستحكاما ٠

لم تجتمع الكلمة اذن حول الوزارة وكانت الثقة قد تحطمت بين الوزارة والسراى ، وكان من الطبيعى أن يتهيأ السبيل لبريطانيا أن تعبر عن اتجاهاتها الكامنة للنيل من الوزارة فى شخص « سعد زغلول » ٠

فاذا كان التآمر لدى الرجعية قد غدا أملا تتحقق به اهدافهم من الحكم ، فقد أصبح ذلك مع اتضاح أهداف الوزارة ازاء النفوذ البريطانى خطة لابد من أن تقوم بها بريطانيا للتخلص من وزارة سعد ٠

كانت بريطانيا تأمل بتمكين الرجعية من السلطة فى عهد الاستقلال

التمكن من أهدافها والابقاء على نفوذها ، ولكنها فشلت يوم أن نجحت في التمهيد بفرض قيم الرجعية ، وجاء الوفد فى وزارته بغير ما عهدته بريطانيا فى الوزارات السابقة اتجاها يجعل من الاستقلال حقيقة واقعة بما يضعف معه النفـوذ البريطانى ، فأوقف الموظفين الاجانب خصوصا الانجليز ولما طلب اللنبى تجديد عقد المستشار القضائى البريطانى مثلا رفض سعد ذلك •

ومن الأزمات التى أحاطت بوزارة الشعب الأول برز اللنبى ليجهز عليها •

كانت أزمة الثقة بين اللنبى وسـعد لا تزال محطمة ، وقد لاقى اللنبى على يد سعد فشلا فى جميع خططه التى وضعها من قبل لتثبيت حقوق بلاده فى وادى النيل •

ولم يكن اللنبى يطيق وجود سعد بجانبه ، فهو الذى نصح بنفيه ولم يقبل عودته الا مضطرا •

كان اللنبى فى عهد الاستقلال ، وسعد يحاول أن يجعل ذلك العهد عهد استقلال حقيقى ، يشعر بالكبرياء الجريح ، بما لم يتعوده على يد غيره من الوزراء ، من المساس بنفوذه في مصر ، الا على يد سعد حتى ضاق به، لذلك كان متوقعا أن يأتى التآمر على يد اللنبى ولم يعد الا أن تتاح الفرصة ، ويتوافر العامل الذى يفجر غضبه •

ولم يمض عام على تشكيل وزارة الشعب حتى ووجهت الوزارة بأزمة شديدة أثارها حادث ، وكانت هى القارعة التىفجرت غضب اللنبى وسمح للرجعية بالتنكيل بالوزارة والوفد ، بما لم يجد الوفد مجالا للصمود أمامه ، لانحدار القيم الثورية بما كشـف عن حقيقة ذلك الدافع الذى فرض على سعد من قبل التحول عن الخط الثورى الى النضال السياسى •

وكانت القارعة هى حادث السردار الذى مثل نقطة تحول انتقلت به السلطة الى يد الرجعية •

كان الحادث ، حادث اغتيال سياسى عادى ، فقد اعتدى على سـعد فيه وهو مسافر من محطة القاهرة ، ولكن كان ذريعة لدى الغاصـب الناقم على حكم الشعب عنـدما توافرت لديه النية والقصد فى العدوان فلم يجد سـبيلا غير انتهاز الفرصة للعبث بحقـوق الشعب لاسترداد نفوذه وتمكين الرجعية من جديد من السلطة وفرض نفوذها وسلطانها على حساب الشعب ، وكانما كانت بريطانيا فى انتظار ذلك الحادث •

وقد جاء الحادث ثمرة نشاط جمعية أولاد عنايت السرية الهادف الى مقاومة الاحتلال .

كانت قد نشبت فى السودان ثورة وطنية فاجتمع اعضاء هذه الجمعية فأملت عليهم حوادث السودان بقرار اذ استقر رأيهم : على اعدام وكيل حكومة السودان فى مصر ليكون ذلك ردا علنيا على الفظائع المروعة التى ارتكبتها انجلترا فى السودان(١) .

ولقد نفذ القرار فى الموعد المعين ، الاربعاء ١٩ من نوفمبر عام ١٩٢٤ وقتل السردار وجرح غيره .

ثارت بريطانيا وكانما أصابها مس من الشيطان ، فاخذت تهدد مصر وحكومتها وتحمل حملة شديدة فى صحافتها على سعد ، واتهمته بتهييج الشعور ضد بريطانيا .

ولقد هجمت هذه الكارثة على البلاد فأزعجتها وهزت أرجاءها هزا عنيفا ، وكانت الدسائس كثيرة حول الوزارة ، وأدى ذلك الى تخريب البلاد وتدميرها وقد وجدت العناصر الرجعية فى الحادث سبيلا لبلوغ أهدافها ، وقد وجه اللنبى انذارا عبر فيه عن الغضب والميل الى الانتقام ، مما لم يكن الموقف ليقتضيه .

واستشار اللنبى حكومته فى نص الانذار وأتاه ردها بالارقام السرية(٢) وهو على أهبة الاستعداد للتوجه لدار الرياسة ، فلم يشأ أن ينتظر حتى يفك الارقام خشية أن يستغرق ذلك وقتا ، قد تستقيل خلاله الوزارة فيحرم لذة التشفى من سعد ولم تغير حكومته فى نص قرار التبليغ وبعض المطالب ولكنها قدمت كما وضعها اللنبى .

وكان انذارا مهينا يحمل حكومة سعد مسئولية الجريمة وكانت المطالب : الاعتذار الكافى ومواصلة البحث عن الجناة ، وانزال العقاب الشديد بمرتكبى الجريمة، وحظر المظاهرات الشعبية والسياسية وقمعهما، ودفع تعويض مالى قدره نصف مليون جنيه واصدار الأوامر فى خلال ٢٤ ساعة بارجاع جميع الضباط والوحدات المصرية من الجيش المصرى فى السودان وزيادة مساحة الاراضى التى تزرع فى الجزيرة فى السودان وما الى ذلك !

---

(١) عبد الفتاح عنايت : قصة حياتى ، ص ٩٩ .

(٢) محمد شفيق غربال : المفاوضات المصرية البريطانية ، ص ١٥٦ .

وردت مصر على الانذارين بنفى المسئولية عن حكومة مصر وقبول المطالب الاربعة الاولى ورفض ما عدا ذلك .

ولما كان مفهوما من المراسلات التى تبودلت بين سعد واللنبى أن بريطانيا لاتريد بقاءه بعد ذلك الحادث لمسئولية الوزارة عنه ، فقد قدم سعد استقالته فى ٢٢ من نوفمبر وقبلت استقالته ، وسرعان ما تألفت وزارة جديدة برياسة « احمد زيور » رئيس مجلس الشيوخ ، فسلمت ببقية المطالب البريطانية ، وقد استصدرت وزارة زيور فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ مرسوما بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ثم مرسوما فى ٢٤ من ديسمبر بحل مجلس النواب ، ومن ثم عادت محاولات السيطرة فى ظل هذا الانقلاب مستسلمة لمطالب السراى .

وقامت السراى بتنظيم عناصرها ، وهم ... الاستئثار بالسلطة فى مواجهة الوفد فى ذلك الجو السياسى ... عيب وتركيز السلطة فى يدها وتحل ما بقى من القيم الثورية ، وساد البلاد روح الواقعية ، فرجعت الى عهد حكم الاعيان وكشفت هذه المحنة كلها عن العلة التى كانت قد دفعت سعدا للتراجع مع مواقع الثورة وقبول الامر الواقع وهى انحدار الثورة .

يقول سعد زغلول فى مذكراته بصدد هذا الواقع المرير :

فى يوم السبت ٢٧ من يناير سنة ١٩٢٥ :

« قد اشتد الخناق بى واحاطت بى الشدائد من كل جانب فانصار الوفد ينفضون عنى واحدا فواحدا والوزارة تجاهر بعدائى وتشـــدد الاوامر على رجالها بمطاردتى ومطاردة أوليائى فتمنع اجتماعاتهم وترقب تحركاتهم وسكناتهم .. ونعاكس مصالحهم وتلزمهم الانشــــقاق عنى وتجبر الذين رسخوا تحت لواء الوفد على أن يعلنوا استقلالهم عنى وتحارب من يأبى هذا الانشقاق وهذا الاستقلال بكل الطرق وتهدد كل من يميل الينا من موظفين ومستخدمين بالرفت والطرد أو النقل الى مكان سحيق، وقد ضج الناس بالشكوى وامتلأت الجرائد بالاحتجاجات ، ولكن لاسميع لمن ينادى لأن المشكو منه هو الآمر بأسبابها ومليك البلاد يعلن على رءوس الاشهاد أنه غير راض عنى وان الناس يجب عليهم أن يختاروا بين الانحياز له او الانحياز عنه .

وفى أغلب الاوقات تحيط عساكر البوليس بيتى وتمنع الناس من الدخول فيه ولا أدرى بماذا تنتهى هذه الحالة ؟ وماذا يكون الحال ؟

ولقد دلت هذه المحنة التى نجتازها على ضعف شديد فى الاخلاق وهبوط عظيم فى روح الناس ولا سيما فى الطبقة العالية وما تحتها .. فانها كشفت عن دناءة ، وخسة ، ولؤم ! ، دلت على أن هذه الطبقة لاتعرف للتضحية معنى ، ولا « تتنازل » عن شيء من راحتها فى سبيل الوطن وتميل الى المظاهر الكاذبة وتعبد القوة... مع أن المتعلمين منهم أفسدهم أخلاقا واحطهم صفات ... يجرمون ثم يتباهون بالاجرام ... ويأتون المنكر ثم يفاخرون باتيانه كأن بينهم وبين الفضل عداء .

كل يوم تردنى خطابات تحمل استقالات من أعضاء مجلس الشيوخ، والنواب ، من الهيئة الوفدية فى البرلمان .. (١) » .

وبهذا انتهت الثـورة ، وبدأ عهد النضال السياسي الدسـتورى ، لتشهد مصر فى ظله عهداً جديدا .

---

(١) مذكرات سعد زغلول : الاخبار في ٢٣/٨/١٩٦٣ .

خاتمة :

مضى التطور التاريخى عموما تطورا ديالكتيكيا قام على اساس من ثنائية الصراع حول السيادة ، كان طرفاه الاتجاه القومى ممتدا بجذوره فى أعماق تاريخنا الحديث ، والاتجاه البريطانى المتسلط منذ عام ١٨٨٢، ولما عز التفاهم بين الطرفين انقلب أسلوب التطور الطبيعى الى حركة قومية سريعة عنيفة لا تستهدف التأليف بين الطرفين بقدر ما كانت تستـــتهدف تغليب الاتجاه القومى على الاستعمارى ولكنهـــا انتهت بين الطرف الثانى والطرف الاول بتأليف جديد بين طرفى هذه الثنائية ، لا هو بالسـيادة المصرية الكاملة ولا بالسيادة البريطانية الكاملة ، وانما بتأليف جمع بين أهدافهما •

فالثورة بهذا ان هى الا حركة تطور قومى سريع ومرحلة جمعت بحكم التطور بين النجاح والفشل • ولقد قامت هذه الثورة ، أساسا ، من أجل هدف سياسى بحت ، وهو القضاء على الحماية ولتحقيق الاستقلال التام •

وبالرغم من ان بريطانيا كانت حريصة على تثبيت الحماية فقد كان أول نجاح للثورة من الناحية السياسية هو كما تجلى من مراحلها القضاء على الحماية اذ اعترفت بريطانيا ، كما سبق أن أوضحنا فى فبراير عام ١٩٢١ ان الحماية علاقة غير مرضية ، كما أعلنت الغاءها فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ثم اعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة •

على ان الثورة لم تنجح فى ذلك تماما ، فأخفقت فى جلاء الاحتلال نهائيا ، وقد جاءت ثمار النضال الثورى ، كما بينا ، التأليف بين أهداف الثنائية ، لا هو بالاستقلال الذى كانت تنشده مصر ولا كان احتلالا كما كانت تريده بريطانيا بل حالة تمثل تحررا حمل بين طياته عناصر السيطرة

الأجنبية ، ولكن كانت مصر في ظله دولة مستقلة ذات مكانة دولية لا يحد من استقلالها غير احتلال أجنبي ليست له الصفة الشرعية من دولة مشمولة بالحماية .

وأخفقت الثورة فيما سوى ذلك ، فلم يكن الاستقلال هو ما كان ينشده المصريون ، وجاء الدستور فخول مزيدا من السلطات للسلطة التنفيذية بما يمكنها من الاعتداء على سيادة الامة كما انها اهملت الناحية الاقتصادية وان جاء ذلك ثمرة التركيز حول العمل السياسى .

على ان ذلك ليس معناه محاولة للحكم على الثورة لأن الحكم التاريخي المنصف على الثورة من حيث نجاحها أو فشلها لا يقوم على وضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة أخرى ، لنرى أيهما أكثر وزنا ، ليكون ذلك أكثرها نجاحا ، فتلك مقاييس الكم وهى لا تصلح أساسا للتقييم الا فى مجال العلوم المادية . وللتاريخ ، كسائر فروع المعرفة الانسانية والاجتماعية طريقته الخاصة فى التقدير والتقييم ، فالحكم فى التاريخ لا يقوم على وزن الاحداث كلها على حدة ، بل على أساس الوزن العام والتقدير العام .

ونظرا لأن الثورة بوصفها حدثا تاريخيا ثمرة تطور من ثنائية وجب ألا توازن بتقييم نجاحها الا على أساس التقدير العام .

فالبرغم مما انتهت اليه الثورة من نتائج متواضعة ، كانت ذات وزن كبير من الناحية العامة وكانت كجزء من الكل التاريخي على جانب كبير من الاهمية .

فاذا كانت كحدث تاريخي استطاعت أن تمثل مرحلة متقدمة فى مجرى التطور القومى فانها بهذا تكون من خلال الحكم العام قد نجحت كثورة ، ومن ثم تكون قد نجحت كجزء من الكل التاريخي ، لانها مثلت قاعدة لمرحلة تطور عالية فى مجرى التطور القومى .

جاءت مرحلة جديدة لتطور الروح القومى بما انطوت عليه من معان ومبادىء جديدة ومن ثم قاعدة لبعث قومى جديد .

ففى ظلها أسفر الروح القومى فى البلاد بعد اضطرابها زمنا طويلا ترتبط بالسيادة العثمانية تارة ، وترضى بالاحتلال البريطانى تارة أخرى على مصالحة للعصمة من عودة السيادة التركية فاصبحت السيادتان بمنزلة

واحدة عند طلاب الأستقلال ودعاة الحرية فغنمت مصر من ذلك ما لا يحصر فوائده بفوائد النتائج المحسوسة ٠

لم تعد مصر تتخذ منسيادة الآخرين عليها زعامة مرموقة ، وأصبحت تتطلع الى المستقبل في أمل وترتفع الى مرتبة الاحرار المستقلين ، فأفادت بهذا فى عالم الروح أضعاف ما أفادته من عالم الأوضاع السياسية والمراسيم الدولية ، فقد أصبحت البلاد لأبناء البلاد ان كان ينقصها شيء فقد كان ذلك الروح القومى فى انطلاقه الجديد قادرا على استكمال ما غلبت الثورة على أمرها من أجله فلم تحققه بالتآمر وذلك على مر الايام ٠

وجاءت الثورة بزاد فكرى واجتماعى جديد للشعب كان مصدر ثقة والهام كما كان هاديا للشعب للصعود الى مرحلة أعلى ٠

ولقد كانت الثورة صفحة بيضاء تتصف بأسمى أنواع التضحية والفداء وتوحى بالعمل الصالح ، خليقا بأبطالها وشهدائها أن يكونوا مصدر الهام لجيل أعظم تطلعا وأملا ٠

شحذت عزيمة الشعب وغرست فيه معانى الثقة وأمدته بالأمل والرجاء فى المستقبل ، ومن ثم ازدادوا تطلعا الى مراتب الانتاج في العمل قدما الى الامام ٠

ومن نبعة هذه الروح التى غرستها الثورة أخذ الوعى الاجتماعى يتجلى مبكرا ، بين القوى الشعبية الصاعدة التى قام على اكتافها العمل الثورى ، فنشطت الحركة العمالية وسرت روح التعاون بين العمال ، وتعددت نقاباتهم ، واتخذت شكلا اجتماعيا انسانيا ، فانتشرت الجمعيات عام ١٩٢٠ فى العواصم والمدن والقرى ، لتخوض بعد ذلك فى مجال التجدد والانتشار ٠

ومن نبعة هذه الروح التى غرستها الثورة فى النفوس قامت الدعوة لمتابعة البعث الاقتصادى الذى بدا قبل الثورة ، فما ان ظهر بدعوة طلعت حرب الى تأسيس بنك مصر فى أغسطس سنة ١٩١٩ ، حتى ناصره الشباب تطلعا نحو الاستقلال الاقتصادى فنجحت الدعوة وتأسس البنك ٠

وكان حريا بعدأن اشتعلت جذوة التجدد الاقتصادى أن يمضى ليسهم فى تجدد المجتمع اقتصاديا واجتماعيا ويستكمل بناءه السياسى فيما بعد ٠

ومع هذه الروح التى بثتها الثورة تمكن الشعب بنتائجها السياسية

من السيطرة على مقادير بلاده فى ظل الحكم الدستورى ، ووجدت روح الثقة والتجدد والتطلع مجالا للانتاج وكشفت الثورة للشعب رؤية الطريق وهو ينهض فى أعقاب الثورة مستقلا بشئونه ، ثم نواحى الضعف والقوة فيه كما عرف الخصوم والأصدقاء واتضح من تجربة الثورة ما كانت مصر فى حاجة اليه ، وما يجب أن يتوفر لديها لكسب الجولة الاخيرة من أجل التحرر الكامل ، من الجيش القـــوى والنهضة الاقتصادية والقضاء على الرجعية ، والقضاء على الاحتلال البريطانى •

وفى ظل الحكم الدستورى تمكن الشعب من أن أقوى أدوات النضال القومى وهو الدستور وهو يمضى فى أداء شـــئونه دفاعا عن الاستقلال وسلطة الامة •

فبالرغم من أن مصر لم تنعم بحـــكم مستقر فى تحقيــق أمانيها من فبراير عام ١٩٢٤ ــ ١٩٥١ فقد كان هذا الحكم قاعدة عملت بطريق مباشر على تجدد المجتمع بعناصر جديدة طليعية وبطريق غير مباشر ، أداة غذت هذا الجيل بمعان جديدة ، ومكنته من ثم ، من طريق النضال الثورى، ومهدت الطريق لميلاد ثورى جديد •

مصادر البحث

١ ــ مذكرات :

أحمد لطفى السيد	قصة حياتى ، العدد ١٣١ من كتاب الهلال
أسماعيل صدقى	مذكراتى ــ القاهرة دار الهلال ١٩٥٠
سعد زغلول	مذكرات منشورة فى جريدة الاخبار ١٩٦٣
عبد الرحمن الرافعى	مذكراتى ــ القاهرة دار الهلال ١٩٥٢
عبد الفتاح عنايت	قصة حياتى
عمر طوسون	مذكرة بما صدر منا منذ فجر الحركة الوطنية ١٩١٨ ــ ١٩٢٨ الاسكندرية ١٩٤٢
محمد حسين هيكل (دكتور)	مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الاول ١٩١٢
محمود عزمى (دكتور)	الأيام المائة ــ القاهرة مطبعة النهضة
محمود أبو الفتح	مع الوفد المصرى ــ القاهرة ١٩٢٠
محمود أبو الفتح	المسألة المصرية والوفد ــ القاهرة ١٩٢١
يوسف نحاس (دكتور)	ذكريات سعد ، وعلى ماهر ورفاقه فى ثورة . سنة ١٩١٩ ــ ١٩٥٢

٢ ــ دراسات

(ا) تراجم :

عباس محمود العقاد	سعد زغلول ــ ١٩٣٦
عبد العزيز رفاعى (دكتور)	أحمد شفيق المؤرخ ١٩٦٥

ب ــ دراسات تاريخية :

أحمد شفيق	حوليات مصر السياسية ، الحولية الأولى

أحمد شفيق — مذكراتي فى نصف قرن
ـ ج ٢ القسم الاول والثانى ، طبعة أولى ·
أحمد شفيق — أعمالى بعد مذكراتي ـ ١٩٣٨ ·
عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ ـ ج ١ ـ ١٩٤٦ ·
عبد الرحمن الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية
محمد أنيس (دكتور) — دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩
ج ١ مكتبة الانجلو المصرية
محمد شفيق غربال — تاريخ المفاوضـــات المصرية البريطانية ـ
القاهرة مكتبة النهضة ١٩٥٢

٣ ـ صحف :

الوقائع المصرية عام ١٩١٤
المقطم ، الأهرام ١٩١٩ ـ ١٩٢٣
الأخبار ـ اغسطس عام ١٩٦٣ ـ سبتمبر ١٩٦٣

مراجع أجنبية

Chirol : (Valentine) : The Egyptian problem, london 1920.

Cromer : (Earl of) : modern Egypt, London 1911.

Lloyd : (Lord) Egypt since Cromer V. 1 mac. & con. London 1934.

Lloyd : (Lord) Egypt since Cromer V. 2 London 1934.

Sabry : La revolution Egyptienne, Paris 1921.

Wavel (viscount) : allenby in Egypt, London.

فهرس

الصفحة

الموضوع



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

